

رفع محمود العثماني

صفحات من

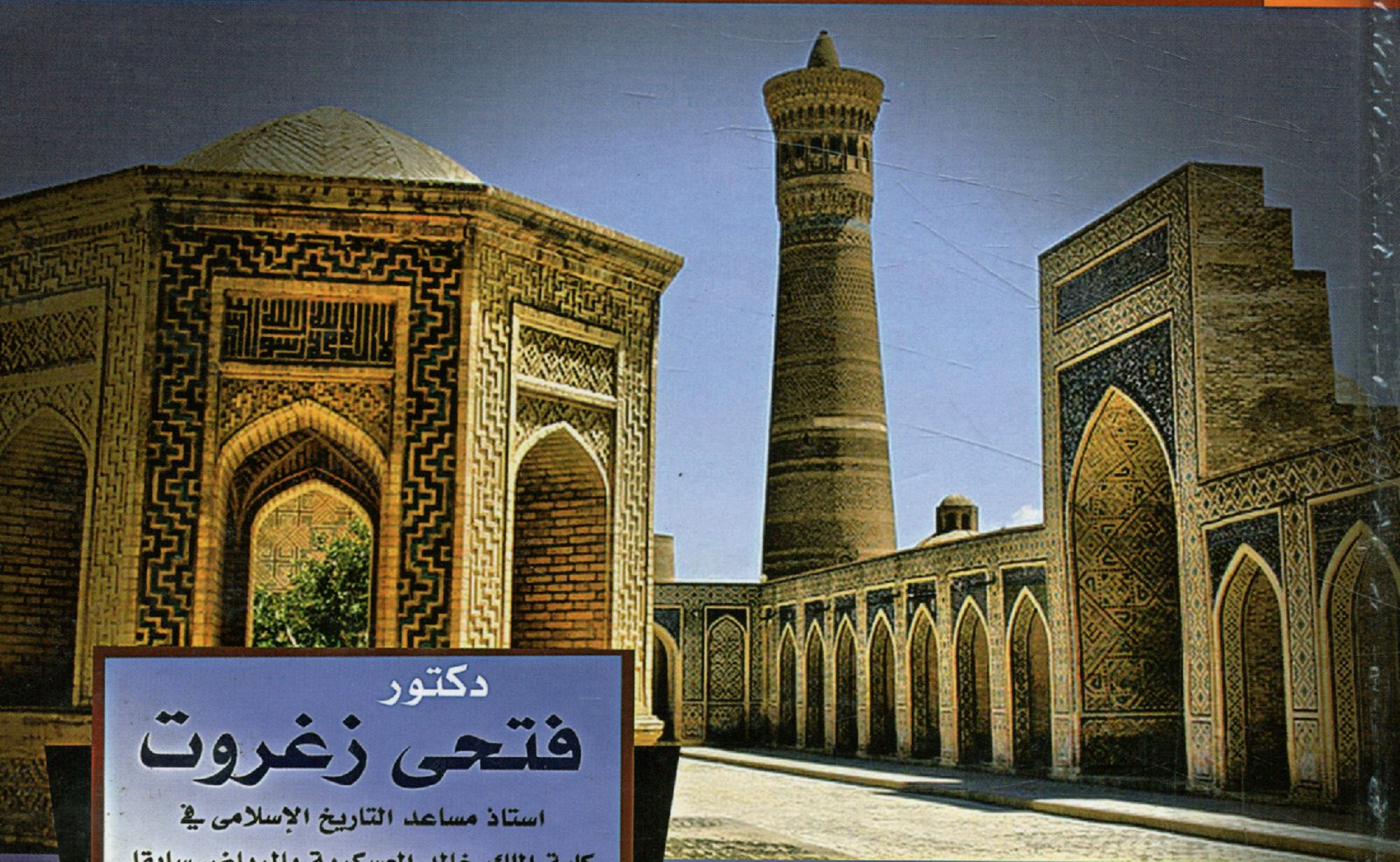
جهاد الأمة المسلمة ضد الصليبيين

العثمانيون

ومحاولات إنقاذ مسلمي الأندلس

٨٩٨ هـ - ١١١٥ هـ = ١٤٩٢ م - ١٦٠٩ م

منذ سقوط غرناطة حتى الخروج النهائي



دكتور

فتحي زغروت

استاذ مساعد التاريخ الإسلامى في

كلية الملك خالد العسكرية بالرياض سابقا

صفحات من جهاد الأمة المسلمة ضد الصليبيين

العثمانيون ومحاولات انتقاذ مسلمة الأندلس

[١٦٠٩م - ١٤٩٢م] = [١١١٥هـ - ٨٩٨هـ]

منذ سقوط غرناطة حتى الطرد النهائي

تأليف

دكتور / فتحى زغروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى للنشر

١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

رقم الإيداع: ١٧٩٦٤/٢٠١٠

الترقيم الدولي: I.S.B.N.

978-977-456-320-9



الأندلس الجديدة

النشر والتوزيع

18 شارع مطر - احمد علمي - شبرا مصر - تليفون: 0101068135
newandalus@hotmail.com



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾

[المؤمنون: ٥٢]

على سبيل التقديم

يشكل موضوع هذه الدراسة قضية من أهم القضايا التي مر بها تاريخ أمتنا العربية المسلمة، فقد اتسعت حقبة الزمنية والتي تقدر زهاء قرنين من الزمان تقريباً يبدأ منذ سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م وحتى الطرد النهائي لمسلمي الأندلس المنتصرين سنة ١٦٠٩م. وتعود خطورة تلك الحقبة أنها شهدت صراعاً صليبيّاً محتدماً نشأت بواده الأولى على أرض الأندلس بعد سقوط غرناطة ومحاولة الغرب تصفية الوجود الإسلامي واقتلاع جذوره لا من الأندلس فقط وإنما من الدول المواجهة لبر الأندلس وهي دول الشمال الإفريقي التي تدين للإسلام وتساند إخوانهم المسلمين في الأندلس.

والعجيب آنذاك أن تتعصب الكنيسة المسيحية ويدعو البابا الى حروب صليبية ضد الإسلام والمسلمين فنشطت الجيوش والأساطيل البرتغالية والإسبانية تباشروا نشاطها الوحشي بالاعتداء على المسلمين في الأندلس وخارجها، فأقيمت في الأندلس محاكم التفتيش لتنصير مسلمي الأندلس قسراً، وهم الذين أطلق عليهم آنذاك أكثر من مسمى فقد أطلق عليهم بعض المؤرخين (الأندلسيين المواركة) ويقصد بهم العرب الذين بقوا في قشتالة وغرناطة بعد صدور مرسوم التنصير سنة ١٥٠٢م، وكلمة «المواركة» تعريب لكلمة (moriscos) القشتالية التي تعني «النصارى الجدد» أو «النصارى الصغار»، وسبب اختيارهم لكلمة «المواركة» هو محاولة التفريق بينهم وبين الأندلسيين الذين سكنوا شبه الجزيرة الأندلسية قبل سقوطها طوال عدة قرون. واستخدم بعض المؤرخين وصف «المتنصرين» على الأندلسيين الغرناطين ولكن هذا الوصف لا يتماشى مع واقع الأمور كما سنبين بعد. وأطلق البعض الآخر عليهم «المورسيكيين» ولكن هذا الوصف أيضاً يعطى الانطباع بأن الحديث يتناول شعباً لا يمت إلى العرب بصلة، كما أطلق عليهم الإسبان (المدجنين) احتقاراً لشأنهم فهم في نظرهم كالطيور الداجنة.

واعتباراً من منتصف القرن الخامس عشر، كانت التطورات المحلية والدولية تتفاعل لتحديد مستقبل مملكة غرناطة، آخر معاقل المسلمين بالأندلس، فقد أدى تمكن السلطان العثماني محمد الفاتح من احتلال القسطنطينية الى دفع البابوية للبحث عن وسيلة للانتقام من المسلمين فراحت تحت قشالة على تجديد الحرب ضد غرناطة وإقامة محاكمة متعسفة لمن يثبت عليه تمسكه بالإسلام أو بتقاليده أو عباداته، وكان يعذب عذاباً شديداً إلى درجة القتل، ومصادرة الأموال، والممتلكات وإزهاق أرواح الأبرياء ظلماً.

والحقيقة أن سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م سبب جرحاً عميقاً في قلب أمتنا المسلمة صعب اندماله أو شفاؤه على مر العصور، بل اشتد ألمه واستمر نزفه لما أصاب أمتنا من ويلات الحروب الصليبية التي باتت تترى، وقد شملت الجبهة الإسلامية كلها المشرق الإسلامي ومغربه، في وقت ضعفت فيه أمتنا المسلمة، وتمزقت كلمتها، وتبعثر صفها ووهنت كلمتها أمام هؤلاء المعتدين من الغرب رافعي الصليب.

وقد قصدت بهذه الدراسة أن تكون دراسة تاريخية شاملة لأمتنا المسلمة، وأن تمتد امتداداً واسعاً يشمل جناحيها معاً في حقبة زمنية واحدة تفرض علينا أن نقرأ تاريخها قراءة واعية ذات منهجية مميزة، ولن يكون ذلك إلا بربط تاريخ المشرق الإسلامي بمغربه فكل منهما يؤثر في الآخر باعتبار أمتنا المسلمة أمة واحدة هي خير أمة أخرجت إلى الناس، أما إذا درس تاريخ العثمانيين دراسة إقليمية منفصلة ضيقة، فإن ذلك لن يعطينا الصورة الصادقة لكفاح أمتنا السياسي والعسكري والاقتصادي والحضاري، ولكنه سيكون تاريخاً مشوهاً وناقصاً.

وقد قيض الله لتلك الأمة الضعيفة الممزقة التي يتربص لها أعداؤها -أقول: قد قيض الله لها إخوة مسلمين رفعوا لواء الجهاد في سبيل الله للدفاع عن ديار الإسلام وهم (الأتراك العثمانيون)، ولا غرو في ذلك فقد كانوا القوى الكبرى في المشرق الإسلامي آنذاك والتي حملت لواء الإسلام نيابة عن الخلافة العباسية التي خمدت أنفاسها بعد الغزو المغولي وسقوط بغداد، فإن جيوش العثمانيين

وأساطيلهم قد حملت لواء الخلافة وانسابت في البر والبحر لتتشر الإسلام في دول البلقان وشرق أوربا؛ وامتدت جيوشها الى أوربا الغربية ثم توج ذلك بفتح القسطنطينية على يد سلطانها المؤمن محمد الفاتح.

وقد رأى الحكام العثمانيون لكي تكتمل قوتهم ويتفرغوا لأعمال الجهاد في سبيل الله أن تتوحد جهود العرب المسلمين مع جهودهم في جبهة واحدة، وهذا يفسره الفتح العثماني لمصر والشام على يد السلطان سليم الأول والذي تنازل فيه آخر الخلفاء العباسيين بالخلافة لسلاطين بني عثمان على اعتبار أنها القوة الكبرى للمسلمين آنذاك، وبهذه الوحدة الإسلامية اطمأن العثمانيون على أمن جنوب البلاد العربية الإسلامية وعلى حماية الحرمين الشريفين من أن تمتد إليهما يد البغي والشر لنش قبر الرسول ﷺ وحمل جسمانه الشريف الى أوربا، ومن هذا المنطلق ظهرت وحدة العالم الإسلامي بشموليتها (العراق، الجزيرة العربية، سوريا، فلسطين، مصر، طرابلس الغرب، الجزائر، المغرب، تونس، كل تلك الدول في جبهة واحدة مع شبه جزيرة البلقان، الأناضول، معظم أوربا الشرقية).

وبهذه الجبهة القوية واجه العثمانيون الهجمة البرتغالية والإسبانية التي كانت تحديق بالوطن العربي، وخاصة إبان الكشوفات الجغرافية التي قامت بها هاتان الدولتان والتي بارك البابا حركتهما الاستعمارية، من هنا أدرك العثمانيون ذلك الخطر مبكراً فقاموا بصدده وعملوا على مطاردة البرتغال والإسبان، والحركات الصليبية في البحر الأحمر والأبيض، ولم تكتف بذلك بل من الإنصاف والعدل أن نقول إنها ظلت تنازل أوربا الصليبية وتجاهدها في سبيل الله زهاء ستمائة عام منذ القرن السابع الهجري وحتى أواخر القرن السادس عشر، فقد كانت تلك الدولة الإسلامية العظيمة بحق سداً منيعاً في وجه الأطماع الأوربية التي جاءت من بلادها في حركة همجية رافعة لواء الصليب طامعة في ثروات العالم الإسلامي وفي خيراته ومقدراته.

- إن تلك القوة العثمانية الإسلامية الناشئة آنذاك، قد عول عليها المسلمون كثيراً، وبنوا عليها الآمال في أن تعود للأمة المسلمة مكانتها وهيبتها، كما كانت عليها إبان دولة

الإسلام الأولى الممتدة (الأموية والعباسية)، وقد استشعر المسلمون بالأمن والطمأنينة في ربوع تلك الدولة وتحت لوائها الذي يخفق دائماً بالقوة ونصرة الحق والجهاد في سبيل الله فانتظم أبناء العروبة بجانب إخوانهم في جيوش العثمانيين ليشكلوا قوة واحدة مسلمة تصون الإسلام وتحمي أهله وحرماته، وبذلك نستطيع القول بأن دولة العثمانيين دولة مسلمة مجاهدة، وليست دولة استعمارية، كما يشاع حولها.

ولما كان سلاطين بنى عثمان مجاهدين في سبيل الله، وموكل إليهم حماية الأمة المسلمة آنذاك فلا عجب، أن تتجه إليهم وفود أهل الأندلس من المسلمين المتعرضين للتنصير القسري ومحاكم التفتيش وقد استبد بهم الإسبان وحاولوا تشريدهم وطردهم، أقول اتجهت الوفود لطلب النجدة والإنقاذ ومد يد العون من العثمانيين إخوانهم في الإسلام وخاصة أنهم القوة المسلمة الوحيدة في المشرق الإسلامي آنذاك. فهل مد العثمانيون لهم يد العون؟ وماذا كان مستوى ذلك العون على الصعيد السياسي والصعيد العسكري؟

إن هذا التساؤل يشكل القضية الرئيسية لموضوع البحث، والذي سوف يتبعه القارئ المسلم ليقف بنفسه على الصواب، وعلى حقيقة تلك القضية الملحة والشائكة، والتي أثارت جدلاً كبيراً ونقاشاً حاداً بين المؤرخين والكتاب من المسلمين ومن غيرهم، وكان مبعث هذا الجدل ذلك الصراع العسكري، الذي امتد ليشمل البر وسواحل البحر الأبيض المتوسط، شرقه ووسطه وغربه، حيث شهدت تلك المنطقة صراعاً بحرياً شاركت فيها أساطيل العثمانيين، وأساطيل الصليبيين المتعصبين من الغرب الأوربي، كما ساهمت الأنشطة السياسية في عقد معاهدات بين القوى المتصارعة أثرت في مصير أهلها تأثيراً بالغاً. والذي أود أن أشير إليه هنا والمتعلق مباشرة بموضوع البحث:

- لقد كانت شكوى المؤرخين في تناولهم لتلك القضية وهي قضية إنقاذ العثمانيين لمسلمي الأندلس أن الوثائق والمصادر والمراجع التاريخية شحيحة في هذا الجانب، وعلى ما يبدو فإن الأمر خلاف ذلك فقد وقع تعميم على مصادر ووثائق تلك الدولة في عصرنا الحديث لأسباب سنذكرها بعد، ولكن تجلت قدرة الله في

أن يخرج الكثير من تلك الوثائق من مخازن الأتراك وأرشفاتهم الوثائقية، وقد نهض بعض الباحثين في إظهار تلك الوثائق متكبدًا العناء والتعب حتى وفقه الله إلى جمع تلك الوثائق ونشرها في كتابه العظيم، هذا الباحث هو الدكتور عبد الجليل التميمي في كتابه القيم (الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين) وهو من منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية الموريسكية والتوثيق والمعلومات بزغوان سنة ١٩٨٩م جزاه الله خيرًا عما قدمه من جهد في هذا المجال.

- الحقيقة الأخرى التي ينبغي أن يدركها كل قارئ للتاريخ الإسلامي وبخاصة القراء المسلمون، أن تاريخ الدولة العثمانية قد تعرض للتشويه والتزوير والتجاهل والتجهيل من المستشرقين المؤرخين، وبخاصة اليهود منهم والمتعصبون من مؤرخي الغرب، ومما يؤسف له أن أقوالهم وأكاذيبهم، قد انطلت على الكثيرين من أبناء أمتنا المسلمة، وبخاصة الدارسين على أيدي هؤلاء المستشرقين ليس هذا فحسب، بل دست أقوالهم في مناهج مدارسنا وجامعاتنا وصارت تدرس لأبنائنا وتتردد على ألسنة الكثيرين من المعلمين والأساتذة القائمين على منهجية التاريخ وتدرسه إلى وقتنا هذا، وهم الذين يعتبرون الفتح العثماني لبلاد العرب استعمارًا تركيًا، وهذا أمر مزعج وغير سوى سواء في ثقافتنا المعاصرة أو في تنشئة الناشئة المسلمة، وذلك للأسباب التالية:

أ- التعتيم على الصورة المشرقة والصفحات النيرة للدولة العثمانية، قد خلق فجوة عميقة بين شبابنا، وبين تاريخهم المشرق الوضاء، الذي كان فيه دولة العثمانيين تنشر الإسلام للإنسانية في كل مكان حلت فيه جيوشها وأساطيلها، إذ كانت هي دولة الخلافة الإسلامية آنذاك وفي يدها قيادة البشرية جمعاء، فهم خلفاء بني العباس والموكل إليهم حماية الدين وأهله كما جاء في بعض الروايات.

ب- وبعد التعتيم، يأتي دور التشكيك في تاريخ تلك الدولة، وفي تصرفاتها مع الشعوب. والهدف من ذلك واضح، وهو ليس تشكيكًا في دور سلاطين العثمانيين الجهادي بقدر ما هو تشكيك في دين الله عقيدة وشريعة ومنهجًا،

إنه الدين الذي ارتضاه الأتراك ودافعوا عنه بكل ما يمتلكون من غالٍ ونفيس وافتقدوا من أجله زهرة شبابهم.

ج- إنهم أرادوا من وراء ذلك التهوين من قدر الدور الذي قام به الأتراك العثمانيون في هداية البشرية بعد دور بني العباس وإحكام قبضتهم على الشعوب، وتوجيهها وجهة الخير التي يريدها الإسلام، فالخانقون عليهم يهدفون من وراء ذلك التهوين كره شبابنا لهؤلاء السلاطين وفقد الثقة بهم من ناحية، وصرف الناس عن الاقتداء والاهتداء بالدور الإسلامي الذي تقوم به الخلافة الإسلامية التركية من ناحية أخرى، بهدف أن يظل العالم كله في جاهليته المظلمة وتكتنف شعوبه الفوضى من كل ناحية، فالدول الكبرى تلتهم الصغرى وتستحوذ على مقدراتها، وهذا ما نلمسه اليوم في تصرف القوة الوحيدة ذات القطب الواحد والتي تلعب بالعالم كله، وتشيع الفوضى في كل مكان، وتنشر الإرهاب وتوزعه كما تريد، وفق أهدافها ومراميها التي لا نهاية لها. كل هذا يتم في غياب القوى الإسلامية (والخلافة الإسلامية) التي أرداها المشرع المسلم من أجل إقامة العدل ونشر الطمأنينة والسلام في ربوع الأرض.

د- كما يهدف هؤلاء المشككون من وراء تشكيكهم في تاريخ العثمانيين تغييب شبابنا المسلم عن التصدى والمواجهة لمن ارتكب خطيئة إسقاط الخلافة الإسلامية العثمانية عام ١٩٢٤م، تلك الخطيئة التي شاركت فيها جماعات اليهود من الاتحاد والترقي، ودهاة الاستعمار الغربي وبخاصة إنجلترا التي عقدت صفقة بيع الخلافة مع مصطفى كمال أتاتورك، أقول: إن تغييب شبابنا عن الصورة الحقيقية لهؤلاء الأعداء، قد يتيح لهم فرصة إشعال المؤامرات السياسية والاقتصادية والعسكرية، والتي أخطرها جميعاً تلك المؤامرات الفكرية التي تمت حياكتها على أيدي أصحاب فكرة العلمانية والتي حلت محل الإسلام في تركيا المسلمة إبان القرن الماضي ثم انسابت منها وتسملت بجراثيمها الخبيثة إلى مصر قلب العالم العربي، ومن ثم إلى باقي دوله، وشاء الله أن يعود إلى تركيا

اليوم وجهها الإسلامى المشرق مرة أخرى، وأخذت العلمانية فى الذبول والانزواء وسوف يلقى بها فى مزابل التاريخ .

هـ- والأمر المهم الذى لا شك فيه، أن سلاطين بنى عثمان، كان أغلبهم سلاطين مجاهدين فى سبيل الله، يقودون الجيوش الجرارة والأساطيل البحرية لنشر دين الله فى الأرض ونصرة الشعوب المظلومة المهذور حقها ، ومن أروع الصور المشرقة فى تاريخ تلك الدولة هو السلطان محمد الفاتح الذى فتح القسطنطينية عام ٨٥٧هـ - ١٤٥٣م وغير اسمها إلى مدينة (إسلامبول)، وهذا الفتح العظيم هو الذى بشر به نبي الإسلام محمد ﷺ والذى شرف به السلطان العثمانى محمد الفاتح ومن السلاطين الأقوياء أيضاً الذين ساهموا فى نشر دين الله السلطان مراد الأول الذى فتح أدرنة عام ٧٦٣، والسلطان بايزيد الذى هيمن على شمال بلغاريا والأفلاك واقترب من المجر، كما قام السلطان مراد الثانى بفتح (سالونيك وألبانيا).

و- إن البحث فى هذه القضية يجب أن يقترن بتطور الخلفية الدينية للصراع الإشبانى العثمانى وذلك بعدم فصل الدين عن السياسة، حيث كان الدين هو الخلفية الموجهة والملونة لكل الفاعليات والتحركات السياسية، إذ كانت الكنيسة تتدخل فى كل شىء، وغنى عن البيان أن المناخ السياسى لإسبانيا عند سقوط غرناطة، كان يترجم عن مدى عمق التأثير الدينى، الذى سيطر على المسئولين آنذاك والذى حفز الإشبانيين على محاربة الإسلام.

- وكما أن الغرب اعتمد على خلفية دينية فى صراعاتهم العسكرى فإن العثمانيين هم أيضاً اعتمدوا على خلفية دينية وجهت تحركاتهم، وحددت مواقفهم التى ظهرت أثناء تدخلهم فى الولايات المغربية خلال القرن السادس عشر، إذ كان التوسع العثمانى ذات طابع دينى ولكنه ليس متعصباً، والمتبع لعملية التوسع العثمانى بالأناضول منذ فتح القسطنطينية ثم توغلهم فى القارة الأوربية فسوف يتضح له تلك الظاهرة الدينية فى تحركاتهم فى بادئ الأمر، وبمرور الوقت وبسبب التنظيمات الإدارية والسياسية لدى العثمانيين فقد اكتسب الطابع الدينى طابعاً آخر،

وهو طابع متعدد الجوانب ظهر فيه اللون السياسى والجباى والتجارى والتأمينى، حيث كانت مصر والشام بمثابة جبهة لتأمين الضفة الجنوبية للدولة العثمانية السنية والمضادة للديانة الشيعية آنذاك، وكان من نتائج تعدد تلك الألوان التى اكتسبها الطابع الدينى اعتبار الإسلام دين حياة من ناحية، وبسبب العداء البرتغالى الإسبانى للبلاد العربية، والذى وصل إلى درجاته القصوى، جعله يأخذ شكل الصراع العسكرى من جهة أخرى.

إن نظرة العثمانيين للموقع الإستراتيجى للشام ومصر على أنها منطقة ذات أهمية حساسة للبلاد العثمانية جعلهم يتخذوا منها خطوطاً عسكرية لصدد خطر التحالف الأوروبى المسيحى الذى بات يهدد البلاد الإسلامية، ولا ننسى فى هذا الصدد أن الزحف العثمانى على أوربا هو الذى جعل أوربا تتراجع فى حروبها الصليبية عن البلاد العربية حيناً من الزمان.

ز- كما أنه ينبغى عند دراسة هذه القضية -محاولات إنقاذ العثمانيين للأندلس- أن نربطها بالتاريخ العثمانى وخاصة بعدما عثر على وثائق مهمة فى الأرشيف العثمانى، وقد ألفت الضوء على الحملات الإسبانية المسيحية على السواحل والموانى المغربية الإسلامية، كما أظهرت تلك الوثائق العنف الذى بدا من ملاحقة الإسبان لكل تحرك عثمانى فى البحر الأبيض المتوسط، وعلى الجبهات الأوربية. وكذلك المعارك الكبرى، والمعاهدات السياسية التى عقدها السلاطين العثمانيون مع ملك فرنسا ودوق البندقية وغيرهما من ملوك أوربا بهدف تأمين مسلمى الأندلس فى بلادهم ورفع التنصير القسرى عنهم، ومعاملتهم أيضاً معاملة طيبة كالمعاملات الطيبة التى يتلقاها النصارى فى المشرق الإسلامى.

- إن روح التسامح التى أبدتها العثمانيون مع الشعوب الأوربية المغلوبة كانت روحاً مثالية حيث تركوا لهم حرية العبادة والمعتقد، ولم يجبروا أحداً على ترك دينه وأقاموا لهم المحاكم المختصة بأمورهم وبشريعتهم التى يدينون بها. وهذا خلافاً لما فعله الإسبان فى مسلمى الأندلس، حيث أجبروهم على التنصير وأقاموا لهم محاكم التفتيش التى أدت بهم إلى حد القتل ومصادرة الممتلكات، وخلافاً

أيضاً لما تفعله اليهود اليوم في فلسطين، وكذلك ما فعله النصارى في البوسنة والهرسك والجبل الأسود.

وقد يتبادر إلى الذهن هذا التساؤل الذي يثار بين الحين والحين هل يعقل أن دولة العثمانيين تلك الدولة الفتية القوية الحامية لديار الإسلام والمسلمين، تمتنع عن مد يد العون عن إخوانهم المسلمين المعذبين في الأندلس والذين يلاقون حملات الاضطهاد والتنكيل من أجل التنصير الإجباري؟ هل يستقيم هذا المعنى مع ما ذكرناه عن عظمة دولة العثمانيين؟ بطبيعة الحال لا يستقيم هذا المعنى فإن تلك الدولة العثمانية المسلمة الراعية لشئون المسلمين قد وضعت في إستراتيجيتها العسكرية خدمة القضية الموريسكية (مسلمى الأندلس المتنصرين)، وذلك بعد فتح جزيرة قبرص مباشرة، فسوف يباشرون عملية الإنقاذ بطريقة آمنة قد تمكنهم من إعادة فتح الأندلس مرة أخرى - كما كانوا يظنون - رغم مزاحمة الأساطيل الإسبانية والبرتغالية لهم. وهل يعقل مرة أخرى أن يستغيث هؤلاء المتنصرون بالخلفاء العثمانيين الأقوياء أمثال محمد الفاتح وبايزيد وغيرهما ثم يتقاعسون عن نصره إخوانهم المسلمين في الأندلس؟ وهل إنقاذهم وإعادة فتح تلك الجزيرة أصعب من فتح القسطنطينية؟

لقد امتلك الأسطول العثماني قادة حققوا النجاح تلو النجاح أمثال عروج وخير الدين بربروسا وكمال رايس وغيرهم، وشددوا الرقابة لإنقاذ الأقليات الإسلامية في إسبانيا، وقد نشط خير الدين في هذا المضمار نشاطاً قوياً، وبفضل المساندة المعنوية والعسكرية (من السلطان سليمان القانوني إلى خير الدين)، استطاع في أواخر أكتوبر سنة ١٥٤١م أن يوجه ٣٦ بارجة إلى السواحل الإسبانية، مكرراً لها سبع مرات، حيث تمكن من نقل ٧٠ ألف موريسكى. وقد كانت لهذه الانتصارات أثرها على البابا والإمبراطور شارل الخامس، وكانوا يخافون كل الخوف من أن تمتد يد العون بين الموريسكيين والعثمانيين، ومن هنا كانوا يقومون بمحاولات يلاحقون فيها الموريسكيين من ناحية، والقوات العثمانية من ناحية أخرى.

كل هذا الاهتمام من العثمانيين بهذه القضية الملحة آنذاك يجعلنا نؤيد الدور العثماني وجهوده المتتابة لمحاولة إنقاذ مسلمى الأندلس. وإن كانت قد ظهرت بعض الصعوبات في سبيل الإنقاذ لم تمكن العثمانيين من افتتاح الأندلس مرة

أخرى، مثل بعد المسافات بين المشرق الإسلامى مقر العثمانيين وبين إسبانيا فى الحوض الغربى للبحر المتوسط، فهى بلا شك مسافات واسعة حاول العثمانيون التغلب عليها بإقامة مراكز حربية متقدمة فى طرابلس الغرب والجزائر وتونس والمغرب، ولكن على ما يبدو كان عناد الإسبان والكتلة الصليبية الأوربية أشد وطأة، إذ تجمعت قوى الشر الصليبية المتعصبة ضد الدولة العثمانية يصارعونها ويقاومونها فى كل الاتجاهات: السياسية والاقتصادية والعسكرية حتى الجوانب الفكرية والثقافية، ولم يتمكنوا دولة العثمانيين من هدفها الرئيسى فى إعادة فتح الأندلس وشغلوها بحروب متواصلة وصراعات دائمة بينها وبين دويلاتها من ناحية، وبينها وبين الأوربيين الغربيين وبخاصة روسيا من جهة أخرى.

هذا وقد اقتضت طبيعة البحث ومنهجيته أن يقسم الى مقدمة وخاتمة وأربعة أبواب على النحو التالى:

الباب الأول: غروب دولة المسلمين فى الأندلس

ويتفرع من هذا الباب الأفكار التالية:

أولاً: تصفية الوجود الإسلامى فى الأندلس بعد سقوط غرناطة.

ثانياً: التنصير القسرى ومحاكم التفتيش.

ثالثاً: مسلمو الأندلس يطلبون العون من المشرق الإسلامى.

الباب الثانى: مجابهة قوات العثمانيين لقوات إسبانيا وأوروبا

(البداية والتمكين فى الحوض الغربى للبحر المتوسط)

ويتفرع من هذا الباب الأفكار التالية:

أولاً: سيطرة البحرية العثمانية على حوض البحر المتوسط.

ثانياً: مسلمو الأندلس وشمالى إفريقيا يستغيثون بالدولة العثمانية.

ثالثاً: العثمانيون يعيدون تونس إلى رحاب الجبهة الإسلامية.

رابعاً: أهل طرابلس يستغيثون بالدولة العثمانية من فرسان القديس يوحنا.

خامساً: الصراع للسيطرة على مضيق جبل طارق.

الباب الثالث: جهاد العثمانيين البحري في حوض البحر المتوسط

(بهدف الإنقاذ واسترداد الأندلس)

ويتفرع من هذا الباب الأفكار التالية:

أولاً: إعداد البحرية الجزائرية الضاربة في البحر المتوسط.

ثانياً: تنظيمات البحرية العثمانية ومصطلحات الأسطول الحربي.

ثالثاً: النشاط الحربي للأسطول العثماني.

رابعاً: نبذة مختصرة عن أمراء البحرية العثمانية في حوض البحر المتوسط.

الباب الرابع: أحوال مواركة الأندلس بين العثمانيين والإسبان

ويتفرع من هذا الباب الأفكار التالية:

أولاً: العثمانيون ومأزق الإنقاذ.

ثانياً: أثر الموريسكيين في المغرب العربي.

ثالثاً: يهود الدونمة وتأمرهم على الخلافة العثمانية.

رابعاً: الموريسكيون بين الطرد وأمل العودة.

خامساً: ماذا خسرت إسبانيا بعد رحيل الموريسكيين.

هذا هو جهدي المتواضع في هذه الدراسة المهمة التي ربطت بين جناحي أمتنا المسلمة، والتي سجلت تفاعل المسلمين وتحركاتهم في حقبة بالغة الأهمية والتي تقدر بقرنين من الزمان، داعياً الله العليّ القدير أن يتقبله مني وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، إنه على كل شيء قدير، نعم المولى ونعم النصير.

تم بحمد الله كتابة هذا الكتاب في أول يونيو سنة ٢٠١٠م

كتبه

دكتور: فتحى زغروت

فاقوس / شرقية



غروب دولة المسلمين في الأندلس

أولاً: تصفية الوجود الإسلامي في الأندلس بعد سقوط غرناطة.

ثانياً: التنصير القسري ومحاكم التفتيش.

ثالثاً: مسلمو الأندلس يطلبون العون من المشرق الإسلامي.

أولاً: تصفية الوجود الإسلامي

في الأندلس بعد سقوط غرناطة

عاشت دولة المسلمين في الأندلس منذ قيامها سنة ٩٢ هجرية تتقلب في أطوار مختلفة بين قوة وضعف ووحدة وتفرق وعزة وذلة حتى تكاثرت عليها الخطوب وأحاط بها الأعداء من كل مكان، وأخذت تتساقط مدنها في أيدي المسيحيين واحدة بعد أخرى حتى سقطت غرناطة آخر مدنها عام ٨٩٧ هـ؛ أي أنها ظلت قائمة حية طيلة ثمانى قرون من العمل والعطاء الثقافى والحضارى من جهة والمكابدة والمجاهدة من جهة أخرى، وهى بذلك تعتبر أطول دول الإسلام عمراً، إن حادثة سقوط غرناطة آخر معاقل الإسلام بالأندلس لأشد أثراً فى نفوس المسلمين جميعاً؛ فهى تسامى حادثة سقوط بغداد على أيدي التتار ثم الأمريكان. وسقوط بيت المقدس فى أيدي الصليبيين ثم فى أيدي اليهود. وإذا كان لسقوط الأندلس حينذاك صدى كبير آلم المسلمين؛ فإنه لم يكن الفصل المؤلم والآخر فى حياة المسلمين بالأندلس بعد سقوط غرناطة، فقد جاءت بعد ذلك أحداث وخطوب أشد قسوة وأكثر إيلاًماً لتلك الأمة المنكوبة.

فقد تجرع الأمير أبو عبد الله آخر أمراء غرناطة كئوس الذل والهوان، وانخرط فى البكاء كالنساء؛ يزرف دموع الحسرة والندم وهو يسلم مفاتيح قصور الحمراء بغرناطة للملكى إسبانيا النصرانية «فرناندو» و«إيزابيلا»، لم تكن هى الدموع الأخيرة التى أزرفت على بلاد الأندلس، إنما أعقبها الكثير والكثير من دموع المسلمين ودمائهم، فعلى الرغم من العهود والأيمان المغلظة التى قطعها ملك إسبانيا «فرناندو» على نفسه ووقع عليها فى وثيقة استلام غرناطة الشهيرة، إلا أنه غدر بالمسلمين ولم يوف بعهده ولم يرع للمسلمين حرمة وأمناً^(١)؛ وقد تحقق فيه قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وِلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠]، وقال تعالى أيضاً: ﴿إِنْ

(١) آخر أيام غرناطة: مؤلف مجهول، دار حسان دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٤م.

يَتَّقُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ ﴿[المتحنة: ٢].

فأبت على فرناندو غريزته الصليبية أن يفي للمسلمين بشيء من العهود والمواثيق، وكانت هذه الوثيقة ستاراً للغدر والخيانة وإيذاناً بما سيقترف بالمسلمين في الأندلس من نكبات ومصائب عهد بها إلى الكاردينال «خمينيس» مطران طليطلة ورأس الكنيسة الإسبانية ويتمثل ذلك في مهمة تنصير مسلمي الأندلس، وكان هذا الرجل من أشد أهل الأرض قاطبة عداوة للإسلام والمسلمين، بل إن البغضاء المشحونة في قلبه كانت مضرِباً للأمثال لعصور طويلة، فأنشأ ما يسمى بديوان التحقيق أو بما عرف تاريخياً بمحاكم التفتيش وذلك سنة ٩٠٥ هـ، فكان أول عمل لهذه المحاكم أن جمعت كل المصاحف وكتب العلم والفقه والحديث وأحرقت في ميدان عام كخطوة أولى لتنصير المسلمين؛ وذلك بقطع الصلة عن تراثهم وعلومهم الشرعية ولغتهم العربية وثقافتهم الإسلامية.

بدأت حملة تنصير المسلمين بعد ذلك بتحويل المساجد إلى كنائس ثم جمع من بقى من الفقهاء وأهل العلم وتم إجبارهم على التنصر، فوافق البعض مكرهاً وأبى الباقون فقتلوا شر قتلة، وكان التمثيل بجثث القتلى جرس إنذار لباقي المسلمين؛ إما التنصير وإما الموت والقتل والتنكيل وسلب الأموال والممتلكات، وكانت عملية التنصير مركزة على إقليم غرناطة ومنه انتقلت حمى التنصير إلى باقي بلاد الأندلس؛ حيث كان هناك الكثير من المسلمين تحت حكم النصارى خاصة في وسط الأندلس وفي شرقه^(١).

هب المسلمون بما بقى عندهم من حمية وغيرة على الدين للدفاع عن هويتهم وعقيدتهم، فاندلعت الثورة في عدة أماكن من غرناطة وغيرها، واعتزم المسلمون الموت في سبيل دينهم، ولكنهم كانوا عزلاً بلا سلاح ولا عتاد، فقمع الصليبيون الثورات بكل غلظة فقتل الرجال وسبيت النساء وقضى بالموت على مناطق بأسرها ما عدا الأطفال الذين دون الحادية عشرة حيث تم تنصيرهم، وبعد قمع الثورة بمنتهى العنف والقسوة، أصدر «فرناندو» منشوراً بوجوب اعتناق المسلمين

(١) محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس ص ٣٥٤، ٣٥٥.

للنصرانية، وذلك سنة ٩٠٦ هجرية، ومن يومها ظهر ما يعرف في تاريخ الأندلس المفقود باسم «الموريسكيين» وهى كلمة إسبانية معناها المسلمين الأصاغر الذين يشبهون الدواجن أو العرب المنتصرين، ومحتتهم تفوق الخيال وما لاقوه وعانوه من إسبانيا الصليبية لا يخطر على بال.

أما تلك الطائفة المسماة بالموريسكيين وهم المسلمون الذين اضطروا للبقاء بالأندلس وأجبروا على إظهار النصرانية وترك الإسلام، أقول إن هذه الطائفة رغم البطش والتنكيل الشديد الذى نكل بها لتجبر على التنصر، إلا إنها ظلت متمسكة بدينها فى السر، فأخذوا يصلون سراً فى بيوتهم، ويحافظون على شعائرهم قدر استطاعتهم وذلك وسط بحر متلاطم من الاضطهاد والتنكيل والشك والريبة. وكانت العداوة الصليبية المستقرة فى قلوب الإسبان تجاه مسلمى الأندلس أكبر من مسألة الدين أو غيرها، فقد كانت هناك رغبة جامحة عند قساوسة ورجال إسبانيا لاستئصال الأمة الأندلسية المسلمة استئصالاً لا يبقى أثراً بعده للإسلام والمسلمين.

وظل الموريسكيون موضع ريب وشك من جانب الكاردينال «خمنيس» وديوان التحقيق، فعمل «خمنيس» على الزج بسآلف الموريسكيين إلى محاكم التفتيش، حيث تنتظرهم آلات التعذيب والتنكيل التى تقشعر لها الأبدان ويشيب منها الولدان، وذلك للتأكد من صدق تنصرهم وخالص ارتدادهم عن الإسلام، وكانت أدنى إشارة أو علامة تصدر من الموريسكيين وتدل على حنينهم للإسلام كفيلة بإهدار دمائهم وحرقتهم وهم أحياء، واستمرت إسبانيا الصليبية فى سياسة الاضطهاد والقمع والتنكيل بالموريسكيين، وبلغت المأساة مداها بعدما أصدر «شارل الخامس» قراراً بمنع سفر الموريسكيين خارج إسبانيا باعتبارهم نصارى، ومن يخالف يقتل وتصادر أملاكه، وعندها اندلعت ثورات أصحاب الصدور المحترقة فى بلاد الأندلس.

وكان تولى الإمبراطور «فليب الثانى» عرش إسبانيا بداية حملة اضطهاد غير مسبوقة للموريسكيين الذين كانوا موضع شك دائم من قبل الكنيسة ورجالها الذين

كانوا يشعرون في قرارة أنفسهم أن الموريسكيين ما زالوا على إسلامهم ومارالت تفيض به قلوبهم ومشاعرهم، وكان «فليب الثانى» ملكًا شديد التعصب، كثير التأثير بنفوذ الأحرار، فأصدر حزمة من القرارات جاءت بمثابة الضربة القاتلة لبقايا أمة العرب بالأندلس، حتى يتم تجريدتها من أهم مقوماتها القومية وذلك بتحريم استخدام اللغة العربية كأداة للتفاهم أو التخاطب أو التعليم، ولم يكتفوا بذلك بل جردوهم من كل مظهر عربى يمت للعروبة والإسلام بصلة؛ فجردوهم من الملابس العربية وحرموا عليهم العادات والتقاليد العربية والإسلامية والصلاة وصلاة الجمعة والأعياد والاستحمام والختان، ولم يطق المسلمون ذلك وتطلعت أنفسهم إلى ثورة شاملة للخلاص، وعندما قامت الثورة الشاملة، كان مركز الثورة فى منطقة جبل «الشارات» واندلع لهيب الثورة منها إلى أنحاء الأندلس ودوت صيحة الحرب القديمة وأعلن الموريسكيون استقلالهم، واستعدوا لخوض معركة الحياة أو الموت، واختار الثوار أميراً لهم اسمه «محمد بن أمية» يرجع أصله إلى خلفاء بنى أمية كإشارة على استعادة الخلافة ودولة الإسلام فى الأندلس مرة أخرى.

حقق الموريسكيون عدة انتصارات متتالية، اهتزت لها عروش النصرانية فى إسبانيا وأوربا، فأعدت إسبانيا حملة عسكرية ضخمة يقودها أمير قادتهم هو «الدون خوان»، وجاء المجاهدون المسلمون من المغرب العربى، وانضمت فرقة عسكرية عثمانية للثوار جاءتهم من تونس، وقد اشتد حنق الإسبان وفاحت الكراهية فى أعمالهم، فأخذوا يقتلون من يقع فى أسرهم ويمثلون بجثثهم أبشع تمثيل حتى الأطفال والنساء لم تسلمن من القتل، وزاد ذلك الثوار يقيناً بحتمية الاستمرار فى الثورة والقتال حتى الموت، وقويت العزائم وتقاطر المجاهدون المغاربة على الأندلس، وهنا امتدت أيدى الغدر والخيانة فى الظلام لتغتال حلم الأندلسيين بمكيدة شريرة انتهت بقتل الأمير «محمد بن أمية» قبل أن يحقق هدفه المنشود.

لم تكن هذه الثورة لتقف أو تنتهى بموت زعيمها، فاختار الثوار أميراً جديداً هو ابن عم القاتل واسمه «مولاى عبد الله محمد»، وكان أكثر فطنة وروية وتدبراً، فحمل الجميع على احترامه ونظم جيش الثوار وجعله على الطراز الدولى بل

ويفوق في تنظيمه الجيش الصليبي الإسباني، واستطاع «مولاي عبد الله» أن يستولى على عدة مدن مهمة مثل مدينة «أرجبة» التي كانت مفتاح غرناطة والتي كان سقوطها شرارة اندلاع ثورة الموريسكيين وذيوع شهرة «مولاي عبد الله محمد». وقد حشدت إسبانيا أعداداً ضخمة من مقاتليها يقودهم «الدون خوان»، فحاصر هذا الجيش الجرار الثوار في بلدة «جليرا» وكان مع الثوار فرقة من الجنود العثمانيين، ودارت رحى معركة في منتهى الشراسة أبدى فيها المسلمون بسالة رائعة، ولكن المدينة سقطت في النهاية ودخلها الإسبان دخول الضواري المفترسة وارتكبوا مذبحه مروعة شنيعة؛ لم يتركوا فيها صغيراً ولا كبيراً ولا طفلاً ولا امرأة، وحاول «الدون خوان» مطاردة فلول الثوار ولكنه وقع في كمين للثوار في شعب الجبال عند مدينة «بسطة»، وأوقع الثوار هزيمة فادحة بالصليبيين الإسبان، جعلت الحكومة الإسبانية تفكر في مصالحة الثوار المسلمين.

عرضت الحكومة الصليبية الإسبانية على المسلمين الثائرين معاهدة سلام لإنهاء القتال، فبعث «الدون خوان» إلى أحد الثائرين واسمه «الحبقي»، وقد لمحت فيه إسبانيا الصليبية بعض المؤهلات التي ترشحه للتفاوض وقبول شروطها المجحفة في السلام، وكانت شروط المعاهدة تتضمن وقف انتفاضة المسلمين فوراً، وفي سبيل ذلك يصدر وعد ملكي بالعفو عن جميع الموريسكيين الذين يقدمون خضوعهم في خلال عشرين يوماً من إعلانه، ولهم أن يقدموا تظلمهم وشكاواهم مع الوعد بالبحث فيها ودراستها...! وكل من رفض العفو والخضوع للسلطة الصليبية سيقتل ما عدا النساء والأطفال دون الرابعة عشرة والسبب في ذلك بالقطع معروف فالنساء تقعن سبايا والأطفال ينصرون.

كانت شروط السلام الصليبي المعروض على الموريسكيين كفيلة بأن يرفض الأمير مولاي عبد الله محمد هذه المعاهدة الجائرة التي لا تفيد المسلمين شيئاً وليس لها سوى هدف واحد وهو إيقاف ثورة المسلمين فقط لا غير، وأيقن المسلمون أن الإسبان الصليبيين لا عهد لهم ولا ذمة، فانقلب النصاري يفتكون بكل المسلمين في أنحاء إسبانيا سواء من اشترك في الثورة أو من لم يشترك، واشتبك الدون

خوان مع قوات مولاي عبد الله في عدة معارك ولكنها غير حاسمة، وفي الوقت نفسه أبقى الإسبان على خط التفاوض مع الزعيم «الحبقي» الذي رأى فيه النصاري السبيل لشق صف الثوار المسلمين، من ثم سار مجرى القتال في غير صالح المسلمين؛ لانعدام التكافؤ بين الطرفين، اللهم إلا الإيمان بالله عز وجل، ورأى مولاي عبد الله أن أتباعه أخذوا يتساقطون من حوله تبعاً، وتعقد الموقف وصارت القوة الغاشمة تجتاح كل شيء.

فبدأ يفكر في الصلح والسلام ولكن بغير الشروط السابقة، وتدخل بعض زعماء الإسبان ممن له عقل وتدبير لإجراء الصلح، ولكن «الحبقي» استبق الجميع وشق صف الثورة وخرج عن طاعة مولاي عبد الله ومن معه، وذهب بسرية من فرسانه إلى معسكر الصليبيين، وقدم الخضوع والذلة إلى قائدهم «الدون خوان»، وقد كانت هذه الخطوة الدليلة من «الحبقي» محل سخط كل المسلمين وخاصة زعيمهم مولاي عبد الله، إذ إن الصف المسلم أخذ يتصدع بمحاولات «الحبقي» وأراجيفه، خاصة بعدما لمح المسلمون نية الصليبيين في نفيهم تماماً عن الأندلس، وهذا يجعل الهدف والداعي الذي قامت من أجله الثورة في الأصل هباءً منثوراً وكيف سيعيدون دولة الإسلام في الأندلس مرة أخرى إذا طردوا من أوطانهم، لهذه الأسباب كلها قرر مجلس قيادة الثورة إعدام «الحبقي» الذي ظهر منه ما يدل على عمالته وولائه للصليبيين.

أعلن مولاي عبد الله أن الثورة لن تتوقف وأن الموريسكيين سيجاهدون حتى الموت؛ وأن حلمهم بإعادة دولة الإسلام في الأندلس لم يمت في قلوبهم، وأنه يؤثر أن يموت مسلماً مخلصاً لدينه ووطنه. ولم يلتفت إلى ما بذلوا له من وعود معسولة وأمان كاذبة، وكان لهذا الموقف الشجاع من مولاي عبد الله فعل السحر في نفوس المسلمين في جميع أنحاء إسبانيا، فاندلعت الثورة كالنار في الهشيم، وقابل الإسبان ذلك بمنتهى القسوة والشدة بل والحقد الدفين، حيث مضوا في القتل والتخريب لكل ما هو مسلم، وهدموا القرى والضياع والحقول حتى لا يبقى للثوار مثوى أو مصدر للقوت.

كانت لهذه القسوة المفزعة أثر كبير على نفوس الموريسكيين، حيث فر كثير منهم من البلاد كلها إلى إخوانهم المسلمين في إفريقية، وفي ٢٨ أكتوبر سنة ١٥٧٠م أصدر فليپ الثاني قراراً بنفى الموريسكيين من مملكة غرناطة إلى داخل البلاد الأخرى بإسبانيا، ويوزعون على سائر الولايات الإسبانية وأن تصدر أملاكهم وأموالهم، ووقع تنفيذ القرار في مشهد يندى له جبين البشرية من الخزي حيث السفك والنهب والاغتصاب، وسبق مسلمو غرناطة كالمقطعان لمسافات طويلة حيث الجوع والعطش والمرض ثم وضعوا بعد ذلك فيما يشبه المعسكرات الجماعية، حيث بقوا رهن المتابعة والرقابة الدائمة، وعين لهم مشرفاً خاصاً يتولى شئونهم ووضعت لهم جملة من القيود من يخالف أدناها يقتل شر قتلة.

بعد هذه الوحشية منقطعة النظير وبعد سلسلة من المذابح والمجازر البشرية المروعة في حق مسلمي الأندلس وبعد فرار الكثير من الموريسكيين إلى إفريقية، وبعد نفى بقيتهم داخل إسبانيا لم يبق أمام الإسبان سوى آخر فرسان الأندلس مولاي عبد الله وجيشه الصغير، الذي ظل مقاوماً للصليبيين معتصماً بأعماق الجبال، رافضاً للصلح أو المهادنة أو الخضوع لسلطة الصليب مهما كانت التضحيات، وهو في هذه الأثناء يقوم بحرب عصابات ضد الحاميات الإسبانية المنتشرة بغرناطة، وأوقعت هذه الحرب خسائر فادحة بالإسبان، ولكنها أيضاً أنهكت قوة جيش مولاي عبد الله. ولأن هذا العصر وتلك الأيام كانت توصف بالخيانة والعمالة وحب الدنيا وكراهية الموت والخوف على النفس والمال والعيال، فقد استطاع أعداء الإسلام أن يستقطبوا ويجندوا أحد ضباط مولاي عبد الله محمد ويغروه بالأموال والمنح والوعود والعفو الشامل إذا استطاع أن يسلمهم مولاي عبد الله محمد حياً أو ميتاً، وكان الإغراء قوياً ومشيراً والنفوس ضعيفة، فدبر هذا الضابط الخائن خطته لاغتيال آخر أبطال الأندلس، وفي ذات يوم هجم الخائن مع بعض ممن أغواهم على البطل مولاي عبد الله الذي قاومهم قدر استطاعته، ولكنه بعد معركة غير متكافئة سقط شهيداً، فقام الخونة بفعلة شنيعة حيث ألقوا جثته من فوق الصخور لكي يراها الجميع، ويعلم أسيادهم الإسبان بنجاح مخطط الغدر

والخيانة، وهكذا تدفع الأمة من جديد ثمن خيانة بعض أبنائها وتفقد رجلاً باراً وبطلاً عظيماً قام بنصرتها والدفاع عن عرضها وشرفها وحاول استعادة مجدها؛ ولكنه ماذا يفعل وللأسف الشديد كانت الخيانة أكبر وأفدح!

هكذا يفعلون في أبطالنا، إن ميراث الحقد والعداوة الدفين في قلوب أعداء الإسلام ضد كل ما هو مسلم ليدعو كل مسلم صادق وغيور لأن يكون على استعداد دائم للمعركة التي يخطط لها أعداء الإسلام، وأن يتيقن أن الصدام الوشيك بين الحق والباطل، سنه من سنن الحق والحياة، وما فعله الإسبان بجثة البطل الشهيد مولاي عبد الله يدل على مدى الحقد الأعماق المشتعل في قلوب أعداء الإسلام، حيث قام الإسبان بحمل الجثة إلى غرناطة وهناك استقبلوها في حفل ضخم حضره الكبار والصغار من الرجال والنساء، ورتبوا موكباً أركبت فيه الجثة مسندة إلى بغل وعليها ثياب كاملة كأنه إنسان حي، ومن ورائها أفواج كثيرة من الموريسكيين الذين سلموا عقب اغتيال زعيمهم، ثم حملت الجثة إلى النطع وأجرى فيها حكم الإعدام، فقطع رأسها ثم جرت في شوارع غرناطة مبالغة في التمثيل والتنكيل ومزقت أربعاً وأحرقت بعد ذلك في الميدان الكبير ووضع الرأس في قفص من الحديد، رفع فوق سارية في خاصة المدينة تجاه جبال البشرات معقل الثورة ومنشأها، وهكذا يفعلون في أبطالنا - ولا حول ولا قوة إلا بالله^(١).



(١) للإطلاع أكثر يرجع إلى المرجعين السابقين: آخر أيام غرناطة لمؤلف مجهول ونهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان.

ثانياً: التنصير القسري ومحاكم التفتيش

لقد اطمأن المسلمون في غرناطة إلى وعود ملك قشتالة حيث سرح لهم الجواز إلى بر العدو المغربية وأتاهم بالمراكب إلى الساحل، وصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ورباعه ودوره وكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة المعتبرة بالثمن القليل، وكذلك يبيع جنانه وأرض حرثه وكرمه بأقل الأثمان بل بأقل من ثمن الغلة التي كانت فيه؛ ومنهم من اشتراه من المسلمين الذين عزموا على الدجن^(١) ومنهم من اشتراه من النصارى، وبعدما يتم البيع يرحلون إلى الساحل بما معهم فيرفعهم النصارى في البحر محترمين مكرمين مؤمنين ويجوزونهم إلى عدوة المغرب في أمن واطمئنان، ويقول شاهد عيان لهذه الفترة؛ كان ملك قشتالة قد أظهر للمسلمين في هذه المدة العناية والاحترام، ووضع عنهم المغارم وأظهر لهم العدل حيلة منه وكيداً، ذلك ليغررهم ويثبطهم عن الجواز إلى البحر، فوقع الطمع لكثير من المسلمين، وظنوا أن ذلك يدوم لهم فاشتروا أموالاً رخيصة وأمتعة أنيقة وعزموا على الجلوس مع النصارى^(٢).

وقد أصاب عدوة المغرب في: فاس وإغمات وتلمسان في ذلك الوقت شدة عظيمة وغلاء مفرط وجوع مؤلم وطاعون مستشري، واشتد الأمر بمدن هذه العدو حتى فر كثير من الناس من شدة هذا الأمر، ورجع بعض المسلمين من الذين جازوا إلى الأندلس، فأخبروا بتلك الشدة فامتنع مسلمو غرناطة عن الجواز، وعزم أغلب المسلمين على الإقامة والدجن كما أن النصارى من جهة أخرى قد رجعوا في عهودهم، وامتنعوا عن حمل المسلمين والجواز بهم إلا بالكراء والمغرم الثقيل وعشر المال، فلما رأى ملك قشتالة أن الناس قد تركوا الجواز وعزموا على الدجن والاستيطان والمقام في غرناطة؛ أخذ في نقض الشروط التي أخذها على نفسه ولم

(١) الدجن أو التدجن: هو مصطلح أطلق على المسلمين الذين بقوا في غرناطة تحت حكم الإسبان ثم تنصروا بعد ذلك بالإكراه.

(٢) آخر أيام غرناطة مرجع سابق ص ١٢٧.

يزل ينقضها شرطاً شرطاً إلى أن نقضها جميعاً، وزالت حرمة الإسلام عن المسلمين، وأدركهم الهوان والذلة واستطال النصارى عليهم وفرضت عليهم الفروضات، وثقلت عليهم المغارم وقطع لهم الأذان من الصوامع، وأمرهم بالخروج من مدينة غرناطة إلى الأرباض والقرى؛ فخرجوا أذلة صاغرين ثم بعد ذاك دغاهم إلى التنصير وأكرههم عليه وكان ذلك سنة ٩٠٤ هـ فدخلوا في دينه كرهاً وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق من يقول فيها لا إله إلا الله محمد رسول الله جهراً إلا من يقولها في نفسه وفي قلبه أو خفية من الناس^(١).

وقضية التنصير القسرى كانت من أقسى القضايا الشائكة التي تبرز غدر النصارى بالمسلمين وقد انتدب ملك قشتالة الكردينال «خمنيس» لملاحقة الموريسكيين^(٢).

وقد أساء ذلك الرجل معاملتهم وانتهك حرمتهم وحملهم على التنصير القسرى، وحظر عليهم كل ما لهم من حقوق في معاهدة التسليم، وظل هكذا إلى أن أدت أعمال هذا الكردينال في نتيجتها إلى استفزازات الموريسكيين وهبوا بانتفاضات عدة كما وضحنا من قبل.

وجعلت النواقيس في الصوامع بدل الأذان، وأدخلت في المساجد الصور والصلبان مكان ذكر الله تعالى والقرآن^(٣)، ويصف شاهد عيان المسلمين الذين دجنوا وبقوا في الأندلس لعدم مقدرتهم على الرحيل أن «قلوبهم تشتعل ناراً ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً مدراراً وينظرون أبناءهم وبناتهم يعبدون الصلبان ويسجدون للأوثان، ويأكلون الخنزير والميتات ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات فلا يقدرّون على منعهم ولا على نهيمهم ولا على زجرهم ومن فعل ذلك عوقب أشد العقاب»^(٤).

وقد تولى خمنيس مطران طليطلة ورأس الكنيسة الإسبانية كما قلنا مهمة تنصير

(١) آخر أيام غرناطة ص ١٢٩، ١٣٠.

(٢) هم المسلمون المدجنون الباقون تحت ظل دولة قشتالة وأرغون الموحدة.

(٣) آخر أيام غرناطة ص ١٣.

(٤) المصدر السابق.

مسلمى الأندلس كما قلنا سابقاً، وكان من أشد أهل الأرض عداوة للإسلام والمسلمين، فأنشأ هذا الرجل ما يسمى بديوان التحقيق وهو ما عرف بمحاكم التفتيش وذلك سنة ٩٠٥ هجرية. والتي عانى منها المسلمون أشد المعاناة وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً ويفضل أن نشير إليها مجملة مرة أخرى:

١- كل المصاحف وكتب العلم والفقه والحديث أحرقت في ميدان عام كخطوة أولى لتنصير المسلمين، وقطع صلتهم عن التراث العربى الإسلامى وعن علومهم الشرعية.

٢- كانت العداوة الصليبية المستقرة في قلوب الإسبان تجاه مسلمى الأندلس أكبر من مسألة الدين أو غيرها؛ فقد كانت هناك رغبة جامحة عند قساوسة ورهبان إسبانيا لاستئصال شأفة الأمة الأندلسية المسلمة.

٣- ظل الموريسكيون «وهم المسلمون الذين اضطروا إلى البقاء، وأجبروا على إظهار النصرانية وترك الإسلام والذين يسمون أيضاً بالمدجنين» موضع ريب وشك من جانب الكردينال خميس وديوان التحقيق؛ فعمل هذا الطاغية على الزج بآلاف الموريسكيين إلى محاكم التفتيش حيث آلات التعذيب والتنكيل التى تقشعر لها الأبدان.

٤- كانت أدنى إشارة أو علامة تصدر من الموريسكيين يظهر من خلالها حنينهم إلى الإسلام أو اللغة العربية يتم تعذيبهم وحرقتهم وهم أحياء.

٥- بلغت المأساة مداها بعدما أصدر شارل الخامس قراراً بمنع سفر الموريسكيين خارج إسبانيا باعتبارهم نصارى ومن يخالف يقتل وتصادر أملاكه.

اندفعت إسبانيا فى محاولة لتصفية المسلمين فارضة أقسى الإجراءات عليهم لتنصيرهم بالجملة خلال عشر سنين، وقد اعترف ملوك إسبانيا خلال القرن السادس عشر بحتمية الاستمرار فى تطبيق هذا القانون، وبذلك خيرت الأقلية الإسلامية الأندلسية التى عرفت شتى ظروف التبع والملاحقة عن طريق ديوان التحقيق بين التنصير أو الرق مدى الحياة، وصودرت أملاكهم وحرم عليهم التكلم

باللغة العربية، وارتداء الألبسة الوطنية والتردد إلى الحمامات، وفتح أبواب منازلهم أيام الحفلات والجمعة والسبت^(١)، وإقامة الشعائر الدينية، والتسمية بأسماء عربية، كما حولت جميع المساجد إلى كنائس^(٢)، ومنع المسلمون من حمل السلاح كما فرض عليهم العيش في أحياء خاصة وارتداء ألبسة معينة، وأن يحملوا شارة زرقاء على القبعة إذا ما بقوا على دينهم، كما حرم عليهم بيع الحرير والذهب والفضة والأحجار الكريمة، وأمروا أن يسجدوا في الشوارع متى مر كبير الأحياء^(٣)، وسلطت عليهم أقسى أنواع العقوبات، إذا لوحظ عليهم بعض الولاء إلى ماضيهم أو التعلق بدينهم في أبسط مظاهره وعاداته.

وقد كان المسلمون آنذاك يشكلون سيطرة على الاقتصاد الأندلسي في غرناطة؛ بفضل نشاطهم وذكائهم وخبرتهم في تصريف شئون التجارة والزراعة وازدهارها على أيديهم، وقد أثار نجاحهم هذا حقد النصارى عليهم الذين اتهموهم بالتآمر ضد أمن الدولة خصوصاً وهم الحلفاء الطبيعيون لإخوانهم قراصنة «شمال إفريقيا» كما كانوا يعتبرونهم آنذاك.

ومن الطبيعي في مثل هذه الظروف أن يتجه المورييسكيون إلى الثورات والانتفاضات في أغلب المدن التي بها أقلية إسلامية وخاصة في غرناطة وبلنسية، وقد أقمعت تلك الثورات بدون رحمة ولا شفقة، واتخذت وسيلة لتعميق الكره والحقد على هذه الطائفة، ومن جهة أخرى كان من الطبيعي أن يلتجئ المورييسكيون إلى ملوك الإسلام في المشرق والمغرب لاستتجادهم، وأن تتكرر دعواتهم وإرسال وفودهم برسائل إليهم للعمل على إنقاذهم مما يعانونه من الظلم وخاصة من رجال الكنيسة وديوان التحقيق الذي أصدر ضدهم قرارات ظالمة.

وقد أرسل أهل غرناطة في منتصف سنة ١٤٧٧ سفارة إلى إستانبول ملفتين نظر السلطان العثماني محمد الفاتح إلى حالة المسلمين بالأندلس، طالبين تدخله لإنقاذهم، وكما أرسل أهل غرناطة سفارة إلى أحد سلاطين المماليك في مصر

(١) محمد عبدالله عنان «نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين» ص ٣٥٤، ٣٥٥ الطبعة الثالثة. القاهرة.

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٣، ٣٥٤.

(٣) المصدر السابق ص ٣٥١.

«الملك الأشرف» في أواخر القرن الخامس عشر، مستنجلة إياه في التدخل لإنقاذهم مما يعانونه على أيدي ملوك النصارى، وقد بعث الملك الأشرف بوفود إلى البابا وملوك النصرانية يذكرهم بأن النصارى الذين هم تحت حمايته يتمتعون بكل الحريات، في حين أن أبناء دينه في مدن إسبانيا يعانون أشد أنواع الظلم، وقد هدد باتباع سياسة التنكيل والقصاص تجاه رعاياه من المسيحيين إذا لم يكف ملك قشتالة وأراكون وغرناطة عن هذا الاعتداء وترحيل المسلمين عن أراضيهم^(١).

أما السلطان العثماني بايزيد الثاني فقد وصلت إليه قصيدة من أحد الموريسكيين يصور له مأساة المسلمين ويستنجد به لنصرتهم وإنقاذهم.

كما أن نداءاتهم لملوك المغرب قد تعددت مع مرور الأيام، غير أن الأوضاع الداخلية التي كان عليها المغرب وخضوع بنى وطاس لإسبانيا وعقد معاهدة ١٥٣٨م معهم، وازدياد النفوذ الإسباني من جهة والنفوذ البرتغالي من جهة أخرى على السواحل المغربية، قد جعل من المستحيل القيام برد فعل حازم وفعال، وسوف يأتي الحديث عن رسائل أهل غرناطة إلى المشرق الإسلامى لنوضح من خلالها علاقة هذا المشرق بالموريسكيين في تلك الفترة.

كانت هناك شروط موثقة عند تسليم غرناطة على الإسبان، ولكن لم يلتزم بها النصارى الإسبان مطلقاً، وكانت هذه الشروط تقضى للمسلمين بالحرية التامة في الدين واللغة وحقهم في المحافظة على أموالهم وتقاليدهم، وأن تحسم قضاياهم من قبل قضاة مسلمين، وكذلك السماح للمؤذنين بالأذان في أوقات الصلاة. ويمنع المسيحيون من دخول بيوت المسلمين من غير إذن... إلى غير ذلك، ولكن النصارى الإسبان لم يحافظوا على عهودهم التي قطعوها على أنفسهم، ولم يراعوا حرمة للشرف الملكى القشتالى، وقد عرف المسلمون ذلك فارتفع صوت من بين أهالى غرناطة يحذر المسلمين أن يستسلموا لتلك الشروط التي يتستر وراءها خداع الملك ونفاقه، إن هذا الصوت هو صوت الفارس الشجاع موسى الذى خطب في

(١) راجع ابن إياس في تاريخ مصر ص ٢٤٦، وكذلك نهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان ص ٢١٢.

قومه قبل الاستسلام وتسليم غرناطة؛ محذراً إياهم من مغبة الاستنامة لوعود الإسبان، ولما لم يجد آذاناً مصغية غادر قومه قائلاً: «إنه يفضل الموت بالسيف على أن يموت صبراً بيد لئام الإسبان، أو يُجرع الذل والهوان على يد الشرك». وعندما خرج موسى من غرناطة اعترضته قوة من فرسان الإسبان، فدارت معركة غير متكافئة قتل فيها عدة منهم وسقط أخيراً من على فرسه مثخناً بالجراح فقاتل بسيفه قائماً على ركبتيه، ولما تكاثر الإسبان عليه ليفتكوا به رمى بنفسه من علو إلى النهر، ولما كان مثقلاً بالدروع غاص موسى إلى قاع النهر ولم يعثر له على أثر. فضرب هذا الفارس المثل الأعلى في الإباء والعزة والكرامة والشجاعة.

وقد صدق ظن موسى -رحمه الله- فلم يمضِ وقت قصير إلا والعهود قد نكثت الواحد تلو الآخر من قبل الإسبان؛ حتى لم يبقَ منها شيء يذكر، وإذا بالمرحلة العصبية الأخرى تمر على مسلمي الأندلس لتسدل الخاتمة على هذا التاريخ إلى يومنا هذا.

لقد عرفنا سابقاً الشروط التي أبرمت في معاهدة الصلح والتسليم التي تخصص المسلمين من حيث إقامة شعائرهم وصلواتهم والبقاء على ديانتهم إلى غير ذلك من شروط؛ ولكن ملك إسبانيا قد حافظ على هذه العهود فترة من الزمن لشيء في نفسه، فلما رأى المسلمين متمسكين بعقيدتهم وبدورهم وبأعمالهم نراه يسارع لإلغاء تلك المعاهدة بنداً بنداً ويصدر القوانين التالية:

١- إجبار من بقى في الأندلس من المسلمين على أن يتنصر أو يغادرها، وبناء على ذلك أصدر فرديناند عام ٩٠٥هـ بياناً بإغلاق المساجد، وحظر على المسلمين إقامة شعائرهم في أي مكان، ومن ثم زاولت الكنيسة الكاثوليكية أساليبها لتنصير المسلمين.

٢- وفي عام ٩٣٥هـ أصدر الملك قانوناً يحرم على المسلمين التكلم باللغة العربية ومن ينطق بها يقتل، وبذلك حُرِّم المسلمون من قراءة القرآن الكريم، وحرِّموا أيضاً من الاتصال بإخوانهم المسلمين بالخارج.

٣- وفي عام ٩٧٤هـ صدر قانون يحذر على المسلمين الاغتسال، فالنصارى لا يغتسلون؛ وبذلك أوجبوا على المسلمين ألا يغتسلوا فهدموا ما يزيد على ثلاثمائة حمام من الحمامات العامة في غرناطة وغيرها من الحمامات العامة في مدن الأندلس، ومن اغتسل وشهد عليه شاهد فإنه يقدم إلى محاكم التفتيش لتعاقبه على جنايته.

٤- ثم صدر قانون بمنع الزى العربى من أن يتزى به من بقى عندهم من العرب، وجعل القتل جزاء لمن يخالف هذا البند من القانون.

محاكم التفتيش وإبادة المسلمين:

لدينا قضية ينبغي أن يدركها الغرب الأوربي جيداً وهى:

إن حكم العرب والمسلمين فى الأندلس لم يكن احتلالاً أو فرض وصاية أو حماية على الشعوب كما توصى به اليوم الأمم المتحدة فى معاملة الشعوب الواقعة تحت الاحتلال، وإنما كان رسالة حق ونور وهدى للعالمين قام بها المسلمون هناك، هذه الرسالة هى رسالة الإسلام التى جاء بها النبى محمد ﷺ وهى رسالة إنسانية عامة، كان من نصيب أولئك المسلمين فى الأندلس أن يحملوا شرف الدعوة لها، وتوصيلها إلى شعوب أوربا كما كان لهم الشرف العظيم والأجر الجزيل على صبرهم أمام محاكم التفتيش؛ الذين نصرّوهم بالقوة وأطلقوا عليهم المدجنين، فما أقبحه من لفظ فى الوجود، وللأسف الشديد فإن هذا اللفظ القبيح أطلقوه على هؤلاء المسلمين الشرفاء وفيهم الدعاة إلى الله والفقهاء والعلماء والأطباء.

وكانت مأساة المسلمين فى الأندلس من أفظع مآسى التاريخ، حيث شهدت تلك الفترة وحشية فظة ارتكبتها محاكم التفتيش بهدف تطهير إسبانيا من آثار الإسلام والمسلمين ومن تراثهم الذى ازدهر فى هذه البلاد زهاء ثمانية قرون، ومن ثم هاجر كثير من مسلمى الأندلس إلى الشمال الإفريقى بعد سقوط مملكتهم فراراً بدينهم وحریتهم من اضطهاد النصارى الإسبان، وعادت إسبانيا إلى دينها القديم أما من بقى من المسلمين؛ فقد أجبروا على التنصر أو الرحيل كما قلنا، وأفضت

هذه الروح النصرانية إلى مطاردة وظلم وترويع المسلمين العزل، وقد انتهى ذلك الصراع بإعدام أمة ذات ماضي عريق وحضارة إنسانية ملموسة على أرض إسبانيا، وانطلقت منها إلى العالم الأوربي بأكمله كما أوضحنا.

وكان لا بد أن ينشط ديوان التحقيق أو الديوان المقدس الذي يدعمه العرش والكنيسة في ارتكاب الفظائع ضد «الموريسكيين» المسلمين المتنصرين؛ وصدرت عشرات القرارات التي تحول بين هؤلاء المسلمين ودينهم ولغتهم وعاداتهم وثقافتهم، وقد أحرق الكردينال خميس عشرات الآلاف من كتب الدين والشريعة الإسلامية، وصدر أمر ملكي في يوم ٢٢ ربيع أول ٩١٧هـ يلزم جميع السكان الذين تنصروا حديثاً أن يسلموا سائر الكتب العربية التي لديهم، ثم تتابعت المراسيم والأوامر الملكية التي منعت التخاطب باللغة العربية، وانتهت بفرض التنصير الإجباري على المسلمين.

وحمل التعلق بالأرض والخوف من الفقر كثيراً من المسلمين على قبول التنصير ملاذاً للنجاة، ورأى آخرون أن الموت خير ألف مرة من أن يصبح الوطن العزيز مهذاً للكفر، وفر آخرون بدينهم، وكتبت نهايات متعددة للأساة واحدة هي رحيل الإسلام عن الأندلس، وتوفي فرناندو الخامس ملك إسبانيا في ١٧ ذي الحجة سنة ٩٢١هـ، وأوصى حفيده شارل الخامس بحماية الكاثوليكية والكنيسة؛ فنهض يختار المحققين ذوي الضمائر لكي يعملوا في حزم لخدمة الدين الكاثوليكي من ناحية؛ وأن يعملوا على سحق طائفة محمد من ناحية أخرى، وقد عاش المسلمون زهاء عشرين عاماً ينزل بهم العذاب والاضطهاد الذي تم على أيدي محاكم التحقيق «محاكم التفتيش» التي أنشئت بمرسوم بابوي صدر عام ٨٨٨هـ وعين بمقتضاه القس «طوماس دي تركيمادا» محققاً عاماً لهذه المحاكم الجديدة التي نظم لوائحها وأصدر العديد من قرارات الظلم والإبادة.

ولما رأى الموريسكيون هذا التطرف وتلك الإجراءات الصارمة من ديوان التفتيش استغاثوا بالإمبراطور شارل الخامس؛ وبعثوا وفداً منهم، إلى مدريد ليشرح مظالمهم فندب شارل محكمة كبرى من النواب والأحبار والقادة والقضاة للنظر في شكوى

المسلمين وتقرر إذا ما كان التنصير الذى وقع على المسلمين بالإكراه أم باختيار منهم حينئذٍ يعتبر صحيحاً ملزماً أى يحتم عقاب المخالف بالموت، وقد أصدرت المحكمة قرارها بأن التنصير الذى وقع على المسلمين صحيح لا تشوبه شائبة؛ لأن هؤلاء الموريسكيين سارعوا بقبوله اتقاء لما هو شر منه، فكانوا بذلك أحراراً فى قبوله، ومن هنا صدر أمر ملكى للذين تنصروا يجبرهم على البقاء فى إسبانيا باعتبارهم نصارى، وأن ينصر كل أولادهم، فإذا ارتدوا عن النصرانية قضى عليهم بالموت أو المصادرة.

وكان قدر هؤلاء المسلمين أن يعيشوا فى تلك الأيام الرهيبة التى ساد فيها إرهاب محاكم التحقيق، وكانت لوائح المنوعات تزداد تباعاً واشتملت على أوامر غريبة منها، على سبيل المثال حظر الختان وحظر الوقوف تجاه القبلة وحظر الاستحمام والاغتسال، وارتداء الملابس العربية. وقد نفذت هذه القرارات بكل قسوة، وقد أقيمت محكمة التفتيش فى غرناطة على ضبط بعض المخالفات وبناءً على ذلك أُحرق اثنان من المخالفين فى شوال ٩٣٦هـ فى احتفال دينى.

وكان المسلمون الموريسكيون يحاولون بكل وسيلة إزاء تلك القرارات المتعسفة أن يستبقوا دينهم وتراثهم فى نفوسهم، فكان على الرغم من دخولهم فى النصرانية يتعلقون سراً بالإسلام، وكثير منهم يؤدون شعائر الإسلام خفية وكانوا يحافظون على لغتهم العربية، ولما فطنت الحكومة الإسبانية إلى ذلك وأدركت أن إحياء اللغة العربية فى ذلك الوقت هو تدعيم للروح العربية الإسلامية، لذلك أصدر الإمبراطور شارل الخامس سنة ٩٣٢هـ أول قانون يحرم التخاطب بالعربية على الموريسكيين؛ مما اضطر الموريسكيون إلى أن يدفعوا لهذا الملك مائة ألف دوقه: حتى يسمح لهم بالتحدث بالعربية. ولكن لم يدم ذلك طويلاً إذ أصدر الإمبراطور فيليب الثانى سنة ٩٦٤هـ قانوناً جديداً يحرم التخاطب بالعربية، وفرضت القشتالية بديلاً لها كلغة تخاطب بين الموريسكيين، ومع ذلك لم يعدم هؤلاء المسلمون وسيلة للتخاطب ولتفكيرهم، فاخترعوا لغة جديدة حيث كتبوا اللغة القشتالية سراً

بأحرف عربية، وأسفر ذلك عن خلق لغة جديدة هي «أليخميادوا» وهي تعريف إسباني للكلمة الأعجمية، وظلت هذه اللغة قرنين من الزمان سرّاً مطموراً؛ وبذلك تمكن هؤلاء المسلمون أصحاب العقيدة الحية أن يحتفظوا بعقيدتهم الإسلامية، وألف بها بعض الفقهاء والعلماء كتباً عما يجب أن يعتقد المسلم ويفعله حتى يحتفظ بإسلامه، وشرحوا آيات القرآن باللغة الأخمياوية، وكذلك سطوروا بها سيرة النبي ﷺ وكان من أشهر كتاب هذه اللغة الفقيه المسمى «فتى أميرالو» وهو مؤلف لكتب التفسير وتلخيص السنة، ومن الشعراء «محمد ربدان» الذي نظم كثيراً من القصائد والأغنيات الدينية، وبذلك تحصن الموريسكيون بمبدأ التقية وصمدوا في وجه مساعي المنصرين الذين لم تنجح جهودهم التبشيرية والتعليمية والإرهابية في الوصول إلى تنصير كامل لهؤلاء الموريسكيين، فجاء قرار الطرد بعد هذه الإخفاقات^(١).

وتشير الروايات السابقة إلى أساليب شنيعة للتعذيب اتبعتها رهبان محاكم التفتيش منها حرق ضحاياهم وهم أحياء وشيهم كما تشوى الأنعام، أو يوضع الرجل في حفرة ثم يأتي بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعله نصفين، وقد كانت هناك حجرات للتعذيب لم يعرفها أحد، وقد اكتشفت مؤخراً، لها أبواب خفية تفتح بطريقة ماهرة بواسطة حلقة صغيرة، قد تم اكتشافها على أيدي الجنود الفرنسيين الذين كانوا في إحدى الدوريات لحفظ الأمن، إذ بهم يكتشفون تلك الحجرة فقد ظهر لهم فجأة سلم يؤدي إلى باطن الأرض، وعندما هبط الضابط الفرنسي هو وجنوده على درج السلم حتى وصلوا إلى آخر الدرج؛ فإذا بهم يجدون غرفة كبيرة مرعبة، وهي قاعة المحكمة في وسطها عمود من الرخام به حلقة حديدية ضخمة وربطت بها سلاسل من أجل تقييد المحاكمين بها، وأمام هذا العمود كانت المصطبة التي يجلس عليها رئيس ديوان التفتيش والقضاة لمحاكمة الأبرياء، ثم توجهوا بعد ذلك إلى غرف التعذيب وتمزيق الأجسام البشرية؛ التي امتدت على مسافات كبيرة تحت الأرض.

(١) محاكم التفتيش وإبادة المسلمين في الأندلس. موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

يقول ذلك الضابط الفرنسي: «رأيت فيها ما يستفز نفسى ويدعونى إلى القشعريرة والتقرز طيلة حياتى، رأينا غرفاً صغيرة فى حجم جسم الإنسان بعضها عمودى وبعضها أفقى، فسجين الغرف العمودية يبقى واقفاً على رجليه مدة سجنه حتى يموت، أما سجين الغرف الأفقية فيبقى فيها ممدداً حتى الموت، وتبقى الجثث فى السجن الضيق حتى تبلى ويتساقط اللحم عن العظم وتأكله الديدان، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من جثث الموتى، فتحوا نافذة صغيرة فى الفضاء الخارجى».

وقد عثر الجنود فى هذه الغرف على هياكل بشرية ما زالت فى أغلالها، وكان السجناء رجالاً ونساء تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشر والسبعين، وقد استطعنا إنقاذ عدد من السجناء الأحياء، وتحطيم أغلالهم وهم فى الرمق الأخير من الحياة، وكان بعض هؤلاء السجناء قد أصابه الجنون من كثرة ما عاناه من عذاب، وكان السجناء جميعهم عرايا، ثم انتقل الجنود بعد ذلك إلى غرف أخرى؛ وجدوا فيها ما تقشعر له الأبدان إذ عثروا على آلات رهيبة للتعذيب منها آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم البشرى، وكانت البداية بسحق عظام الأرجل ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجياً حتى يهشم الجسم كله، ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة والدماء الممزوجة باللحم المفروم، هكذا كانوا يفعلون بالسجناء الأبرياء^(١).

ومن وسائل تعذيبهم أيضاً هو ذلك الصندوق وهو فى حجم رأس الإنسان تماماً يوضع فيه رأس الذى يراد تعذيبه بعد أن يربطوا يديه ورجليه بالسلاسل حتى لا يستطيع الحركة وفى أعلى الصندوق ثقب تتقاطر منه نقط الماء البارد على رأس ذلك المسكين بانتظام، وقد جن الكثيرون من هذا اللون من العذاب، ومن وسائل التعذيب أيضاً تابوت تثبت فيه سكاكين حادة يسمى تابوت السيدة الجميلة؛ حيث يلقى فيها الشاب ثم يطبق عليه باب التابوت بسكاكينه وخناجره، فإذا أغلق مزق جسم المسكين وقطعه إرباً إرباً، كما عثر هؤلاء الجنود الفرنسيون على آلات

(١) محمد عبد الله عنان. نهاية الأندلس ص ٣٥٤ وما بعدها.

كالكلاليب تغرز في لسان المعذب ليخرج اللسان معها ليقص قطعة قطعة، وكلاليب تغرس في أئداء النساء وتسحب بعنف حتى تتقطع الأئداء أو تبتتر بالسكاكين، إلى غير ذلك من آلات تعذيب تقشعر لها الأبدان، وتتفتت لها الأكباد، وقد وصل خبر هذه الآلات إلى مدريد فهب الألف ليروا وسائل التعذيب، فأمسكوا برئيس اليسوعيين ووضعوه في آلة تكسير العظام فدقت عظامه دقاً وسحقت سحقاً، وأمسكوا بكاتم سره وزفوه إلى السيدة الجميلة؛ وأطبقوا عليه الأبواب فمزقته السكاكين شراً ممزقاً، وهكذا فعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان^(١).

ثبات مسلمي الأندلس على الإسلام والتضحية في سبيله:

وعلى الرغم من ذلك الاضطهاد الذي مارسه النصارى ضد مسلمي الأندلس «الموريسكيين» إلا أنه كان منهم فئات عضت على دينها بالنواجذ وامتنعت عن التنصير، ودافعوا عن أنفسهم دفاع المستميت، فقاموا بالثورات ضد نصارى قشتالة، ويروى شاهد عيان إبان تلك الفترة أن أهل قرى ونجر والبشرة وأندراش وبلافيق قاموا بشورة عنيفة، إلا أن ملك قشتالة جمع جموعه وأحاط بهم من كل ناحية حتى أخذهم عنوة بعد قتال شديد؛ فقتل رجالهم وسبى نساءهم وصبيانهم ونصرهم واستعبدتهم^(٢).

أما ثورة غرب الأندلس فقد كانت عنيفة، وقد تمسك بها المسلمون ممتنعين عن التنصير، فصمدت وكبدت القشتاليين خسائر فادحة، فيروى ذلك الشاهد الذي عاصر تلك الأحداث أن هؤلاء النفر قد انحازوا إلى جبل منيع وعمر، واجتمعوا فيه بعيالهم وأموالهم وتحصنوا فيه، فجمع عليهم ملك قشتالة جموعه وطمع في

(١) انظر التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام للشيخ محمد الغزالي، محمد عبدالله عنان. نهاية الأندلس، وتاريخ العرب المنتصرين - ليونارد باترك هارفي، تاريخ الموريسكيين السياسى والاجتماعى والثقافى. نبيل عبد الحى رضوان. جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده. مكتبة الطالب الجامعى. مكة المكرمة طبعة أولى. اعتمدنا فى الحديث عن وسائل التعذيب على موسوعة الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم. محاكم التفتيش وإيادة المسلمين فى الأندلس إعداد فراس نور الحق // http : ar.wikipedia

(٢) آخر أيام غرناطة ص ١٣٢.

الوصول إليهم كما فعل بغيرهم؛ فلما دنا منهم وأراد قتالهم خيب الله سعيه ورده على عقبه ونصرهم عليه بعد أكثر من ثلاث وعشرين معركة؛ لأنهم اعتصموا بدينهم والتمسوا النصر من الله، على الرغم من قتلهم، ويقول الراوى: إن هذه الفئة المسلمة قتلت خلقاً كثيراً من رجال وفرسان وكونتات قشتالة، وتذكرنا الفئة المسلمة المتمسكة بدينها بأصحاب الأخدود حيث يقول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَahِدِمْ شَهِودِ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فُتِنُوا بِالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١ - ١٠] كما تذكرنا تصرفات هؤلاء النصارى بغدرهم وخلفهم للوعد وكرهم الشديد للمسلمين، حيث يقول تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاحِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٨، ٩].

إن هؤلاء الموريسكيين قد صبروا كثيراً على الأذى وتحملوا فى سبيل دينهم الكثير والكثير وواجهوا جرائم محاكم التفتيش التى فتكت بأجسامهم وأهليهم وابتلوا ابتلاء شديداً، وإنى بهم لأتذكر قول النبى ﷺ فى الحديث المروى عن خباب قال: أتينا رسول الله ﷺ وهو متوسد برده فى ظل الكعبة فشكونا إليه فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فجلس محمراً وجهه فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض ثم يؤتى بالمنشار فيجعل على رأسه فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب ما بين صنعاء وحضر موت ما يخاف إلا الله تعالى والذئب على غنمه ولكنكم تعجلون» (١).

(١) صحيح وأخرجه البخارى ومسلم.

وهكذا ابتلى مسلمو الأندلس وصبروا واستنصروا الله فلم يستطع ملك قشتالة هزيمتهم أو القضاء عليهم؛ فقد قتل من جنده الكثير والكثير، فلما رأى أنه غير قادر على تلك الفئة المسلمة طلب منهم أن يعطيهم الأمان ويجوزهم لعدوة المغرب مؤمنين، فوافقوا على طلبه وقام بنقلهم إلى عدوة المغرب، إلا أنه لم يصرح لهم شيئاً من متاعهم غير الثياب التي كانت عليهم، وبعد هذه الفعلة النكراء حمد أمر المسلمين ولم يطمع أحد بعد ذلك أن يقوم بدعوة الإسلام آنذاك، وعم الكفر جميع القرى والبلدان وانطفأ من الأندلس نور الإسلام والإيمان! فعلى هذا فليبك الباكون وليتتحب المنتحبون. فإننا لله وإنا إليه راجعون^(١).



(١) انظر آخر أيام غرناطة ص ١٣٢ .

ثالثاً: مسلمو الأندلس يطلبون

العون من المشرق الإسلامى

تطورت الأحداث فى شبه الجزيرة الأيبيرية بعد سقوط غرناطة، فأصبح اهتمام الإسبان ينحصر فى توحيد أراضيهم، وانتزاع ما تبقى للمسلمين بها خصوصاً بعدما خضعت لسلطة واحدة بعد زواج إيزابيلا ملكة قشتالة وفرديناند ملك أراغون، فاندفعت الممالك الأسبانية المتحدة فى تصفية الوجود الإسلامى فى كل إسبانيا، اندفاعاً عجيباً فى جميع النواحي الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية^(١).

وفرضت إسبانيا أقصى الإجراءات التعسفية على المسلمين فى محاولة لتنصيرهم وتضييق الخناق عليهم حتى يرحلوا عن شبه الجزيرة الأيبيرية.

نتيجة لذلك لجأ المسلمون -الموريسكيون- إلى القيام بثورات وانتفاضات فى أغلب المدن الإسبانية، والتي يوجد بها أقلية مسلمة، وخاصة غرناطة وبلنسية وأخمدت تلك الثورات بدون رحمة ولا شفقة من قبل السلطات الإسبانية التي اتخذت وسيلة لتعميق الكره والحقد للمسلمين، ومن جهة أخرى كان من الطبيعى أن يرنو الموريسكيون بأنظارهم إلى ملوك المسلمين فى المشرق والمغرب لإنقاذهم، وتكررت دعوات وفودهم ورسائلهم إليهم للعمل على إنقاذهم مما يعانونه من ظلم، وخاصة من قبل رجال الكنيسة ودواوين التحقيق التي عاثت فى الأرض فساداً وأحلت لنفسها كل أنواع العقوبات وتسليطها عليهم^(٢).

وكانت أخبار الأندلس قد وصلت إلى المشرق فارتج لها العالم الإسلامى، وبعث الملك الأشرف بوفود إلى البابا وملوك النصرانية؛ يذكرهم بأن النصارى الذين هم تحت حمايته يتمتعون بالحرية، فى حين أن أبناء دينه فى المدن الإسبانية يعانون أشد أنواع الظلم، وقد هدد باتباع سياسة التنكيل والقصاص تجاه رعايا

(١) انظر جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس. د. نبيل عبد الحى ص ١٢٥.

(٢) انظر رسالة من مسلمى غرناطة للسلطان سليمان القانونى عبد الجليل التميمى. المجلة المغربية العدد ٣ ص ٢٨.

المسيحيين، إذ لم يكف ملك قشتالة وأراغون عن هذا الاعتداء، وترحيل المسلمين عن أراضيهم ووعدهم بعدم التعرض لهم ورد ما أخذ من أراضيهم، ولم يستجب البابا والملكان الكاثوليكيان لهذا التهديد من قبل الملك الأشرف، ومارسوا خطتهم في تصفية الوجود الإسلامي في الأندلس.

ووجهت إحدى الاستنجات إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني، وقد بدأت هذه الرسالة بتعظيم وإكبار للسلطان ثم إبراز شكواهم التي يتمثل في: توضيح شعور المسلمين المتنصرين نحو الدولة العثمانية، ثم يطلب الموريسكيون بعد ذلك تدخل السلطان بايزيد لإمدادهم وإنقاذهم مما هم فيه، وأن يتوسط لدى السلطان في روما للتخفيف عنهم، ويشير المسلمون المتنصرون من ناحية أخرى إلى أن سلطان مصر قد توسط لدى المسيحيين ليخففوا عنا ولكنهم لم يغيروا شيئاً وظلوا في تشددهم وتعنتهم ومع هذا العذاب وتلك المحنة الشديدة، فقد صمموا على البقاء على دينهم الإسلامي الخفيف، وينهى الشاعر قصيدته التي تضمنت الرسالة بأن يجدد الاستغاثة بالدولة العثمانية ويرجو منهم إنقاذهم وإجلاءهم من تلك البلاد^(١).

وعلى الرغم من حدة تلك الرسالة وحاجة أهلها للإنقاذ إلا أن السلطان بايزيد لم يفعل شيئاً، وقد كان لديه من المشاكل ما يعوق إنقاذ هؤلاء الناس، ومع ذلك فقد قام السلطان بايزيد بالاتصال بالسلطان الأشرف المملوكي سلطان مصر؛ لتوحيد الجهود من أجل مساعدة غرناطة ووقعا اتفاقاً بموجبه يرسل السلطان بايزيد أسطولاً على سواحل صقلية باعتبارها تابعة لمملكة إسبانيا، وأن يجهز السلطان المملوكي حملات أخرى من ناحية إفريقيا، وبالفعل أرسل السلطان بايزيد أسطولاً عثمانياً تحول إلى الشواطئ الإسبانية، وقد أعطى قيادته إلى كمال ريس الذي أدخل الفزع والخوف والرعب في الأساطيل النصرانية في أواخر القرن الخامس عشر^(٢)، كما شجع السلطان بايزيد المجاهدين في البحر بإبداء اهتمامه وعطفه عليهم، وكان المجاهدون العثمانيون قد بدءوا في التحرك لنجدة إخوانهم المسلمين،

(١) الدولة العثمانية، د على الصلابي ص ٢١٥.

(٢) خلاصة تاريخ الأندلس لشكيب أرسلان ص ٢١٣.

وفي الوقت نفسه كانوا يغنمون الكثير من الغنائم السهلة حصولها من النصارى، كذلك وصل عدد كبير من هؤلاء المجاهدين المسلمين أثناء تشييد الأسطول العثماني، ودخلوا في خدمته، بعد ذلك أخذ العثمانيون يستخدمون قوتهم البحرية الجديدة في غرب البحر المتوسط بتشجيع من هؤلاء المجاهدين^(١). وهذا الذي كان في وسع السلطان بايزيد الثاني فعله آنذاك.

لا شك أن الأسرة الحاكمة آنذاك كانت تعاني قلقاً واضطراباً في الحكم ومنها تصرفات السلطان السابق لبازيد المشينة التي كانت سبباً في إعاقة حركة التوسع الإقليمي وعرقلة السلطان بايزيد عن العمل الخلاق، وأصبح اهتمام السلطان منصباً على تعقب أخبار أخيه والعمل على التخلص منه بكافة الوسائل^(٢).

وعلى العموم فقد استطاع بايزيد أن يحرز نصراً بحرياً على البنادقة في خليج لبانيوا لبلاد اليونان عام (٩٠٥هـ / ١٤٩٩م) وفي العام التالي استولى على مدينة لبانتو، وباستيلاء العثمانيين على مواقع البنادقة في اليونان، أقام البابا (إسكندر السادس) بناء على طلب البنادقة - حلفاً ضد العثمانيين مكوناً من فرنسا وإسبانيا، وتعرض العثمانيون لهجوم الأساطيل الثلاثة: الفرنسي، والإسباني والبابوي واستطاعت الدولة العثمانية أن تعقد صلحاً مع البنادقة^(٣).

وكان بايزيد ميالاً للسلام، ونشطت العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية وأوروبا، وكانت من قبل مقصورة على البلاد الواقعة على حدودها، ولكنها أقيمت بينها وبين البابوية وفلورنسا ونابلي وفرنسا وعقد صلحاً مع البنادقة والمجر^(٤).

وقد كان عهد السلطان سليمان القانوني يمثل رأس الهرم بالنسبة إلى قوة الدولة العثمانية ومكانتها بين دول العالم آنذاك؛ ويعتبر عصر السلطان هو العصر الذهبي للدولة العثمانية، حيث شهدت سنوات حكمه من (٩٢٦ - ٩٧٢هـ / ١٥٢٠ -

(١) عبد العزيز الشناوي. الدولة العثمانية دولة مفترى عليها. الجزء الثاني ص ٩٠٤ وما بعدها.

(٢) انظر الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث. إسماعيل أحمد ص ٥٢، ٥٣.

(٣) انظر الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث. المرجع السابق.

(٤) الدولة العثمانية. د علي الصلابي ص ٢١٧.

١٥٦٦م) توسعاً عظيماً لم يسبق له مثيل، وأصبحت أقاليم الدولة العثمانية منتشرة في ثلاث قارات عالمية.

وكان لهذا البروز أثره على دول العالم المعاصرة آنذاك؛ وبالأخص على دول أوروبا التي كانت تعيش انقسامات سياسية ودينية خطيرة، ولهذا تنوعت مواقف الدول الأوروبية من الدولة العثمانية حسب ظروف كل دولة، وكان تشارلز الخامس ملك الإمبراطورية الرومانية المقدسة ينافس فرانسوا الأول ملك فرنسا على كرسى حكم الإمبراطورية الرومانية، وكان البابا ليو العاشر منافساً للراهب الألماني مارتن لوثر زعيم المقاومة البروتستانتية.

وكانت بلغراد تعاني من اضطرابات داخلية بسبب صغر سن ملكها لويس الثانى مما أدى إلى نشوب النزاع بين الأمراء.

ولهذا رأى فرانسوا الأول أن يستغل مكانة الدولة العثمانية وقوتها ويكسبها صديقاً له، فوقف منها موقف التودد والرغبة فى الوفاق معتقداً أن الدولة العثمانية هى التى ستحد من طموحات تشارلز الخامس وتوقفه عند حده، ومما يثبت هذا التوجه الفرنسى ما ذكره للسفير الفرنسى عندما قال: (سعادة السفير لا يمكننى أن أنكر أننى أرغب بشدة فى أن أرى الأتراك أقوياء جداً ومستعدين للحرب، ليس فقط لمصلحة السلطان العثمانى الذاتية، بل لإضعاف قوة الإمبراطور تشارلز الخامس وتكليفه غالياً، وإعطاء جميع الحكومات الأمن والأمان ضد عدو عظيم كهذا الإمبراطور تشارلز).

وبدأت مفاوضات فرنسا مع الدولة العثمانية بعد معركة (بافيا) التى أسر فيها ملك فرنسا (فرانسوا الأول) عام ١٥٢٥م، فأرسلت والدته والوصية على العرش مبعوثها (جون فرانجيباني) ومعه خطاب منها وخطاب من الملك الأسير يطلبان فيهما مهاجمة قوات عائلة الهابسبرج وإطلاق سراح الأسير^(١).

وعلى الرغم من أن الأسير أطلق بموجب معاهدة تم عقدها فى مدريد بين

(١) انظر موقف أوروبا من الدولة العثمانية. د. يوسف الثقفى ص ٤٧.

فرنسا وأسرة الهابسبرج سنة ١٥٢٦م، إلا أن فرانسوا بعد إطلاق سراحه أرسل في عام (٩٤١هـ / ١٥٣٥م) سكرتيه (جان دي لافوريه) إلى السلطان سليمان بهدف عقد تحالف في شكل معاهدة^(١)، سميت فيما بعد (بمعاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية) ونظراً لما ستكون عليه هذه المعاهدة من أهمية كبرى نورد هنا أهم نصوصها:

- ١- حرية التنقل والملاحة في سفن مسلحة وغير مسلحة بحرية تامة.
- ٢- حق التجارة والمتاجرة في كل أجزاء الدولة العثمانية بالنسبة إلى رعايا ملك فرنسا.
- ٣- تدفع الرسوم الجمركية وغيرها من الضرائب مرة واحدة في الدولة العثمانية.
- ٤- الضرائب التي يدفعها الفرنسيون في الدولة العثمانية هي نفسها التي يدفعها الرعايا الأتراك.
- ٥- حق التمثيل القنصلي مع حصانة للقنصل ولأقاربه والعاملين معه.
- ٦- من حق القنصل الفرنسي النظر في القضايا المدنية والجنائية التي يكون أطرافها من رعايا ملك فرنسا، وأن يحكم في هذه القضايا وإنما للقنصل الحق في الاستعانة بالسلطات المحلية لتنفيذ أحكامه.
- ٧- في القضايا المختلفة التي يكون أحد أطرافها رعية من رعايا السلطان العثماني، لا يستدعى ولا يستجوب رعية الملك الفرنسي ولا يحاكم إلا بحضور ترجمان القنصلية الفرنسية.
- ٨- إفادات رعية الملك في القضايا مقبولة ويؤخذ بها عند إصدار الحكم.
- ٩- حرية العبادة لرعايا الملك.
- ١٠- منع استعباد رعية الملك.

وكان من نتائج هذه المعاهدة زيادة التعاون بين الأسطولين الفرنسي والعثماني، وشن الأسطول العثماني هجمات قوية على شواطئ مملكة نابولي التي كانت تابعة

(١) المصدر السابق.

لـ (شارت كنت) وفي عام (١٥٤٣م) تجمعت وحدات الأسطولين العثماني والفرنسي وهاجمت (نسير) التابعة لدوق سافوي حليف شارل كنت^(١).

واستفادت فرنسا من تقاربها مع الدولة العثمانية عسكرياً واقتصادياً وسياسياً، واتخذت من المعاهدة السابقة وسيلة لفتح أبواب التجارة من المشرق دون الخضوع للاحتكار التجاري الذي فرضته البرتغال بعد اكتشافها طريق رأس الرجاء الصالح، كما حصلت بموجبها على الحق الكامل في الحماية تحت علمها رعايا الدول الغربية الأخرى مما جعل لها مكانة مرموقة بين دول الغرب الأوربي.

هذه المعاهدة بكل أسف لم يستفد منها رعايا الدولة العثمانية وكأنها عقدت فقط لتلبية المطالب الغربية، وتحقيق مصالح الأعداء دون مقابل يذكر، وقد كانت هذه المعاهدة الأساس الذي بنى عليه وسار على نهجه الكثير من المعاهدات التي عقدت فيما بعد بين الدولة العثمانية والدول الأوربية بصفة عامة.

لم يستطع ملك فرنسا أن يلتزم بالعهود مع الدولة العثمانية بسبب الرأي العام النصراني، فيضطر إلى التراجع ونقض العهود ثم يعود من جديد فيستجدي عطف وتأيد العثمانيين فيثور عليه الرأي العام، والحقيقة التاريخية تقول: إنه لا يمكن للصليبيين أعداء الإسلام أن يتخلى بعضهم عن بعض أمام التحدي القوي لهم، وإن كانوا مختلفين ظاهرياً تبعاً للمصالح والأهواء.

وإن أعداء الإسلام من الصليبيين الحاقدين لا أحلاف ولا مساوئيق لهم في تعاملهم مع المسلمين كما بين لنا الله عز وجل في كتابه الكريم، وحينما تتبين لهم بادرة ضعف عند المسلمين فإنهم سرعان ما يقوى ساعدتهم كي يجهزوا عليهم وهم في الوقت نفسه لا يسمحون لحاكم منهم مهما كان اتجاهه أو وضعه أن يتعاون مع المسلمين، وأنه مهما اختلفت المصالح، فهم جميعاً يتفقون في محاربة هذا الدين وتقتيل أهله في كل زمان ومكان^(٢).

(١) انظر موقف أوروبا من الدولة العثمانية ص ٤٧.

(٢) تاريخ الدولة العثمانية د. علي حسون ص ٧٥.

لقد كانت تلك الامتيازات التي أعطيت للدولة الفرنسية أول إسفين يدق في نعش الدولة العثمانية ظهرت آثاره البعيدة فيما بعد.

وفي أواخر أيام الدولة العثمانية صارت دول أوروبا النصرانية تتدخل في شؤونها تحت حماية الامتيازات، وللدفاع عن نصارى الدولة الذين كانوا يعدون رعايا للدول الأجنبية وخاصة في بلاد الشام.





مجاهدة قوات العثمانيين لقوات إسبانيا وأوروبا

[البداية والتمكين]

أولاً: سيطرة البحرية العثمانية على حوض البحر المتوسط.

ثانياً: مسلمو الأندلس وشمال إفريقيا يستغيثون بالدولة العثمانية.

ثالثاً: العثمانيون يعيدون تونس إلى رحاب الجبهة الإسلامية.

رابعاً: أهل طرابلس يستغيثون بالدولة العثمانية من فرسان القديس يوحنا.

خامساً: الصراع للسيطرة على مضيق جبل طارق.

أولاً: سيطرة البحرية العثمانية على حوض البحر المتوسط

من الخدمات الجليلة التي أسدتها الدولة العثمانية للإسلام والعروبة؛ أنها حافظت على إسلام وعروبة سكان شمال إفريقيا من أخطار الغزو الصليبي الاستعماري الأوربي، الذي حملت لواءه البرتغال وإسبانيا والمنظمة الصليبية التي اشتهرت باسم فرسان القديس يوحنا، وكانت قد اتخذت لها في نهاية المطاف من جزيرة مالطة مستقراً ومقاماً. وكان من أهداف هذا الغزو أيضاً إنشاء ممالك مسيحية تتناثر على الساحل الشمالي لإفريقية تكون خطوطاً متقدمة لتثبيت أقدامهم في تلك البلاد، وبذلك يغدو البحر المتوسط في المدى البعيد بحيرة مسيحية أوربية، ويعقب ذلك في مرحلة أخرى تغلغل صليبي أوربي جنوباً في داخل القارة الإفريقية. ولكن تصدت الدولة العثمانية لهذه المشروعات الصليبية الاستعمارية فأصبحت أحلاماً وغدت هباء منثوراً^(١).

بسطت الدولة العثمانية سيادتها على ثلاثة أقاليم في شمال إفريقيا في القرن السادس عشر. وكانت حسب ترتيب دخولها تحت السيادة العثمانية: الجزائر وطرابلس، وتونس. ولم تمد الدولة نفوذها إلى مراكش - المملكة المغربية حالياً - لأسباب سنعرض لها في موضع آخر.

كان سكان تلك الأقاليم وبخاصة طرابلس والجزائر، قد استنجدوا بالدولة العثمانية على أساس أنها أكبر وأقوى دولة إسلامية اكتسحت دولا أوربية عديدة وفتحت مصر والشرق العربي الآسيوي. وطالب سكان شمال إفريقيا بإنقاذهم من الزحف الصليبي الاستعماري الأوربي الذي كان خطره يتفاقم يوماً بعد يوم. واستجابت الدولة لاستغاثاتهم. ولذلك لم يكن دخول العثمانيين إلى شمال إفريقيا نتيجة معارك حربية خاضتها القوات المسلحة العثمانية ضد أهالي البلاد أو تدخل مباشر من حكومة إستانبول على غرار ما حدث في الشام أو مصر أو العراق، ولكنهم فتحوها منقذين للسكان من أخطار القضاء على دينهم وطمس

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، د/ عبد العزيز محمد الشناوي ج ٢ ص ٨٦٤.

عروبتهم وتحويل بلادهم إلى جزء من العالم المسيحي. أما تونس فكان الوضع فيها يختلف اختلافاً جزيئياً عن الوضع في الجزائر وطرابلس. اشتد الصراع عليها بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الرومانية المقدسة وكان على رأسها الإمبراطور شارل الخامس. تبادلت الدولتان الهزيمة والانتصار أكثر من مرة. وفي إحدى المرات التي انتصر فيها الإمبراطور أقامت البابوية في روما احتفالات رائعة ابتهاجاً بانتزاع تونس من المسلمين. ونجح الإمبراطور في أن يصنع من أحد الأمراء، وهو مولاي الحسن الحفصى، عميلاً للاستعمار وقبل أن يحكم تونس باسم الإمبراطور وتحت حمايته^(١).

ولما انتزعت الدولة العثمانية تونس عام ١٥٦٩م وأعادتتها إلى رحاب الكتلة الإسلامية دفعت الدولة العثمانية ثمنًا باهظاً. فقد تكون تحالف دولي صليبي ضدها أوقع بها هزيمة بحرية فادحة في معركة ليانت البحرية عام ١٥٧١م، وشجعت هذه الهزيمة إسبانيا على إعادة غزو تونس وإعادة حكم الحفصيين إليها. ولكنهم لم يحتفظوا بمركزهم سوى عام واحد وعاد إليها العثمانيون سنة ١٥٧٤م ليستقر حكمهم فيها وليؤسسوا النيابة الثالثة والأخيرة في شمالي إفريقيا.

كان من الطبيعي أن يقوم الأسطول العثماني بدور رئيس في هذا الصراع الذي احتدم بين الجانبين الصليبي والإسلامي في شمال إفريقيا. فالقوات الصليبية كانت تأتي من أوروبا عبر البحر المتوسط إلى الأقاليم الشمالية للقارة الإفريقية. وكانت الأساطيل الإسبانية وقوات فرسان القديس يوحنا في رودس أولاً ثم في مالطة ثانياً وغيرها من القوى البحرية تتردد على القواعد العسكرية التي أنشأها الصليبيون وتناثرت على طول الساحل الشمالي لإفريقية من مراكش حتى طرابلس. وكان الأسطول العثماني في القرن السادس عشر يعمل متعاوناً مع القوات البحرية التي كان يقودها قادة محليون نشأوا في خدمة الأسطول العثماني.

وقد كان البرتغاليون والإسبانيون يشنون حروباً متصلة على أقاليم شمالي

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٨٦٥.

إفريقية باعتبارها بلاداً إسلامية تحوى رصيذاً بشرياً إسلامياً هائلاً يشد أزر مسلمى الأندلس فى جهادهم الدينى . فكان هدفهم العاجل احتلال شمالى إفريقية للفصل بين المغاربة المتمركزين على الساحل الشمالى للقارة الإفريقية وبين المسلمين فى الأندلس . أما أهدافهم الصليبية التالية فكان من بينها تحويل المغاربة إلى المسيحية وطمس عروبتهم . وقد دل هذا الهدف المزدوج على أن أحلام اليقظة كانت تراود البرتغاليين والإسبانيين . لأن تنصير مسلمى شمالى إفريقية وطمس عروبتهم كانا أمرين فى حكم الاستحالة تنفيذهما . كان دخول الإسلام وانتشاره فى شمالى إفريقية عاملين مهمين فى تعريب الجماعات التى تقطن هذه الأرجاء الشاسعة .

وكان انتشار الإسلام فيها قد بدأ مبكراً . ولم تلبث القيروان أن أصبحت منذ أواخر القرن الأول الهجرى أى القرن السابع الميلادى مركزاً مهماً للثقافة الإسلامية العربية يتلقى فيه الدراسون مبادئ الشريعة الإسلامية ويدرسون اللغة العربية والأدب العربى ، ثم يخرجون إلى جماعات البربر فيعلمونهم أصول الدين ويقرءونهم القرآن الكريم وينشرون بينهم اللغة العربية . واقتربت تلك الأهداف الصليبية بهدف اقتصادى هو انتزاع التجارة الإفريقية من أيدي المسلمين والاستيلاء على موارد الثروة الطبيعية فى البلاد والتوغل جنوباً فى الداخل . وكانت كفة البرتغاليين راجحة فى هذا الصراع الصليبي ، إذ احتلوا عام ١٤١٥م مدينة سبتة فى أقصى الساحل الشمالى لإفريقية من ناحية الغرب فى مواجهة بوغاز جبل طارق .

وكان احتلالهم لهذا الموقع الإستراتيجى المهم أمراً بالغ الخطورة ، لأن احتلال البرتغاليين لهذه المدينة كان من بين الأسباب التى أعاققت سكان شمالى إفريقية عن تعزيز القوات الإسلامية فى الأندلس عن طريق بوغاز جبل طارق . ولذلك حرص البرتغاليون والإسبانيون من بعدهم على الاحتفاظ بهذا الموقع . ثم احتل البرتغاليون سنة ١٤٢٨م مدينة طنجة فى غربى سبتة لإحكام الحصار حول المعبر الجنوبى لشبة جزيرة أيبيريا عن طريق بوغاز جبل طارق . وأقام البرتغاليون مؤسسة تجارية لهم فى وهران (١٤٨٣ - ١٤٨٧م) .

وعلى الرغم من هذا التوفيق الذى لازم البرتغاليين فى صراعهم الصليبي ضد مسلمى شمالى إفريقيا، كان خطرهم أقل من خطر الإسبانيين؛ لأن البرتغاليين اتجهوا بعد فترة نحو الساحل الغربى لإفريقية حيث ركزوا نشاطهم وأنشأوا لهم قواعد عسكرية. وهو الاتجاه الذى أسفر فى النهاية عن وصولهم بحراً إلى رأس العواصف - رأس الرجاء الصالح - وانتهى بهم إلى الوصول بحراً إلى هذا الموقع. وخاضوا صراعاً صليبيّاً ضارياً ضد الكيانات الإسلامية على ساحل ملبار ومنطقة الخليج العربى وجنوبى شبه الجزيرة العربية وغيرها.

أما الإسبانيون فكانوا ينفذون وصية الملكة إيزابيلا الأولى التى كتبتها قبل وفاتها عام ١٥٠٤م، وكان مما جاء فيها: (إنى أرجو من الأميرة ابنتى والأمير زوجها، وأمرهما بطاعة وصايا الكنيسة أمنا المقدسة. فعليهما أن يقوما بحمايتها وألا يكفا عن المضى فى فتح إفريقية ومحاربة الكفار)، وكانت تقصد المسلمين واليهود بكلمة الكفار. وكانت هذه الملكة لشدة تعصبها للمذهب الكاثوليكي قد عرفت فى التاريخ باسم (الملكة إيزابيلا الأولى الكاثوليكية) وكان زوجها على شاكلتها وعرف باسم فرناندو الخامس الكاثوليكي. وقد توفى عام ١٥١٦م. وقد أطلق الإسبانيون على الحرب بينهم وبين مسلمى شمالى إفريقيا حرب الاسترداد^(١). وهى تسمية تنطوى على التحدى والمغالطة، لأنه لم يسبق لهم الاستيلاء على أقاليم شمالى إفريقيا.

احتل الإسبانيون عام ١٥٠٥م المرسى الكبير فى غربى الجزائر وقتلوا أربعة آلاف مسلم وأسروا ثمانية آلاف آخرين، واحتلوا مليلة ومدينة الجزائر^(٢) وفى عام ١٥٠٨م احتلوا حجر باديس. وفى العام التالى استولوا على بجاية وفى سنة ١٥١٥م احتلوا ميناء طرابلس وقاموا بتدمير منشآت المدينة، كما استولوا على وهران وغيرها من المدن الساحلية^(٣). وعلى هذا النحو تناثرت على طول الساحل الشمالى لإفريقية ابتداء من طرابلس إلى المغرب الأقصى محطات عسكرية اتخذها الإسبانيون ومن قبلهم البرتغاليون جيوباً صليبية.

(١) دكتور محمد خير فارس: تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثمانى إلى الاحتلال. ط ١ سنة ١٩٦٩ ص ١٣.

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٩٠١.

(٣) دكتور جلال يحيى: المغرب الكبير وهجوم الاستعمار ج ٣ ص ١٥.

ثانياً: مسلمو الأندلس وشمال إفريقيا

يستغيثون بالدولة العثمانية

وفي ذلك الوقت - قبل سقوط الحكم الإسلامي في الأندلس وفي أثناء الحروب الصليبية الضارية التي أشعلها البرتغاليون والإسبانيون، في شمال إفريقيا - ترامت إلى مسامع المسلمين في هذه الأقطار الانتصارات الباهرة التي أحرزتها الدولة العثمانية إلى ذلك الوقت في أوروبا وآسيا وما تخللها من نجاح السلطان محمد أبي الفتوح أو السلطان الفاتح محمد الثاني في فتح القسطنطينية؛ فاشترأت أعناق أهل الأندلس إليه وإلى خلفائه ودارت اتصالات بين الجانبين ناشد فيها مسلمو الأندلس وشمال إفريقيا سلاطين الدولة تقديم معونات عسكرية لهم في نضالهم ضد الصليبية الأيبرية. واتجهوا أيضاً إلى دولة المماليك الشراكسة في مصر وإلى مراکش من أجل هذا الهدف كما سنوضح الآن.

(أ) أهل غرناطة يستنجدون بالسلطان محمد أبي الفتوح؛

أرسل أهل غرناطة في منتصف عام ١٤٧٧م - أي قبل سقوطها بإحدى عشرة سنة كآخر معقل إسلامي في الأندلس - سفارة إلى إستانبول وجهوا فيها نظر السلطان محمد أبي الفتوح إلى تدهور أحوال المسلمين في الأندلس وناشدوه التدخل لإنقاذهم^(١). ولكن كان في حكم الاستحالة أن يستجيب السلطان محمد أبو الفتوح لهذه الاستغاثة، لأنه كان هو الآخر كما سبق أن ذكرناه منصرفاً إلى مواجهة تحالف صليبي يهدد دولته بأفدح الأخطار. وقد ضم هذا التحالف البابا سكست الرابع (١٤٧١-١٤٨٤م) وجمهورية البندقية، وحكام نابولي، والمجر، وترانسلفانيا، وفرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس، وعدداً من الزعماء الألبانيين الذين كانوا لا يزالون يضمرون عداً شديداً للدولة العثمانية. واستولت القوات المتحالفة على أزمير، وحالت دون استيلاء العثمانيين على ليانت وكان تابعاً

(١) دكتور عبد الجليل التميمي. بحث عنونه: من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة ١٤٥١م منشور في المجلة التاريخية المغربية تونس. العدد الثالث ص ٣٧ وما بعدها.

لجمهورية البندقية. ولم تضع الحرب أوزارها إلا سنة ١٤٧٩م. وشرع السلطان محمد أبو الفتوح لتوه يعد مشروعاً لفت روما عاصمة البابوية الكاثوليكية، واتجه بقوات إلى أوترنت في مملكة نابولي عام ١٤٨٠م ليتخذ منها قاعدة للزحف على روما. ولكنه جاز إلى ربة في اليوم الثاني من شهر مايو -آيار- عام ١٤٨٠م^(١).

وإلى ناحية أخرى اتجه مسلمو غرناطة في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي إلى السلطان الملك الأشرف قايتباي (١٤٦٨ - ١٤٩٦م) سلطان دولة المماليك الشراكسة يرجون تدخله لإنقاذهم من الملوك المسيحيين. وقد أرسل الأشرف قايتباي وفوداً إلى البابا وإلى ملوك الدون الأوربية يذكرهم بأن المسيحيين في أرجاء دولته يتمتعون بكافة الحريات، في حين أن إخوانه في الدين في مدن إسبانيا يتعرضون لألوان شتى من الظلم. وهدد على لسان مبعوثيه بأنه سوف يتبع سياسة المعاملة بالمثل، وهي التنكيل بالمسيحيين إذا لم يكف حكام قشتالة وأراجون وغرناطة عن هذه السياسة الحمقاء وعن طرد المسلمين من أراضيهم وطالب بعدم التعرض لهم ورد ما أخذ من أراضيهم^(٢). ولكن لم يكن لهذا التهديد أو الوعيد أي أثر في تغير الموقف العام للإسبانيين والبرتغاليين تجاه المسلمين سواء في الأندلس أو في شمالي إفريقيا.

(ب) أهل الأندلس يستنجدون بالسلطان بايزيد الثاني:

واستنجد مسلمو الأندلس مرة أخرى بعد وفاة السلطان محمد أبي الفتوح بابنه السلطان أبي يزيد الثاني (١٤٨٠ - ١٥١١م) ولكن تراجعت على السلطان الجديد الأزمات الداخلية والخارجية مثل مشكلة نزاعة على العرش مع أخيه الأمير جم وما أثاره هذا النزاع من مشكلات مع البابوية في روما وبعض الدولة الأوربية، ثم هجوم البولنديين على مولدافيا - جزء من رومانيا حالياً - والحروب في ترنسلفانيا والمجر وجمهورية البندقية وتكون تحالف صليبي آخر ضد الدولة من البابا «جيل الثاني» وجمهورية البندقية والمجر وفرنسا وما أسفر عنه هذا التحالف من حرب

(١) الدولة العثمانية دولة عثمانية مفترى عليها ج ٢ ص ٩٠٣.

(٢) دكتور عبد الجليل التميمي بحثه السابق العدد الثالث لعام ١٩٧٥.

تنازلت الدولة العثمانية فى نهايتها عن بعض ممتلكاتها . وانتهى حكم السلطان أبى يزيد بصراع مع أبنائه أسفر عن خلعه وقتله مسموماً^(١).

وتوالى نداءات أهل الأندلس للملوك المغرب، غير أن الأوضاع الداخلية التى كان عليها المغرب وخضوع ابن وطاس لإسبانيا وعقد معاهدة سنة ١٥٣٨م معها، وازدياد النفوذ الإسباني البرتغالى على السواحل المغربية، كل هذا جعل من المستحيل القيام بإجراء حازم وفعال لنصرة أهل الأندلس، وإنقاذهم من المأساة التى تعرضوا لها فسقطت غرناطة عام ١٤٩١م وطويت صفحة الحكم الإسلامى فى شبه جزيرة أيبيريا.

نخلص من هاتين الاستغاثتين المتلاحقتين للسلطان محمد أبى الفتوح والسلطان أبى يزيد الثانى إلى أن الدولة العثمانية لم تستطع لظروفها الداخلية من ناحية والقوات الصليبية التى واجهتها من ناحية أخرى أن تمد يد المساعدة لمسلمى الأندلس لإنقاذهم من الوقوع فى براثن الصليبية الإسبانية. وبقي مسلمو شمالى إفريقيا يواجهون ضراوة الصليبية الإسبانية بالذات.

ج- سكان مدينة الجزائر يرسلون رسالة استغاثة للسلطان سليم الأول،

قام الأستاذ الدكتور/ عبد الجليل التميمى بترجمة وثيقة تركية محفوظة فى دار المحفوظات التاريخية بإستانبول - طوب قابى سيراى - تحت رقم (٤٦٥٦)، وهذه الوثيقة عبارة عن رسالة موجهة من سكان بلدة الجزائر على اختلاف مستوياتهم، ومؤرخة فى أول شهر ذى القعدة عام ٩٢٥هـ فى الفترة من ٢٦ من شهر أكتوبر تشرين الأول إلى ٣ من شهر نوفمبر تشرين الثانى عام ١٥١٩م، وكتبت بأمر من خير الدين لربط الجزائر بالدولة العثمانية، وجاء فى الرسالة أن خير الدين كان شديد الرغبة فى أن يذهب بنفسه إلى إستانبول ليعرض على السلطان سليم الأول شخصياً أبعاد قضية الجزائر، ولكن زعماء مدينة الجزائر توسلوا إليه أن يبقى فيها كى يستطيع مواجهة الأعداء إذا تحركوا، وطلبوا منه أن يرسل سفارة تقوم بالنيابة

(١) دكتور عبد العزيز الشناوى: أوروبا فى مطلع العصور الحديثة الطبعة الأولى ص ٦٦٩ - ٦٧٩.

عنه، وكانت الرسالة التي حملتها البعثة موجهة باسم القضاة والخطباء والفقهاء الأئمة والتجار والأعيان وكافة سكان مدينة الجزائر العامرة وهي تفيض بالولاء العميق للدولة العثمانية، وكان الذي يتزعم السفارة (الفقيه العالم الأستاذ أبو العباس أحمد بن قاضي) وكان من أكبر علماء الجزائر، كما كان قائداً عسكرياً وزعيماً سياسياً؛ وكان بمقدوره أن يصور أوضاع بلاده والأخطار التي تحيط بها من كل جانب

لقد أشاد الوفد بجهد بابا عروج في مدافعة الكفار؛ وكيف كان ناصراً للدين وحامياً للمسلمين، وتكلموا عن جهاده حتى وقع شهيداً في حصار الإسبانيين لمدينة تلمسان، وكيف خلفه أخوه المجاهد في سبيل الله أبو التقى خير الدين، وكان له خير خلف، فقد دافع عنا، ولم نعرف منه إلا التعظيم والإجلال، ويكرس نفسه وماله للجهاد لإرضاء رب العباد وإعلاء كلمة الله ومناط آماله سلطتكم مظهراً لإجلالها وتعظيمها، وأهالي إقليم بجاية والشرق والغرب في خدمة مقامكم العالي وإن المذكور حامل الرسالة المكتوبة سوف يعرض على جلالكم ما يجري في هذه البلاد من الحوادث والسلام.

إن مضمون الرسالة السابقة تبين للباحث آراء الجزائريين تجاه الدولة العثمانية، وكانت من تلك الآراء:

- أن خير الدين يمثل الحاكم المسلم الأمثل في شمال إفريقيا، فهو يحترم وينفذ مبادئ الشريعة الإسلامية ويتخذ من العدل سرعة ومنهاجاً له في الحكم.
- أن نشاطه يتركز في قيادة عمليات الجهاد ضد النصارى.
- أنه يكن للدولة العثمانية وسلطانها كل تقدير واحترام.
- تدل الرسالة على تماسك الجبهة الداخلية، ووضوح الهدف أمام مسلمي الجزائر.
- تكشف الدراسة التحليلية للرسالة التي بعث بها أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول عن آراء واتجاهات خير الدين ياربروس تجاه الدولة العثمانية، وكان من بينهما:

أولاً: أن خير الدين يمثل الحاكم المسلم الأمثل في شمال إفريقيا، فهو يحترم وينفذ مبادئ الشريعة الإسلامية، ويتخذ من العدل شرعة ومنهاجاً له في الحكم.

ثانياً: أن نشاطه يتركز في قيادة عمليات الجهاد الديني الإسلامي.

ثالثاً: أنه يكن للسلطان كل تقدير، وللدولة العثمانية ولاء بدون حدود.

رابعاً: أنه شديد الرغبة في الحصول على مساعدات عسكرية في المقام الأول من الدولة العثمانية.

خامساً: سلامة وتماسك الجبهة الداخلية مع وضوح وحدة الهدف أمام المواطنين.

نجحت البعثة الجزائرية في تحقيق أهدافها. فقد سارع السلطان سليم الأول إلى منح رتبة بكлер بك إلى خير الدين باربروس. وهي رتبة تخول صاحبها اختصاصات إدارية واسعة ومتشعبة كما تجعله قائداً أعلى للقوات المسلحة في إقليمه ممثلاً للسلطان. وكان من مدلولات منح هذه الرتبة الرفيعة^(١) أن بلاد الجزائر أو المنطقة التي كان يحكمها خير الدين في ذلك الوقت والتي قد يمتد إليها نفوذه ونفوذ خلفائه في قابل الأيام تصبح تحت السيادة العثمانية، وأن أي اعتداء خارجي على أراضيها يعتبر اعتداء على الدولة العثمانية. ودعم السلطان سليم هذا القرار بقرارات تنفيذية، إذ أرسل إلى خير الدين قوة من سلاح المدفعية العثمانية. وكان هذا السلاح من أقوى أسلحة الجيش العثماني كفل له الانتصار على جيش دولة المماليك الشراكسة في معركة مرج دابق (١٥١٦م)، كما أرسل ألفين من الجنود الإنكشارية. وكانت الفيالق الإنكشارية، كما نعرف - تعد من خيرة الجنود البيادة - المشاة - في القوات المسلحة العثمانية. ومنذ ذلك الوقت (١٥١٩م) بدأ الإنكشارية يظهرون في الحياة السياسية والعسكرية في الأقاليم العثمانية في شمال إفريقيا بحيث أصبحوا عنصراً بارزاً ومؤثراً في سير الأحداث بعد أن كثر إرسالهم إلى تلك الأقاليم؛ عندما استبان للسلاطين بوادر تمردهم، وأنهم غدوا مركزاً خطيراً من مراكز القوى في الدولة.

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٩١١.

وأذن السلطان سليم أيضاً في ذات الوقت لمن يشاء من رعاياه المسلمين في السفر إلى الجزائر والانخراط في صفوف المجاهدين، وقرر منح المتطوعين الذين يذهبون إلى الجزائر الامتيازات المقررة للفيالق الإنكشارية^(١)؛ تشجيعاً لهم على الانضمام إلى كتائب المجاهدين. وقد أقبل سكان الأناضول على السفر إلى الجزائر والتطوع في عمليات الجهاد. سواء أكان الدافع لهم هو النزعة الدينية الجياشة والمتأصلة في نفوسهم انتصاراً لدينهم أم الرغبة في الحصول على نصيبهم من مغانم وفيرة.

فقد ترتبت على القرارات التي اتخذها السلطان سليم الأول عدة نتائج مهمة كان من بينها:

- اعتبرت الجزائر رسمياً تحت السيادة العثمانية اعتباراً من عام ١٥١٩م ودعى للسلطان سليم على المنابر في المساجد وضربت العملة باسمه.

- لم يكن دخول القوات العثمانية غزواً أو فتحاً عسكرياً ضد رغبة أهل البلدة؛ لأن إرسال القوات العثمانية جاء نتيجة استغاثة أهل الجزائر بالدولة العثمانية واستجابة لرغبتهم.

- إن إقليم الجزائر كان أول إقليم من أقاليم شمال إفريقيا يدخل تحت السيادة العثمانية. وأصبحت الجزائر ركيزة حربية للدولة العثمانية لتمد نفوذها بعد ذلك إلى إقليمين آخرين هما طرابلس وتونس إنقاداً لأقاليم إسلامية عربية تعرضت لغزو صليبي منظم وعنيف من سكان شبه جزيرة أيبيريا.

وهكذا بدأ السلطان سليم الأول يمد نفوذه إلى الجزائر للحفاظ على هوية ذلك البلد العربي المسلم، لكن السلطان سليم قضى نحبه في اليوم الثاني والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٥٢٠م تاركاً لابنه السلطان سليمان المشرع مهمة توطيد السيادة العثمانية على إقليم الجزائر ومد هذه السيادة إلى إقليمين آخرين هما طرابلس وتونس.

(١) دكتور أرجمند كوران السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ص ١١.

صعوبة موقف خير الدين:

كان أمام خير الدين باربروس فى وضعه السياسى والعسكرى الجديد أن يحارب فى جبهتين:

أولاً: الجبهة الإسبانية لطرده الإسبانين من الجيوب التى أقاموها على ساحل الجزائر. وقد أصاب فى هذه الجبهة نجاحاً كبيراً فضم إليه عنابة وقالة فى شرقى الجزائر، ثم حقق انتصاراً باهراً على الإسبانين حين استولى عام ١٥٢٩م على حصن بينون الإسبانى المقام على الجزيرة المواجهة لبلدة الجزائر؛ وقد استمر يقصف الحصن بقذائف مدافعه طوال عشرين يوماً حتى تداعت جوانبه، ثم اقتحم الحصن مع قوات كثيفة العدد كانت تحملها خمس وأربعون سفينة جاءت من الساحل وأسر قائد الحصن مارتين دى فرج مع كبار ضباطه؛ واقتيدوا إلى قصر خير الدين حيث تعرضوا لمهانة إذ أمر بضربهم بالعصى ضرباً مبرحاً.

ثم أقام خير الدين حاجز أمواج يصل أطلال الحصن والجزيرة بالساحل ويستخدم من ناحيته الداخلية كرصيف للسفن؛ وبذلك أوجد ميناء حصينا وآمناً ترفأ إليه السفن. وإذا كانت سنة ١٥١٩م تعد بداية وصول النفوذ العثمانى رسمياً إلى شمالى إفريقية، فإن استيلاء خير الدين على بينون سنة ١٥٢٩م يعد بداية ما عرف باسم نيابة الجزائر. فمنذ ذلك التاريخ تحول ميناء الجزائر إلى عاصمة كبرى للمغرب الأوسط بل ولكل شمالى إفريقية العثمانية بنياباتها الثلاث. وبدأ استخدام مصطلح الجزائر للدلالة على إقليم المغرب الأوسط^(١). ولكن ظلت وهران قاعدة إسبانية تهدد الجزائر حتى نهاية القرن الثامن عشر (١٧٩٢م).

ثانياً: الجبهة الداخلية وكانت تتمثل فى محاولة توحيد المغرب الأوسط، وقد تعرض كما ذكرنا لمؤامرات بنى زيان والحفصيين ومن بعض القبائل الصغيرة. ولكنه استطاع مد منطقة نفوذه باسم الدولة العثمانية. ورأت الكيانات العربية فى دخولها تحت السيادة العثمانية سياجاً يحميها من تعرضها للأطماع الصليبية الإسبانية ومن

(١) دكتور صلاح العقاد: المغرب العربى فى بداية العصور الحديثة. مكتبة الأنجلو. طبعة ثالثة ص ٢٢.

قهرها على اعتناق المسيحية، ولهذا أعلنت تبعيتها للدولة العثمانية. وما لبث أن مد خير الدين النفوذ العثماني إلى بعض المدن الداخلية المهمة مثل قسنطينة.

وقد نجح خير الدين باربروس نجاحاً بعيداً في إنشاء هيكل دولة قوية في الجزائر بفضل المساعدات العسكرية التي كان يتلقاها من السلطان سليمان المشرع، واستطاع أن يوجه ضربات قوية للسواحل الإسبانية. وكانت جهوده مثمرة في حركة إنقاذ آلاف المسلمين في إسبانيا -الموريسكيين- من الإفلات من قبضة الحكومة الإسبانية وللجوء إلى شمالي إفريقيا. فقام في سنة ١٥٢٩م بتوجيه ست وثلاثين سفينة خلال سبع رحلات إلى السواحل الإسبانية لنقل سبعين ألف مسلم^(١) مما جعل مسلمي غرناطة وبلنسية وغيرهما يستنجدون بخير الدين لإنقاذهم^(٢). واستطاع أن يجعل الجزائر قاعدة عثمانية لصد الهجوم الإسباني.

ولما كان خير الدين يتوجس خيفة من ازدياد مطامع الفيالق الإنكشارية وتطلعهم إلى الاستئثار بالنفوذ، استقدم إلى الجزائر ثمانية آلاف جندي ألباني ليوازن بهم قوة الإنكشارية، وكون لنفسه حرساً خاصاً من المهاجرين المسلمين الأندلسيين. وغدا خير الدين باربروس الحارس الأمامي للدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وكانت تسانده قوات هذه الدولة ومواردها في صراعه ضد شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وكانت تضم وقتذاك إسبانيا وبلجيكا وهولندا وألمانيا والنمسا وإيطاليا.

وكانت هناك عدة عوامل بالغة الأهمية أملت على السلطان سليمان المشرع الاهتمام بمد نفوذ الدولة إلى تونس في الصراع الذي احتدم بينه وبين الإمبراطور شارل الخامس كما سنوضح^(٣).



(١) دكتور عبد الجليل التميمي: رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان سنة ١٥٤١م. بحث سبق ذكره.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٩١٤.

ثالثاً: العثمانيون يعيدون تونس

إلى رحاب الجبهة الإسلامية

- السلطان سليمان يعهد إلى خير الدين بفتح تونس:

تتداخل بل تترايط أحداث دخول الجزائر وتونس تحت السيادة العثمانية بحيث يصعب الفصل بينهما، على عكس الأحداث الخاصة بطرابلس. وحرصاً على تسلسل الأحداث السياسية، المحلية والدولية، فيما يتصل بالجزائر وتونس في ذهن القارئ، كان من المناسب عدم الالتزام بالترتيب التاريخي لدخول هذه الأقاليم الثلاثة تحت السيادة العثمانية، وهو الترتيب الذي سبق أن ذكرناه: الجزائر، ثم طرابلس، ثم تونس.

استدعى السلطان سليمان المشرع إليه في إستانبول خير الدين باربروس عام ١٥٣٣ فذهب إليه مع بعض وحدات من الأسطول. وعهد إليه السلطان بإعادة تنظيم الأسطول وبالإشراف على بناء عدد من السفن في الترسانة، ثم طلب منه أن يستولى على تونس وإعلانها ولاية تابعة للدولة العثمانية قبل أن يسبقه الإمبراطور شارل الخامس في الاستيلاء عليها. وفضلاً عن ذلك كانت هناك عدة عوامل أملت على السلطان سليمان الاهتمام بمد النفوذ العثماني إلى تونس. كان من بينها:

- ١- توسطها بين الجزائر وطرابلس.
- ٢- موقعها الجغرافي في منتصف الساحل الشمالي لإفريقية تقريباً.
- ٣- قربها من إيطاليا التي كانت أحد جناحي الإمبراطورية الرومانية المقدسة وقتذاك (وكان الجناح الآخر إسبانيا).
- ٤- مجاورتها لجزيرة مالطة مقر فرسان القديس يوحنا الخلفاء الطبيعيين للإمبراطور شارل الخامس وأشد الطوائف المسيحية لعداء الإسلام والمسلمين.
- ٥- الإمكانيات الهائلة التي تتيحها موانئ تونس وهي التحكم في المواصلات البحرية في

البحر المتوسط. وهكذا تضافرت عدة عوامل أدت إلى إضفاء أهمية عسكرية على تونس في هذا الصراع الحربى بين السلطان سليمان والإمبراطور شارل الخامس. غادر خير الدين باربروس إستانبول على رأس قوات تتكون من ثمانين سفينة وثمانية آلاف جندي، واتجه رأساً إلى تونس وظهر أمام ميناء تونس في شهر أغسطس -آب- عام ١٥٣٤م واستولى عليها، وأعلن تبعيتها للدولة العثمانية وإنهاء الحكم الحفصى فيها، كما سقطت في يده المدن الساحلية وتوغلت قواته جنوباً في الداخل وأعلنت القبائل ولاءها للدولة العثمانية.

- سقوط تونس أمام شارل الخامس:

كان لنجاح خير الدين في احتلال تونس أصداء بعيدة في أوروبا. وكان تصميم شارل الخامس على الاستيلاء على تونس يرجع إلى عدة عوامل من خلال النظرة الأوروبية؛ فإن الإمبراطور شارل الخامس كان يدرك الأهمية العسكرية لموقع إقليم تونس في السيطرة على الملاحة في حوض البحر المتوسط، ونظر إلى هذا النجاح الإسلامى العثمانى على أنه تهديد مباشر للمواصلات البحرية بين إسبانيا وإيطاليا، جناحى الدولة الرومانية المقدسة في ذلك الوقت. ونظر إليه أيضاً على أنه انتصار للإسلام وهزيمة للمسيحية، وتشجيع لمجاهدى شمالى إفريقية على مواصلة الهجوم على السواحل الإسبانية وإنقاذ المرويسكيين^(١).

لهذه الأسباب قرر شارل الخامس غزو تونس. وأعد حملة جرارة خرجت من برشلونة في أوائل يونيو - حزيران - عام ١٥٣٥م وكانت هذه الحملة هي الحملة الأولى له على شمالى إفريقية. وتمكن من الاستيلاء على تونس في ذات السنة بسبب التفوق العددي، والخيانة العربية التى حمل لواءها مولاى الحسن الحفصى وأتباعه، وبسبب سوء الأوضاع الداخلية في تونس ووجود عدة آلاف من الأسرى المسيحيين في مدينة تونس قاوموا الحراس وكسروا أبواب السجون وانتشروا في شوارع المدينة يرتكبون أعمالاً تخريبية، ويمهدون السبيل أمام القوات الإمبراطورية

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٩١٦.

لدخول العاصمة. وأقامت البابوية في روما احتفالات كبرى ابتهاجاً بسقوط تونس في يد الإمبراطور شارل الخامس (عاهل العالم المسيحي)^(١).

كان ضياع تونس صدمة للدولة العثمانية ولمجاهدة شمالي إفريقيا بلا شك، ومما زاد الطين بلة أن مولاي الحسن الأمير الحفصى قد وافق على أن يحكم تونس باسم شارل الخامس وتحت حمايته، كما تنازل له عن ميناء حلق الوادى حيث أقام الإسبانيون قاعدة بحرية صليبية عسكرية. ورد خير الدين على انتصار شارل الخامس بغارة مفاجئة على جزر البليار واستولى منها على ستة آلاف أسير مسيحي وعاد بهم إلى قاعدته في الجزائر^(٢). ووصلت أنباء هذه الغارة وحصيلتها الأدمية الدسمة من الأسرى المسيحيين إلى روما وسط احتفالات البابوية بانتزاع تونس من المسلمين.

وكان السلطان سليمان المشرع قد أراد مكافأة خير الدين بربروس على خدماته التي أداها للإسلام؛ فعينه قبودان باشا أى قائداً عاماً للأسطول العثماني وعين في منصبه في الجزائر ابنه حسن باشا وشهرته حسن أغا^(٣). وركز خير الدين نشاطه في الحوض الشرقي للبحر المتوسط أولاً ثم في الحوض الغربي بينما واصل حسن أغا جهود والده في الجزائر، فلم تنقطع جهوده عن مهاجمة الإسبانيين في الحوض الغربي للبحر المتوسط.

- ظهرت الأهداف البعيدة من استيلاء الإمبراطور شارل الخامس على تونس. فقد أعد حملة جرارة لغزو الجزائر. وكان من أهداف هذه الحملة اجتثاث النفوذ العثماني من البحر المتوسط، وعزل فرنسا بمنع النجديات العسكرية عنها عن طريق حليفها الدولة العثمانية، وهو التحالف الذي أطلق عليه في أوروبا في ذلك كما ذكرنا (التحالف المدنس) لأنه يقوم على تحالف الصليب مع الهلال. وكان شارل الخامس يعتقد أنه لولا الوجود العثماني في شمالي إفريقيا لاستطاع إنشاء مملكة

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٩١٧.

(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة.

(٣) المرجع السابق.

مسيحية هناك لإسبانيا. وكان هذا الإمبراطور يتوجس خيفة من احتمال قيام الدولة العثمانية بحملة على إسبانيا. وقد نوقش هذا الاحتمال في بلاط مدريد^(١).

وقد أذاع شارل الخامس على جميع الدول المسيحية في أوروبا أن عزيمته قد استقرت على الانتصار للمسيحية والثأر من غارة المسلمين على جزر البليار. وجمع أسطولاً كان من أقوى التجمعات البحرية المقاتلة التي ظهرت في القرن السادس عشر. وكان يتكون من خمسمائة وست عشرة سفينة من السفن الحربية وناقلات الجنود. وعهد بقيادة هذا الأسطول إلى عدد من كبار القادة البحريين كان من بينهم أندريه دوريا وفرناند كورتيز. وكانت الحملة تضم ٣٦,٢٥٠ من الجنود الألمان والإيطاليين والإسبانيين وفرسان القديس يوحنا من مالطة والقوات البابوية. وجعل من نفسه القائد الأعلى للحملة. وقد اختار لإنزال حملته مدينة الجزائر بصفتها مقر القوة الإسلامية العثمانية في المغرب.

وتمكنّت الحملة من النزول بسهولة إلى البر في جهة مجاورة لميناء الجزائر في الثالث والعشرين من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٥٤١ م.

كان شارل الخامس يعتقد أن الله سبحانه وتعالى سيؤيده بنصر من عنده؛ طالما كان القسيسون والرهبان ومن يتسبب إليهم من رجال الدين المسيحي في إسبانيا يدعون الله أن ينصره نصراً عزيزاً على المسلمين. والحق أن من فضائل هذا الإمبراطور إيمانه العميق بالله جلّ علاه، وشدة تدينه، وإن كان من مساوئه في ذات الوقت اللدد في عداة الإسلام وأنه كان يحمل كراهية وبغضاء للمسلمين. لم يضع هذا الإمبراطور في تقديره للموقف الحربي التغيرات العنيفة في الجو في فصل الخريف في بلاد الجزائر. كان الجو صحواً حين هبط بقواته إلى أرض الجزائر. وما إن تمت عمليات الإنزال بسلام حتى اكفهر الجو وهطلت السماء هطلاً متتابعاً وهبت رياح عاصف استمرت عدة أيام؛ واقتلعت خيام جنود الحملة، وارتطمت السفن بعضها ببعض مما أدى إلى غرق كثير منها، وقذفت الأمواج

(١) دكتور عبد الجليل التميمي: رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان سنة ١٥٤١ م بحث سبقت الإشارة إليه.

الصاخبة ببعض السفن إلى الشاطئ وهجم عليها المدافعون المسلمون واستولوا على أدواتها وذخائرها، أما الأمطار فقد أفسدت مفعول البارود.

وفي وسط هذه الكوارث حاول الإمبراطور مهاجمة مدينة الجزائر، إلا أن كل محاولاته باءت بالفشل. وكان الجزائريون قد خرجوا لملاقاة قوات الغزو مستغلين تلك الكوارث الطبيعية التي حلت بها، فأفنوا جزءاً كبيراً منها. واضطر الإمبراطور إلى الانسحاب مع بقية جنوده على ما تبقى لهم من سفن واتجه بهم إلى إيطاليا بدلاً من إسبانيا. وكان من العوامل التي ساعدت على إلحاق هذه الهزيمة بالإمبراطور التفاف الجزائريين حول حسن أغا باشا، وأهم من ذلك النجدة العسكرية التي بعث بها السلطان سليمان المشرع إلى حسن أغا والتي نظر إليها أهل الجزائر ومسلمو إسبانيا على السواء باعتبارها تعزيزاً لشوكة المسلمين^(١).

وكانت الهزيمة التي منى بها الإمبراطور أكبر هزيمة بحرية حاقت به في حياته. وقد شبه أهل الجزائر هذه الهزيمة بهزيمة أصحاب الفيل التي ورد ذكرها في القرآن الكريم فقالوا في رسالة وجهوها إلى السلطان سليمان المشرع مضمونها أن الله سبحانه وتعالى عاقب شارل الخامس وجنوده (بعقاب أصحاب الفيل، وجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم ريحاً عاصفاً وموجاً قاصفاً، فجعلهم بسواحل البحر ما بين أسير وقتيل، ولا نجا منهم من الغرق إلا قليل)^(٢).

رسالة من ٣٦٤ ألف من مسلمي الأندلس الفارين إلى الجزائر إلى السلطان سليمان المشرع:

ومما يذكر في هذا الصدد أن سكان الجزائر - سواء كانوا أهل الإقليم الأصليين أو مسلمي الأندلس الذين فروا بدينهم إلى الجزائر - بعثوا برسالة في الشهر التالي لهزيمة شارل الخامس إلى السلطان سليمان المشرع مؤرخة في أوائل شهر شعبان عام ٩٤٨ - أواخر شهر نوفمبر - تشرين ثان - عام ١٥٤١م. وقد أوضحت هذه

(١) دكتور عبد الجليل التميمي: رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان سنة ١٥٤١م.

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٩٢٠.

الرسالة الأحوال المؤلمة والمفجعة التي تحيط بالمسلمين الذين احتفظوا بدينهم في إسبانيا بعد أن طويت صفحة الحكم الإسلامي في الأندلس، وتعرضهم لاضطهاد السلطات المسيحية ولمحاكمات ديوان التحقيق - محاكم التفتيش - وإحراقهم. ووصفتهم الرسالة بأنهم (عبيدك الفقراء المساكين المنقطعون بجزيرة الأندلس، وجملة عدتهم ثلاثمائة ألف وأربعة وستون ألفاً) وأنهم يشكون إلى السلطان سليمان (ما يلاقون من بلواهم باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان دام عزه ونصره لما أصابهم من أعداء الدين وطغاة المشركين، وما هم فيه من مكابدة الكفار). وأشادت الرسالة بالخدمات الجليلة التي أدها للإسلام خير الدين باشا (المجاهد في سبيل الله، وناصر الدين، وسيف الله على الكافرين)، ومضت الرسالة تقول: إن أهل الأندلس قد سبق لهم أن استغاثوا به فأغاثهم (وكان سبباً في خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين ونقلهم إلى أرض الإسلام). وأصبحوا من رعايا الدولة العثمانية المخلصين. وحددت الرسالة مطلبين أساسيين:

أولاً: إرسال نجدات عسكرية (لنصرة الجزائر، لأنها سياج لأهل الإسلام، وعذاب وشغل لأهل الكفر والطغيان، وهي موسومة باسمكم الشريف، وتحت إيالة مقامكم المنيف، وقد أصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة، والرعية المختلفة بها مؤتلفة أليفة).

ثانياً: إعادة خير الدين باشا إلى منصبه السابق - بكلمة بك الجزائر - (فهو الممثل لأوامر مولانا، لأنه أحيا هذا الوطن، وأرعب قلوب الكفار وخرب ديار المردة والفجار، وإنه لهذا الوطن نعم ناصر، وجميع أهل الشرك منه خائف وحائر).

وقد وصفت الرسالة السلطان سليمان بألقاب عديدة لها دلالتها السياسية والدينية والحربية العميقة).

- تحرك الإسبانيون نحو تونس،

بعد الهزيمة القادحة التي نزلت بالإمبراطور شارل الخامس أمام مدينة الجزائر في أواخر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٥٤١م كف الإسبانيون عن مهاجمة

الجزائر، ولكنهم نقلوا الصراع بينهم وبين القوى الإسلامية العثمانية والمغربية إلى تونس. فقد استطاع أندريا دوريا القائد البحري الإسباني الاستيلاء على عدة مدن في إقليم تونس مثل صفاقس، وسوسة، ومنستير، مما أثار سخط السكان على بنى حفص لتخاذلهم أمام القوى الصليبية. واندلعت ثورات داخلية ضدهم في بقاع شتى واضطر مولاي الحسن إلى الرحيل إلى أوروبا التماساً لمساعدتها. وفي هذه الأثناء ظهر قائد بحري من العثمانيين هو دراجوت باشا ليملاً الفراغ السياسي والحربي في تونس على نحو ما فعل الأخوان عروج وخير الدين. وغدا منافساً خطيراً لأندريا دوريا في البحر المتوسط. واستطاع دراجوت باشا أن يتخذ من طرابلس، التي أصبحت نيابة عثمانية، قاعدة عسكرية من قواعد الجهاد الديني البحري حتى بلغ القيروان واحتلها، وأقام فيها حامية عام ١٥٥٨م.

ولكن ظل الإسبانيون يسيطرون على سواحل تونس بمعاونة عملائهم بنى حفص، ورأى السلطان سليمان المشرع أن يستولى على جزيرة مالطة نظراً لأهميتها في الصراع الحربي والديني الذي ازداد احتداماً بين الدولة العثمانية وإسبانيا حول تونس، فأرسل أسطولاً ضخماً بلغ عدد قطعه مائة وخمسة وتسعين وحدة مختلفة الأنواع والأحجام تحمل ثلاثين ألف جندي تحت قيادة مصطفى باشا.

وبدأ الأسطول حصاره للجزيرة في ١٩ من مايو -آيار- عام ١٥٦٥م، واستمر الحصار أربعة أشهر، وتكبد العثمانيون خسائر فادحة في الرجال والسفن. وبلغ عدد القتلى والغرقى والمفقودين عشرين ألفاً، وكان من بينهم دراجوت باشا الذي قتل في إحدى العمليات الحربية في ١٦ من يوليو -تموز- عام ١٥٦٥م واستعصت الجزيرة على العثمانيين فانسحبوا منها في ١١ من سبتمبر -أيلول- عام ١٥٦٥م، وظلت جزيرة مالطة معقلاً لفرسان القديس يوحنا أكثر من قرنين إلى أن أطاح بحكمهم بونابرت حين استولى على مالطة في شهر يونيو -حزيران- عام ١٧٩٨م والحملة الفرنسية بقيادته في طريقها إلى مصر.

العلاج على يواصل غاراته على سواحل إسبانيا لإنقاذ مسلمي الأندلس:

وإذا كان دراجوت باشا قد قضى نحيبه شهيداً في معركة جزيرة مالطة قبل أن يحرر تونس تماماً من الصليبية الأوربية والاستعمار الأوربي ومن العملاء العرب (بنى حفص)، فإن هذا العبء وقع على عاتق نيابة الجزائر. ولملت أسماء عدد من القادة البحريين ممن تولوا نيابة الجزائر بعد خير الدين باربروس، مثل ابنه حسن باشا، وصالح ريس، والعلاج على. وقد اتخذ العلاج على خطوات عملية سنة ١٥٦٩م لتنفيذ مشروع خطير للغاية هو إعادة الحكم الإسلامي في إسبانيا^(١).

وتصر المراجع الأوربية على أن العلاج على كان في مطلع حياته مسيحياً^(٢) ومن مواليد إقليم كالابريا في جنوبي إيطاليا، ثم وقع أسيراً في إحدى الغارات العثمانية على الموانئ الإيطالية، وأجبر على العمل بإحدى السفن الحربية ذات المجاديف التابعة للأسطول العثماني ثم تحول إلى الإسلام... بينما تقرر المراجع التركية أنه كان عثمانياً إسلامياً المولد ولم يكن قط مسيحياً ولا إيطالياً.

والتحق بخدمة الأسطول وتدرج في مناصبه. واشترك مع دراجوت باشا في صد حملة الإمبراطور شارل الخامس على جزيرة جربة في تونس، وقد أخفق الإمبراطور في احتلال الجزيرة ثم رقى إلى منصب بكلي طرابلس ثم بكلي الجزائر. وقد اشترك في معركة ليانت البحرية حيث كان قائداً للجناح الأيسر للأسطول العثماني. ورقى بعد هذه المعركة إلى منصب قبودان باشا تقديراً لبطولته في المعركة، لأنه استطاع أسر سفينة القيادة الخاصة برئيس فرسان القديس يوحنا، كما نجح في الخلاص بجزء من الأسطول وإعادته سالماً إلى إستانبول، بعد أن حلت الهزيمة بالأسطول العثماني. وقد ظل يشغل منصب قبودان باشا طيلة خمسة عشر عاماً حتى توفي فجأة؛ في اليوم الحادي والعشرين من شهر يونيو - حزيران - عام ١٥٨٧م في مسجده الخاص (طوب خانة) الذي أقامه في جالاطة في ضواحي إستانبول. وأبدى نشاطاً كبيراً في حركة إعادة بناء الأسطول العثماني بعد كارثة

(١) دكتور جلال يحيى: المغرب الكبير مرجع سابق ص ٢٨.

(٢) الدكتور عبد العزيز الشناوي. الدولة العثمانية ج ٢ مرجع سابق ص ٩٢٣.

ليانت. واشترك في استرداد تونس وحلق الوادى سنة ١٥٧٤ م. وكان للعلاج على نشاط بحرى موفور إذا أقبل فصل الربيع خرج مع رجاله فى سفن حربية كبيرة إلى أعالي البحار، ويتعرض للسفن الإسبانية فى رحلاتها فى البحر المتوسط، ويعرقل خطوط المواصلات البحرية بين إسبانيا والدولة الخارجية، ويعرض التجارة الإسبانية للخسائر الجسيمة. كما كان يهبط فى سفن خفيفة وسريعة على مواقع معينة على السواحل الإسبانية مسترشداً بإشارات ضوئية يبعث بها إليه مسلمو إسبانيا أو بناء على معلومات مسبقة يتلقاها منهم. وكان يقوم بتدمير المنشآت فى هذه الأماكن ويأسر سكانها. ولذلك كان الإسبانيون أهل السواحل ينتقلون إلى الداخل مسافة تتراوح بين خمسة وستة فراسخ إذا أقبل الربيع تجنباً لكوارث يتعرضون لها^(١).

ومن المؤكد أن العلاج على، قبل أن يقدم على مشروع إعادة الحكم الإسلامى فى إسبانيا، كان على علم تام بالجهود الجبارة التى بذلتها الدولة العثمانية إبان وجود خير الدين باربروس فى الجزائر للقضاء على الزحف الصليبي الاستعماري على شمالى إفريقيا، كما كان يعلم تماماً مدى النجاح الذى حققه خير الدين فى طرد الإسبانيين من بعض قواعدهم وتحطيم حصن بينون وفى تشجيعه بل وفى إسهامه فى حركة إنقاذ آلاف المسلمين فى إسبانيا من الإفلات من قبضة المحكمة الإسبانية واللجوء بهم إلى شمالى إفريقيا. فهذه الحقائق لا تخفى على شخصية حاكمة فى نيابة الجزائر ونعنى بها شخصية العلاج على.

بقى سؤال يفرض نفسه فى هذا الوطن: هل كان مشروع إعادة الحكم الإسلامى فى إسبانيا بتوجيه من السلطان العثمانى سليم الثانى الذى كان يتبوأ عرش الدولة فى ذلك الوقت؟ أم كان هذا المشروع بوحي من العاطفة الدينية لدى العلاج على أو من تفكيره السياسى^(٢).

من المستبعد تماماً الأخذ بالسبب الأول، لأن الحياة الخاصة للسلطان سليم الثانى (١٥٦٦ - ١٥٧٤م) كانت تشع بالقاذورات. إذ أدمن تناول الخمر حتى أطلق عليه

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٩٢٤.

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٩٢٥.

السكير، وأسرف في ارتكاب أقذر أنواع الموبقات الجنسية، وكان ينتمى إلى مجموعة السلاطين المعروفين في تاريخ الدولة باسم السلاطين التنابلة. وأهم من ذلك كله، أنه في ذات السنة التي اتخذ فيها العلاج على الخطوات الأولى لتنفيذ مشروع إعادة الحكم الإسلامى إلى إسبانيا كانت الدولة مشغولة بالحملة التي أرسلتها بقيادة سنان باشا لإعادة السيطرة العثمانية على اليمن، ثم انصرفت في العالم التالى إلى فتح جزيرة قبرص وانتزاعها من جمهورية البندقية (١٥٧٠-١٥٧١م)^(١).

وكان محمد صوقلو باشا الصدر الأعظم قد اقترح على السلطان سليم الثانى أن توجه الدولة حملة قبرص إلى إسبانيا لمحاربة مليكها فيليب الثانى (١٥٥٦-١٥٩٨م) إذ كانت المتاعب تحيط بهذا الملك من يمين ويسار، وهو فى وضعه المحفوف بالأخطار لا يستطيع للقوات العثمانية المسلحة دفعاً. ولكن لم يأخذ السلطان باقتراح الصدر الأعظم؛ لأنه كان متأثراً برأى صديق يهودى من البرتغال اسمه جوزيف نانسى اتخذهُ السلطان صديقاً له.

تضاف إلى هذه الحقائق حقيقة أخرى هى أن الدولة تعرضت لكارثة كبرى حين تحطم أسطولها فى معركة ليانت البحرية فى السابع من شهر أكتوبر - تشرين أول - عام ١٥٧١م. فلم يكن فى إمكانية السلطان سليم الثانى - سواء قبل عام ١٥٦٩ أو بعده - أن يفكر فى مشروع خطير مثل إعادة الحكم الإسلامى إلى إسبانيا.

ولم يبقَ بعد هذا التحليل إلا السبب الثانى وهو أدنى إلى الحقيقة. كان العلاج على أنذاك يفكر فى مشروعاتين: طرد الإسبان من تونس، وإعادة الحكم الإسلامى إلى إسبانيا. وفى تقديره للموقف الحربى رأى أن يجعل الأسبقية فى التنفيذ للمشروع الثانى على أساس أن نجاحه فى تحقيقه يؤدى إلى انكماش الوجود المسيحى فى إسبانيا وبذلك يضع حداً للتهديد الصليبي الإسبانى المستمر لشمالي إفريقيا، ويسهل عليه طرد الإسبانين والبرتغاليين نهائياً من المراكز التى كانت لا تزال فى أيديهم فى شمالي إفريقيا، وتنفيذاً لهذا البرنامج الحربى عقد العلاج على اتفاقاً سرياً فى مطلع سنة

(١) المصدر السابق ص ٩٢٥.

١٥٦٩ م مع الثوار المسلمين الذين اعتصموا بجبال الأندلس حيث تم الاتفاق بمقتضاه على أن يقوموا بثورة هادرة في الوقت الذي تصل فيه القوات الإسلامية من الجزائر إلى مراكز معينة على الساحل الإسباني. ونجح العليج على في إنزال الأسلحة والعتاد والمتطوعين على الساحل الإسباني في عام ١٥٦٩ م. وفي هذا الوقت ترامت إليه الأنباء عن استعداد دون جوان أمير النمسا لغزو الجزائر، فعدل عن مشروعه مؤقتاً ورأى أن يبدأ بالتخلص من المراكز الإسبانية في تونس ومع ذلك فإن مشروع فتح إسبانيا لإعادة الحكم الإسلامي فيها ظل حياً في أذهان الحكام الذين تعاقبوا على نيابة الجزائر في الفترة الباقية من القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر.

وكانت هذه المشروعات تقوم على التعاون الوثيق بين نيابة الجزائر ومسلمي إسبانيا. وقد ذكر الأستاذ محمد عبد الله عنان طرقاً منها^(١).

تونس تعود إلى رحاب الكتلة الإسلامية العثمانية،

كان إخفاق العثمانيين في فتح جزيرة مالطة وتحطيم الأسطول العثماني في معركة ليانت دافعين قوين للإسبانيين على معاودة الهجوم على تونس؛ فقد هاجمها دون جوان النمساوي بقوات بلغ عددها ٢٧,٠٠٠ مقاتل واحتل تونس سنة ١٥٧٣ م. وقد رد العليج على رداً سريعاً على الصليبيين فهاجم تونس على رأس قوات قفز تعدادها إلى ستين ألف مقاتل، وكان معه قوجة سنان باشا، وأباد الحاميات الإسبانية على بكرة أبيها ودخل تونس عام ١٥٧٤ م، ومعنى هذا الانتصار أن العليج على وسنان باشا استطاعا بعد ثلاث سنوات من كارثة ليانت أن ينتزعا تونس من أيدي الإسبانيين. وكان الأوربيون المعاصرون ينظرون إلى استيلاء الإسبانيين على تونس على أنه من أبهى الصفحات في تاريخ الإمبراطور شارل الخامس ومفخرة من مفاخر حكمه، ولكن عادت تونس إلى رحاب الكتلة الإسلامية العثمانية واستقرت النيابة الثالثة والأخيرة في شمالي إفريقيا^(٢).

(١) محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس مرجع سابق ص ٣٨٢ - ٣٩٠، وانظر أيضاً الدولة العثمانية دولة

مسلمة مفترى عليها ص ٩٢٦.

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٩٢٧.

رابعاً: أهالي طرابلس يستغيثون بالدولة

العثمانية من فرسان القديس يوحنا

- استولت إسبانيا على مدينة طرابلس عام ١٥١٥م على عهد الإمبراطور شارل الخامس لتتخذها جيئاً صليبيئاً بجانب الجيوب الصليبية التي أقامتها وتناثرت على طول الساحل الشمالى لإفريقية. وظلت طرابلس تحت الحكم الإسباني المباشر زهاء عشرين عاماً. ثم أراد هذا الإمبراطور أن يلقي عبء مكافحة الإسلام فى طرابلس على عاتق فرسان القديس يوحنا^(١). وكانوا قد نقلوا مقر قيادتهم ومركز نشاطهم الصليبي إلى جزيرة رودس بعد طردهم من بلاد الشام مع فلول الصليبيين سنة ١٢٩١م على عهد دولة المماليك البحرية، فلما استولى السلطان المشرع على جزيرة رودس فى أواخر عام ١٥٢٢م انتقلوا إلى جزيرة مالطة وأسهموا إسهاماً حريئاً ومباشراً فى المخالفات الصليبية التى تكونت من البابوية فى روما ومن دول أوربية ضد الدولة العثمانية، وكانوا يمتلكون عدداً من السفن تجوب البحر المتوسط بحثاً عن سفن المسلمين فى أعالي البحار؛ يستولون على شحناتها ويأسرون ركابها، ويزجون بهم فى غيابات السجون إلى أن يدركهم الموت. فعهد الإمبراطور شارل الخامس إلى هؤلاء الصليبيين العتاة بحكم طرابلس عام ١٥٣٥م كى يتفرغ لمواصلة الحرب الصليبية ضد سكان الجزائر وتونس. ولتفرغ لمواجهة المشكلات المتصاعدة بينه وبين السلطان سليمان المشرع الذى لم يكن يعترف به إمبراطور للدولة الرومانية المقدسة. بل كان يرى أنه ملك إسبانيا فقط كما كان فى مطلع حياته. وأراد الإمبراطور أيضاً أن يكرس جزءاً من وقته لمواجهة تفاقم حركة مارتن لوثر فى ألمانيا بعد صلح كانبراى أو صلح السيدات ١٥٢٩م وكيف زج فرنسوا الأول ملك فرنسا فى هذا النزاع لمساعدة البروتستانت على الرغم من أنه كاثوليكي نكاية فى الإمبراطور.

ويهمنا هنا أن نذكر أن فرسان القديس يوحنا أخذوا ميناء ومدينة طرابلس غنيمة^(٢)

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية الدكتور الشناوى مرجع سابق ص ٩٢٨ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق.

باردة وجعلوا من ميناء طرابلس جيًّا صليبيًّا ينطلقون منه لاصطياد السفن الإسلامية على نحو ما كانوا يفعلون. وأقاموا حكومة مسيحية دينية مسرفة في تعصبها استهدفت تغيير الوجه الإسلامي العربي لهذا الإقليم، ولكنهم اصطدموا بالشعور الديني الإسلامي المتأجج في نفوس السكان. وكان الإسبان قد نجحوا في احتكار التجارة لأنفسهم بعد أن حرموها على الوطنيين والأجانب، فتحوّلت تجارة جمهورية البندقية وتجارة السودان إلى مصراته^(١).

عمد أهالي طرابلس إلى مقاومة الاحتلال الصليبي سواء على عهد الإسبانين أو على عهد فرسان القديس يوحنا ودأبوا على مهاجمتهم ابتغاء استرجاع مدينة طرابلس ومينائها، ولكن أخفقت جهودهم في هذا السبيل لأن إمكانياتهم الحربية والبشرية ومواردهم المالية كانت ضعيفة، فرأوا أن ينهجوا نهج أهل الجزائر، فاستنجدوا بالدولة العثمانية وكانت قد بلغت إبان حكم السلطان سليمان المشرع الأوج في ازدياد قوتها، وتساعد نفوذها واتساع رقعتها في أوروبا وآسيا وإفريقية.

وقد أرسل أهل تاجوراء وفدًا إلى السلطان سليمان المشرع يلتمسون تدخله حربيا لتحرير بلادهم من الحكم الصليبي ويعلنون ولاءهم له ودخول بلادهم تحت السيادة العثمانية. واستجاب السلطان سليمان لطلبهم. وأرسل (مراد أغا) مع قوة صغيرة إلى مدينة طرابلس، ولكنه لم يتمكن من احتلالها، فاستقرت هذه القوة العثمانية في تاجوراء، وانصرفت إلى إقامة تحصينات عسكرية حول هذا الموقع وإنشاء طريق يبدأ من تاجوراء ويتجه نحو مدينة طرابلس.

ثم طلب مراد أغا إلى الباب العالي إرسال قوات برية وبحرية لتعزيز القوة التي تحت قيادته ابتغاء إنهاء الحكم الصليبي في طرابلس. فأصدر السلطان سليمان أوامره إلى قوجه سنان باشا الصدر الأعظم بالتوجه إلى طرابلس على رأس الأسطول. واستطاع ضرب منشآت الميناء ودخل المدينة عام ١٥٥١م، وكان دراجوت باشا ممن أعان سنان باشا في عملياته الحربية.

وصدر فرمان من السلطان بتعيين مراد أغا واليًا على طرابلس في ذات العام،

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٩٢٨.

فكان أول الولاية العثمانين عليها. ثم خلفه دراجوت باشا الذى استطاع أن يقضى على فلول فرسان القديس يوحنا من إقليم طرابلس، ومد النفوذ العثماني بحيث شمل السواحل الليبية كلها تقريباً. وهكذا زال حكم فرسان القديس يوحنا فى طرابلس بعد فترة بلغت ست عشرة سنة. وأصبحت طرابلس منذ سنة ١٥٥١م ولاية عربية تحت السيادة العثمانية.

وقد نجح دراجوت باشا فى الحصول على موافقة الباب العالى على إرسال فيالق إنكشارية لتعزيز الحماية العثمانية لمنع أى اعتداء صليبي قد يقع عليها سواء من جانب الإسبانيين أو من جانب فرسان القديس يوحنا. وهذا الحذر يفسر حقيقة هامة هى أن اهتمام السلطات العثمانية كان أغلبه موجهها إلى سواحل طرابلس والنواحي العسكرية أكثر من النواحي المدنية. فانصرفت هذه السلطات إلى تحصين المدن الساحلية فى ولاية طرابلس. أما أفراد فيالق الإنكشارية فقد تزوجوا بالنساء العربيات فى الولاية واهتموا بامتلاك الأراضى الزراعية وأشجار النخيل. وكانت حصيلة هذه الزيجات المختلفة نشأة طوائف عرفت باسم القولوغلية^(١).

وتطورت الأحداث فى هذه الولاية حين قام أحد الإنكشارية، ويسمى أحمد القرمانلى بإعلان نفسه حاكماً عليها سنة ١٧١١م منتهزاً فرصة غياب خليل باشا والى طرابلس الذى كان قد هرب إلى مصر لاجئاً سياسياً عقب ثورة ألم بها أهل الولاية بسبب ضياع سفيتين فى جنوبى البحر الأدرياتي تصدت لهما سفن تابعة لفرسان القديس يوحنا واضرمت فيها النار. واستطاع أربعمئة رجل من السبعمئة الذين كانوا فيهما النجاة من النيران واقتيدوا أسرى إلى جزيرة مالطة وأصدر السلطان أحمد الثالث فرماناً سنة ١٧١١م بتعيينه والياً على طرابلس على أن يكون حكمه فيها وراثياً فى أسرته ومنحه لقب الباشوية. وأرسل إليه سفيتين حربيتين بكامل طاقمهما ومعداتهما، وكانت الأولى تحمل ثلاثين مدفعاً أخذت من فرسان مالطة، والثانية تحمل أربعين مدفعاً أخذت من البندقية. ووصلت هاتان السفيتان فى الوقت المناسب؛ لأن القوات البحرية التى كانت تحت تصرف أحمد باشا

(١) المرجع السابق والصفحات نفسها.

القرمانلى تضاءلت إلى حد بعيد بسبب سوء حالة السفن، وعدم كفاية استعداداتها.

وقد استطال حكم أسرة القرمانلى مائة وأربعة وعشرين عاماً (من أواخر يوليو - تموز - عام ١٧١١م حتى أوائل يونيو - حزيران - عام ١٨٣٥م ثم عادت طرابلس إلى الحكم العثماني المباشر حتى عام ١٩١١م حين وقعت فريسة للاحتلال الإيطالي. فكانت في أواخر عزل السلطان عبد الحميد الثاني بسنتين^(١). أما الحديث عن سيطرة الاتراك على المغرب الأقصى (مراكش)، فقد يتساءل البعض عن الأسباب التي جعلت الدولة العثمانية تمد نفوذها إلى ثلاثة أقاليم في شمالي إفريقية وهي الجزائر وطرابلس وتونس وتدخلها تحت السيادة العثمانية. ولم تنتهج هذه السياسة فيما يتعلق بالإقليم الشقيق الرابع المتبقى وهو مراكش، وبخاصة أن هذا الإقليم كان يعاني كزملائه من الوجود الصليبي الاستعماري المتمثل في البرتغال وإسبانيا. والواقع أن الدولة العثمانية لم تغفل عن هذا الموضوع. وبرز هذا الاهتمام على عهد السلطان سليمان المشرع بالذات. كان هذا السلطان يدرك أهمية وحدة الصف الإسلامي في الصراع المحتدم بين القوى الإسلامية والقوى الصليبية في شمالي إفريقية بعد أن وحدت وحدة الهدف بين الأغلبية العظمى والساحقة بين جماهير مسلمي شمالي إفريقية وانضمام الدولة العثمانية إلى صفوفهم.

وكان هذا السلطان يدرك أيضاً الأهمية البالغة لموقع مراكش من الناحية العسكرية، فهي دولة متوسطة ومحيطة في ذات الوقت؛ بمعنى أن سواحلها تطل على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطي، كما أنها تقترب جداً من إسبانيا من جهة بوغاز جبل طارق. وكان في استطاعة السلطان سليمان، لو قدر له أن يسطر السيادة العثمانية عليها، أن يتخذ من الموانئ المراكشية قواعد عسكرية لضرب السواحل الإسبانية. وكانت تابعة للإمبراطور شارل الخامس مما يعطيه ثقلًا حربيًا

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٩٣١.

إسلامياً ومزیداً من الفرص والقوة فى صراعه الضارى مع هذا الإمبراطور. وكان أحدهما عاهل العالم الإسلامى، والآخر عاهل العالم المسيحى. كما كان هذا السلطان يرى أن دخول مراكش تحت السيادة العثمانية يساعده على المضى بخطى سريعة فى تصفية الوجود الصليبي فى شمالى إفريقيا^(١).

استطاع محمد المهدي السعدى أن يؤسس فى مراكش دولة الأشراف السعدية، وأن يحكم البلاد بدلا من أسرة بنى وطاس التى فشلت فى الدفاع عن مراكش حتى سقطت جميع ثغورها فى أيدي البرتغاليين والإسبانيين. وكان محمد الوطاس قد تقدم بعرض إلى محمد المهدي السعدى يحكم الأخير بمقتضاه مدينة مراكش عاصمة الجنوب باسم الأسرة الوطاسية. ولكنه رفض هذا العرض لأنه كان يتطلع إلى توحيد جميع أنحاء مراكش تحت سلطته وشتت شمل الأسرة الوطاسية، ودخل مدينة فاس عام ١٥٤٩م واتجه إلى تحرير بعض الموانئ الشمالية كما فعل فى الجنوب من قبل، واسترد أصيلة والقصر الصغير (١٥٤٩ - ١٥٥٠م) ولم يبقَ للبرتغاليين سوى سبتة وطنجة ومزغان. وحدث أن هرب أحد أفراد أسرة بنى وطاس، وهو أبو حسون على الوطاسى من مراكش وذهب يلتمس مساعدة حكام البرتغال وإسبانيا لإعادة أسرته إلى الحكم.

ولكن لم تسفر مساعيه عن نتيجة عملية، فولى وجهة شطر إستانبول حيث قابل السلطان سليمان المشرع الذى أصدر أمرا إلى صالح ريس بكلى الجزائر بإعداد حملة لفتح مراكش بالتعاون مع أبى حسون الوطاسى وتعيينه سلطانا تحت السيادة العثمانية. واستطاع صالح ريس دخول فاس سنة ١٥٥٤م وغدا أبو وطاس حاكما، وبذلك امتد نفوذ الدولة العثمانية إلى مراكش. ولكن لم يطل أمد سؤى بضعة أشهر، لأن محمد المهدي السعدى استطاع أن يسترد فاس من العثمانيين والوطاسيين وأن يبعد عنها النفوذ العثماني والجزائري^(٢).

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٩٣٣.

(٢) المرجع السابق ص ٩٣٤.

كان من المتوقع أن يحدث نوع من التضامن أو التعاون بين الدولة العثمانية والدولة السعدية بعد أن استقرت لها الأوضاع في مراكش نظراً لوحدة الهدف بينهما؛ فالدولة السعدية قامت أساساً لتصفية الجيوب البرتغالية في مراكش. وكان السلطان سليمان المشرع يفكر في تكوين اتحاد إسلامي ومجاهد يواجه أخطار الزحف الصليبي الاستعماري الإسباني والبرتغالي على أقاليم شمالي إفريقيا، بل كان يطمح في دخول الدولة السعدية في تبعية الدولة العثمانية طوعاً على غرار جاراتها الشقيقات.

وقد أرسل السلطان سليمان سفارة إلى محمد المهدي السعدي للوصول إلى اتفاق يحقق وحدة الصف الإسلامي بعد أن تحققت وحدة الهدف. ولكن رفض محمد المهدي الفكرة من حيث المبدأ رفضاً باتاً، ورفض الاعتراف بالسلطان العثماني كأكبر قائد في حركة المجاهدين بالمسلمين في شمالي إفريقيا وحوض البحر المتوسط، ورفض الاعتراف بالخلافة الإسلامية العثمانية على أساس أن العثمانيين ليسوا عرباً وإنما هم أعاجم.

كان محمد المهدي يعتز بنسبته إلى أسرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فهو ينحدر من سلالة علي بن أبي طالب. وكان لفكرة الشرافة في مراكش أهمية كبيرة في حياتها السياسية والدينية والاجتماعية. وتعمقت هذه الأهمية منذ أن وصل إدريس بن عبد الله إلى مراكش في عام ١٧٢ هـ (٧٨٨ - ٧٨٩ م) قادماً من الحجاز وأسس دولة الأدراسة وبنى مدينة فاس. وكان سكان مراكش يعتزون بحكامهم بصفاتهم حفدة وذراى البيت النبوي الشريف.

وتبوأ هؤلاء الحكام مكاناً عالياً في قلوب أهل البلاد، وأصبحت أضرحتهم أماكن زيارة وتبجيل، وكان هذا الانتماء إلى آل رسول الله ﷺ من أسباب تفوق الأسرة السعدية على القيادات المنافسة الأخرى.

ومما ساعد على ترسيخ هذه الفكرة في أذهان أهل مراكش انتشار الطرق الصوفية ولاسيما الطريقة الشاذلية التي تفرع عنها كثير من الطرق الصوفية في شمالي إفريقيا، وأصبحت مراكش الإقليم الوحيد من أقاليم المغرب الكبير الذي اعتر بحسب ونسب قيادته السعدية واحتفظ لنفسه بشخصية قائمة بذاتها، ورفض دخوله

تحت السيادة العثمانية على الرغم من استمرار الصلات والروابط وتشابه المصالح بين شعوب شمالي إفريقيا. وإمعاناً من محمد المهدي السعدي في اعتزازه بنسبة وفي تحدى الدولة العثمانية، أطلق على شخصه لقب (أمير المؤمنين). ولما أدرك السلطان سليمان إصراره على موقفه عهد إلى صالح ريس بإعداد حملة أخرى لفتح مراكش. وبينما كانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق توفي صالح ريس، فأمر السلطان خلفه حسن باشا خير الدين الذي أعيد تعيينه في منصب بكلر بكى الجزائر بأن يمضى فى مشروع فتح مراكش ولكن لم تصادف الحملة توفيقاً. ثم جاءت مشكلة تلمسان فأضافت عنصراً جديداً من عناصر النزاع بين العثمانيين والسعديين^(١).

والحقيقة أن تلك الصراعات التى اشتد أوارها فى حوض البحر المتوسط بين الأساطيل العثمانية وأساطيل الصليبيين المتمثلة فى القوى البحرية المتعصبة من أساطيل إسبانيا وأوروبا مجتمعة بهدف استئصال شأفة الأتراك من السيطرة على حوض البحر المتوسط وخاصة الركن الغربى منه. أقول أنه بعد ذاك بدأت حدة الصراع تخف وطأتها، فما أسباب ذلك؟

من المعلوم تاريخياً أن تراخى اهتمام إسبانيا بشمالي إفريقيا منذ أواخر القرن السادس عشر يرجع إلى قلب الأوضاع السياسية التى نجمت عن تدخل الدولة العثمانية وإنشاء النيابات الثلاث وذلك لعدة أسباب منها:

- ١- المصاعب الداخلية التى واجهها فيليب الثانى ملك إسبانيا.
- ٢- تركيز هذا الملك اهتمامه على المستعمرات الإسبانية التى تأسست عقب حركة الكشف الجغرافية فى المكسيك وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية مثل جواتيمالا، وسلفادور، وهندوراس، ونيكارجوا، وبيرو، وما نجم عن هذه الكشف والمستعمرات من تدفق الفضة على الموانئ الإسبانية. وانتهى الأمر فى أيام فيليب الثانى إلى أن أصبحت إسبانيا (القناة) التى تجرى منها الفضة إلى بقية أوروبا. وفى ذلك الوقت بدأت عصر الفضة فى أوروبا وظلت الفضة خلال

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٩٣٥.

الخمسين سنة التالية تسيطر على تطور الحياة السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية في أوربا^(١).

٣- الأعباء المالية المتزايدة التي كانت تتحملها خزانة حكومة مدريد في تمويل الحاميات الإسبانية المرابطة في المدن الساحلية في شمالي إفريقيا، لأن الأهالي فيها امتنعوا عن التعاون مع قادة هذه الحاميات، فكانت الحكومة الإسبانية ترسل مواد التموين وغيرها عبر البحر المتوسط إليها، وقد أدى هذا الوضع إلى إنقاص حجم الحاميات الإسبانية.

٤- قيام منازعات مستمرة بين العسكريين والمدنيين في إدارة هذه الجيوب العسكرية.

أما الدولة العثمانية فقد فتر اهتمامها هي الأخرى بشمالي إفريقيا بعد أن أسست النيابات الثلاث، وبعد أن اطمأنت إلى إبعاد أخطار الزحف الصليبي الاستعماري عن تلك الأقاليم إلى حد بعيد، ولأن الدولة كانت قد بدأت تدخل في دور الاضمحلال منذ حكم السلطان سليم الثاني السكير، وتعاقب سلاطين ضعاف من بعده على العرش، ورؤساء شغلوا منصب الصدارة العظمى لم يكونوا على مستوى المسئولية، وظهور مراكز قوى في الدولة استبدت بمقدرات الدولة وبخاصة إصدار القرار. وقد طلب فيليب الثاني ملك إسبانيا توقيع هدنة مع الدولة سنة ١٥٨١م على عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٦م) واستجاب الباب العالي لهذا الطلب الذي كان معناه أن إسبانيا قد قبلت الأوضاع السياسية التي نجمت عن تدخل الدولة العثمانية في شمالي إفريقيا وإنشاء النيابات الثلاث تحت السيادة العثمانية. ولكن كان النزاع يتجدد بين إسبانيا ونيابة الجزائر طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر بسبب استمرار احتلال الأسبانيين مدينة وهران، وقد تم جلاء الإسبانيين عنها عام ١٧٩١، وأصر حسان باشا داي الجزائر على تسليم مفاتيح المدينة إلى الباب العالي.

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٩٣٢.

الدولة تمنع انتشار المذهب الشيعي إلى ولاياتها العربية؛

إن هذا الموضوع ذو حساسية لأهل الشيعة، ولذلك فإننا نمسه بحذر وبقدر احتراماً منا لمشاعرهم. من المعروف أن المذهب الرسمي للدولة العثمانية كان المذهب السني واعتبرت نفسها حامية لهذا المذهب. وتأسيساً على هذه الحقيقة فإنها منعت انتشار المذهب الشيعي إلى ولاياتها العربية في آسيا وإفريقية. ويشذ العراق عن هذه القاعدة العامة، لأن الدولة العثمانية لما فتحت هذا الإقليم العربي وجدت أن الدولة الصفوية في فارس كانت قد سبقتها إلى نشر المذهب الشيعي في أرجائه، حيث لجأ الشاه إسماعيل الصفوي إلى أساليب العنف بل والإرهاب في نشر المذهب الشيعي، وقام بقتل أئمة السنة على الرغم من أن المذهب الشيعي كانت له جذور عميقة في قطاعات مهمة وكبيرة في المجتمع العراقي نظراً لوجود العتبات المقدسة في النجف وكربلاء وسامراء وغيرها من الأماكن التي توجد فيها مقابر من حيث تعدادهم.

وقد أبقت الدولة العثمانية على هذا الوضع، وذهبت إلى أبعد من ذلك فاحترمت مشاعر أهل الشيعة واهتمت بتعمير مناطق العتبات المقدسة، ويسرت زيارتها أمام شيعة العراق وفارس والهند وأفغانستان وغيرها على النحو الذي بسطناه من قبل. وقد وجدت الدولة العثمانية أقليات شيعية في أجزاء من بعض الولايات العربية فأبقت عليها مثل طائفة العلويين والدروز في لبنان. وكان أهل اليمن يعتنقون مذهباً شيعياً هو الإمامية الزيدية ووصلت إلى اتفاق بينهم يجمع بين الاعتراف بمذهبهم ومقتضيات السيادة العثمانية على اليمن. ولذلك فإن أهل السنة ينظرون إلى الدولة العثمانية على أنها أسدت خدمة جليلة بحصر المذهب الشيعي في فارس، بحيث لم تسمح بتسريبه إلى الأقاليم العربية التي دخلت تحت السيادة العثمانية، ولا تزال إيران إلى اليوم هي المعقل الأول للشيعة في العالم الإسلامي.



خامساً: الصراع للسيطرة على مضيق جبل طارق

١- الصراع قديماً:

وتوالى على عرش غرناطة والمغرب قبل سقوط المدينة الأولى عدد من ملوك بنى مرين، لم تكن لهم قوة أسلافهم ولا حذرهم وحيطتهم وشعورهم بالخطر المهدد بهم، فعاشوا عيشة ترف ولهو. ومن تصارييف القدر العجيبة أنه فى الوقت الذى أخذ الضعف فيه يدب إلى كل من غرناطة وفاس، كانت القوة قد بدأت تتجمع فى كل من إسبانيا والبرتغال.

فالبرتغال قد سرت فيه نهضة حرية وملاحية كبيرة وخاصة منذ عهد الملك خوان الأول (١٣٨٥ - ١٤٣٣ م) مؤسس أسرة أفيس التى حكمت البرتغال بعده. ولقد أبدى هذا الملك اهتماماً خاصاً بالبحرية والأساطيل، واحتلال القواعد والمراكز البحرية التى تسيطر على منافذ البحار وطرق التجارة فى منطقة المضيق^(١).

وانتهز هذا الملك فرصة اضطراب الأحوال فى المغرب، وهاجم بنفسه مدينة سبتة بأسطول كبير من مائتين وعشرين سفينة، واستولى عليها وعلى منطقة جباله فى أغسطس سنة ١٤١٥ م (٨١٨ هـ)، وفر حاكمها المدعو صلاح بن صلاح، وأقام مكانه حاكماً من قبله اسمه بدور منسس.

وذكر محمد القادرى فى كتابه نشر المثنى، قصة فى كيفية استيلاء البرتغاليين على سبتة، تشبه قصة قيصر مع الزباء قال: رأيت بخط من يظن به التشييت والصدق أن النصارى جاءوا بصناديق مقفلة يوهمون أن بها سلماً وأنزلوها بالمرسى كعادة المعاهدين وذلك صبيحة يوم الجمعة من بعض شهور سنة ثمانى عشرة وثمانمائة، وكانت تلك الصناديق مملوءة رجالاً عددهم أربعة آلاف من الشباب المقاتلة، فخرجوا على حين غفلة من المسلمين واستولوا على البلد^(٢).

(١) دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس. دكتور أحمد مختار العبادى ص ٤٥٥.

(٢) السلاوى: الاستقصا ج ٤ ص ٩٢.

وحاول المسلمون استرداد هذه القاعدة المهمة سنة ١٤١٩م - ٨٢٢هـ فهاجمها سلطان المغرب أبو سعيد المريني من البر، بينما هاجمها سلطان غرناطة محمد الثامن من البحر، ولكن البرتغاليين تمكنوا من إحباط هذه المحاولة^(١).

وولى بعد خوان الأول ابنه الأكبر إدوارد سنة ١٤٢٣م الذى حاول احتلال طنجة، وأرسل لهذا الغرض حملة بقيادة أخويه دون فرناندو، ودون هنرى سنة ١٤٣٧م - ٨٤١هـ ونزلت الحملة فى مدينة سبتة ثم اتجهت إلى طنجة، وهاجمها هنرى من ناحية البر بينما هاجمها أخوه فرناندو من البحر. وخشى المسلمون أن تتكرر مأساة سبتة من جديد فدافعوا عن المدينة دفاع المستميت.

وكان سلطان المغرب فى ذلك الوقت طفلاً صغيراً يدعى عبد الحق بن أبى سعيد المرينى، ويدير شئون دولته وزيره أبو زكريا يحيى الوطاسى المعروف بأبى ذكرى. ولم يتردد هذا الوزير حينما بلغته أنباء طنجة فى إرسال الإمدادات إلى المدينة المحاصرة واضطرت القوات البرتغالية أمام شدة المقاومة إلى الانسحاب إلى سبتة، ولكن الجيوش المغربية تمكنت من اللحاق بها وتطويقها وأسر الأمير فرناندو وعدد كبير من البرتغاليين. واشترط المغاربة فى مقابل إطلاق سراح الأسرى، أن ينسحب البرتغاليون من سبتة. ورأى ملك البرتغال أن تسليم سبتة تضحية كبيرة لا تقدر بثمن، ولهذا رفض هذا العرض، وبقي أخوه فرناندو فى الأسر إلى أن مات بفاس فى ٥ يونيو سنة ١٤٤٣م^(٢).

وفى خلال ذلك الوقت ولى عرش البرتغال الملك ألفونسو الخامس الذى سار على سياسة أسلافه التى ترمى إلى السيطرة على مضيق جبل طارق واحتلال القواعد المطلة عليه. واتجهت أنظار هذا الملك الجديد نحو ميناء القصر الصغير أو قصر مصمودة الذى يقع بين سبتة وطنجة.

وكان هدفه من احتلال هذا الموقع هو التمهيد لاحتلال طنجة بالإضافة إلى تدعيم النفوذ البرتغالى فى سبتة.

(١) دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٥٦ المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق ص ٤٥٧.

وفى أكتوبر سنة ١٤٥٨م خرج الملك ألفونسو الخامس على رأس حملة مكونة من ٢٨٠ سفينة و ٢٥ ألف جندي، واستولى على القصر الصغير بدون صعوبة كبيرة وعين عليها حاكماً من قبله .

ثم رأى الملك البرتغالى أن يحاول من جديد احتلال طنجة، فوجه إليها ثلاث حملات فيما بين سنتي ١٤٦٣-١٤٦٤م قاد بعضها بنفسه، ولكنها فشلت كلها ولاسيما الحملة الثالثة التى قتل وأسر فيها عدد كبير من خيرة رجاله حتى صارت طنجة، على حد قول دى كاشترى، مقبرة للنبلاء البرتغاليين.

على أن المغرب لم يلبث بعد قليل أن قتل سلطانه عبد الحق المرينى فى رمضان سنة ٨٦٩هـ (مايو سنة ١٤٦٥م) وبموته انقرضت الدولة المرينية فى المغرب، وقام نزاع على الملك بين الشريف الإدريسي محمد بن على وبين قائد مدينة أصيلا محمد بن الشيخ الوطاسى وهو ابن الوزير السابق أبى زكرى.

وامتد الصراع بين الطرفين عدة سنوات (١٤٦٥-١٤٧٢م) اضطر خلالها محمد الشيخ إلى ترك أصيلا ومحاصرة خصمه فى فاس.

وانتهز ملك البرتغال ألفونسو الخامس هذه الفرصة، وهاجم مدينة أصيلا بأسطول ضخم من ٤٧٧ سفينة عليه ٣٠ ألف مقاتل، وذلك فى أغسطس سنة ١٤٧١م، وبعد مقاومة عنيفة تمكن من احتلال المدينة وأسر عدد كبير من أهلها، من بينهم زوجتان وابن لمحمد الشيخ كانوا معتصمين بقصبتها^(١).

وعندما علم محمد الشيخ بأنباء هذه الحملة ترك جزءاً من جيشه لمواصلة حصار فاس، واتجه نحو أصيلا لنجدتها ولكنه ما كاد يصل إلى مدينة القصر الكبير حتى بلغته الأنباء بسقوط أصيلا ووقوع أسرته فى أسر البرتغاليين.

ورأى محمد الشيخ أن الاتفاق مع ملك البرتغال هو الحل الوحيد للخروج من هذه الأزمة والتفرغ لمحاربة خصمه فى فاس. وعلى الرغم من أن نصوص هذه

(١) دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس. دكتور أحمد مختار العبادى ص ٤٥٩.

الهدنة لم تصل إلينا، إلا أنه يوجد في المدونة الخاصة بعصر ألفونسو الخامس بعض شروطها، وهي تنص على أن يمتد أمد الهدنة عشرين سنة، وأن يحتل البرتغاليون مدينة العرائش إلى جانب أصيلا، وأن يطلق سراح ابن السلطان محمد الشيخ وزوجاته.

على أن ملك البرتغال، رغم شروط هذه الهدنة، اتجه بقواته وأساطيله نحو مدينة طنجة التي خاف أهلها أن يكون مصيرهم مثل مصير أهل أصيلا، فأخذوا في الجلاء عنها مما سهل على الجيش البرتغالي مهمة احتلالها في ٢٩ أغسطس سنة ١٤٧١م أي بعد خمسة أيام من احتلال أصيلا.

وكان محمد الشيخ في خلال ذلك الوقت منهمكاً في محاربة خصمه الشريف محمد بفاس ثم انتهى الأمر بفرار هذا الأخير إلى تونس بعد أن تخلى عنه أتباعه، ودخل محمد الشيخ العاصمة فاس في سنة (٨٧٧هـ - ١٤٧٢م) مؤسساً بذلك دولة بني وطاس^(١).

ولقد أثار احتلال البرتغاليين لمدينة طنجة أثناء الهدنة المبرمة، غضب السلطان محمد الشيخ. فاتفق مع ملك أراجون فرناندو الكاثوليكي الذي كان في حالة حرب مع البرتغال، على أن يقوم المغاربة بمهاجمة سبتة من البر، بينما يهاجمها الإسبان من البحر. على أن هذا الهجوم المزدوج لم يلبث أن فشل أمام مقاومة حاكم المدينة البرتغالي وانتهى الأمر برفع الحصار عن المدينة سنة ١٤٧٦م.

ثم جاءت بعد ذلك معاهدات الكاثوفاس في ٤ سبتمبر سنة ١٤٧٩، وطليلة في ٦ مارس سنة ١٤٨٠ التي أبرمت بين إسبانيا والبرتغال، مخيبة لآمال السلطان محمد الشيخ، إذ إنها أنهت حالة الحرب بين هاتين الدولتين، كما أنها نصت على اعتراف إسبانيا بحقوق دولة البرتغال في المواقع التي احتلتها في مملكة فاس، مثل سبتة وطنجة، والقصر الصغير، والعرائش، وأصيلا^(٢).

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

وهكذا تجد أن البرتغال في خلال القرن الخامس عشر الميلادي قد احتلت سواحل العدو المغربية وتحكمت في منطقة المضيق. ويبدو أن الملك ألفونسو الخامس أراد أن يتوج هذه الفتوحات التي حققت آماله، فاتخذ لقباً جديداً ورثه خلفاؤه من بعده وهو لقب (ملك البرتغال والغربيين المصاقين للبحر).

كذلك أطلقت عليه المصادر البرتغالية لقباً آخر يدل على أعماله التوسعية في المغرب وهو (ألفونسو الإفريقي).

على أن المغاربة، رغم كل ذلك، ولا سيما الشيوخ المستقلين منهم في شمال المغرب، لم يكفوا عن مهاجمة هذه الحاميات البرتغالية وشل حركتها حتى قيل إنها كانت تعيش في حالة استعداد دائم للحرب ومن هؤلاء الزعماء المغاربة نذكر الشريف العلمي على بن راشد، الذي أسس مدينة شفشاون سنة ٨٧٦هـ (١٧٤١م) على ارتفاع ألف متر في جبال الريف بالقرب من تطوان، لتكون قاعدة لعملياته العسكرية ضد الاحتلال البرتغالي. كذلك نذكر القائد المندري قائد تطوان الذي كان شوكة في جنب المواقع البرتغالية المجاورة في سبتة وطنجة.

إذا انتقلنا إلى إسبانيا في خلال القرن الخامس عشر الميلادي، فنجد أنها عرفت هي الأخرى نبضة حربية كبيرة، ووحدة سياسية شاملة، بدأت طلائعها باحتلال جبل طارق سنة ١٤٦٢م في عهد هنري الرابع ملك قشتالة، ثم بعد ذلك بزواج الملكين الكاثوليكين فرناندو ملك أراجون وإزابيل ملكة قشتالة سنة ١٤٦٩م. وبهذا الزواج اتحدت هاتان المملكتان اللتان كانتا في منازعات وحروب مستمرة؛ لهذا أثارت هذه الوحدة في إسبانيا موجه كبيرة من الفرح ما زال صداها يتردد في الأغاني الشعبية. أي مهما ارتفعنا فسوف نجد في الذروة دائماً إزابيل وفرناندو. ولا شك أن هذا الاتحاد كان معناه في الواقع انتهاء مملكة غرناطة العربية، لأن بقاء هذه المملكة الصغيرة كان راجعاً إلى حد كبير إلى العداء القائم بين هاتين الدولتين كما سبق أن أشرنا.

وبالفعل كان أول شيء اهتم به هذان الملكان الكاثوليكيان، هو تصفية مملكة غرناطة وإزالة الحكم العربي من إسبانيا نهائياً. وقد اتبعا في ذلك سياسة مزدوجة

تقوم على القوة العسكرية من جهة، وإثارة التفرقة والفتن الداخلية بين المسلمين من جهة أخرى.

ولما شعر سلطان غرناطة أبو الحسن على (٦٦٦-٨٩٠هـ = ١٤٦١ - ١٤٨٥م) بهذه النية المبيتة ضد مملكته، امتنع عن دفع الإتاوة التي كان يؤديها للملوك إسبانيا في كل سنة وقال لرسول الملك فرناندو: (قل لمولايك إن سلاطين غرناطة الذين اعتادوا أداء الإتاوات قد ماتوا، وإن دار الضرب بغرناطة لا تطيع الآن ذهباً أو فضة، وإنما سيوفاً ورمحاً). وقد أثارت هذه الإجابة غضب الملك فرناندو، فصاح قائلاً: (غرناطة غرناطة، سوف أنتزع حباتك واحدة واحدة).

ويلاحظ أن المعنى هنا مجازي لأن كلمة غرناطة معناها بالإسبانية الرمانة، ولهذا فهو يقصد بانتزاع حباتها أي حصونها واحداً بعد الآخر.

وبدأت الحرب باستيلاء الغرناطين على حصن الصخرة في الأراضي القشتالية سنة ١٤٨١م. ورد الإسبان باحتلال مدينة الحمة على مقربة من مدينة غرناطة نفسها سنة ١٤٨٢م. وحاول السلطان أبو الحسن استرداد هذا الموقع المهم ولكنه لم يقدر، واستمرت الحرب بين الجانبين عشر سنوات تخللتها ثورات وحروب داخلية بين المسلمين زادت من ضعف قوتهم. فتروى المصادر أن السلطان أبا الحسن كان متزوجاً بابنة عمه عائشة وله منها ولدان: أبو عبد الله محمد ويوسف. ثم اصطفى على زوجته امرأة إسبانية كان قد أسرها في إحدى غزواته اسمها إزابيل دي سوليس، وكان أبوها ضابطاً في الجيش الإسباني يدعى سانشو خيمينت دي سوليس ثم اعتنقت إزابيل الإسلام واتخذت اسماً عربياً وهو ثريا. وقد أثار حب السلطان لها غيرة زوجته الأولى، فوقع نزاع بينهما، واضطرت الأميرة عائشة إلى مغادرة قصر الحمراء بولديها والإقامة في حي البيازين ثم لم يلبث الولدان بعد ذلك أن فرا إلى مدينة وادي آتش وأعلنوا الثورة على أبيهما، وقامت حرب ضروس بين الأب وولديه مات فيها ابنه يوسف ثم انضمت العاصمة غرناطة إلى ابنه الآخر أبي عبد الله محمد، وكانت عائلة بني السراج هي عماد هذه الحركة، فاستدعت

الأمير محمد وأقامته سلطاناً بعد أن طردت أباه من العاصمة سنة ١٤٨٢م. ولجأ السلطان المخلوع أبو الحسن إلى مدينة بسطة حيث انضمت إليه عائلة الشغريين أعداء بنى السراج.

وحدث بعد ذلك أن وقع السلطان أبو عبد الله محمد أسيراً في يد الإسبان أثناء قيامه بغارة في أراضيهم سنة (١٤٨٣م - ٨٨٨هـ) وكان أسره ضربة شديدة لحكم المسلمين لدى ملك الكاثوليكين؛ إذ استطاع أن يستذله ويرجع إليه ملكه وملك أبيه مرة بالتهديد ومرة بالوعود والأمانى حتى ذل عنقه، وأصبح آلة في أيديهما، ثم أطلق سراحه، فعاد إلى غرناطة ليواصل حرب أبيه الذي استرد عرشه. وما لبث أبو الحسن أن مات همماً وكمداً بعد أن أصيب بالعمى والصرع، وخلفه في الملك أخوه أبو عبد الله محمد بن سعد الملقب بالزغل سنة ١٤٨٥م (٨٩٠هـ)^(١).

ولقد استغل الإسبان فرصة انشغال المسلمين بالحرب التي قامت بين الزغل وابن أخيه أبي عبد الله، واستولوا على الأجزاء الغربية من مملكة غرناطة مثل رندة ولوشة ومالقة، فيما بين سنتي (١٤٨٥-١٤٨٧م) (٨٩٠-٨٩٢هـ).

ورأى المسلمون أن يعرضوا على الزغل وابن أخيه اقتسام ما بقى من بلاد خوقاً من تمادى العدو في احتلالها. وتم الاتفاق على أن يستقر الزغل في مدينة وادي آش وتتبعه الأجزاء الشرقية من غرناطة، بينما تكون العاصمة وأعمالها لابن أخيه أبي عبد الله.

غير أن الإسبان لم يكفوا عن بث دسائسهم، فأرسلوا إلى الزغل من يعرض عليه وعلى قواده مالا كثيراً في مقابل تسليم الأجزاء الشرقية من غرناطة التي تحت سلطانه. وأثر ذلك الإرهاب والترغيب في نفس الزغل لا سيما بعد أن تخلى عنه قواده، فأثر التسليم والرحيل إلى فاس. ولكن سلطان المغرب محمد الشيخ نقم عليه فسجنه وصادر أمواله وسمل عينيه.

(١) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس. دكتور أحمد مختار العبادي ص ٤٦٦.

أما أبو عبد الله محمد، فإنه ظن في بادئ الأمر أن الجو قد صفا له بذهاب عمه، ولكنه سرعان ما تكشف له الحقيقة عندما طالبه الملك فرناندو بتسليم عاصمته غرناطة، عندئذ صمم على القتال حتى النهاية وأيده في ذلك أهل غرناطة^(١).

ولجأ الملك فرناندو إلى سياسة الحرب الاقتصادية ضد أهل غرناطة كي يجبرهم على التسليم أو يميتهم جوعاً. فحاصر المدينة سنة ١٤٩١م (٧٩٦هـ)، وأفسد مروجها؛ وبنى أمامها مدينة أطلق عليها اسم شنتفى أى الإيمان المقدس لتكون قاعدة لعملياته العسكرية ويقول السلاوى فى هذا الصدد: (وعلى الرغم من ذلك كله كان الطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرفق، والطعام يأتى من ناحية جبل شلير إلى أن تمكن فصل الشتاء، وكلب البرد، ونزل الثلج، فانسد باب المرافق، وانقطع الجانب، وقل الطعام، واشتد الغلاء، وعظم البلاء ففر ناس كثيرون من الجوع إلى البشرات، ثم اشتد الأمر فى شهر صفر سنة ٨٩٧هـ - ديسمبر ١٤٩١م)، فاجتمع ناس مع من يشار إليه من أهل العلم كأبى عبد الله الموافق شارح (المختصر) وغيره، وقالوا: (انظروا لأنفسكم وتكلموا مع سلطانكم) فأحضر السلطان أبو عبد الله بن أبى الحسن أهل دولته وأرباب مشورته، وتكلموا فى هذا الأمر، وأن العدو يزداد مدده كل يوم ونحن لا مدد لنا، فانظروا لأنفسكم وأولادكم فاتفق الرأى على ارتكاب أخف الضررين، وشاع أن الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الأجناد فى إسلام البلد خوفا على نفوسهم وعلى الناس، ثم عددوا مطالب وشروطاً أداروها وزادوا أشياء على ما كان فى صلح وادى آش، منها: أن صاحب رومة (البابا) يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط إذا مكنوه من حمراء غرناطة، ويحلف على عادة النصارى فى العهود. وتكلم الناس فى ذلك، وذكروا أن رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام فى ذلك، امتن عليهم النصارى بمال جزيل وذخائر، ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غرناطة

(١) كتاب نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر ص ٣٧.

فانقادوا إليها؛ واستولى النصارى عليها فى ربيع الأول سنة (٨٩٧هـ - يناير ١٤٩٢م)، ولا حول ولا قوة إلا بالله^(١).

والجدير بالذكر أن غرناطة اتجهت إلى مصر تلتمس معونتها أمام الخطر الواقع بها، ومثال ذلك السفارة التى أوفدها سلطان غرناطة محمد بن يوسف الأيسر إلى سلطان مصر الظاهر سنة (١١٤٠م - ٨٤٤هـ) كذلك تذكر سفارة الفقيه الأندلسى أبى على بن محمد بن الأزرق الذى حاول أن يستنهض عزائم السلطان الأشرف قايتباى (١٤٦٨ - ١٤٩٥م) لاسترجاع الأندلس^(٢).

والواقع أن مصر لم يكن فى مقدورها القيام بعمل عسكري فى إسبانيا وعذرها فى ذلك واضح كما يقول أحد الكتاب المعاصرين، لحيلولة البحر مع بعد المسافة، والاحتياج لكثرة المراكب من ناحية. ولم يكن لملوك مصر عناية بأمر الشحنة لأنهم أصحاب خيل، فقوتهم برية وليست بحرية من جهة أخرى، ولكن على الرغم من ذلك، فإن بعض سلاطين مصر حاولوا إنقاذ غرناطة عن طريق الضغط الدبلوماسى، ومثال ذلك تلك السفارة التى أرسلها السلطان قايتباى فى سنة ١٤٨٩م إلى الملكين الكاثوليكين يهدف فيها باضطهاد المسيحيين الموجودين فى الشرق إن لم يكف عن مهاجمة غرناطة. غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل وسقطت غرناطة سنة (١٤٩٢م - ٨٩٧هـ) ولم يفت الملكان الكاثوليكيان أن يبعثا بسفارة إلى سلطان مصر قنصوة الغورى سنة ١٥٠١م واستطاع السفير الإشبانى بدور مارتير أن يسترضى سلطان مصر ويزيل التوتر السياسى بين مصر وإسبانيا.

هذا والجدير بالذكر أن هذه الأحداث المتعلقة بنهاية الحكم العربى فى إسبانيا، قد اقترفت بحركة الاستكشافات الجغرافية الكبرى. ففى نفس تلك السنة (١٤٩٢م) التى سقطت فيها غرناطة، اكتشف كريستوفر كولمبس أمريكا بمساعدة ملكى إسبانيا، ولم تلبث البرتغال بعد خمس سنوات أن اكتشفت طريق الهند من رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧م على يد فاسكو دى جاما.

(١) السلاوى: الاستقصا ج ٤ ص ١٠٣، ١٠٤.

(٢) عبد العزيز الأهوانى: سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة سنة ٨٤٤هـ.

وقد استعان كل من الرحالتين بالمغرب ليهتدى طريقه في مجاهل المحيط الأطلنطي والمحيط الهندي . وفي نفس تلك السنة ١٤٩٧م تظاهر الأسطول الإسباني بأنه يعد العدة في جبل طارق لرحلة كرسطوفر كولبس الثانية إلى أمريكا، ثم أبحر سرّاً إلى القاعدة المغربية مليلة واستولى عليها في سبتمبر سنة ١٤٩٧م تحت قيادة دوق مدينة سدونيا دون خوان دي جثمان .

وهكذا لم تعد أهمية مضيق جبل طارق قاصرة على البلاد المطلة عليه من الشمال أو الجنوب، بل صار ممراً حيوياً بين الشرق والغرب أو بين العالم القديم والعالم الجديد، وبهذا يدخل النزاع في دور جديد^(١).

٢- تطور الصراع حول المضيق والمناطق المجاورة:

أ- بداية الوجود العثماني في الجزائر:

حينما كان الإسبان يغزون الشواطئ الجزائرية في مطلع القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، كانت طلائع غزاة البحر العثمانيين، ممثلة في الإخوة باربروس^(٢) عروج وخير الدين وإسحاق، وآخريين، قد وصلوا إلى الحوض الغربي للمتوسط، وأخذت تجوبه بكل قوة ملحقين بالسفن والشواطئ المسيحية خسائر كبيرة، متخذة من الموانئ التونسية التي أذن لهم السلطان الحفصي أبو عبد الله محمد، باستعمالها مقابل دفع الخمس من الغنائم وشروط أخرى^(٣)، وانطلقوا يحققون انتصارات متعددة فذاع صيتهم، وانتشرت أخبار بطولاتهم في الغزو البحري، فتوجهت إليهم أنظار المجاهدين الجزائريين، وفي مقدمتهم أبو العباس أحمد بن القاضي الزواوي الذي لما رأى قوة شوكة النصارى الكفار، وانتشارها في المغرب، وضعف المسلمين وعدم القدرة عن مقاومتهم، كاتب الترك، الذين عرفهم بما يسمع عنهم من شدة البلاء في المعارك، ونجدتهم في الحروب والمضايق، وإرهابهم للكفرة فقصدتهم أبو العباس بحسن نيته، أن يرفعوا من عزة الإسلام ما انخفض، ويقولوا من أمره ما ضعف، وقال: «إن بلادنا بقيت لك ولأخيك أو

(١) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس . دكتور أحمد مختار العبادي ص ٤٧٠ .

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢، ص ٩٠٨ . (٣) المصدر السابق نفسه .

للذئب»، فأقبل الترك نحوه مسرعين، وجعل هو يحث الناس على اتباعهم، والانخراط في سلوكهم، والسمع والطاعة لأمرهم عروج التركماني، الذي هو الباي فيهم، فدخل الترك الجزائر وتلمسان.

من هذا النص نستخلص أن البدايات الأولى لتدخل العثمانيين في الجزائر، كان استجابة لطلب الجزائريين، ونجدة لهم، ومشاركة في الدفاع عن بلادهم، وتحرير ما وقع منها تحت الاحتلال الإسباني. ولكن عروج وجماعته من الأتراك، وغيرهم قبل أن يدخلوا إلى الجزائر أو إلى تلمسان، قاموا في سنة ٩١٨هـ - ١٥١٢م بمحاولة لتحرير بجاية، لم تكلل بالنجاح، وفيها فقد عروج ذراعه. ولما شفى من إصابته وجدد بناء قوته خلال سنة ٩١٩هـ - ١٥١٣م، هاجم في السنة التالية (٩٢٠هـ / ١٥١٤م) بجاية مرة أخرى، ولما باءت محاولته بالفشل، توجه إلى بلدة جيجل، التي استولى عليها الجنويون بقيادة أندري دوريا في سنة ٩١٩/ ١٥١٣م، لتحريرها بالتعاون مع أهاليها وسكان المنطقة المجاورة لها وأبى العباس بن القاضي المذكور. وقد تمكن عروج من القضاء على حصن الجنويين، وتحرير البلدة التي أصبحت منذئذ قاعدة له. ومنها وجه هدية ثمينة إلى السلطان العثماني سليم الأول. وبذلك ابتدأت الصلة الرسمية مع العثمانيين، والنفوذ العثماني في الجزائر.

ب- عروج وباربروسا يدعمان الوجود العثماني في الجزائر:

فقد شرع عروج وخير الدين ثم من تلاهما في توسيع نفوذهم في الجزائر انطلاقاً من جيجل أول حاضرة لهم في الجزائر، ثم من مدينة الجزائر ثانياً المدن التي خضعت لهم. فعروج لم يلبث في جيجل مدة طويلة حيث تلقى دعوة من أهالي مدينة الجزائر، وأميرهم سالم التومي في سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م لتخليصهم من الحامية الإسبانية، التي كانت تضايقهم، وتشل حركتهم، وتحول دون ممارستهم للغزو البحري، فاستجاب لطلبهم، وهاجم الحصن الإسباني، بعد أن استولى على بلدة شرشال المجاورة، ولكن مدفعيته لم تستطع التأثير على الحصن القوي على الرغم من قربه من المدينة، إذ لم يكن يبعد عن المدينة بأكثر من ١٠٠م، وأنه ظل يقصفه ثلاثة أسابيع.

ولكن العلاقة بينه وبين سالم التومى لم تلبث أن ساءت بعد فشل هذا الأخير فى القضاء على الحصن الإشباني . وتمكن عروج من قتله بعد أن استمال إليه العديد من أعيان المدينة بالهدايا وأعلن نفسه حاكماً على الجزائر، ثم تمكن من إحباط مؤامرة حاكها ضده بعض أهالى المدينة مع عرب المنطقة المجاورة (عرب متيجة، الموالين لسالم التومى) فأذعن سكانها . ولكن الإشباني لم يرتاحوا إلى الوضع الجديد فى المدينة، فجهزوا حملة ضخمة فى نفس السنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م للقضاء على خطر عروج قبل استفحاله، وإعادة الإمارة إلى ابن سالم التومى، كانت تتألف تلك الحملة من ٨٠٠٠ مقاتل نقلتهم ٨٠ سفينة، بقيادة ديجو دوفيرا، ولكن تلك الحملة باءت بالفشل أمام خطط عروج الهجومية، التى مكنته من القضاء على ٣٠٠٠ مقاتل ممن نزلوا إلى الأرض، وأسر ٤٠٠ منهم. وتضافرت العاصفة معه، فقضت على معظم قطع الأسطول بمن فيها غرقاً فى البحر^(١).

وساعد هذا الانتصار الباهر الذى حققه عروج وجماعته، بالتعاون أيضاً مع سكان المدينة وعرب المنطقة المجاورة، على استقرار الأمر لحاكم الجزائر الجديد، وعلى مد نفوذه إلى مدن أخرى، ساحلية وداخلية، فى مقاطعة الجزائر وخارجها، كدلس، والمدية، ومليانة، وغيرها. ثم توجهت أنظاره إلى الغرب الجزائرى للقضاء على الحكام الزيانيين فيه، الموالين للإشباني، كسلطان تنس وسلطان تلمسان.

وقد تمكن من الانتصار على قوات سلطان تنس الكبيرة، فى المعركة التى جرت بين الطرفين على مقربة من نهر الشلف، فى صيف ٩٢٣هـ / ١٥١٧م وذلك بفضل السلاح النارى الذى كان بحوزة قواته، والذى لا مثيل له لدى قوات سلطان تنس، فاضطر هذا الأخير إلى الفرار إلى قاعدة ملكه. ولما وجد نفسه ملاحقاً فر منها إلى أقصى الجنوب الجزائرى، فدخلها عروج ثم تقدم إلى تلمسان، حيث كان السلطان أبو حمو الزياني الثالث الموالى للإشباني قد اغتصب الملك من ابن أخيه أبى زيان وأودعه السجن، وذلك بعد أن تلقى دعوة من بعض أعيان تلمسان يرجونه فيها المسير إلى مدينتهم لتخليصهم من أبى حمو، وإعادة أبى زيان إلى الملك، وتمكن

(١) خير الدين بربروسا، بسام العسلى ص ١٠٠ - ١٠٢، وانظر أيضاً الدولة العثمانية للشناوى ص ٩٠٨ - ٩١٤.

عروج من تحقيق النصر على أبي حمو في المعركة التي دارت بين الطرفين، ففر هذا الأخير إلى فاس ثم إلى وهران، ومن هذه الأخيرة توجه إلى بلاط ملك إسبانيا شارل الأول، لطلب عونه. ودخل عروج تلمسان في رمضان ٩٢٣ هـ/ سبتمبر ١٥١٧م، واستحوذ على الملك فيها، وقتل أبازيان بعد أن أعاد له الملك بضعة أيام وكذلك كل أفراد الأسرة المالكة إلا من فر منهم، والمتعاطفين معهم من التلمسانيين وذلك حسماً لمؤامراتهم، ثم جدد في توطيد سلطته في المدينة، وتحصينها. وكان قد أقام وهو في طريقه إلى تلمسان-حامية في قلعة بني راشد، التي تتوسط الطريق بين تلمسان ومدينة الجزائر لتأمين خط الرجعة إلى هذه الأخيرة، ووصول الإمدادات إليه منها أو من الجزائر أسند قيادة تلك الحامية إلى أخيه إسحاق. وسعى إلى إقامة تحالف دفاعي وهجومي بينه وبين سلطان فاس محمد البرتغالي الوطاسي ضد النصاري، العدو المشترك، فرحب هذا الأخير بالعرض ووافق عليه. وبهذه الخطوات اطمأن عروج، وبقي في مدينة تلمسان الداخلية^(١).

ج- التدخل الإسباني في تلمسان ونهاية عروج،

لم ينظر الإسبان بعين الارتياح إلى النجاحات التي حققها الإخوة باربروس والخطوات الكبيرة التي خطوها في طريق توحيد أجزاء الجزائر تحت سلطتهم، لأن خطرهم المتزايد سوف لا يتوقف عند تهديد مراكزهم على ساحل المغرب الكبير فقط بل وعلى شواطئ إسبانيا نفسها؛ ولذلك فقد كان رد فعلهم التدخل السريع إلى جانب السلطان المخلوع أبي حمو الثالث، فقطعوا أولاً خط الرجعة إلى الجزائر، بقضائهم على حامية قلعة بني راشد بما في ذلك إسحاق شقيق عروج وخير الدين، ثم حاصروا عروج في تلمسان. وكان هذا الأخير يأمل في وصول المدد إليه من حليفه السلطان الوطاسي، ولما طال انتظاره حاول الفرار في اتجاه الغرب مع القليل من الأتراك الذين بقوا، واستطاع الإسبان بعد معركة عنيفة من القضاء عليه وعلى رفاقه في مايو ١٥١٨م وفي بني يزناسن. وأعاد الإسبان الملك في تلمسان إلى أبي حمو الثالث الذي قبل أن يدفع ضريبة سنوية لهم مقدارها

(١) المرجعان السابقان. ونفس الصفحات.

١٢٠٠٠ دوكاتو، ١٢ من الخيل و٦ من إناث الصقور، كعلامة عن التبعية. وبمقتل عروج وأخيه إسحاق والقوات التي كانت معهما كما سنوضح بعد، تعرض الوجود العثماني إلى هزة قوية كادت تقضى عليه، وتقلصت من جديد أرجاء الدولة التي أخذ عروج في إنشائها بعودة أبي حمو إلى مملكة تلمسان وحميدة العبد إلى تنس.

لم يستكن عروج وأخذ يعد عدته، وما إن أتم استعدادته حتى اندفع بجرأة في اتجاه (تلمسان) وهو يقود قواته عبر الهضاب الداخلية بهدف تجنب الاصطدام بالحاميات الإسبانية المنتشرة على محيط (وهران). وعندما وصل إلى (هواره) قلعة (بنى راشد) اتخذ منها قاعدة لحماية خطوط مواصلاته، نظراً لما كان يتوافر لها من المميزات الدفاعية، ونظراً لموقعها المناسب حيث كانت تبعد مسافة (٢٥) كيلو متراً عن معسكره وتبعد عن (مستغانم) نحواً من (٥٥) كيلو متراً. ووضع في القلعة حامية تضم ستمائة مقاتل. وكلفهم بتنفيذ عمليات صغرى لإزعاج الإسبانيين في (وهران) وحرمانهم من حرية العمل أو التحرك. ثم مضى بالجيش الجزائري حتى وصل (سهل أربال)، حيث كان (أبو حمو الثالث) قد أقام معسكره هناك ونظم قواته التي ضمت ثلاثة آلاف راجل - من المشاة - وستة آلاف فارس. غير أن هذه القوة على ضخامة حجمها لم تصمد لصدمة جيش الجزائر الذي يقوده (عروج) فتمزق بسرعة، ومضى (عروج) لمتابعة تقدمه بسرعة مذهلة حتى وصل (تلمسان)، التي استقبلت قوات الجزائر بالفرحة العارمة.

وخرج (أبو زيان الثالث المسعودي) وتولى سلطانه، غير أن الفتنة ما لبثت أن عادت للظهور بين أطراف الزينيين ذاتهم، وهم المؤيدون لأبي زيان وأولئك أنصار (أبي حمو) وبينهما أنصار الإسبانيين وعملائهم. وتعاظمت الفتنة إلى درجة حملت (أبا زيان) على إعلان تمرد على (عروج) الأمر الذي أرغم هذا على العودة إلى تلمسان وقتل سلطانها وجماعة من قرابته وأنصاره بالإضافة إلى قادة الفتنة وزعماء المشاغبين.

وفي تلك الفترة، كان (أبو حمو) قد جمع بعضاً من فلول قواته الممزقة، ومضى بها إلى مدينة (فاس) غير أنه لم يستقر بها طويلاً، فمضى إلى مدينة

(وهران) حيث وضع نفسه تحت حماية حاكمها العام الإسباني، مستمداً منه العون والدعم حتى يستعيد ملكه وسلطانه. كان ملك إسبانيا الجديد (شارل الخامس - أو شارلكان) يتابع تطورات الموقف في المغرب الإسلامي؛ فأرسل إلى الحاكم العام في وهران يأمره باستخدام كل إمكاناته لانتزاع تلمسان من قبضة المسلمين الجزائريين وإعادة (أبو حمو - أو أبو قلمون كما كانوا يسمونه) إلى حكم إمارته (تلمسان) ودعمه بالعتاد وبقوة مقاتلة بلغ عدد أفرادها عشرة آلاف مقاتل.

خرج (أبو حمو) من وهران في أواخر شهر كانون الثاني - يناير ١٥١٨م، ومعه جموع من الأعراب بالإضافة إلى فرقة من الجيش الإسباني، وتمكنت هذه القوة من مباغته قلعة (بنى راشد) بهجوم قوى لم تصمد له حامية القلعة، على الرغم مما أظهرته من المقاومة الضارية، فاضطرت إلى الانسحاب بعد أن تم الاتفاق مع (أبي حمو) على السماح لبقية القوات بالخروج سالمة للتوجه نحو تلمسان.

تابع (أبو حمو) تقدمه نحو تلمسان، وفي هذا الوقت تم إنزال قوة إسبانية أخرى زج بها حاكم وهران، وأنزلها في بلدة (رشقون) الساحلية لدعم الهجوم البري. وسارت هذه القوة بسرعة نحو تلمسان على الطريق الساحلي حيث التقت مع قوات (أبي حمو) على أبواب تلمسان، وضرب حصار قوى ومحكم على المدينة.

تولى الدفاع عن تلمسان (القائد عروج) ومعه حاميته الجزائرية - التركية ووقعت معارك قاسية في ظروف غير متكافئة، وعلى الرغم من التفوق الساحق للإسبانيين وعميلهم (أبي حمو) فقد نجح عروج وحاميته في قيادة وخوض حرب دفاعية بائسة استمرت لمدة ستة أشهر كاملة؛ نجح الإسبان بعد ذلك في تدمير أسوار المدينة بالقصف المدفعي المستمر، وأمكن لهم بالتالي اقتحام المدينة، ولم تستسلم الحامية فانتقلت لخوض الصراع في الأسواق والمنازل وانسحب بعدها عروج وبقية قواته إلى (قلعة المشور)، وأعادوا تحصينها وتنظيم الدفاع عنها والتمركز فيها بانتظار وصول دعم من قبل ملك فاس الوطاسي المريني الذي كان قد اتفق مع عروج على دعمه. وقد أرسل الملك المريني جيشاً لدعم عروج ومساعدته على تطوير الدفاع

عن تلمسان ضد الإسبانيين وأنصارهم. لكن ذلك الجيش اتبع طريق (مليلة) في تحركه، وهو طريق طويل، فلم يتمكن من الوصول إلى ميدان المعركة في الوقت المناسب، واضطر إلى العودة بدون أن يشترك فعلياً بالقتال^(١).

وشددت القوات الإسبانية قبضة الحصار على (قلعة المشور) وتكبدت الحامية خسائر فادحة حتى لم يبق مع (عروج) أكثر من خمسمائة تركي. غير أن إرادة القتال لم تضعف لدى هؤلاء المجاهدين الذين صمموا على متابعة المعركة حتى نهايتها. وجاءت هذه النهاية سريعاً، فقد تقدمت جماعة من المسلمين إلى (عروج) في صبيحة يوم عيد الفطر تستأذنه في السماح لها بممارسة عاداتها في إقامة صلاة العيد بمسجد (المشور) ووافق (عروج) على ذلك، وما إن دخلت هذه الجماعة إلى الحصن، حتى انتضت سيوفها وأخرجت أسلحتها التي كانت تخفيها في طيات الثياب. وانقضت على الحامية التركية التي بوغت بهذه الهجمة. فسقط عدد من أفراد الحامية، وتمكن البقية من استعادة سيطرتهم على أنفسهم بسرعة، فأعادوا تنظيم دفاعهم، وانقضوا على هؤلاء الغادرين، ونجحوا في القذف بهم إلى خارج الأسوار، وأعادوا تنظيم أمورهم، غير أن الخسائر الفادحة التي تكبدتها الحامية أقنعت عروج بضرورة الخروج من هذا المأرق. فقرر شق طريقه عبر القوات القائمة على الحصار، والوصول إلى الساحل حيث تتوافر له فرصة أفضل لجمع الأنصار وتنظيمهم.

ونظم (عروج) قوته وانطلق بها من (قلعة المشور) حيث اتجه نحو الغرب عبر الممرات الضيقة المؤدية إلى الساحل، وعندما وصل إلى (جبال بني سناسن) أحاطت به قوة إسبانية تضم خمسين فارساً بقيادة (غارسيادى لابلانزا) ودارت مذبحة ضارية في ظروف غير متكافئة ودافع (عروج) عن نفسه بثبات وعناد لا يمكن وصفهما مستخدماً في ذلك يده الوحيدة - حتى لم يبق معه أكثر من عشرة رجال سلكوا مسلكه، وأظهروا مثل ثباته وعناده بعد أن تحصنوا بجدران (زاوية سيدي مرسى). وعندما أبيد هؤلاء الرجال العشرة، وقف (عروج) وجهاً لوجه أمام خصمه (غارسيا) واستمرت المبارزة بينهما حتى سقط الاثنان بضربتين قاتلتين متبادلتين.

(١) المرجع السابق. ونفس الصفحات.

استشهد (عروج) كأفضل ما يكون عليه الاستشهاد، ومضى إلى حيث سبقه أخواه من قبله، وأدى واجبه في الدفاع عن الإسلام والمسلمين حتى آخر نقطة من دمه غير أن حجم الكارثة كان أكبر من كل تصور، فمضى الإسبان في فرحتهم، وخيم الحزن والأسى على مدينة الجزائر. وكانت الصدمة قوية بصورة خاصة بالنسبة إلى خير الدين الذي عرف حياة الجهاد من خلال أخيه، غير أن شعور أهل الجزائر بالصدمة لم يكن أقل من شعور خير الدين، ذلك أنهم وضعوا آمال مستقبلهم على عاتق (عروج) كما شعروا معه بحلاوة النصر على أعداء الدين. وعرفوا قبل ذلك وبعده أهمية الدور الذي يمكن للمغرب الأوسط (الجزائر) الاضطلاع به في قيادة الجهاد في سبيل الله.

د- خير الدين على طريق الجهاد:

ترددت أصداء كارثة (تلمسان) بقوة في ضمائر أبناء الجزائر الأحرار واجتمع المسؤولون فيها من الشيوخ والزعماء - أهل الحل والعقد - لمناقشة الموقف بعد استشهاد (عروج) وقرروا أن يسندوا إلى (خير الدين) واجب (إمارة الجهاد) بعد أخيه، وألحوا عليه في ذلك، لكنه اعتذر عن قبول الإمارة، وأعرض عنها، وأبلغ المسؤولين في الجزائر أنه يعتزم السفر إلى عاصمة الخلافة (إستانبول) على أمل الحصول على أسطول جديد يساعده على متابعة الجهاد في سبيل الله في البحر وأجابه علماء الجزائر: بأن الله يوجب عليه الجهاد في هذه المدينة - الجزائر - لحماية المسلمين، وأن الدين لا يسمح له بتركها نهياً للمفتربين فأجابهم عندئذ بقوله^(١):

(لقد بقيت منفرداً دون أخوتي - الذين استشهدوا جميعاً فوق أرض الجزائر - وقد رأيتم ما فعله بنا صاحب تلمسان من بنى زيان، واستعانت به علينا بغير ملتنا حتى كفانا الله أمره. وصاحب تونس الحفصى الذى لا يرى ضرورة نصرتنا وإعانتنا والذى أسلمنا للعدو بمنع البارود عنا - أثناء حملة بجاية - لولا لطف الله. فالرأى هو أن نصل أيدينا بالقوة الإسلامية - وهو السلطان سليم خان - ونعتمد عليه في

(١) خير الدين. مرجع سابق ص ١٠٧، ١٠٨.

حماية هذه المدينة، ولا يكون ذلك إلا ببيعته والدخول في طاعته والدعاء له في الخطب على المنابر، وضرب السكة - النقود - باسمه، لتفياً ظل حمايته. فاستكانوا لذلك ورضوا به، وأعلنوا بالدعاء له على المنابر. وكتبوا بذلك للحضرة السلطانية، وبعثوا له من السكة باسمه في الجزائر.

قرر الجزائريون بذلك أن تكون دولتهم الفتية جزءاً من الإمبراطورية العثمانية الضخمة، ووافق خير الدين على البقاء مؤقتاً رئيساً لهذه الدولة، حتى يتخذ السلطان العثماني قراره فيما عرضه عليه أهل الجزائر. ويمدهم بما طلبوه من دعم عن طريق الوفد الجزائري الذي ارتحل إلى القاهرة، حيث كان السلطان سليم مقيماً لتنظيم البلاد. وقابل الوفد الذي كان يرأسه الحاج حسين السلطان سليم. وأجابهم على تسائلهم، وأعلموا بموافقتهم على أن يشمل دولة الجزائر برعايته. وأن تكون مشتركة مع الدولة العثمانية في الجهاد ضد المسيحية. وأضفى على خير الدين لقب (باي لرباي) أي (باي البايات) باعتباره الرئيس الأعلى لكل البايات الذين يتولون، أو سوف يتولون الحكم في البلاد وأن تسك النقود باسمها، وذلك دلالة الاستقلال ضمن الإمبراطورية العثمانية^(١).

عمل السلطان سليم بعد ذلك مباشرة على إرسال دعم إلى الجزائر يتكون من قوة بحرية محملة بأربعة آلاف مقاتل من المتطوعين الأتراك وكميات ضخمة من الأسلحة والذخائر والتجهيزات الحربية. ووصلت هذه الإمدادات إلى مدينة الجزائر حيث تم إنزالها على ساحل (باب الواد). وبدأت القوات الجزائرية استعدادها لمجابهة الأعمال العدوانية المتوقعة.

كان حكم إسبانيا قد انتهى (منذ سنة ١٥١٦م) إلى الملك شارل الخامس (شارلكان) الذي وضع هدفه الأول بالقضاء على الدولة الجزائرية الفتية، وإزالة ما تمثله من تهديد، وتوطيد الحكم الإسباني في المغرب العربي - الإسلامي. وقد توافرت المعلومات عن قرب احتمال إرسال قوة إسبانية جديدة للجزائر، فزادت أهلها حماسة للقتال واستعداداً للحرب.

(١) المرجع السابق. ونفس الصفحات.

وانصرف (خير الدين) لتنظيم أمور الدولة الجديدة في المغرب الأوسط (الجزائر) وحشد القدرات والإمكانات كلها من أجل تأمين متطلبات الحرب التي باتت وشيكة بعد أن استثارت عملية انضمام الجزائر للإمبراطورية العثمانية حماسة أوروبا كلها وحماسة إسبانيا المتعصبة منها بصورة خاصة لتطوير الحرب الصليبية.

اغتنم شارلكان فرصة استشهاد (عروج) وما أحدثه ذلك من هزة عميقة في النفوس - بعد انتصار الإسبانيين في (تلمسان) فاتفق مع (أبي حمو - ملك تلمسان) على أن يشترك الطرفان في توجيه الضربة الحاسمة للجزائر، وذلك بأن تقوم القوات الإسبانية بإنزال بحرى في الوقت الذي تتقدم فيه قوات ملك تلمسان برآء. وضمت الحملة الإسبانية في هذه المرة قوة ضخمة تتكون من أربعين سفينة تحمل على متنها خمسة آلاف من المقاتلين الإسبانيين والأوربيين، ووضعت الحملة تحت قيادة (هوغو دى منكاد) يعاونه في قيادة الحملة (غونزالفو-مارينو-دى ريبيرا). وأبحر الأسطول من جزيرة صقلية في أواخر تموز- سنة ١٥١٩م، وتوجه إلى (المرسى الكبير) وأخذ منها جنداً وعتاداً. ثم سار في اتجاه بجاية، حيث انضمت إليه قوة ضخمة حملت معها المزيد من الأسلحة والاعتاد وفي النهاية وصلت الحملة إلى مياه الجزائر يوم ١٧ آب -أغسطس - وبدأت عملية الإنزال على امتداد الساحل الواقع إلى اليسار من وادى الحراش.

وقد وضع (خير الدين) مخططه للمعركة على أساس التجربة السابقة التي حالفها النجاح، فقرر إفساح الفرصة أمام القوات الإسبانية لإنزال قواتها وتجهيزاتها إلى أرض الشاطئ ثم العمل على استنزاف قدرتها القتالية وروحها المعنوية بمجموعة من العمليات الخاصة (الإغارات والكمائن)، والانقضاض بعد ذلك على القوات الإسبانية في معركة حاسمة في الوقت المناسب والمكان المناسب.

وهكذا تمكن الإسبانيون من إنزال أسلحتهم ووسائلهم وقواتهم دونما عناء كبير، وأقاموا قاعدتهم خلف (وادى الحراش) وبدأت الاشتباكات بين الطرفين المتصارعين، ثم ما لبث الجيش الإسباني أن بدأ التحرك بكتلته الرئيسية في اتجاه

المرتفعات المحيطة بمدينة الجزائر حتى وصل إلى (كدية الصابون) المشرفة على المدينة - من ورائها - وأخذت القوات الإسبانية على الفور ببناء قلعة حصينة فوق تلك الكدية أطلقوا عليها اسم (قلعة الإمبراطور) - وهي التي هدمت ورمت مراراً وكان لها شأن عظيم في تاريخ الجزائر - ولا تزال موجودة حتى اليوم - وجهازوها بالمدافع الثقيلة، ووضعوا الجزائر فعلاً تحت تهديد مدافعهم.

وكانت القوات الإسبانية وهي تشيد معقلها تنتظر قدوم جيش تلمسان الذي كان من المفروض أن يتولى قيادته (الملك عبد الله الثاني). وانتظرت القوات الإسبانية طوال ستة أيام بدون أن يظهر ما يشير إلى احتمال تقدم هذا الجيش، وتمت عملية بناء المعقل، فيما كانت الاشتباكات المستمرة تستنزف قدرة القوات الإسبانية وتضعف من روحهم المعنوية، وإزاء ذلك قرر القائد الإسباني القيام بهجوم عام على مدينة الجزائر.

وقرر (خير الدين) تكوين قوة من خمسمائة مجاهد واجبها الإغارة على المعسكر الإسباني (المجاور لوادي الحراش) والذي لم يترك الأسبانيون لحراسته إلا قوات قليلة. ومن ثم الإغارة على السفن وتدمير ما يمكن تدميره منها. وتوجهت هذه القوة - المنتقاة من خير المجاهدين - فأبادت حرس المعسكر وأشعلت النار في القوارب التي تصل الأسطول بالبر، وأخذت هذه القوة بتهديد السفن الواقفة في عرض البحر^(١).

كان القائد الإسباني يتابع من موقعه في (كدية الصابون) تطور هذه العملية التي هددت خط المواصلات البحري للقوات الإسبانية. ونجحت العملية الخداعية التي خطط لها خير الدين، إذ توجهت قوة كبيرة من الإسبانين نحو البحر في محاولة لإنقاذ القوارب والسفن. وانقسمت القوة الإسبانية بذلك إلى قسمين. ففتح المجاهدون أبواب الجزائر بصورة مباغتة، وانطلقت حشودهم كالسيل الجارف وهم يدمرون القوات الإسبانية ويجتاحونها من كل اتجاه. وهيمن الاضطراب على القوات المعادية، وفقدت قيادتها السيطرة وباتت معزولة وعاجزة عن إدارة المعركة.

(١) خير الدين بربوسا ص ١١١.

فيما كان المجاهدون يدمرون بسيوفهم ونيران بنادقهم كل من يصادفهم، وأصبحت القوات الإسبانية ممزقة على شكل جزر مقاومة في وسط محيط المجاهدين الواسع، بحيث لم تتمكن إلا فلول ممزقة من الوصول إلى القوارب والسفن.

واستمرت المعركة بكل قسوتها طوال يوم ٢٠ آب (أغسطس) سنة (١٥١٩م ٩٢٥هـ) وأمكن لبقية القوات الإسبانية - وفلولها الممزقة ركوب البحر والوصول إلى السفن. وهنا جاءت الطبيعة من جديد لتتدخل في مصلحة المجاهدين الجزائريين. إذ هبت عاصفة عاتية يوم ٢١ (آب) أغسطس ووصلت ذروتها في اليوم التالي عندما تحولت إلى أعصار مدمر أرغم (٢٤) سفينة إسبانية من سفن الأسطول على اللجوء إلى الجزائر حيث وقعت هذه السفن غنيمة في أيدي المجاهدين - بكل من فيها وما فيها من مقاتلين وأعتدة. وانتهت هذه المعركة يوم ٢٤ آب - أغسطس - بانتصار المسلمين انتصاراً كاملاً.

وأغرقت مياه البحر أربعة آلاف من المقاتلين الإسبانين، ووقع في قبضة الأسر ثلاثة آلاف مقاتل، وقد حاول هؤلاء تنظيم صفوفهم والانقضاض على المسلمين فتمت إبادتهم إبادة كاملة وبذلك دمرت الحملة التي أرسلها شارلكان تدميراً كاملاً. وخابت آمال الإسبانين والأوربيين بهذه الحملة الصليبية.

خلال ذلك حدثت تحولات على مسرح المغرب العربي الإسلامي، فقد كان الملك الزياني (أبو حمو الثالث) قد توفي في سنة ٩٦٤هـ = ١٥١٨م أي في ذات السنة التي استشهد فيها عروج وخلفه على حكم مملكة تلمسان أخوه (عبد الله الثاني) الذي اتبع سياسة جديدة قائمة على الحياد تجاه الصراع الجزائري - الإسباني، والاعتماد على خير الدين - لا على الإسبانين - إذا كان لا بد من الاعتماد على أحد الطرفين. ولم تكن هذه السياسة إلا استجابة لتطلعات المواطنين في تلمسان الذين كانوا يرفضون نصرة أعداء الدين ضد أبناء دينهم وإخوانهم من الجزائريين والأتراك العثمانيين. وانتهج (مسعود) شقيق (عبد الله الثاني) هذه السياسة ذاتها عندما طرد أخاه من تلمسان. وكان ذلك هو سبب إحجام ملك

تلمسان عن إرسال جيشه لدعم الإشبانيين عندما قاموا بتنفيذ حملتهم ضد الجزائر. غير أن انتصار خير الدين وقوات المسلمين ذلك الانتصار الحاسم، أثار قلق سلطان بنى حفص بتونس، خوفاً من القوة المتعاضمة في المغرب الأوسط (الجزائر) وندم على ما فاتته من نصرة الإشبانيين، فكتب إلى (صاحب تلمسان) يحذره من القوة المتعاضمة لخير الدين وبذلك عاد (محمد بن الحسن الحفصى) للتآمر ضد المسلمين خوفاً على نفوذه ومملكته في تونس من أن تطالها قوة المسلمين المتحالفين في الجزائر مع الإمبراطورية العثمانية^(١).

وأعاد (خير الدين) تنظيم مملكة الجزائر، فقسمها إلى قسمين قسم شرقى يمتد من شرقى العاصمة الجزائرية حتى حدود المملكة الحفصية بتونس وتشمل بلاد القبائل الجبلية، ووضع على رأس هذا القسم أخوه في الجهاد وصديقه (أحمد بن القاضي الغبريني - سلطان كوكو ببلاد زواوة، حيث كانت بلدة كوكو تقع على بعد ١٨ كيلو متراً في الجنوب الشرقى من مدينة أربعاء بنى براهيم). أما القسم الغربى، فكان يمتد من الجزائر إلى حدود دولة بنى زيان - غير المحددة بدقة - ووضع لإدارته (محمد بن على).

وظن (خير الدين) أن باستطاعته الاعتماد في إدارة القسمين على الزعيمين المحليين لحكم البلاد. وترك لمدينة الجزائر السلطة العليا، ومباشرة أمور الحرب والسياسة. غير أن هذا التنظيم أثار نقمة (عبد العزيز) ملك قلعة بنى عباس، والعدو اللدود (لأحمد بن القاضي)، إذ إن هذا التنظيم وضع عدوه أميراً عليه وحاكماً في جهته، فحمل لواء العصيان، وأعلن تبعيته للملك الحفصى بتونس. غير أن التهديد الخطير لم يظهر من (عبد العزيز - ملك قلعة بنى عباس) بقدر ما ظهر من أحمد بن القاضي الغبريني ذاته والذي ما إن شعر بقوته حتى انقاد لتيار المؤامرات. فأعلن تمرده على (خير الدين) وانضم إلى الحفصيين ملوك تونس معتمداً على ما يقدمونه له من الدعم والتأييد.

وأسرع (خير الدين) ففقد قواته لقتال (ابن القاضي) وخاض ضده معارك ضارية في جبال زواوة المنيعة الشامخة، واضطر (خير الدين) للتراجع حتى (عنابة) ثم

(١) المرجع السابق ص ١١٢، ١١٣.

تلقى (ابن القاضي) دعماً من السلطان الحفصى بتونس، فطور أعماله القتالية، وأثار سكان الجبال ضد (خير الدين) وتدهور الموقف إلى درجة خطيرة بحيث وجد (خير الدين) نفسه مرغماً على الخروج بنفسه لقتال صديقه القديم. ولم يكن يمتلك من القوى ما يساعده على مجابهة قوات الحفصيين المتحالفة مع ابن القاضي وهكذا فعندما وقعت المعركة فى (فليسة أم الليل) وقف (خير الدين) وليس معه إلا الجنود الأتراك الذين أيدوا إبادة تامة، ولم ينبج (خير الدين) وبعض رجاله إلا بصعوبة كبيرة، فانسحب بهم إلى قاعدته القديمة (جيجل) ليجد فيها ملاذه الوحيد. وأرسل إلى الجزائر فطلب أسطوله وأسلحته وكنوزه. فى حين تابع (ابن القاضي) تقدمه فى سهل متيجة (متوجة). وأعمل فى القرى تدميراً ونهباً. حتى وصل الجزائر فجعلها قاعدة له. واستمر فى حكم الجزائر مدة ستة اعوام (١٥٢١ - ١٥٢٧م).

وخلال هذه الفترة، كادت تفتت تلك الرابطة التى أحكم (خير الدين) صنعها وشكل منها دولة الجزائر. غير أن حكم (ابن القاضي) تميز بالرعونة والقسوة، مما أثار الفوضى والاضطراب فى كل مكان، وكان فى ذلك مصرعه.

انصرف (خير الدين) لإعادة تنظيم أموره فى قاعدته (جيجل) متنقلاً ما بينها وبين (جزيرة جربة)، وقد أمكن له بما عرف عنه من كفاءة قيادية عالية، وهمة لا تعرف الفتور أو ينال منها التعب - أن يشكل قوة جديدة، وأن يتابع نشاطه البحرى بصورة ناجحة، وتعاضمت قدرة جيشه الجديدة. وهنا حدث تحول جديد إذ وجد عدوه القديم (عبد العزيز ملك قلعة بنى عباس) أن من مصلحته التحالف مع (خير الدين) ضد العدو المشترك (ابن القاضي) والذي كان فى الأصل هو سبب العداء فيما بينهما. فبرز إلى الميدان من جديد، واسترجع مدينة (القل) وانضمت إليه مدينة (قسنطينة) وجاءته جموع الشعب المجاهد مؤيدة ومناصرة، فسار بها نحو الجزائر.

وقاد (الشيخ أحمد بن القاضي) قواته بسرعة، فغادر الجزائر لملاقاة خصمه بين مرتفعات جبال القبائل. والتقت القوتان المتصارعتان عند (ثنية بنى عائشة) فدارت الدائرة على (ابن القاضي) وتمزقت قواته حتى لم يبقَ معه إلا قلة من أنصاره الذين

أدركوا ما خسروه من خلال التمزق الذي صنعه قائدهم (ابن القاضي) فقرروا التخلص منه. وجاءت فئة منهم إلى خيمته عند غروب الشمس فقتلوه، وانتهت في سنة (١٥٢٧م) تلك الفتنة التي أضعفت الجزائر إلى حد كبير.

لم يكن (خير الدين) بعيداً عن مسرح الأحداث، فأسرع بقيادة قواته، متوجهاً بها إلى الجزائر، حيث استقبلته جماهير الشعب المسلم استقبال الفاتحين. بعد أن عملت بإرادتها على تدمير (أعداء الداخل). وأقيمت الاحتفالات الضخمة بمناسبة هذا النصر. ولم يستمر الصراع طويلاً بين الجانبين، إذ عملت القبائل على إعادة توحيد إرادتها من جديد. وجاء (الحسين بن القاضي - شقيق الشيخ أحمد) والذي تولى الإمارة بعد مقتل أخيه، فوضع نفسه تحت تصرف (خير الدين). واستسلم في سنة (١٥٢٩م) استسلاماً غير مهين تقبله (خير الدين) بالتقدير والاحترام.

وانصرف (خير الدين) لتضميد الجراح التي خلفتها الفتنة الهوجاء، وعمل على إعادة تنظيم الدولة، وأعاد تشكيل الجيش وتسليحه بطريقة أفضل مما كان عليه في السابق، وحشد أسطوله الضخم في الجزائر بعد أن ضم إليه ما كان قد غنمه في جهاده البحري خلال الفترة السابقة، وما لبثت الجزائر طويلاً حتى استردت قوتها، وظهرت من جديد وهي تمتلك كل القدرات الضرورية لمتابعة الجهاد في سبيل الله، حيث توافرت لها إرادة جماهيرية - شعبية - صلبة، وجيش قوى منظم في البر والبحر، وإدارة قيادية تعرف هدفها وتضطلع بواجبها على أفضل صورة ممكنة^(١).

- خير الدين أميراً عاماً للأسطول العثماني؛

كان لا بد للأمير (خير الدين) من التوجه إلى عاصمة الإمبراطورية العثمانية فخلف نائبه (محمد حسن أغا) على ولاية الجزائر. وسار توجاً نحو (إستانبول) على رأس جزء من الأسطول يتكون من عشرين سفينة وهناك في دار الخلافة والسلطنة، استقبل السلطان سليمان القانوني أمير بحره (خير الدين) استقبالاً يليق بأفضل المجاهدين وأكبر قادة المسلمين^(٢).

ولم يغادر (خير الدين) عاصمة الإمبراطورية، إلا وقد تولى لأول مرة قيادة

(١) المرجع السابق ص ١١٤، ١١٥. (٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ ٢ ص ٩١٥.

أسطول ضخيم يتكون من ثمانين سفينة، علاوة على سفن الأسطول الجزائري ويات بإمكان (خير الدين) مجابهة التحديات المتعاضمة للأسطول الصليبي - الإسباني.

ومن جهة أخرى أخذت الأمور في التدهور بسبب سوء إدارة الحفصيين (بتونس). وكان الملك قد انتهى فيها إلى (السلطان محمد) الذي خلف أباه (محمد ابن الحسن) على العرش الحفصي، والذي وصفته المصادر التاريخية بما يلي: (كان محمد بن الحسن مشغلا باللهو والخمر، مهملا لأمر الملك، وترك خمسة وأربعين ذكراً. خلفه منهم الحسن، فقتل إخوته، ولم ينج منهم إلا (الرشيد وعبد المؤمن) لغيبتهما، واشتغل - مثل أبيه - بالخمور والفجور، وجمع حوله أكثر من أربعمئة غلام أمرد فمالت عنه الأمة إلى الرشيد. ولجأ الرشيد إلى خير الدين صاحب الجزائر، واستعان به على حرب أخيه. وما كاد السلطان يطلع على حقيقة الحالة (بتونس) ويدرك أن هذه المدينة التي انحصر فيها ملك بني حفص، هي نقطة الضعف في التنظيم الإسلامي الجديد، وأن العدو يوشك أن ينقض عليها ليستخدمها مع طرابلس، لضرب هذا الجهاز ومحاولة تقويضه، حتى أمر خير الدين بالسير توجاً نحو تونس، وإبعاد هذه الأدران عنها. وصل الأسطول العثماني الذي تولى قيادته خير الدين إلى عنابة في شهر آب - أغسطس - (١٥٣٣م) وأخذ منها دعماً جاء به نائبه (حسن أغا) ثم تقدم نحو (بنزرت) برآ، ونحو (حلق الوادي) بحرراً، فتمكن منهما بدون عناء، ووقف على أسوار مدينة (تونس) ففتحت له أبوابها، واستقبله أهلها استقبالا رائعاً عبر فيه الأهالي عن تطلعاتهم وآمالهم.

وجمع (خير الدين) حوله الأعراب الذين انساقوا في تيار الفوضى وإثارة الفتن ووحدهم في تيار الجهاد. كما كتب إلى الأعراب وحذرهم سوء عاقبة الفتنة في الإسلام. وأجابوه إلى ذلك، غير أنهم اشترطوا عليه الإبقاء في أيديهم على ما أعطاه لهم بنو حفص من الاقطاعات فالتزم لهم بذلك، واشترط عليهم، أن يكون مشتاهاً بالصحراء. وأن يكفوا اليد العادية ثم بعث إلى نائبه بالجزائر في إرسال عسكر وأربعمئة فارس، ولما وصلوا وزعهم بالجهات، لما رأى من حال أمر المملكة.

أثناء ذلك، كان سلطان تونس السابق (الحسن بن محمد) قد وجد طريق النجاة، فهرب متنقلاً من بلد إلى آخر حتى انتهى به المطاف إلى إسبانيا، وقابل الإمبراطور شارلكان، واستثاره لحرب قومه، ولم تكن هناك حاجة لمثل هذه الاستشارة، إذ كان (شارلكان) قد أعد عدته لقيادة حملة قوية ضد المغرب الإسلامي، غير أنه وجد في شخص (الحسن بن محمد) أداة جيدة يمكن استخدامها لتنفيذ مخططه.

قاد (شارلكان) قواته، وأبحر من مدينة برشلونة يوم ٣١ أيار - مايو - سنة ١٥٣٥م. وقد تولى قيادة حملة صليبية حقيقية تضم (٣٠) ألفاً من المقاتلين الأشداء حملتهم (٥٠٠) سفينة شراعية. ووصل هذا الأسطول إلى مواجهة (قرطاجنة) وسواحل مدينة (تونس) في يوم ١٦ حزيران (يونيو).

ولم تكن القوة التي يقودها (خير الدين) كافية لإيقاف هذه الحملة الضخمة، إذ لم يكن الجيش الإسلامي يضم أكثر من سبعة آلاف من الأتراك وخمسة آلاف من التونسيين، وتخلف الأعراب عن الجهاد، فكانت النتيجة الحتمية هي استيلاء (شارلكان) على معقل (حلق الوادي) وهو مرسى مدينة تونس. واستعد لمهاجمة العاصمة الحفصية، يتقدم صفوفه بصفة رمزية (الحسن بن محمد) الذي كان قد أبرم مع صاحبه (شارلكان) معاهدة رهيبة خان فيها قومه ودينه.

وتقدم الجيش الإسباني نحو مدينة تونس. وفي نفس تلك الساعة، وقع بتونس الحدث الذي عجل بالانهيار، والذي كان السبب المباشر للكارثة العظمى، ذلك هو انتفاض عشرة آلاف أسير نصراني كانوا محبوسين في العاصمة الحفصية. فعندما خلعت المدينة من الجيش الذي تقدم لقتال العدو، وجد هؤلاء الأسرى فرصتهم السانحة، فخرجوا من معتقلهم، ونظموا صفوفهم. ثم هاجموا معقل القصبة الذي لم يكن به من الحرس إلا القليل. فتمكنوا منه، ووجهوا مدافعه في اتجاه جيش المسلمين، الذي وقع بين نارين، وأوصدوا أبواب المدينة وأقاموا عليه الحراسة، ليمنعوا خير الدين وجيشه من الرجوع إليها والتحصن لمقاومة شارلكان ريثما تصل

قوات الدعم. وشعر (خير الدين) بالخطر من قبل أن يغادر مدينة تونس، وكان قد اتخذ قراره بإبادة هؤلاء الأسرى غير أن سرعة تقدم (شارلكان) أعاقته عن تنفيذ ما قرره. وهكذا أخرج خير الدين للقاء الحملة الصليبية فاستولى على (برج العيون) ثم رجع بمن معه إلى المدينة، فاضطرب عليه أهلها، بعضهم تمسك بطاعته، وبعضهم انحرف عنه وانضم إلى السلطان أبي حفص، فجمع أعيان الناس، وتحدث إليهم، فاختلفوا عليه، فتركهم وخرج بمن معه إلى الحرب. وأبلى خير الدين في ذلك اليوم البلاء الحسن، غير أنه لم يتمكن من الصمود طويلاً واضطر إلى الانسحاب إلى (القصبه).

ودخل السلطان الحفصي - الحسن - إلى تونس في مقدمة الجيش الصليبي. ولقيهم الأعراب بالمقاومة، فقاتلهم قائد الجيش الصليبي - الصبنيول - ودخل السلطان القصبه، ووعد أهلها بالأمان، وهو لا يملك حق إعطاء الأمان بعد أن تعهد للصبنيول بالموافقة على شرطه وهو استباحة البلاد لمدة ثلاثة أيام. وما إن أمن الناس، وخرجوا من معاكلهم، وتخلوا عن أسلحتهم وانصرفوا إلى أعمالهم ومتاجرهم، حتى باغتتهم القوات الإسبانية، وأعملت فيهم قتلاً وبميتاجرهم نهباً وبيوتهم سلباً. وفر إلى (زغوان) من استطاع أن يجد الفرصة للفرار بنفسه وبأهله. وانتهت هذه المذبحة الرهيبة بإبادة ثلث أهل تونس ونجاة الثلث ووقوع الثلث في قبضة الأسر والمأسور يفتدى نفسه إن كان له مال. وبلغت الفدية ألف دينار، وتغيرت البلاد وطمست أعلامها وكانت هذه النكبة التي تعرضت لها تونس في سنة (٩٤١هـ - ١٥٣٥م) هي أقسى ما عرفت في حياتها من نكبات وكوارث، إذ أن عدد القتلى من سكان تونس خلال الأيام الرهيبة الثلاثة قد بلغ سبعين ألفاً، ونهبت خلال ذلك ثروات المدينة وكنوزها ونفائسها وأموالها وما تراكم فيها عبر مئات السنين بفضل ما عرف عن أهلها من الجهد والنشاط. وأضيفت إلى قائمة الكوارث التي تعرضت لها المدن الإسلامية (مثل بغداد على أيدي التتار والقدس على أيدي الفرنج الصليبيين) كارثة جديدة عرفت (بكارثة تونس)^(١).

(١) الدولة العثمانية... عبد العزيز الشناوي ج ٢ ص ٩١٦، ٩١٧.

لقد استمرت معركة تونس ٣٦ يوماً مما يؤكد قسوة الصراع وعنفه، فقد نزل الإسبان فوق أرض تونس يوم ١٦ حزيران - يونيو - واحتلوا حلق الوادي يوم ١٤ تموز - يوليو - أي بعد شهر تقريباً. واحتلوا تونس ونكبوها يوم ٢١ تموز - يوليو - وقد حاول (شارلكان) التخفيف من وقع المذبحة، والقاء تبعاتها على أهل تونس، فكتب إلى عميله حاكم مدينة (بجاية) رسالة يوم ٢٣ تموز (يوليو) ١٥٣٥م يقول فيها:

(ولكن، وبما أن سكان مدينة تونس لم يقابلوا ملكهم قبولا حسناً، كما يستحق، وكما هو واجبهم، فقد رأينا أن تأمر بنهب المدينة انتقاماً منهم على سوء سلوكهم. استقر السلطان (الحسن بن محمد) على عرش تونس، فوق أشلاء أمته الممزقة وعلى جثث الضحايا من رجال قومه ونسائهم وأطفالهم. وعقد مع الإسبانين معاهدة نصت على ما يلي^(١):

- ١- اعتراف الدولة الحفصية بتبعيةها للدولة الإسبانية.
- ٢- ملكية الإسبانين ملكية مطلقة لمرسى (حلق الوادي) و(قرطاجنة) و(مدينة عنابة) و(مدينة المهدية).
- ٣- التزام السلطان ألا يدخل بلاده أحد من مهاجري الأندلس، يهودياً كان أو مسلماً. وانسحب (شارلكان) بأسطوله ومعظم جيشه إلى قاعدته في صقلية. وعاد (خير الدين) إلى قاعدته الأساسية (في الجزائر) بعد أن عانى وقواته من الجوع والظمأ والحر. واستقر حيناً بمدينة (قسنطينة). واستقبل أهل الجزائر رجوعه بالبهجة. وانصرف (خير الدين) لإعادة تنظيم قواته من أجل استئناف الجهاد ضد الإسبانين، لا سيما وقد ظهر بوضوح أن (شارلكان) قد صمم على تدمير دولة الجزائر مهما بلغ الثمن؛ وقد تبين أن مخطط (شارلكان) يعتمد على انتقاص حدود الجزائر بصورة تدريجية قبل الانقضاض على قلبها (عاصمتها)، ومن أجل ذلك فقد قام بالاستيلاء على (مرسى هنين) ومدينتها.

(١) بسام العسلي. بربروسا ص ١٣١، ١٣٢.

وكانت مدينة (هنين) هي المرسى الطبيعي لعاصمة تلمسان، نظراً لقرب المسافة بينهما، إذ تقع داخل جون حسن، في منتصف الطريق بين (بنى صاف) و(جامع الغزوات) وبينهما وبين تلمسان - على خط مستقيم - مسافة (٤٥) كيلو متراً وكان ملك (تلمسان) قد أرسل مدداً لمرسى هنين عندما قام الإسبانىون باحتلال مدينة (وهران) في سنة ١٥٠٩م . وقام بتحسينها وتنظيم الدفاع عنها نظراً لما لها من أهمية اقتصادية باعتبارها مركز المبادلات التجارية مع أوروبا بصورة عامة ومع بلاد البندقية بصورة خاصة.

ووجه الإمبراطور (شارلكان) أمراً إلى قائده (دون الفار ودوبازان) في شهر آب (أغسطس) سنة ١٥٣١م، باحتلال مدينة (هنين) ومهاجمتها بقوة. ولم يتأخر (دوبازان) عن تنفيذ الأمر، فركب وجيشه البحر على متن ١١ سفينة حربية بالإضافة إلى سفينتين ناقلتين للجنود، وأخذ معه أعتدة ومواداً تموينية تكفيه لمدة شهرين، وخرج من مالقة في شهر آب (أغسطس)، ثم حل بمدينة وهران حيث انضمت لقوته مجموعة من المقاتلين تتكون من (٢٥٠) جندياً، وغادرها يوم ٢٤ آب - أغسطس، ووصل إلى مدينة هنين يوم ٨ أيلول - سبتمبر - سنة ١٥٣١م. ودخل الأسطول الإسبانى المرسى واحتل المدينة والقصبة.

لم تكن المدينة تتوقع هذا الهجوم المباغت، ولم تكن قوة الحامية متمركزة في مواقعها عندما وقع العدوان وعلى الرغم من ذلك فقد قاوم المواطنون عملية الغزو وقتلوا (٤٠) إسبانياً، بالإضافة إلى مائة جريح. وكتب راهب - أسقف - طليطلة إلى الإمبراطور - مبشراً بالفتح، وكان في رسالته ما يلي:

(أكد لنا الذين يعرفون البلاد، أن لمدينة هنين ومرساها أهمية بالغة، فهنين بلدة محصنة ذات أسوار منيعة، ولها قلعة عظيمة، ولا تبعد عن تلمسان أكثر من (١٢) مرحلة، وهذا أمر له أهميته العظمى بالنسبة للحركة التجارية التي يمكن أن تتداولها مع العرب، كما أن امتلاكنا لمدينة هنين يساعدنا بصورة خاصة على أبقاء ملك تلمسان تحت قبضة أيدينا فهو لن يفكر في مهاجمتنا عندما يرانا قد تمكنا من البلاد داخل حدودنا الجديدة وتحصنا بها)^(١).

(١) بسام العسلى ص ١٣٤.

أما الدكتور لبريخا ممثل الإمبراطور بوهران فقد كتب لسيدته يوم ٢ أيلول - سبتمبر - ١٥٣١م ما يلي: (أعتقد أن احتلالنا لمرسى هنين إنما هو حدث عظيم جداً، ذلك أننا باستقرارنا وبتمكنا من هذه البلدة، نستطيع أن نعاقب ملك تلمسان ونجبره على القيام بتعهداته، ذلك أن الطريق من هنين إلى تلمسان، أقرب وأضمن من طريق وهران والمرسى الكبير، وتستطيع من هذه البلدة، دون كبير عناء، أن ندخل مدينة تلمسان، وأن نأخذ من مولاي عبد الله أحسن ممتلكاته.

أراد (شارلكان) استثمار الظفر الذي أحرزه في تونس، وتنفيذ شروط معاهدته مع عميله (الملك الحسن بن محمد) والإفادة من حالة العطالة التي تعرض لها خير الدين بعد معركة تونس، فأصدر أمره إلى قائد حملته (المركيز دي مونديخار) بالاستيلاء على مدينة (عنابة) بونة، والتي كانت تابعة بصورة اسمية للسلطان الحفصي في تونس. وهكذا تحرك الأسطول الإسباني في شهر آب - أغسطس - نحو عنابة. ووصلها، وقام باحتلالها، وأرسل قائد الحملة إلى الإمبراطور تقريره عن نجاحه في تنفيذ مهمته وذلك في يوم ٢٩ آب - أغسطس - ١٥٣٥م. وتضمن التقرير ما يلي^(١):

(كان البحر هادئاً، إنما كانت الرياح معارضة، فلم يصل الأسطول إلا بعد خمسة أيام إلى عنابة، وكان - دون الفارو دي بازان قد سبقنا إليها مع الناقلات، وما كاد يصل حتى تلقى بعض ضربات المدفعية مما يدل على أن السكان قد صمموا على الدفاع، وأنزلنا الجند، ثم شكلنا كتيبتين وأرسلناهما لمهاجمة القصر، ولم يكن العرب ينتظرون هجومنا عليه، فبادروا بالتخلي عنه، ولم نفعل ذلك اليوم شيئاً آخر، فاكثفينا باحتلال القصبة والمدينة. أما الناقلات التي منعتها مدافع العدو من الاقتراب، فإنها قد دخلت المرسى، وانصرفنا خلال الأيام الثلاثة التالية إلى إنزال المدفعية والذخائر والمؤن إلى البر، وبعد دراسة وضع المدينة والقلعة، تأكدنا أنه يجب احتلالهما معاً وفي وقت واحد. لأن الجند الذي يحتل القلعة لا يتمكن بسهولة من نجدة العرب الذين يحتلون المدينة ويدافعون عنها، ويجب علينا أن لا نترك العرب يدخلون المدينة إلا بعد التصريح لهم بذلك. فإذا دخلوها فلا يجب أن

(١) المرجع السابق ص ١٣٥، ١٣٦.

يجدوها خالية من قواتنا لأنهم فى هذه الحالة قد يفكرون بالعودة إليها، أو أن يدخلها عرب آخرون مكانهم ويتصرفون فيها بصفة تجعلها غير صالحة للسكنى - ولقد تركت (٢٠٠) جندى بالقصر، و(٦٠٠) جندى بالمدينة، وإذا ما رأينا السماح للعرب بسكنى المدينة من جديد، فعلى أن نقسم حصناً فوق المرتفع الذى يعلو المرسى، حتى نستطيع نجدة جند القصر).

لم يكن باستطاعة (خير الدين) وهو يتابع شراسة الهجمة الصليبية، الوقوف فى حالة من العطالة أو الجمود فقرر توجيه ضربة للإسبانيين فى قواعدهم، ووقع اختياره على مدينة (ماهون) عاصمة جزائر الباليار، والمدينة الأولى فى جزيرة (مينورقة).

قاد (خير الدين) أسطوله بكفاءة، حتى إذا ما وصل إلى (ماهون) قام باحتلالها، غير أنه تجنب سفك الدماء، ولم يفعل ما فعله الإسبانيون فى تونس. واكتفى باستحواذ كل ما ضمته المدينة من الثروات، وعاد بها إلى الجزائر، حيث تم توزيعها على المجاهدين بعد تخصيص الخمس (لبيت مال المسلمين)، أما الأسرى الذين اقتادهم (خير الدين) من جزيرة (مينورقة) وعددهم ستة آلاف نسمة فقد احتفظ بهم فى الجزائر.

كان من أثر هذه الإغارة الانتقامية أن تناقشت أهمية انتصارات الإسبانيين فى المغرب الإسلامى، وأخذت الشكوك فى التعاضم حول أهمية ما تبذله القوات الصليبية طالما أن التهديد الذى تمثله الجزائر لا زال قائماً، وطالما أن الخطر الذى يمثله (خير الدين) ما زال مستمراً. وترددت أصدااء انتصار (خير الدين) كالعادة وبصورة متضادة فى العاصمتين المتصارعتين (إستانبول ومدريد) حيث كان الصراع قد وصل ذروته على كافة الجبهات، الأمر الذى دفع السلطان سليمان القانونى إلى استدعاء (خير الدين) إلى القسطنطينية لتولى قيادة الأسطول العثمانى. وعندها كلف (خير الدين) نائبه (محمد حسن أغا) بإدارة أمور المملكة الجزائرية؛ وتوجه إلى عاصمة الإمبراطورية العثمانية، فوصلها فى شهر كانون الأول - ديسمبر - ١٥٣٥ م.

أصبح باستطاعة (خير الدين) وهو فى مركزه الجديد، أكثر قدره وأشد عزيمة لمتابعة الجهاد ضد الإسبانيين وأنصارهم، وقد عمل على إقناع السلطان سليمان بضرورة شن الحرب على البنادقة، وتم له ذلك فى سنة ١٥٣٧م، وعندها انصرف (خير الدين) إلى إدارة الحرب بكفاءة عالية بحيث لم تمض أكثر من ثلاث سنوات حتى استطاع تجريد البنادقة من كل ممتلكاتهم فى بحر إيجه حتى سواحل كريت (أقريطش) وتينوس وميقونوس. ولكن اهتمامه الأكبر بقى مركزاً على (الجزائر) التى أحبته وأحبها، وأخلص لها بقدر ما أخلصت له، ومن أجل ذلك أيد بحماسة بالغة مبدأ التحالف مع ملك فرنسا (فرنسيس الأول) ضد إمبراطور الغرب (شارلكان). غير أن تصعيد الصراع على حدود أوربا البرية وفى شرق البحر الأبيض المتوسط قبول بتحويلات خطيرة على مسرح المغرب العربى الإسلامى، واعتمد (شارلكان) هنا على (أعداء الداخل) أكثر من اعتماده على (القدرة العسكرية) للوصول إلى أهداف (الحرب الصليبية الشاملة)^(١).

ج- أعداء خير الدين يتحالفون مع الخونة من داخل البلاد:

عرف الإفرنج الصليبيون عامة والإسبانيون الكاثوليكيون منهم بصورة خاصة، أن ضعف المسلمين عامة إنما يكمن داخلهم أكثر مما يكمن فى قدرتهم وإمكاناتهم. وقد أثبتت تجارب الصراع فى الحروب طويلة الأمد على جبهتى الشرق والغرب، فى الشام والأندلس، أن الانتصارات التى أحرزها الصليبيون لم تكن إلا بسبب تمزق العرب المسلمين وتشتتهم. ولهذا فقد اعتمد قادة الإفرنج باستمرار على الخداع والتفرقة أكثر من اعتمادهم على قوة السلاح، وإذا ما تم استخدام قوة السلاح، فهو من أجل دعم السلاح الأول وزيادة فاعليته. وهكذا جاء (شارلكان) ليسير على سياسة أسلافه وليعمل على تطويرها، فبث جواسيسه وعملاءه فى كل مكان، وأخذ فى استثمار التناقضات المتوافرة من أجل اقتطاف ثمارها. وقد يكون من الصعب استعراض الأساليب المختلفة والطرائق المتنوعة التى تم استخدامها فى هذا المضمار، ولعل الإشارة إلى بعضها كافية لإبراز الملامح العامة لما كان عليه الموقف فى تلك الحقبة التاريخية من الصراع على جبهة المغرب العربى الإسلامى.

(١) المرجع السابق ص ١٣٦، ١٣٧.

كان محمد السابع بن عبد الله الثاني حاكم تلمسان (١٥٢٤م) قد وصل إلى الحكم بدعم المناصرة الإسبانية، وثار عليه أخوه عبد الله الذي ناصره جده لأمه عبد الرحمن بن رضوان أحد شيوخ قبيلة بني عامر. ووقف الإسبان خلف الأخوين، يحرضانهما، ويستثيرانهما. وسوف يتضح الموقف من خلال التقارير والرسائل التالية:

١- وهذا هو تقرير كتبه الحاكم العام لوهران (بيدرو دي لودي) ورفع له للأسقف بتاريخ ٢٠ آب - أغسطس - ١٥٣١م وفيه ما يلي:

يخوض الملك عبد الله حرباً ضد أخيه، وقد أرسل مولاي عبد الله جيشه لقتال أخيه محمد، ووقعت معركة يقال إن النصر فيها كان لجماعة عبد الله، لكن قائد بني راشد جاء على رأس خمسمائة من الرجال، فاضطر أخو الملك إلى الانسحاب، وجميع عرب المملكة قائمون اليوم: بعضهم مع الملك وبعضهم مع الأمير عبد الله. وأنا أظن أن كل العرب في هذه الناحية الشرقية من المملكة سينضمون إلى الأمير عبد الله إذا ما حل بهذه الساحة، ونرجو أن يقع الأمر على هذا المنوال، لأن أخا الملك أصبح حليفاً، وبذلك سنمسك بجميع خيوط اللعب ويستطيع صاحب الجلالة - إمبراطور إسبانيا - أن يستفيد من الموقف حسب إرادته - وأنا أعتقد أن ذلك ممكن، إذا ما أخذنا بهذه الطريقة: جلالة الإمبراطور يؤيد عبد الله ويعترف به ملكاً، ويسلم إليه قسماً مهماً من الأراضي التي سنتزعاها من قبضة الأتراك، لكننا مع ذلك نفوض سلطان ملك تلمسان، نترك له ما بيده من الأرض. وبهذه الطريقة سيعلم الاثنان سرورهما ورضاهما، وسيكونان معاً عوناً لنا على محاربة - خير الدين باربروس - إن ملك تلمسان، (مولاي محمد) قد دعا إليه أحد اليهود من هنا - وهران - ولا ريب أنه سيتخذ واسطة للدخول في مفاوضات معنا. أما العرب الذين أرسلهم لنا الأمير محمد، فقد اعتبروا دعوة هذا اليهودي لتلمسان فضيحة وبذلت جهدي لتهدئة خواطرهم. وهذا ما يحدث غالباً لمن يتعامل مع الطرفين المتصارعين في وقت واحد^(١).

(١) خير الدين باربروسا ص ١٣٩.

٢- وجاء في رسالة الدكتور (لبريخا كريجيدور) من وهران إلى الإمبراطور بتاريخ ٢ أيلول (سبتمبر) ١٥٣٢ م ما يلي:

(أبذل قصارى جهدى لإقناع عرب المملكة - تلمسان - بأن ينضموا إلينا، وأعتقد أن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي تمكننا من معاقبة ملك تلمسان على عدم وفائه بعهوده، وعلى عدم سماحه للعرب بأن يبيعونا المؤن كما كانوا يفعلون من قبل. ولقد دخلت في مفاوضات مع الأمير عبد الله، مع حرصى على أن يعرف الملك - مولاي محمد - ذلك بصفته الشخصية، حتى يعلم مدى الخسارة التي تلحق به من جراء امتناعه عن خدمة جلالتك. وقد طلب إلى الملك أن أرسل له شخصاً للتفاوض معه منذ خمسة عشر يوماً، فبعثت إليه باثنين من اليهود الحذرين الأذكياء، وهما أفضل من وجدت هنا. وسارت الأمور سيراً حسناً فى بداية الأمر، لكن الأحوال ساءت عندما حل بتلمسان مندوب من قبل التركى العظيم (سليمان القانونى) إذ أظهر مولاي محمد عندها الاعتزاز بالرسول التركى، مما جعله لا يقف عند حدود عدم استقبال المندوبين اليهوديين، بل إنه أسلمهما للقتل. وفى نسائه وأولاده والشيوخ المنضمين تحت لوائه، وأعلمنى كذلك أنه سيسلم إلى الرهائن التى طلبناها منه. وأشعر فى الواقع بالحيرة، لأننى كنت أخبرت الأمير بأنه إذا ما وضع عائلته عندنا فى مدينة وهران وحدثت الشيوخ المنتمون إليه حذوه، فإن جلالتك سوف تسلمون له العون من مال ورجال حتى يحتل مدينة تلمسان على شرط أن يكون أكثر وفاء من أخيه فى تنفيذ شروط الاتفاقية التى ستعقد معه)^(١).

٣- وكتب حاكم (هنين) رسالة للإمبراطور (شارلكان) فى يوم ٢٦ تيسان - أبريل - ١٥٣٤ م يصف بها حالة (الموقف) فى تلمسان؛ وجاء فى الرسالة ما يلي:

(كتبت منذ أيام لجلالتكم أعلمكم أننى اتصلت من جواسيسنا بأخبار عن مولاي محمد ملك تلمسان أنه قد استعرض يوم ٢٠ من هذا الشهر جيشاً أعده لقتالنا،

(١) خير الدين باربروسا المرجع السابق ص ١٤٠.

وهذا الجيش مستعد للسفر حيثما يريد. وأخبرني أحد هؤلاء الجواسيس أن الملك قد اتصل برسول من الجزائر يحمل إليه رسالة تخبره بموت - خير الدين - باربروس. فحزن الملك حزناً شديداً. وألقى بنفسه فوق الأرض نائحاً منتحياً، ثم نهض وقال للشيخوخ الذين كانوا حوله، بما أن والدي باربروس قد مات. فلم يبق لنا من عمل نعمله، وطلب إليهم أن يعودوا إلى بلادهم ريثما يحصل من الأتراك على العون والتأييد من جديد. فلما سمع الشيخوخ حديثه، خرجوا من عنده وكلهم يقول فيه سوءاً. ويقول بعض الجواسيس الآخرين أنه جاءت بعد ذلك رسالة من الجزائر تؤكد أن باربروس لم يمت، إنما هو في مكان مجهولة. ويقول البعض أن الملك مولاي محمد لا يريد أن يحارب النصاري، لأنه رجل ليس له إرادة على القتال وأنه منصرف إلى ملذاته، وغارق فيها، وأنه لا يفكر إلا في ابتزاز المال من أية جهة كانت. ويقولون إنه جاء من مدينة الجزائر بزوجتين دخل بهما في هذه المدينة، وجاء كذلك بزوجتين أخذهما بمدينة (فاس) عندما كان محارباً لأبيه. وبعدهما تولى الملك بتلمسان، تزوج ست عشرة مرة، ولا يفعل شيئاً إلا إقامة الحفلات والأفراح، ويلح في طلب المال من أهل المدينة ومن العرب واليهود).

٤ - وعندما اندلعت الحرب بين الأخوين ملك تلمسان (محمد) وأخيه (عبد الله) الذي كان الإسبانيون يناصرونه ويناصرون جده (ابن رضوان) انتصر ملك تلمسان، وكتب حاكم وهران (الكونت دي الكوديت) تقريراً بتاريخ ١٢ تموز - يوليو - ١٥٣٥ م رفعه للإمبراطور شارلكان، وجاء فيه:

(إن ابن رضوان لا يفكر إلا في أمر واحد ألا وهو الانتقام وأخذ الثأر من مولاي محمد. ولقد طلب مني الإذن بالقدوم إلى وهران، وكذلك طلب بقية الشيخوخ الذين بقوا على ولائهم له. وقد منحتهم الإذن. وبما أنه من المهم جداً بالنسبة إلينا أن يبقى العرب دوماً مختلفين، فقد حرضت ابن رضوان والشيخوخ الذين معه على مواصلة القتال. وعلى كل فإنني مواصل الجهود لكي يتفاقم أمر الخلاف بين الطرفين).

لقد نجحت هذه السياسة في أهدافها، وكان من بعض نتائجها تثبيت أقدام الاستعماريين الإسبانين فوق بعض مواقع المغرب العربي - الإسلامي. وكان من بعض نتائجها إخضاع الحكام وإشاعة روح التخاذل وهي الروح التي وجدت تعبيراً لها في التحالفات التي أقامها الحكام الإسبان مع بعض الحكام (مثل المعاهدة الإسبانية مع ملك تلمسان).

لقد كانت عملية (التفتيت المادي والمعنوي) لقوى العرب المسلمين هي المرحلة التمهيذية لتطوير الأعمال العدوانية، والتي سبقتها عملية جمع معلومات دقيقة عن موازين القوى وتوزيعها وإمكاناتها (أعمال الجاسوسية)، وقد يكون من الصعب استقراء كافة البيانات والتقارير المتوافرة في هذا المجال غير أنه ليس من العيب أبداً معرفة الصورة الإجمالية للجهد المبذول خلال مرحلة الإعداد للمرحلة التالية من الحرب، عبر التقريرين التاليين:

- تقرير سرى إسباني عن قوة الجزائر - سنة ١٥٣٣م^(١):

(يحكم الجزائر الآن (حسن أغا) وينوب عنه في حالة غيابه (حاج باشا) و(القائد الصوردو). ويوجد بمدينة الجزائر (١٨٠٠) تركي. أما ببقية شرشال ٣٠، في المدينة ١٥٠، في مليانه ١٠٠، في تادلس ٦٠، في بنوره - أوزنوره - ٢٠، في جيجل ٢٠، في القل ٢٠، في قسنطينة ٣٠٠، فيكون المجموع ٧٥. وهكذا يوجد (٢٦٠٠) تركي تقريباً، وتوجد بمدينة الجزائر (٣) آلاف عائلة عربية تقريباً و(٣٠٠) عائلة يهودية. أما القوة التي بين يدي حسن أغا، وهو مخيم الآن خارج المدينة فهي تشمل (٧٠٠) تركي وألف فارس وألفي راجل من العرب، ويشمل تسليح الجزائر ما يلي: في البرج الفوقاني ثلاثة مدافع لرمي الحجارة، و(٥) مدافع صغيرة. وفي البرج الكبير بباب البحر أربعة مدافع، ومن هذا المكان إلى الباب المقابل للجزيرة (١٧) مدفعاً، ومن هذا الباب إلى المسجد الكبير (١٧) مدفعاً من البرونز و(٤) مدافع من الحديد. وبين المسجد الكبير ودار الصناعة وباب عزون (٨٩) مدفعاً، وفوق الباب ذاته يوجد مدفعان صغيران (يرميان قنابل من الرصاص

(١) المصدر السابق. خير الدين بربروسا ص ١٤٢.

تزن الواحدة منها كيلو جرام تقريباً). وفى المرسى (٨) سفن يحتوى أكبرها على (١٧) صفاً للجذافين. ويشغلون الآن فى المدينة بصنع الخبز المجفف (كعك أو بسكويت) بكل نشاط وكذلك فى المدية والمليانة، الأمر الذى لم نشاهده من قبل أبداً. ويسود الانزعاج فى المدينة لأنهم سمعوا أن الإمبراطور سيعقد الصلح مع ملك فرنسا. لكن خواطرهم هدأت عندما علموا أن السلطان يجهز الآن عمارة قوية - أسطولا).

- وهذا تقرير سرى إسباني آخر عن حالة الجزائر إلى صاحبة الجلالة الملكة^(١):

من فرانسيسكو بيريز دى إيديا كاييز - حاكم بجاية؛ بجاية ٢٩ آذار - مارس - ١٥٣٦م.

(وردت إلينا معلومات من مدينة الجزائر، نقلها لنا ستة من العبيد المسيحيين الذين تمكنوا من الفرار يوم ٢٧ شباط (فبراير) وغادروا الجزائر بسفينة صغيرة أوصلتهم إلى مدينة بجاية.

يوجد الآن فى مدينة الجزائر ألفان من الأتراك وسبعة أو ثمانية آلاف من مهاجري الأندلس فى مدن الجزائر ومليانة وبقاع أخرى وزعها باربروس على الحاميات. أما حاكم الجزائر اليوم فهو من سردينيا، اسمه حسن أغا، وسكان المدينة فى قلق شديد، لأنهم اتصلوا بأنباء موثوق بها تفيد تحرك أسطول جلالتك. وأخبرنا الأسرى المذكورون أن الأمطار الغزيرة التى انهمرت فى فصل الشتاء قد هدمت سور المدينة فى ثلاث جهات، وعلى مسافات شاسعة، وقد أقدم السكان على ترميم ما تحطم بكل سرعة، لكن العمل لم يتم إلى الآن نظراً لعدم وجود البنائين العارفين. ويقولون هنا إنهم سيستعينون لألف وخمسمائة من العرب المحيطين بالجزائر من أجل انجاز العمل. أما مدينة قسنطينة ففيها ألف وخمسمائة من الإنكشارية يقودهم تركى اسمه (القائد كلج على) وباربروس هو الذى أرسل هؤلاء الإنكشارية وبما أن كلج على هذا تابع لحكومة الجزائر، فلا ريب أنه سيقدم إلى مدينة الجزائر بمجرد علمه بتحرك أسطول جلالتك).

(١) المصدر السابق. خير الدين بربروسا ص ١٤٣.

د - شارلكان وغزو الجزائر:

كان (شارلكان) يعمل جاهداً على خلق كتلة أوروبية قوية تجابه العالم الإسلامي. وعندما توفي الإمبراطور النمساوي (مكسيميليان) طمع (شارلكان) في ضم هذا العرش وكان ملك فرنسا (فرنسوا الأول) يطمع في السيطرة على هذا العرش أيضاً والذي ينضوي تحت لوائه سبعة ملوك وأمراء. ومن هنا، واعتباراً من سنة ١٥١٩م، بدأ الصراع بين الملكين. واجتمع الأمراء النخبون (الألكر) في مدينة فرانكفورت، وبعد المساومات المعهودة تم الاتفاق وفي ٥ تموز (يوليو) ١٥١٩م على انتخاب ملك إسبانيا إمبراطوراً للغرب وأصبح يحكم معظم إيطاليا وبلجيكا وهولندا والنمسا وبعض الشمال الفرنسي، بالإضافة إلى الممتلكات الإسبانية في الأرض الجديدة (أمريكا الجنوبية)، ووجدت فرنسا نفسها محاطة بالأعداء وهي تكاد تفقد استقلالها، لا سيما بعد خيانة مارشال فرنسا (الأمير دي بوربون) أثناء الحرب، واتفاق الأمر على اقتسام ترابها. وبعد معارك طويلة قاسية، وقع ملك فرنسا أسيراً في إيطاليا يوم ٢٤ شباط - فبراير - ١٥٢٥م وحمل إلى مدريد، حيث ارغم على توقيع معاهدة سلم فيها لأعدائه ما طلبوه منه، وكتب إلى أمه يقول:

(سيدتي، لقد خسرت كل شيء، ما عدا الشرف والحياة)^(١). ثم أطلق الإسبانيون سراحه بعد أن ترك ولديه رهينة عندهم. وأرسلت أمه - أو أرسل هو عن طريق أمه - رسالة يستغيث فيها بالسلطان سليمان القانوني لنجدته والتحالف معه. وأجابه سليمان إلى ما طلبه، وما كاد يذاع نبأ هذا الحلف بين سلطان المسلمين وملك فرنسا المسيحي، حتى اجتاحت أوروبا موجة من النقمة، وارتفع صوت التنديد بملك فرنسا الذي يستنجد - بالكفار - أعداء المسيحية ضد ملك مسيحي وأسهم (شارلكان) بهذه الحملة من أجل تضيق الخناق على فرنسا، وأعلن إلغاء للمعاهدة السابقة التي عقدها مع ملك فرنسا، وكان التحالف الذي تم الاتفاق عليه بين الملك الفرنسي ومندوبي السلطان العثماني ينص على القيام

(١) المصدر السابق ص ١٤٥.

بهجوم مشترك ضد إيطاليا. وفي أيار - مايو - سنة ١٥٣٨ م جمع السلطان سليمان في ألبانيا جيشاً كبيراً من مائة ألف مقاتل للهجوم على إيطاليا.

وكان معه ولداه (محمد وسليم) وسفير فرنسا في إستانبول (مسيو دولانوي) وفي الوقت ذاته قام (خير الدين باشا) بإنزال قواته في ميناء أوترنته بجنوب إيطاليا، واستعداداً لمهاجمتها من جهة الجنوب، بينما يهاجمها السلطان سليمان من جهة الشرق، وملك فرنسا من جهة الغرب، لكن ملك فرنسا أحجم عن التقدم استجابة للرأي العام المسيحي، وأدى ذلك إلى فشل المشروع، وانتهى الأمر بتوقيع هدنة بين ملك فرنسا وبين الإمبراطور (شارلكان)، ووقعاً على معاهدة الصلح في (نيس) سنة ١٥٣٨ م بعد أن مارس البابا (بولس الثالث) نفوذه القوي من أجل المحافظة على الوحدة المسيحية، وصدّاً للتقدم الإسلامي في بلاد إيطاليا^(١).

فتحت معاهدة (نيس) المجال الواسع أمام (شارلكان) لإعادة حملته الضخمة ضد الجزائر، لا سيما وأن ملك فرنسا تعهد لشارلكان بأنه لن يحاربه ولن يقوم بأي عمل ضده، أثناء محاربته وتخطيطه لسلطان المسلمين في مدينة الجزائر، ففرنسا والبابا وكل البلاد المسيحية كانت مشتركة في الحملة العظمى على مدينة الجزائر.

كان نائب خير الدين في ولاية الجزائر (محمد حسن) يتابع جهوده في إعادة تنظيم البلاد، وتوطيد دعائم الأمن والاستقرار فيها، وحشد القوى والوسائل لتطوير الصراع ومجابهة الاحتمالات المختلفة، غير أن ذلك لم يصرفه عن متابعة الجهاد في سبيل الله في البحر. وقاد مجموعة من العمليات كان من أبرزها إغارته على جبل طارق ومعركته البحرية ضد قوة من الأسطول الإسباني.

ففي عملياته الأولى، جهز قوة من (١٣٠٠) مقاتل حملتهم (١٣) سفينة حربية غادرت الجزائر في شهر أيلول (سبتمبر) ١٥٣٩ م. ووصلت هذه القوة الموانئ الجنوبية الأندلسية، وقامت بالإنزال وأغارت على جبل طارق فاحتلت البلدة، واستولت على ما فيها من غنائم، وأوغلت في الأقاليم وهي تصدر ما يقع تحت أيدي المجاهدين وتختار من الإسبانين جماعات الأسرى والسبايا لبيعهم في المدن المغربية الجنوبية (تطوان خاصة) ثم تعود للميدان.

(١) المصدر السابق ص ١٤٧.

وعندما تمت العملية وقفل (محمد حسن) راجعاً إلى مدينة الجزائر، اصطدم بقوة بحرية إسبانية ضخمة يتولى قيادتها (الأميرال برنارد دي موندورزا) ووقعت معركة ضارية بين القوتين أسفرت عن غرق عدد من سفن الجانبين. وتمكنت القوات الإسبانية من تحرير سبعمئة من الجذافين النصارى الذين كانوا يعملون أسرى فوق السفن الجزائرية. لكن خسائر الإسبان خلال هذه المعركة كانت كبيرة جداً زاد عدد القتلى فيها على ثمانمئة قتيل.

وأتى شارلكان استعداداته لحملة البحرية الكبرى ضد الجزائر. وضم جيشه أفضل المقاتلين والنبلاء من إسبانيا وألمانيا وإيطاليا، بالإضافة إلى المتطوعين، وأيضاً إلى الجيش الذى أرسله البابا بقيادة حفيده (كولونا) كما أرسلت رهبنة مالطا (١٤٠) فارساً و(٤٠٠) مقاتلاً من المشاة. وأصبح هذا الجيش يضم (٢٤) ألف مقاتل من المشاة - الراجلين و (ألفى) فارس. أما الأسطول فكان يشتمل على (٤٥٠) سفينة نقل ضخمة و (٦٥) سفينة حربية كبرى. وبلغ مجموع عدد أفراد البحارة (١٢) ألف رجل، وتولى (أندريا دوريا) قيادة القوة البحرية فى حين تولى (شارلكان) بنفسه قيادة الحملة^(١).

وعندما أصبحت الحملة جاهزة للتحرك أصدر البابا يوحنا الثالث بياناً نشره على البلاد الأوربية كلها، وأعلن فيه أن هذه الحملة هى حملة صليبية، وأن واجب كل مؤمن بالمسيح مخلص للنصرانية أن ينضم إليها وأن يشارك فى محاربة الكافرين.

وحاولت إسبانيا خلال ذلك إضعاف البحرية العثمانية عن طريق محاولة استمالة (خير الدين باربروس)، وذلك بأن تم إرسال جواسيس من قبل (شارلكان) إلى إستانبول للاتصال مع (خير الدين) ومفاوضته على أساس تعيينه ملكاً على الشمال الإفريقى كله، واعتراف إسبانيا بملكيته مقابل اعترافه بتبعته لشارلكان ودفع جزية سنوية محددة. ودخل (خير الدين) فى المفاوضات التى استمرت على فترات متناوبة طوال سنتين تحت إشراف (أندريا دوريا). وكان (خير الدين) يطلع السلطان

(١) خير الدين باربروسا ص ١٤٩.

على تطور المفاوضات في كل مرحلة من مراحلها، وعندما وصلت مهمة وفد المفاوضات المكون من ثلاثة مفاوضين برئاسة الدكتور (أومبرو) حتى نهايتها، ووفقاً لخطة متفق عليها بين خير الدين والسلطان بادر هذا بإلقاء القبض على (الجواسيس الثلاثة) وأودع الدكتور (أومبرو) في سجن (قلعة الحصون السبعة) بتهمة حث أحد الرعايا العثمانيين على العصيان. وكان وقع هذا الفشل مريعاً على نفس (أندريا دوريا) بقدر ما كان مزعجاً لإمبراطوره (شارلكان) الذي علق أملاً كبيراً في إحراز نصر كبير بضمن بخص إن هو استطاع ضم (خير الدين) لقوته.

ولم يبقَ أمام (شارلكان) غير الحرب، فتحرك بأسطوله الضخم مغادراً (مرسى ماهون) يوم ١٨ تشرين الأول - أكتوبر - سنة ١٥٤١، ووصل إلى (جون الجزائر) في الساعة السابعة من صباح يوم (٢٠) تشرين الأول - أكتوبر - وأخذ في إجراء عرض قواته البحرية أمام مدينة الجزائر لإرهاب حاميتها ثم توجه بأسطوله إلى طرف الخليج المقابل لمدينة الجزائر، عند رأس (تامنتغوس - أو تامانتغوس) وخيم هناك مؤقتاً، ثم عاد مباشرة نحو الضفة اليسرى لوادي الحراش. وهناك أخذ ينزل جنده منذ فجر يوم الأحد ٢٣ تشرين الأول - أكتوبر - وفي الساعة التاسعة من اليوم ذاته، نزل الإمبراطور إلى الأرض، محاطاً بالأشراف والنبلاء ورجال الحاشية، وأقام المركز العام لأركان حربه الإمبراطوري عند (الحملة أو الحامة) شرقي مدينة الجزائر (حيث حديقة التجارب الآن)^(١). وذلك على مقربة من مركز التجمع العام الواقع بين الحمة وضفة الحراش.

فأسرع (محمد حسن) بتجميع كل ما لديه من القوى، واستعد للدفاع، وقرر مع أركان حربه تطبيق الخطة التي نجح الجزائريون في تنفيذها خلال معاركهم السابقة مع الإسبان والتي مكنتهم من النصر مرتين متتاليتين. فتحصنوا في المدينة ينظرون تطور الأحداث ويراقبون بدقة تحركات الإسبان ومناوراتهم.

وعلى هذا فما إن وطأت أقدام الإسبان أرض الجزائر، حتى انطلق المجاهدون الجزائريون للعمل تحت قيادة (المجاهد الحاج بشير) وهم يحيطون بالقوات الإسبانية

(١) خير الدين بربروسا. مرجع سابق ص ١٥١.

من كل اتجاه، ويوجهون إليها ضربات مباغتة سريعة بواسطة زمر من الفرسان القليلة في عدد أفرادها والسريعة في انقضاضها وانسحابها بحيث لم تترك للقوات الإسبانية فرصة للراحة أو النوم.

وقرر الإمبراطور البدء بتنفيذ معركته في يوم ٢٤ تشرين الأول - أكتوبر - فتولى بنفسه قيادة التحرك نحو الأمام، على رأس الفيلق الألماني، وترك للفريق الإيطالي وفرسان مالطة مهمة حماية المؤخرة تحت قيادة حفيد البابا (كاميل كالونا) واستمر الإمبراطور في تقدمه واستمر المجاهدون في الإغارة على القوات الإسبانية، وأرغموها على التوقف حيناً عند إحدى الربوات، وفي النهاية وصلت القوات الإسبانية إلى (كدية الصابون - الواقعة على مرتفع خلف مدينة الجزائر)، حيث دارت معركة قاسية مع المجاهدين، تمكن الإمبراطور بعدها من احتلال الموقع الإستراتيجي (للكدية). ووضع عتاده الثقيلة فيها واتخذ منها قاعدة للهجوم ثم بدأ على الفور بتوسيع قاعدة عملياته، فاحتل مجموعة التلال التي تصل ما بين (مدينة الصابون) و(قنطرة الغفرون) قرب البحر غربي الجزائر. وبذلك باتت مدينة الجزائر مطوقة ومعزولة في البر والبحر^(١).

وعند ذلك أرسل (شارلكان) من قبله مندوباً (هو الفارس لورنزومانويل) لإقناع حامية الجزائر بالاستسلام بعد أن باتت مطوقة، وبعد أن ظهر لها مدى التفوق الكبير في القوى التي أحاطت بالمدينة، ووصل المندوب إلى الجزائر، وأبلغ (محمد حسن) الرسالة التي يحملها وهي كالتالي:

(أنا ملك إسبانيا الذي استولى على تونس وأخرج منها خير الدين، وتونس أعظم من الجزائر وخير الدين أعظم منك) فأجابه (محمد حسن أغا) بالرسالة التالية: (غزت إسبانيا الجزائر في عهد عروج مرة - وفي عهد خير الدين مرة، ولم تحصل على طائل، بل انتهبت أموالها وفنيت جنودها، وستحصل المرة الثالثة كذلك إن شاء الله)^(٢).

في الليلة ذاتها، وصل إلى معسكر شارلكان رسول من قبل والي الجزائر

(٢) المرجع السابق.

(١) المصدر السابق ص ١٥٢.

(محمد حسن أغا) يطلب إذنًا للسماح بحرية المرور لمن أراد من أهل الجزائر وخاصة نساءها وأطفالها مغادرة المدينة عبر (باب الواد)، وعرف (شارلكان) أن حامية الجزائر مصممة على الدفاع المستميت، وأنه من المحال احتلال الجزائر إلا إذا تم تدميرها تدميرًا تاماً. ولم يكن الإمبراطور قد أنزل مدفعية الحصار حتى تلك الساعة، فلم يتمكن بذلك من قصف الجزائر بالمدفعية، وفي الوقت ذاته كان المجاهدون الجزائريون يوجهون ضرباتهم الموجعة إلى القوات الإسبانية، في كل مكان، حتى قال أحد فرسان مالطة في تقريره عن المعركة:

(لقد أذهلتنا هذه الطريقة في الحرب، لأننا لم نكن نعرفها من قبل)^(١). وكانت أعداد المجاهدين تتعاضد باستمرار بفضل تدفق مقابلتهم من كل مكان بمجرد سماعهم بإنزال القوات الإسبانية. وكان هؤلاء يستفيدون في توجيههم لضرباتهم من معرفتهم الدقيقة بالأرض واستخدامهم لمميزاتها بشكل رائع.

وبدأ المطر الغزير في السقوط مع بداية الليل، وكانت كثافة الأمطار وغزارتها تتزايد مع تقدم الليل. بينما هبت ريح عاتية من الشمال الغربي، فتعالت الأمواج وتشابكت، وأصبح الأسطول الذي يحمل السلاح الثقيل - المدفعية - والعتاد والمواد التموينية أمام مأزق خطير. ولم يكن للإسبانيين في تلك الليلة خيام يحتمون فيها من وابل المطر، إذ لم يكونوا قد جاءوا بالعتاد اللازم من السفن. فكان لا بد لهم من قضاء شر ليلة بين الماء والوحل بعد أن قضوا أسوأ نهار في المسير والاشتباك بنيران المجاهدين.

ثم أقبل الفجر أخيراً على المجاهدين الذين لم يناموا ليلهم وهم في مدينة الجزائر المحاصرة يستعدون للمعركة الحاسمة. وارتفع الأذان من المساجد داعياً الناس لبيوت الله، ورددت عشرات مآذن المدينة الدعوة، فأنزلت السكينة على النفوس. وما كادت تنقضي الصلاة، حتى فتحت أبواب المدينة بصورة مباغتة، وتدفقت موجات المجاهدين وهي تردد بصوت واحد صيحة الحرب: (الله أكبر).

وقاد المجاهد (الحاج البشير) الهجوم على ميمنة الخط الإسباني، وكانت مستقرة

(١) المرجع السابق ص ١٥٣.

أمام رأس تافورة (بين إدارة البريد المركزي اليوم والبحر). وتلقت الفرقة الإيطالية الصدمة الأولى، فلم تتمكن من الصمود لها، واستولى عليها الرعب والفرع، فتقهقرت متراجعة بدون نظام حتى وصلت إلى معسكراتها. وازداد المجاهدون إقداماً واندفاعاً لاستثمار هذا النصر الأول. فواصلوا هجومهم في مطاردة فلول الهارين إلى أن اصطدموا بكامل الفرقة الإيطالية التي كانت تحتل القطاع الأوسط في التنظيم القتالي للقوات الصليبية. وعلى الرغم من التفوق الساحق للقوى الإيطالية، فقد اندفع المجاهدون بحماسة لا توصف لقتالها. ولم تتمكن الفرقة الإيطالية من الصمود أمام الهجوم القوي للمجاهدين. واضطراب أمرها. فالت منهزمة وتشتت إلى مجموعات صغيرة. ووجد المجاهدون الجزائريون فرصتهم لإبادة ما يستطيعون إبادته من هذه القوى الممزقة، ولم تتوقف المذبحة إلا عندما تدخلت فرقة فرسان مالطة.

كانت هذه الفرقة تقف على مسافة بعيدة من مواقع القوات الإيطالية، فما كادت ترى ضراوة المعركة، وتمزق القوات الإيطالية، مما بات يهدد الجيش الإمبراطوري كله بالدمار، حتى اندفعت بكامل قوتها، وتمركزت في الفج الصغير الذي يقع وراء الجسر والذي يمر منه الطريق المؤدى إلى كدية الصابون، فضمنت بذلك حماية فلول القوات الإيطالية، واضطر المجاهدون الجزائريون لإيقاف هجومهم حتى لا يتعرض طريق انسحابهم للتهديد. وفي الوقت ذاته اندفع القائدان الصليبيان (كولونا والأمير صالمون) ومعهما زمرة من الفرسان لإيقاف الفرقة الإيطالية، ومنعها من التوغل في فرارها، وأمكن لهما بعد جهد كبير إيقافها وإعادة تجميع من بقى منها بعيداً عن أرض المعركة.

عند هذه المرحلة أصدر القائد (الحاج البشير) أمره إلى المجاهدين بالتراجع المنظم مع المحافظة على التماس مع العدو حتى الوصول إلى أسوار مدينة الجزائر وتحصيناتها، وتم تنفيذ عملية التراجع بطريقة رائعة حسبها فرسان مالطة انسحاباً من المعركة. فانطلقوا بثقل قوتهم لما حسبوه مطاردة، حتى إذا ما وصل المجاهدون بكتلتهم المنظمة إلى مسافة قريبة من حصن (باب عزون) قام رجال الدفاع الجزائريون بفتح الأبواب، ودخل المجاهدون، ثم أغلق الباب بسرعة وأحكم رتاجه

وبقيت قوات العدو مكشوفة تجاه السور، تحت سيل المطر الغزير، ولم يعد باستطاعة فرسان مالطة التقدم إلى الأسوار واقتحامها، كما لم يعد باستطاعتهم التراجع بعد أن أصبح سلاح الجزائريين يحصدهم جميعاً من وراء ظهورهم.

وامتطى الإمبراطور (شارلكان) صهوة جواده حين بلغته أنباء الكارثة التي نزلت بالقوة الإيطالية، وتقدم مع النبلاء ورجال الحاشية ومهرة الفرسان لنجدة فريق مالطة واقتحم مع قواته منطقة الخطر تحت نيران الحصون الجزائرية ففقدت القوات نصف عدد أفرادها. وأثناء ذلك لم يوقف الجزائريون من عرب الداخل عملياتهم على مؤخرة القوات المعادية، وزاد الأمر سوءاً بالنسبة إلى قوات الفرنج الصليبيين عندما وقفوا عاجزين عن استخدام أسلحتهم النارية التي أفست السيول والأمطار بارودها وحولته إلى كتل من العجين غير المتفجر. في حين كان المجاهدون فوق الأسوار يستخدمون أسلحتهم بكفاءة عالية القسي الحديدية لرمي السهام البعيدة المدى بدقة مثيرة للإعجاب. وتكسرت موجات الهجوم واضطرت للانسحاب بعد أن تركت فوق أرض المعركة الغارقة بالوحل أعداداً كبيرة من القتلى.

وهكذا وبينما كانت معركة يوم ٢٥ تشرين الأول - أكتوبر - تسفر عن نصر حاسم لمصلحة القوات البرية الجزائرية، كانت العواصف تقوم بدورها لتمزيق الأسطول البحري الإسباني، إذ أدت الأمواج المتلاطمة إلى ضرب قطع الأسطول بعضها ببعض - وخاصة منها سفن النقل الكبيرة - لتعمل على تحطيمها والقذف بها فوق أرض الساحل. وأسفر هذا الموقف عن كارثة حقيقية نزلت بالأسطول الصليبي، عندما تجاوز عدد سفن النقل التي تحطمت على الساحل (١٥٠) سفينة، وكان المجاهدون المسلمون من عرب البلاد الداخلية يغمون ما فيها ويأسرون رجالها^(١).

أما السفن الحربية التي كانت أمتن صنفاً وأحسن قيادة فقد انسحبت من موقع الخطر، مستعملة المجاذيف، واستمرت عملياتها هذه نحواً من أربع وعشرين ساعة. غير أن هذه السفن الحربية التي ناورت بمهارة متباعدة عن مركز الخطر، كانت تحمل في جوفها خطراً أكبر، إذ كان العاملون على مجاذيفها من أسرى

(١) المرجع السابق ص ١٥٦.

المسلمين المستعبدين في معظمهم، وكان هؤلاء يتابعون تطورات المعركة بحذر ويقظة، وتبين لهم أن لحظتهم المناسبة قد أزفت لتحرير أنفسهم من العبودية، ولتقديم خدماتهم لإخوانهم المجاهدين في سبيل الله في الوقت ذاته فتركوا المجاذيف، واندفعوا يجرون سلاسلهم وأغلالهم الثقيلة ويبغون النجاة مهما كان الثمن. وأدت هذه العملية إلى ارتطام (١٦) سفينة حربية بجدران الساحل. ونجح المجاهدون الجزائريون في إنقاذ ألف وأربعمائة بحار منهم، وأنزلوهم بالجزائر.

وأراد الإمبراطور (شارلكان) وأركان حربه إنقاذ ما يمكن إنقاذه مما قذف به الأسطول إلى ساحل البحر من سلاح وعتاد، إلى جانب إنقاذ البحارة من القتل أو الأسر أو الغرق بعد أن انقلبت سفنهم وباتوا وهم يثنون تحتها بين الأمواج المتلاطمة، فبعثوا فرقة إنقاذ إلى الساحل، غير أن هذه الفرقة وقفت عاجزة عن القيام بأي عمل، فقد سبقهم المجاهدون واستولوا على كل ما قذف به البحر، أما بقية محتويات السفن فقد أخذت طريقها إلى عمق المياه، بما في ذلك المدفعية والمعدات والذخائر والمواد التموينية، وانتشرت قطع السفن المدمرة فغمرت مياه الساحل على امتداد مائتي كيلو متر، ما بين شرق دالس وغرب شرشال.

وكان (أندريا دوريا) يشرف على العمليات البحرية من فوق ظهر سفينته الضخمة (طومبيراس)، ويحاول الدفاع عن رجاله وحماية متاعه وكل ما قذفت به الأمواج على الساحل وذلك بمنع وصول المجاهدين إليه، فكان يتقدم من الساحل وهو يصارع الأمواج ويتابع رمي قنابل وقذائف مدفعيته، غير أن محاولاته لم تحقق هدفها، بل إنها زادت من حجم الكارثة وتسببت في تدمير سفينة حربية أخرى^(١).

لم يفقد الإمبراطور (شارلكان) رباطة جأشه، وعلى الرغم من استسلامه لقضاء الله وقدره وترديده باستمرار للعبارة التالية (فلتكن إرادتك يا رب). فقد مضى لإعادة تنظيم القوات، غير أنه كان من المحال عليه معالجة المأزق الصعب الذي وقع فيه، فقد هيمن الرعب والفرع على قواته، وفقد معظم مواده التموينية فبات جيشه مهدداً بالجوع، بالإضافة إلى أن قوة الجزائريين كانت تتعاظم باستمرار وهم يتابعون الموقف من وراء الأسوار ويستعدون للانقضاض على قواته من جديد.

(١) المرجع السابق ص ١٥٧.

وانطلق يستشير هيئة أركان حربه وكبار معاونيه ممن أبقت عليهم المعركة . وكانت الحلول المتاحة أمامه محدودة، فإما الانسحاب ببقايا قواته وأسطوله وإما إعادة تنظيم ما بقى لديه من القوى والوسائل واختيار بقعة مناسبة للدفاع عنها فى انتظار تحسن المناخ ووصول إمدادات جديدة من أوروبا . وانقسمت وجهات نظر القادة فى تأييد أحد الحلين الوحيدين .

وكان رأى قائد الأسطول (أندريا دوريا) هو العمل الحاسم فى ترجيح أحد الاحتمالين - أو الحلين - وقد حدد (أندريا) موقفه من الأزمة بوضوح فأرسل من سفينته فدائياً إسبانياً، حملة رسالته، وقد استطاع هذا الفدائي مصارعة الأمواج والتسلل من بين المجاهدين حتى وصل إلى خيمة الإمبراطور، وأبلغه رسالة قائده التى جاء فيها: (وأما من جهة البحر فإنه من المحال بقاء الأسطول فى مركز الخطر داخل الخليج، لأن بقية السفن ستتحطم حتماً، إن هو لم يعمل على سحبها فوراً إلى جهة (تامانتغوس) المواجهة لمدينة الجزائر على الطرف المقابل من الخليج، وأما من جهة البر، فإنه يرى بأنه من المحال أيضاً البقاء أو الانتظار، وأنه من الواجب الانسحاب فوراً ببقية الرجال، وركوب سفن الأسطول الباقية للوصول إلى جهة - تامانتغوس). وأيد معظم قادة الجيش وجهة نظر قائد الأسطول، إلا القائد الإسباني (فرناندو كوريتز) الذى كان يرى وجوب البقاء والمقاومة ووقف معه أيضاً الكونت (د. الكوديت) حاكم وهران العام . وهكذا رجحت كفة الانسحاب وبدأت المسيرة الشاقة للابتعاد عن الأسوار، واختراق ضفة البحر، للوصول إلى رأس (تامانتغوس). ونظراً لنفاد المواد التموينية، فقد أمر الإمبراطور بذبح الخيول التى كانت لدى الجيش وتوزيع لحمها لإطعام الرجال، مبتدئاً بذبح تلك الخيول العربية البديعة التى جاء بها لنفسه . وبات الجيش الصليبي فى تلك الليلة وراء (وادي خنيس). ثم استأنف الجيش تحركه فى اليوم التالى (٢٧ تشرين الأول - أكتوبر) حتى وصل وادي الحراش . ولما كانت مياه الطوفان قد ارتفعت كثيراً فقد بات من المحال متابعة المسير . وتم التوقف أمام الوادى^(١) .

(١) خير الدين باربروسا لبسام العسلى ص ١٥٩ .

وفى صبيحة يوم الجمعة (٢٨ تشرين الأول - أكتوبر) استطاع الجنود صنع جسر من أخشاب السفن عبروا عليه إلى الضفة الأخرى. وتابعوا تحركهم البطيء حتى وصلوا (وادي الحميض - أو الحمير) فباتوا عنده. واستؤنفت المسيرة يوم السبت ٢٩ تشرين الأول - أكتوبر - وأمكن الوصول في النهاية إلى رأس (تامانتغوس).

لم تكن مشاق الطريق ووعورته وصعوبة التحرك هي كل ما تعرض له الجيش الصليبي أثناء تراجعه، وإنما كانت الصعوبة الحقيقية هي في رد الاغارات التي شنها المجاهدون الجزائريون والتي لم تتوقف طوال أيام المسير، في الليل كما في النهار، مما اضطر الإمبراطور (شارلكان) إلى وضع الفرقة الإيطالية في المينة، وعلى أبعد مسافة من الضربات المحتلة للجزائريين، في حين أسند حماية المجنبة اليسرى والمؤخرة للفرسان المالمطين والمشاة الإسبانيين. وتولى هو بنفسه قيادة المؤخرة، لرد هجمات المجاهدين، وإنقاذ من يسقط من الرجال وبذلك لم تصل القوات إلى منطقة أنقاض مدينة (رسغوليا) - المدينة الرومانية القديمة - إلا وقد استنزفت المسيرة بقية ما تمتلكه من القدرة والجهد. وقضت بتلك الأطلال يومى الأحد والإثنين، حيث استعادت بعضاً من قوتها، ثم بدأت عملية ركوب البحر يوم الثلاثاء (الفتاح من تشرين الثانى - نوفمبر) وانتهت عملية الركوب يوم (٣) تشرين الثانى، وكان الإمبراطور هو آخر رجل ركب البحر إلى مدينة بجاية، وفى الطريق ابتلع البحر الهائج بعضاً من السفن أيضاً وأصاب بعضها بالعطب، فكانت أعمال الإصلاح والترميم تتم فوق السفن بلا انقطاع وتوقف. وعندما وصلت القوات إلى بجاية وجدت أن الموقف أسوأ مما كان متوقعاً، فقد أحكم المجاهدون العرب الحصار على الحامية، ومنعوا عنها التموين، إلا ما كان يقدمه بعض العملاء بأثمان خيالية وبكميات محدودة. ومضى الإمبراطور إلى المساجد التي تم تحويلها إلى كنائس، ويمضى معظم وقته بالصلوات والابتهاالات. وأصدر أمره بإبقاء الكنائس مفتوحة فى الليل والنهار للعبادة. كما أعلن الصيام تذلاً إلى الله وخشوعاً. ولم يجد الإمبراطور فى بجاية ما يعمل فأصدر أمره بجمع اليهود وقتل بعضهم واسترقاق الآخرين وبيعهم فى أسواق أوربا.

ومكث الإمبراطور أربعة عشر يوماً في (بجاية). وغادرها يوم (١٦) تشرين الثاني - نوفمبر ١٥٤١م بعد أن وعد حاميتها بالدعم السريع والإمداد العاجل، وعندما وصل إلى بلاده، رمى بتاجه إلى الأرض، وأقسم ألا يضعه على رأسه إلا بعد استيلائه على الجزائر. وحرّم نفسه من وضع التاج لأنه لم يتمكن أبداً من تحقيق هدفه وبقيت الجزائر المحروسة منيعة على المعتدين.

فاقت نكبة الجيش الذي قاده (شارلكان) كل نكبة تعرضت لها الحملات الصليبية من قبل، إذ بلغت خسارة هذا الجيش (٢٠٠) سفينة من بينها (٣٠) سفينة حربية و (٢٠٠) مدفع و (١٢) ألف مقاتل - بين قتل وغرق وأسير - بالإضافة إلى كل عتاد الحملة وتجهيزها وتموينها. وكانت غنائم المسلمين عظيمة وصفها أحد مؤرخيهم بقوله: (وبقيت الجزائر كالعروس تختال في حليها وحللها من رخاء الأسعار، وأمن الأقطار، ولم يبقَ لهم عدو يخافون منه، وشاعت هذه القضية في مشارق الأرض ومغاربها، وبقي رعب المسلمين في أعداء الدين مدة من الزمن بأمن الملك العلام... وخلف اللعين لأهل الجزائر فملاً أيديهم غناء، وكسبت البلاد من ذلك أموالاً طائلة وفرج الله على أوليائه المسلمين).

وفي يوم ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٥٤١ بعث الكونت (ألونزو دي قرطبة) تقريراً من وهران إلى والده (الكونت د. الكوديت) حاكم وهران. حيث كان ينوب عنه أثناء غيابه وجاء في التقرير ما يلي:

(وردتني معلومات جديدة وموثوقة من الجزائر تفيد بأن الأتراك أنقذوا خمساً من السفن - الإسبانية - التي سحبت أربع منها سالمة إلى الساحل، أما الخامسة فمصابة بعطب بسيط. كما أخرج الجزائريون من الماء ستين مدفعاً بين كبير وصغير - منها عشرون مدفعاً ضخماً. وأرسل حسن أغا مندوباً من قبله إلى ملك تلمسان (الملك محمد) يسأله الإعانة استعداداً لتلقى صدمة الأرمادا الجديدة. كما أرسل مندوبين عنه إلى (فليز - أوباديس) على الساحل الشمالي المغربي من أجل صناعة

سفن وابتاع أشياء تحتاج إليها مدينة الجزائر. كذلك استصرخ حسام أغا لنجدته القائد المنصور وكبار المرابطين بالمملكة التلمسانية^(١).

تلقى (محمد حسن أغا) وإلى الجزائر نائب (خير الدين) لقب (الباشا) مكافأة له على ما قدمه من جهد، وما بذله من تضحية، وما أظهره من كفاءة في إدارته للبلاد وفي إحباطه للهجمة الصليبية التي قادها (شارلكان) والتي كان له فضل لا ينكر في إدارة حربها. ومضى (محمد حسن باشا) إلى حشد الإمكانيات والقوى بمجرد الانتهاء من معركته. وعمل على استثمار الظفر فتقدم على رأس جماعة قليلة من الجيش إلى (بسكرة) وغيرها من بلاد (الزيان) وما يحيط بها حتى تخوم الصحراء، وأسفرت رحلته هذه عن انضمام كل هاتيك الجهات إلى النظام الجديد الذي ثبت جذوره في العاصمة الجزائرية.

لكن أعداء الداخل لم يتوقفوا عن التآمر مع أعداء قومهم ودينهم، وكان زعيم عائلة ابن القاضي في (كوكو) وهو (محمد بن محمد) من أبرز المتآمرين. وكان شارلكان في حاجة بعد هزيمته لدعم مثل هؤلاء الخونة. فدعم اتصالاته بهم.

وفي تلمسان، قاد (أبو زيان) شقيق الملك محمد - المرتبط بمعاهدة تحالف مع (شارلكان) حركة تمرد، ودعمه (محمد حسن باشا) بالقوات وأمكن دحر (الملك) وإخراجه من تلمسان. وعندئذ تحرك حاكم وهران (الكونت. د الكوديت) لدعم (الملك محمد) ووقعت معركة بين (الملك محمد والقوات الإسبانية) من جهة وبين (أبي زيان) والقوات الوطنية الجزائرية من جهة أخرى عند (شعبة اللحم) على نحو ست كيلو مترات إلى الشمال الشرقي من (عين تموشنت). وبعد قتال ضار انتصر المسلمون، وتمكنوا من إبادة القوة الإسبانية في شوال ٩٥٠هـ - كانون الثاني - يناير ١٥٤٣) وعندما علم شارلكان بالكارثة الجديدة، أرسل جيشاً من (١٥) ألف مقاتل إلى حاكم وهران بمهمة الاستيلاء على (تلمسان) وإخضاعها من جديد، واستطاع السلطان محمد حشد مثل هذا العدد. فأمكن له بذلك استعادة سيطرته

(١) خير الدين باربروسا لبسام العسلى ص ١٦٢.

على تلمسان. غير أن أخاه (أبا زيان) عاد فنظم قواته، ودعمه أهل تلمسان والمسلمون، وأمكن له في (معركة الزيتون) الانتصار بقبيلتها فظهرت خيائته وتعاونته مع أعداء الدين، فعملت على قتله هو ومن معه، وانتهت بذلك حياة أخطر أعداء الداخل وعادت تلمسان لتسهم مع الجزائر في بناء المستقبل.

. نهاية خير الدين وتقييم أعماله الحربية:

لم يكن (خير الدين) وهو في عاصمة الدولة العثمانية (القسطنطينية) يمارس عمله قائداً أعلى للأسطول الإسلامي العثماني، غافلاً أو متغافلاً، عما يدبره أعداء المسلمين. وقد تابع المراحل المختلفة التي أعد فيها (شارلكان) حملته. وقد اقترح منذ شهر حزيران (يونيو) ١٥١٤م تجهيز أسطول حربي من مائة سفينة، يتم إرسال خمسين سفينة منها إلى مياه الجزائر لاعتراض الأسطول الإسباني. في حين يتم إرسال خمسين سفينة أخرى لاعتراض هذا الأسطول وهو في عرض البحر - غير أن المسؤولين في الديوان - الوزارة - لم يوافقوا على الاقتراح بحجة أن الجهد الحربي الذي تتطلبه الدولة في صراعها مع الغرب يتطلب المحافظة على الكتلة الرئيسية للقوات البحرية في مياه شرقي المتوسط. غير أنه تقرر إرسال دعم عاجل بمجرد التأكد من تحرك (شارلكان) إلى الجزائر. بحيث يقف الأسطول الإسباني عندها محاصراً بين القوات الجزائرية برآ، والأسطول العثماني بحراً. وهكذا فما كادت أخبار الحملة الإسبانية على الجزائر تصل إلى الديوان حتى جهز (خير الدين) أسطولاً قوياً، وتولى قيادته بنفسه وهو ييمم شطر مياه الجزائر. غير أن معركة الجزائر لم تستمر أكثر من ١٢ يوماً - من الأحد ٢٣ تشرين الأول - أكتوبر - وحتى يوم الخميس ٣ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٥٤١م.

وعندما وصل (خير الدين) كانت المعركة قد انتهت بالانتصار الحاسم للقوات الجزائرية. وتوقف (خير الدين) فترة قصيرة، اطلع فيها على تطورات الموقف، وشارك شعب الجزائر فرحة انتصاره. ثم انطلق بأسطوله نحو المياه الأندلسية والمياه الإيطالية متنقلاً ما بين مدنها الساحلية، موجهاً الإغارات للتوغل داخل الأقاليم

حيث كان المجاهدون يندفعون بحماسة فيقتلون ويأسرون ويغنمون، وهم في ذلك كله ينتقمون لما حل بالمسلمين في تونس ووهران وتلمسان وبجاية، علاوة على ما نزل بمسلمي الأندلس، وحصل المسلمون على مغانم ضخمة، هي بعض ما غنمه الإسبانيون من ثروات العالم الجديد (أمريكا الجنوبية).

ولم يكن باستطاعة بقايا الأسطول الإسباني الخروج لاعتراض (خير الدين) بعد خسارته الفادحة في الجزائر، فمارس المسلمون إغاراتهم بحرية مطلقة.

وفي تلك الفترة حدث تحول على الساحة الأوربية. فقد تدهورت العلاقات من جديد بين ملكي إسبانيا وفرنسا. وكان الإسبانيون قد قتلوا في (لومبارديا) بإيطاليا رسولين فرنسيين، كانا يعبران البلاد الإيطالية المحتلة وهما تحت لواء السلام المنعقد بمدينة (نيس). وكان أولهما يحمل رسالة لدولة البندقية. في حين كان الثاني يحمل رسالة للسلطان (سليمان القانوني) فعادت الحرب بين الدولتين إلى سيرتها الأولى. ومد السلطان سليمان يده من جديد إلى (فرانسوا الأول - ملك فرنسا) ضد العدو المشترك (شارلكان) وتولى (خير الدين) قيادة الأسطول وهناك - في مارسيليا - باع خير الدين ورجال أسطوله الغنائم التي حملوها معهم من إسبانيا، كما باعوا فيها رقيق الإسبان من الرجال والنساء. فتداولتهم أيدي القوم. واشتراهم الفرنسيون بضاعة رابحة، ثم أخذوا يبيعونهم بأرباح طائلة إلى يهود (ليفورنو) الإيطالية، وكان هؤلاء بدورهم يعيدون بيع الأسرى الأرقاء إلى الإمبراطور (شارلكان) بأرباح خيالية. وانضم الأسطول الفرنسي إلى الأسطول العثماني بأمر من ملك فرنسا. ووضع قائد الأسطول الفرنسي (الأمير فرانسوا دوبربون) قواته تحت قيادة (خير الدين) باعتباره القائد العام للقوات المتحالفة (العثمانية - الفرنسية) وكان أول عمل قام له (خير الدين) هو قيادة القوات لمهاجمة (نيس) وطرده (حاكمها دوق سافوا) وانتزاعها من الحكم الإسباني وإعادتها لملك فرنسا. ثم استقر خير الدين بأسطوله في مدينة (طولون) وجعلها قاعدة للجيش الإسلامي والأسطول الإسلامي، بعد أن غادرها معظم سكانها بأمر ملك فرنسا، وتركوها في أيدي المسلمين. ثارت ثائرة المسيحية جمعاء ضد هذا التصرف الفرنسي.

وأخذت الدعاية المضادة للمسلمين تجتاح أرجاء أوروبا، ويحملها الإسبان وغلاة الصليبية، ويستثمرونها إلى أقصى الحدود. ومن ذلك قولهم: (إن خير الدين قد اقتلع أجراس الكنائس، فلم تعد تسمع في طولون إلا أذان المؤذنين). وبقي خير الدين والجند الإسلامي بمدينة طولون حتى سنة ١٥٤٤م.

وكان (شارلكان) أثناء ذلك قد هاجم شمال شرقي فرنسا وانهزم تحت جدران (شاتو تييري) ثم اضطر للذهاب إلى ألمانيا حيث كانت حركة التمرد البروتستانتية ضد الكاثوليكية بصفة عامة، وضده بصورة خاصة، قد أخذت أبعاداً خطيرة. وأرغمه ذلك - بعد أن هوى نجمه وذبل عوده بنتيجة نكبته أمام الجزائر - إلى عقد معاهدة مع ملك فرنسا يوم ١٨ - أيلول (سبتمبر) ١٥٤٤م في مدينة (كريسمي دي فالوا) ونتج عن هذه المعاهدة جلاء (خير الدين) وقواته عن مدينة (طولون) ورجع إلى العاصمة (إستانبول). وبما أن الحرب لم تتوقف بين إسبانيا والمسلمين، فقد استمر خير الدين في ممارسة الأعمال القتالية أثناء طريق عودته، فتوقف أمام مدينة جنوة، وارتاع مجلس شيوخها، فأرسل له مجموعة من الهدايا الثمينة مقابل عدم التعرض للمدينة بأذى، فتابع (خير الدين) طريقه حتى وصل جزيرة (ألبا) التي كانت تحت حكم إسبانيا - والتي أصبحت منفى نابليون بونابرت فيما بعد - فاحتلها، وغنم ما بها، كما احتل عدداً من المدن الساحلية، من بينهما مدينة (ليباري) ورجع إلى العاصمة وسفنه مثقلة بالغنائم فاستقبل كأحسن ما تستقبل به الأم أبناءها البررة.

ولم يعمر خير الدين بعد ذلك طويلاً، ومضى إلى جوار ربه، وكان قد سبقه رفيق جهاده - واليه على الجزائر - محمد حسن باشا سنة ١٥٤٤م. فتم تعيين المجاهد (القائد الحاج بكير) لولاية الجزائر بصورة مؤقتة ريثما يتم تعيين والٍ جديد.

وتوفي (خير الدين) ولم يترك من الولد بعده إلا ابنه حسان وكانت أمه عربية من مدينة الجزائر.

واعترافاً بفضل خير الدين، وتلبية لرغبة الجزائريين أسند السلطان (سليمان القانوني) رتبة (أمير البحر - باي لرباي) إلى ابن خير الدين الوحيد (حسان) الذي ولد بمدينة الجزائر وتربى بين أهلها، وتعلم على أيدي علمائها. وكانت أمه سليمة إحدى بيوتاتها الكبيرة.

وغاب ب وفاة (خير الدين) نجم طالما أضاءت له سماء المسلمين في البر والبحر، وانطوت بغيابه صفحة ناصعة من صفحات الجهاد في سبيل الله لتبدأ صفحة جديدة^(١).

غير أن ما تركه للدنيا يبقى خالداً في الدنيا، وما عمله لآخرته يلقاه خالداً مع الخالدين. وأفضل ما أقامه في الدنيا هو تكوينه للدولة الجزائرية التي أخذت على عاتقها واجب (الجهاد في سبيل الله) ضد كل الحملات الصليبية.

لم تكن حروب (خير الدين) في البر والبحر إلا نوعاً من (حروب الإيمان) التي عرفها العرب المسلمون ونشروها على الدنيا كلها. ولقد أبرزت الملامح العامة لسيرة (خير الدين) وفقاً لما سبق عرضه أن هذا القائد العظيم قد جابه في حياته صعوبات لا نهاية لها، بل إن هذه السيرة لم تكن أكثر من سلسلة من العقبات والصعوبات الآخذ بعضها برقاب بعض والتي لم يكن أقلها مجابهة قوات متفوقة على قوته بما لا يمكن قياسه أو مقارنته في موازين القوى التقليدية، ولم يكن أقلها كذلك فقد الأعداء - إخوته - في الدعم وفي الجهاد في سبيل الله حيث سقط الثلاثة فوق ثرى المغرب العربي الإسلامي.

والأمر مماثل فيما تلقاه (خير الدين) من الغدر على أيدي أعداء الداخل من الخونة والذين خذلوه، غير أن ذلك لم يضعف من تصميمه، أو ينال من عزيمته. ثم جاءت أخطار البحر والجوع والعطش والحرمان كلها لتحتل مكانتها في جملة ما جابهة (خير الدين) من العقبات والصعوبات.

وقد كان من المحال احتمال ذلك كله - أو حتى بعضه لولا (الإيمان المطلق)

(١) خير الدين باربروسا لبسام العسلى ص ١٦٧.

ولولا ما يفرضه هذا الإيمان من فضائل كثيرة: كالوفاء والإخلاص وإنكار الذات والاستعداد الدائم للتضحية والصدق والشجاعة بكل أشكالها.

وكانت حروب (خير الدين) نوعاً من (حروب الإيمان) في البر والبحر، وهو ما أكدته سيرة القائد الخالد، وهو ما تبرزه القصة التالية:

(عندما توفي عروج، وأسندت إلى خير الدين القيادة، استدعى رجاله ليتهيأوا للحرب ضد الإسبان الصليبيين، وبينما هو يعمل من أجل إخراج هذه الفكرة من حيز القول إلى حيز العمل، إذ جاءه رسول من ملك إسبانيا (شارلكان) يأمره بالتخلي عن الجزائر؛ لأنها كانت تحت تصرف الإسبان، ويستطيع الإسبان أن يخرجوها من أيدي العثمانيين، وخير ملك إسبانيا (خير الدين) بين أمرين: أولهما أن يسلمها دون قتال، وثانيهما أن يستعد للقتال. وذكر له بأنه يجب ألا ينسى أن الإسبان لم يخذلوه في معركة، وأنهم قتلوا أخويه الياس وعروج، وإن تمادى فيما هو عليه وركب رأسه فإن عاقبته ستكون كعاقبة أخويه. فأجاب خير الدين: (سترى غداً، وإن غداً ليس ببعيد، إن جنودك ستتطير أشلاؤهم، وإن مراكبك ستغرق، وإن قوادك سيرجعون إليك مكالين بعار الهزيمة).

عند ذلك طاش عقل الملك من هذا الجواب الحاسم، وطار لبه وجهز كل ما عنده من قوة وحضر إلى الجزائر، وخرج له خير الدين ومعه حزم وعزم، وتلا على جميع قواده وجنوده قوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] وتقدم للميدان ومعه رجاله، وقال لهم: (إن المسلمين في المشرق والمغرب يدعون لكم بالتوفيق، لأن انتصاركم انتصار لهم، وإن سحقكم لهؤلاء الجنود الصليبيين سيرفع من شأن المسلمين وشأن الإسلام) فصاحوا كلهم: (الله أكبر) وهاجموا الإسبان فأبادوهم عن آخرهم.

إن هذه الصورة لا تختلف أبداً، لا في شكلها ولا في مضمونها عن صور أولئك القادة المجاهدين في سبيل الله، والذين خرجوا من جزيرتهم فحملوا إلى الدنيا رسالة الإسلام. غير أن الموقف العام لم يكن في عهد (خير الدين) مشابهاً لما

كان عليه أيام الفتح، فقد أخذ الضعف طريقه إلى قلب المسلمين وأنظمتهم، فقد كانوا من قبل تحت قيادة واحدة لا تسمح لأعداء الداخل بالظهور أو بممارسة دورهم في التأثير على التيار العام. في حين أصبح لهؤلاء دورهم في توجيه الأحداث، وكان أخطر ما في الأمر أن هؤلاء كانوا يحتلون مراكز قيادية تسمح لهم بممارسة دور خطير ضد مواطنيهم وإخوانهم في الدين.

والواضح أن قضية (أعداء الداخل) هي من أخطر القضايا التي جابهت المسلمين في عصر التحول من الهجوم الشامل إلى الدفاع الشامل، وهي الظاهرة التي سبق لها أن برزت أيام الحروب الصليبية في المشرق، ثم تكرر حدوثها في الأندلس الإسلامية، وجاءت لتبرز من جديد على مسرح أحداث المغرب العربي - الإسلامي، فكانت في طليعة العقبات التي اصطدم بها (خير الدين) والتي أمكن له معالجتها بحزم أحياناً، وباللين والإغراء في أحيان أخرى، وفقاً لما كان يتطلبه الموقف.

وقد كان القضاء على أعداء الداخل هو المرحلة الأساسية لتحقيق الانتصار الخارجي. ومن هنا أيضاً فقد كان للانتصار الخارجي دوره بإضعاف أعداء الداخل وكشف خياناتهم، الأمر الذي ساعد على تصفيتهم. ولقد بقيت هذه العلاقة الجدلية الثابتة بين القوة الخارجية والقوة الداخلية هي العلاقة الثابتة والمميزة لقوة الأنظمة وقدرتها على البقاء والاستمرار، والأمر صحيح بالنسبة إلى العلاقة الجدلية المضادة، فالتمزق الداخلي وبروز (أعداء الداخل) ما هو إلا دليل في الواقع على مرحلة احتضار الدول وبرهان على قرب انهيارها. ومن هنا أيضاً تظهر أهمية الدور الذي اضطلع به خير الدين في إنقاذ المغرب العربي الإسلامي من المحنة التي كان يجابهها، والتي كان يتعرض لها. فقد أدت الهجمة الصليبية إلى ظهور الطبقة المتسلطة من (أعداء الداخل) ولم يكن هناك من أمل لتحويل التيار إلا بظهور قوة يمكن لها مجابهة القوى الصليبية، الأمر الذي يفسح المجال للقوى المؤمنة الصادقة لممارسة دورها التاريخي والاضطلاع بمسئوليتها القومية والدينية، وكانت الجزائر

بأرضها وبشعبها منبت تلك القوى التى عملت على تحويل تيار الاستسلام إلى تيار المجابهة^(١).

لقد استطاع (خير الدين) مجابهة الهجمة الصليبية فى أشرس مراحلها، مرحلة تصفية الأندلس الإسلامية، واستطاعت (الجزائر المحروسة) مجابهة الهجمة الصليبية وهى فى ذروة قوتها وجبروتها. ونشأت عن هذا التلاحم الصادق بين (تيار الأحداث) و(قصة البطل) ظهور الملحمة الخالدة. ملحمة بناء الجزائر قوة لها وللغرب المسلمين فوق كل أرض العرب المسلمين. غير أنه فى مرحلة التحول الحاسم، كان من المحال إعادة العجلة إلى الوراء، والعودة بالأندلس إسلامية كما كانت أيام الفتح، فقد أظهرت مسيرة الأحداث - عبر سيرة القائد خير الدين - تلك القوى الهائلة التى تكتلت للعمل ضد المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها وعلى كافة الجبهات فى أوربا كما فى إفريقيا الإسلامية، وفى البر كما فى البحر. ومن هنا تظهر أهمية الدور الذى اضطلع به (خير الدين) ومن ورائه (الإمبراطورية العثمانية) فى إيقاف الهجمة الضارية، والتصدي لها، والعمل على إحباطها. ومن هنا أيضاً تظهر كفاءة (خير الدين) السياسية، وتفكيره السليم، عندما ربط جهوده بجهود المسلمين فى الجزائر - وفى المغرب العربى - الإسلامى من جهة مع جهود الإمبراطورية العثمانية من جهة أخرى.

ذلك هو موقع (خير الدين) فى التاريخ، إنه قائد التحول فى مسيرة الصراع من مستوى العمليات المحدود إلى المستوى الشامل. ومن المستوى المحلى إلى المستوى الدولى. ولقد مر هذا التحول بمراحل مختلفة، بداية من ممارسة القرصنة (الحرب الدفاعية المحدودة) إلى مستوى العمليات المحدودة لمصلحة (دولة تونس) ومنها إلى مستوى المغرب العربى - الإسلامى، ومن هذا المستوى إلى مستوى العالم الإسلامى عبر ربط الصراع بالإمبراطورية العثمانية. ولقد مر هذا التطور عبر الإدراك التام لطبيعة المرحلة وطبيعة الصراع الذى كانت تخوضه الأمة العربية الإسلامية خاصة والأمم الإسلامية عامة، وهنا نعود إلى بداية القصة.

(١) خير الدين باربروسا لبسام العسلى ص ١٧٢.

لقد خرج (عروج) إلى البحر غازياً مجاهداً لمقاومة الظلم الذي يتعرض له المسلمون في الأندلس وفي كل مكان من أوروبا، ووقع في قبضة الأسر، وعانى عبودية القيد، فكان لذلك دوره في تحديد هدفه من الصراع (الجهاد في سبيل الله) وانطلق مع إخوته، ومع فئة من المجاهدين، في هذه الحرب غير المتكافئة، ووظف الإخوة (ذوي اللحي الشقراء) انتصاراتهم لمصلحة (سلطان الحفصيين في تونس)^(١).

غير أن هؤلاء كانوا دون مستوى المسؤولية خلال تلك المرحلة التاريخية، وجاءت مسيرة الأحداث والتي دفع (الإخوة ذوو اللحي الشقراء) ومعهم الشعب المجاهد في المغرب العربي الإسلامي ثمنها غالباً من دمائهم وكراماتهم. وتؤكد خير الدين عبر هذه التجارب الذاتية أنه من المحال مجابهة الهجمة الصليبية الشاملة بحروب محدودة ذات هدف محدود، كغنم سفينة أو الدفاع عن مدينة، أو الإغارة على جزيرة. فكان الدفاع الشامل هو الأسلوب الوحيدة لمجابهة الهجوم الصليبي الشامل.

وإذا كان (عروج) وإخوته (أصحاب اللحي الشقراء) قد اشتهروا في أوروبا بأنهم قراصنة، غير أنهم لم يكونوا قراصنة في أساليبهم وأهدافهم. لقد خرجوا للجهاد في سبيل الله، فكانوا زاهدين بما يحوزونه من غنائم، وما أرادوا من الغنائم إلا استنزاف قدرة العدو وزيادة قوة المسلمين، بدلالة تقديم ما كانوا يحصلون عليه إلى (والى تونس) وإلى (بيت مال المسلمين) وإلى صندوق الخزانة في الإمبراطورية العثمانية. وأفاد الجميع من هذه الغنائم ما عدا (الإخوة أصحاب اللحي الشقراء)، غير أن فائدتهم كانت أكبر من كل تقويم عندما أمكن لهم دعم القدرات في الجزائر بعد أن أهدر (ملك تونس) هذا الدعم ووظفه في غير مصلحة الإسلام والمسلمين.

ولم يكن (خير الدين) يبحث عن (مجد شخصي) بدلالة عزوفه عن هذا المجد عندما عرضه عليه (شارلكان) في حين تهاوى (أعداء الداخل) فكان في ذلك

(١) خير الدين باربروسا لبسام العسلى ص ١٧٣.

سقوطهم، وكان فى ذلك المجد الحقيقى والخالد للبطل (خير الدين) الذى ربط جهده وعمله ووجوده بقضية المسلمين. فى حين انتهى أولئك الذين عملوا لدنياهم، وسطروا أبشع صورة (لأعداء الوطن والدين).

ولا يفوتنا ونحن بصدد الحديث عن الحروب البحرية أن ننتقل بالحديث عن فن الحرب وهى أسس فنية يمكننا أن نلمحها فى خطط وحروب خير الدين وهى التى مكنته من تحقيق العديد من الانتصارات بلا شك. لقد كانت تلك الأسس فى الواقع صورة عن أسس (فن الحرب عند العرب المسلمين) بطرائقها التقليدية والثورية:

١- اتخذ قاعدة قوية ومأمونة. بدأت (بحلق الوادى) و (جزيرة جربة) وانتهت بقاعدة الجزائر. وقد كان تكوين القاعدة القوية والمأمونة هو أول عامل من عوامل النجاح.

٢- لقد تنوعت طرق القتال، حيث قاتل أصحاب اللحي الشقراء فى البر وفى البحر، واتخذوا طريقتين: الأولى عرفت بمرحلة الاستنزاف، والثانية مرحلة الهجوم الشامل. وتأتى المرحلة الثانية بعد أن يتم استنزاف العدو من حيث قوته ومؤنه وتمويناته وسفنه الحربية، وقد أجاد هؤلاء الإخوة إجادة رائعة فى تدويخ فريستهم ريثما يتم الانقضاض.

وفى الواقع فقد كان من المحال مجابهة التفوق للقوى الصليبية بغير هذا الأسلوب الذى أكد فاعليته فى حروب الجزائر - الثلاثة وآخرها حملة شارلكان - بقدر ما أكد فاعليته فى الحروب البحرية. حيث كانت تقوم مجموعات خفيفة الحركة، بتوجيه ضربات عنيفة ومباغة ثم الانسحاب قبل أن يستفيق العدو من ذهول الصدمة. وقد أدى تنفيذ هذه العمليات باستمرار إلى استنزاف قدرة العدو المادية والمعنوية قبل مجابهة بهجوم شامل يدمر بقية قدرته على الصمود والمقاومة. ولقد كان من المحال تحقيق النجاح فى مثل هذه العمليات لو لم تتوافر كفاءة قيادية عالية، تتولى إدارة المعركة فى كل مرحلة من مراحلها الصعبة.

وقد توافرت العوامل الثلاثة للنصر: شعب مجاهد فى سبيل الله، وتطبيق رائع للعقيدة الإسلامية، وقيادة على درجة عالية من الكفاءة. بذلك انتصر (شعب الجزائر) وبذلك انتصر (خير الدين) فكتب شعب الجزائر مع خير الدين قصته الرائعة فى الجهاد والمجاهدين.

ولم يكن (خير الدين) قادراً على تحقيق ما يريده لولا ما قام به شعب الجزائر المجاهدة، وما كان شعب الجزائر ليصل إلى هدفه لولا توافر قيادة حازمة مارس (خير الدين) دوره فى تكوينها وصنعها لتصبح على مستوى الأحداث.

لقد مضى خير الدين إلى جوار ربه راضياً مرضياً، وبقي شعب الجزائر يردد على الدهر تلك الأسطورة الخالدة (أسطورة بابا خير الدين) الذى تولى قيادة الجزائر المجاهدة فى أصعب ظروف الجهاد. وضمن لها مصادر القوة الذاتية - قوة الإيمان وقيم الجهاد فى سبيل الله.

ومضى خير الدين إلى جوار ربه راضياً مرضياً، وبقي المسلمون يرددون الأغنية الحلوة، أغنية القوة والكرامة: لقد نصر الله فنصره الله ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] (١).

هـ- الحكم العثماني يصون إسلامية وعروبة الجزائر

لقد مر الحكم العثماني فى الجزائر بأربعة أطوار رئيسة: أولها عهد البايلىربايات ١٥١٩-١٥٨٧م، وثانيها عهد الباشاوات ١٥٨٧-١٦٥٩م، وثالثها عهد الأغاوات ١٦٥٩-١٦٧١م، ورابعها عهد الدايات ١٦٧١-١٨٣٠م. وسوف نفرّد الحديث عن العهد الأول عهد البايلىربايات لتزامنه مع الفترة التاريخية للبحث من ناحية وتجنب الإطالة من ناحية أخرى.

ـ الجزائر فى عهد البايلىربايات ١٥١٩-١٥٨٧م:

غدت مدينة الجزائر وتوابعها منذ أواخر سنة ٩٢٥هـ - ١٥١٩م تابعة للدولة

(١) خير الدين باربروسا لبام العلى ص ١٧٦.

العثمانية مرتبطة بها، دون أن تتجشم هذه الأخيرة عناء غزوها، كما حدث بالنسبة إلى بلاد الشام ومصر، والعراق وغيرها وتونس أيضاً كما سنرى، وغدا خير الدين حاكماً تابعاً للسلطان العثماني، إلا أنه كان في واقع الأمر يتمتع بسلطات واسعة في الجزائر، لا تقل عن سلطات الملوك، وإن لم يكن رسمياً إلا بايلربايا، أو أميراً للأمرأ فيها وهو اللقب الذي حملة هو، وعدد من الحكام الأساسيين الذين خلفوه في حكم الجزائر في الفترة ١٥١٩-١٥٨٧م، التي تعرف بعهد الباييرباي. وقد كان السلطان العثماني يعين هؤلاء لحكمها لفترة غير محدودة بزمان ويختارهم غالباً من أكفاء الرجال الذين خدموا في الجزائر.

وغالباً ما كان بايلربايات الجزائر يرشحون لاستلام البحرية العثمانية، وقيادة الأسطول العثماني أي منصبه قبودان باشا. وقد نجح الباييربايات الذين تداولوا على حكم الجزائر في:

١- التصدي لمزيد من الحملات الإسبانية على مدينة الجزائر، وشرشال ومستغانم وغيرها، وإفشالها، وإلحاق خسائر كبيرة بها، جعلت الإسبان في نهاية الأمر في موقف الدفاع، لا الهجوم. ولا سيما بعد فشل حملتهم على الجزائر في سنة ١٥٤١م التي قادها الإمبراطور شارلكان بنفسه. والقضاء على حملتهم الموجهة ضد مستغانم في سنة ١٥٥٨م بقيادة حاكم وهران الكونت دالكوديت.

٢- النجاح في تحرير العديد من المواقع التي كان يحتلها الإسبان، وفي مقدمتها:

صخرة الجزائر البنون في سنة ١٥٢٩م، وعنابة في سنة ١٥٤٠م، وبجاية في سنة ١٥٥٥م. والإخفاق في تحرير وهران، والمرسى الكبير، لتخليص الإسبان فيها، و وصول المدد إليهم من جهة البحر.

٣- النجاح في توحيد أجزاء كثيرة من البلاد الجزائرية، التي كانت تابعة للمماليك، والإمارات الحفصية والزيانية، وللأمرأ وشيوخ القبائل المنشقين عنهم، وربطها بمدينة الجزائر التي اتخذوها حاضرة للبلاد كلها، بحيث غدت معظم أجزاء الجزائر الحالية من مشمولات حكمهم.

وقد وجدوا في سبيل بسط نفوذهم عليها مقاومة ومعارضة من سلاطين بنى زيان، وبنى أبي حفص، وغيرهم، وكذلك من الإسبان، وأخيراً من الأشراف السعديين حكام المغرب الأقصى، إلا أنهم تمكنوا من التصدي بنجاح للسعديين من الحملات الإسبانية ما تقدم، والحفصية، والزيانية، والسعدية، وغيرها، ومن التغلب على مقاومات الزعامات المحلية.

٤- القضاء نهائياً على نفوذ الزيانيين في تلمسان، وتنس و كل الغرب الجزائري وذلك في سنة ١٥٥١م، وعلى نفوذ الحفصيين في الشرق الجزائري، والمساهمة في القضاء عليه حتى في تونس نهائياً في سنة ١٥٧٤م.

٥- العمل على مد نفوذ الجزائر، والدولة العثمانية إلى المغرب الأقصى، والنجاح في مرتين على الأقل في ضم فاس وممتلكاتها وذلك في سنة ١٥٥٤م ثم في سنة ١٥٧٦م، وتنصيب سلطان موالى لهم فيها وهو أبو حسون الوطاسي في المرة الأولى، وعبد المالك السعدي في المرة الثانية.

٦- النجاح شيئاً فشيئاً في إرساء دعائم الحكم العثماني في الجزائر، والشروع في أحداث تنظيمات إدارية فيها، وتقسيمات إقليمية جديدة بحيث أصبح الغرب الجزائري بابليكية قاعدته الأولى مازونة ثم معسكر ومستغانم قبل أن يستقر المقر في وهران بعد فتحها الأول والثاني في القرن الثاني عشر، وأصبح الشرق الجزائري بابليكية أيضاً قاعدته مدينة قسنطينة. وغدا القطاع الأوسط من البلاد ويتشكل من بابليكية التطرى وقاعدته مدينة المدية في قسمه الجنوبي. ومن دار السلطان في قسمه الشمالي الممتد من دلس شرقاً و تنس غرباً. وهذا القسم كان تابعا مباشرة للإدارة المركزية في مدينة الجزائر. وقد كان على رأس كل بابليكية باي تابع لحاكم الجزائر، الباي لرباي، أو الباشا، أو الآغا، أو الداي، وهي التسميات التي حملها حكام الجزائر خلال مراحل العهد العثماني في الجزائر.

وقد نشأ حكام الجزائر العثمانيون مؤسسات عسكرية، وإدارية ودينية، وعملية

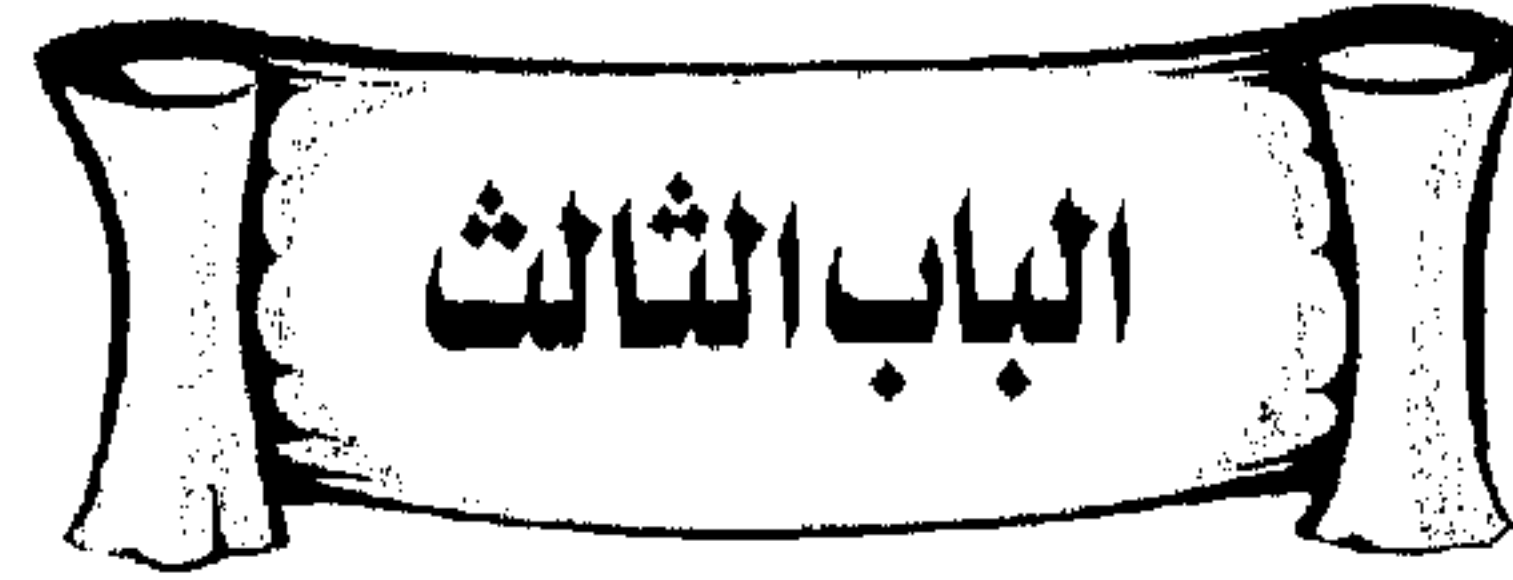
ساعدتهم على التحكم فى زمام الأمور فى الجزائر، وسيأتى الحديث عنها كمؤسسة ديوان الجند وطائفة الرياس والمؤسسة القضائية... إلخ.

٧- نجحوا فى إيجاد سند لهم فى مهمتهم من بين أهالى الجزائر، والمهاجرين الأندلسيين الذين وفدوا على الجزائر بكثرة فى القرن ١٠هـ / ١٦م. وحتى القرن ١١هـ / ١٧م. وكان لحكام الجزائر الفضل الكبير فى إنقاذ عدد كبير منهم من جحيم الاضطهاد الذى كانوا يعانون منه فى الأندلس بعد سقوط غرناطة، وتنكر الحكام الإسبان للعهود التى قطعوها لهم، كما نجحوا فى استمالة كثير من الأعلام إلى صفهم بفتح أبواب العمل أمامهم والارتفاع إلى أعلى المناصب فى الجزائر. وكان لكثير منهم الفضل فى تحقيق النجاحات المذكورة أعلاه، وأولهم حسن أغا خليفة خير الدين على الجزائر الذى كانت له أيدٍ بيضاء فى الدفاع على مدينة الجزائر ضد حملة شارلكان، وفى إعادة نفوذ الجزائر على المناطق المستولى عليها، وتوسعته إلى مناطق جديدة. والعليج على الذى مد نفوذ الجزائر فى عهده إلى تونس، وحسن فنزيانو وغيرهم.

وقد برز الأعلام على الخصوص فى قيادة حملات الغزو البحرى الذى ازدهر منذ القرن ١٠هـ / ١٦م والذى اشتد ظهوراً ولا سيما فى القرن ١٧م مما أرغم الدول العديدة على طلب السلم مع الجزائر، والقبول بدفع إتاوة لها، وفى المساهمة فى الحملات العثمانية والمعارك البحرية للدولة العثمانية كالحملة على مالطة، ومعركة ليبانى وغيرهما.

ويمكن القول على وجه الإجمال أن خير الدين وخلفاءه البايلىربايات قد نجحوا فى إرساء دعائم الحكم الجديد فى الجزائر إلى حد كبير. وما لم يتحقق فى عهد البايلىربايات، أتم تحقيقها خلفاؤهم فى مراحل الحكم العثمانى الأخرى هى عهد الباشاوات ١٥٨٧-١٦٥٩م. وعهد الأغاوات ١٦٥٩-١٦٧١م وعهد الدايات ١٦٧١-١٨٣٠م قبل أن يخفق حسين داي آخر الدايات فى التصدى للحملة.





جهاد العثمانيين البحري في حوض البحر المتوسط [بهدف الإنقاذ واسترداد الأندلس]

أولاً: إعداد البحرية الجزائرية الضاربة في البحر المتوسط.

ثانياً: تنظيمات البحرية العثمانية.

ثالثاً: النشاط الحربي للأسطول العثماني.

رابعاً: نبذة مختصرة عن أمراء البحرية العثمانية.

تمهيد:

كان من آثار التهجير الجماعى للمسلمين من الأندلس ونزوح أعداد كبيرة منهم إلى الشمال الإفريقى أن حدثت العديد من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية فى ولايات الشمال الإفريقى، وكان من بين المسلمين النازحين على هذه المناطق أعداد وفيرة من البحارة، وأصبح من الضرورى أن تبحث عن الوسائل الملائمة لاستقرارها، إلا أن بعض العوامل قد توافرت لتدفع بأعداد من هؤلاء البحارة إلى طريق الجهاد ضد القوى المسيحية فى البحر المتوسط، ويأتى فى مقدمة هذه الأسباب الدافع الدينى بسبب الصراع بين الإسلام والنصرانية وإخراج المسلمين من الأندلس ومتابعة الإسبان والبرتغال للمسلمين فى الشمال الإفريقى^(١).

وقد بدأت حركات الجهاد الإسلامى ضد الإسبان والبرتغاليين غير منتظمة حتى ظهور الأخوان خير الدين وعروج باربروسه، واستطاعا تجميع القوات الإسلامية فى الجزائر وتوجيهها نحو الهدف المشترك لصد أعداء الإسلام عن التوسع فى موانئ ومدن الشمال الإفريقى.

وقد اعتمدت هذه القوى الإسلامية الجديدة فى جهادها أسلوب الكر والفر فى البحر بسبب عدم قدرتها فى الدخول فى حرب نظامية ضد القوى المسيحية التى تألفت من إسبانيا والبرتغال وفرسان القديس يوحنا، وقد حقق هؤلاء المجاهدون نجاحاً أثار قلق القوى المعادية، ثم رأوا بنظرهم الشاقب أن يدخلوا تحت سيادة الدولة العثمانية لتوحيد جهود المسلمين ضد النصارى الحاقدين.

وقد حاول المؤرخون الأوربيون التشكيك فى طبيعة الحركة الجهادية فى البحر المتوسط، ووصفوا دورها بالقرصنة وكذلك شككوا فى أصل أهم قادتها وهما خير الدين وأخوه عروج الأمر الذى يفرض ضرورة إلقاء الضوء على دور الأخوين وأصلهما، وأثر هذه الحركة على الدور الصليبي فى البحر المتوسط فى زمن

(١) الدولة العثمانية د. على الصلابى ص ٢٥٤.

السلطان سليم والسلطان سليمان القانوني، وهذه القضية سوف نوضحها فيما بعد عند الحديث عن القرصنة.

اهتمام العثمانيين بالعمارة الحربية وبناء الأساطيل؛

من المعروف أن الدولة العثمانية نشأت دولة برية في الأناضول. ولما عبرت جيوشها البحر إلى غاليلوى عام ١٣٥٦م تبعتها حركة تهجير واستيطان^(١). فى السهل الساحلى الأوربى المطل على بحر مرمرة حتى رودستو. ومضت الدولة معتمدة على جيوشها فى محاربة الدول الأوربية مثل الصرب التى كانت تعتمد هى الأخرى على قواتها البرية. ولذلك كان فى مقدور الدولة العثمانية أن تقضى على إمبراطورية الصرب دون اللجوء إلى قوات بحرية^(٢).

ونهج العثمانيون نفس النهج عندما فتحوا إقليمى الأفلاق والبغدان وبلاد المجر وغيرها من الدول والكيانات السياسية التى كانت تعتمد على القوات البرية وحدها. أما بلاد اليونان فقد فتحها العثمانيون من الداخل وكانت ذات سواحل قليلة نسبياً، ومن هنا كان العثمانيون يختلفون عن البيزنطيين الذين كان لهم أسطول، إذ كانت ممتلكاتهم تمتد على سواحل بحرية كما كانوا يمتلكون عدداً كبيراً من الجزر. وكان العثمانيون يختلفون أيضاً عن البنادقة والجنويين الذين كانت قواتهم الرئيسية الضاربة تعتمد على السلاح البحرى. وبمضى الوقت شعر العثمانيون بالحاجة الماسة إلى إنشاء أسطول لتأمين فتوحاتهم فى البلقان وللاستيلاء على الجزر المحيطة بهذا الإقليم وفى بحر إيجه والبحر الأيونى، وللقضاء على البقية الباقية من ممتلكات البيزنطيين، ولطرد البنادقة والجنويين من المناطق المتعددة التى كانوا قد تغلغلوا فيها وامتلكوها منذ أن أتاحت لهم الحروب الصليبية عديد الفرص لتنمية تجارتهم.

ومن هنا كانت الدولة العثمانية فى حاجة ضرورية لأسطول قوى يؤمن حدودها ويحمى سواحلها، غير أن نشأة الأسطول العثمانى كانت ترجع أساساً إلى رغبة

(١) انظر ملايسات حركة تهجير واستيطان مسلمى الأناضول، وكانت حركة حكومية وشعبية كمقدمة للتوسع العثمانى الإقليمى فى أوربا.

(٢) المصدر السابق ص ٨٦٦.

الدولة العثمانية في القضاء على أسطول جمهورية البندقية . وإذا رجعنا قليلاً إلى الوراء نجد أن هذه الجمهورية كانت قد استحوذت على أكثر من ربع ممتلكات الدولة البيزنطية في مقابل الخدمات التي أدتها البندقية للحملة الصليبية الرابعة التي غيرت وجهتها من مصر إلى القسطنطينية^(١)، وأطاحت بحكم الدولة البيزنطية التي استقرت مؤقتاً في طرابزون على الساحل الجنوبي للبحر الأسود ومناطق أخرى.

وإذا كانت بعض الجزر والأماكن في شبه جزيرة البلقان كانت لا تزال في أيدي الدولة البيزنطية والدولة اللاتينية التي أسسها صليبيو الحملة الصليبية الرابعة، لم يكن في مقدور هاتين الدولتين المتداعيتين إنشاء وسائل دفاع قوية أمام الهجمات العثمانية، كما لم يكن في إمكان الدولة العثمانية قهرهما دون أن يكون لديها سلاح بحري^(٢).

وفي ذات الوقت كان احتلال الممتلكات البيزنطية واللاتينية أمراً ضرورياً لسلامة الممتلكات العثمانية، ثم كان هناك عامل مهم جداً حمل العثمانيين على إنشاء الأسطول، وتمثل هذا العامل في أن جمهورية البندقية كانت هي الدولة التي تستطيع بقواتها البحرية الضخمة والمنظمة أحسن تنظيم الوقوف أمام العثمانيين، ونجم عن هذا الوضع أن جمهورية البندقية كانت العقبة الرئيسية في تأمين الفتوحات العثمانية على الأرض الأوربية وفي الجزائر القريبة منها، ثم في التوسع في الحوض الشرقي للبحر المتوسط على الأقل في المرحلة الأولى لنشأة الأسطول؛ ولذلك كان إنشاء الأسطول العثماني ضرورة قومية عثمانية للتغلب على أسطول جمهورية البندقية.

والحق أن جمهورية البندقية، وهي قوة غربية وافدة من وسط أوربا، تسلمت إلى عدة مناطق في الحوض الشرقي للبحر المتوسط. وأصبح لها مراكز ومحطات بحرية على سواحل بلاد المورة وبحر الأرخبيل وفي مقدونيا وفي الدردنيل (أبيدوس) وبحر مرمرة (رودستو) وهرقلية. والجزر الأيونية والجزر الواقعة في جنوب

(١) روبرت كلاري: فتح القسطنطينية على يد الصليبيين، ترجمة دكتور حسن حبشي القاهرة، ١٩٦٤ ص ١٠٩ - ١٥٤.

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٨٦٧.

الأناضول وغربه. وكان لها مراكز على ساحل دلماشيا في البحر الأدرياتي وبعض الأقاليم في شبه الجزيرة الإيطالية واستولت على جزيرتي كريت وقبرص. وكانت تريد الاحتفاظ بما استحوذت عليه من قواعد وما بلغت من نفوذ وقوة وهيبة.

وقد أطلق الأستاذ شارل ديل أستاذ التاريخ البيزنطي بجامعة باريس على تلك الممتلكات (إمبراطورية البندقية الاستعمارية)^(١) وكان الاسم الرسمي لها هو (جمهورية القديس مرقس) وهي ذات نظام جمهوري أو ليباركي. وتجاورت كثير من ممتلكات هذه الإمبراطورية مع ممتلكات العثمانيين، كما أصبحت البندقية تتحكم في الطرق البحرية التي تصل بينها وبين القسطنطينية وموانئ الأناضول والشام ومصر. ولهذه الأسباب وغيرها تضاربت مصالح الدولة العثمانية مع مصالح جمهورية البندقية، مما أدى إلى قيام صراع حربي بينهما وكان هذا الصراع يدور فوق الماء ويعتمد على الأساطيل في المقام الأول. ولما كانت جمهورية البندقية أسبق من الدولة العثمانية في الاعتماد على الأساطيل الحربية، بل والأساطيل التجارية التي كانت تتحول عند الحاجة إلى أساطيل حربية، كان على الدولة العثمانية أن تبذل عناية بالغة بإنشاء أساطيل تنافس أساطيل البندقية إن لم تتفوق عليها في صراع زاده عنفاً وتأججاً ما طبع عليه الفريقان المتصارعان من طموح واعتزاز بالنفس وشجاعة فائقة وعزيمة لا تنثنى أمام الأخطار. وكان من عادة البحارة البنادقة أنهم عند التحامهم مع العدو تنطلق حناجرهم بصيحات جماعية مدوية ماركوا! ماركوا! استجلاً لبركات هذا القديس واعتقاداً منهم أن التوسل به يحقق لهم نصراً عزيزاً في المعركة.

ويلاحظ أن جمهورية البندقية أقامت مجدها على التجارة الخارجية، وأثرت منها ثراء عريضاً معتمدة على أسطولها، وكما كانت التجارة الخارجية مصدر قوتها، كانت هي العامل الموجه لحكومة الجمهورية في علاقاتها الدولية، ولذلك

(١) شارل ديل: البندقية جمهورية أرستقراطية، تعريب دكتور أحمد عزت عبد الكريم والأستاذ توفيق إسكندر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٧م، ص ٣٩.

كانت سياستها الخارجية متقلبة بل وخالية من المبادئ. فهي حيناً ترحب بالإسهام في حملة صليبية موجهة ضد العثمانيين إذا رأت أن في هذا الاشتراك ما يكفل لها المحافظة على ممتلكاتها ومصالحها التجارية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، كما حدث حين وضعت أسطولها ومواردها المالية في خدمة حملة نيقوبوليس الصليبية عام ١٣٩٦م ضد السلطان أبي يزيد الأول. وكانت هذه الحملة تجسد أكبر التكتلات الصليبية التي واجهتها الدولة في القرن الرابع عشر من حيث عدد الدول التي اشتركت فيها بالسلاح والعتاد والأموال والقوات البرية والبحرية^(١). وكانت حيناً آخر تهدد العثمانيين بل وتقبل شروطاً مهينة لها إذا لقيت هزيمة من الأسطول العثماني، ورأت أن هذه المهادنة وقبول الشروط المذلة مما يسمح لها باستئناف نشاطها التجاري في أسواق الحوض الشرقي للبحر المتوسط. ومن هنا ولمواجهة ذلك النشاط البحري التجاري والعسكري وصيانة حدود الدول الإسلامية في شمال إفريقيا كان لا بد من إعداد قوى بحرية تواجه قوى الأعداء من جهة وتحافظ على سواحل وجزر المسلمين من أن تقع في أيدي الإسبان أو البرتغال من جهة أخرى، كما سنوضح بعد.



(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٨٦٩.

أولاً: إعداد البحرية الجزائرية

الضاربة في البحر المتوسط

- إعداد المرافق والسواحل الجزائرية للجهاد البحري:

كان وجود الحامية الإسبانية في (جزيرة الصخرة - صخرة الجزائر) أمراً يتناقض مع ما تتطلبه مدينة الجزائر من (الأمن). فقرر (خير الدين) بعد أن تم له تنظيم الأمور العمل على تحريرها. وهكذا أخذت المدفعية الجزائرية بقذف قنابلها الحديدية من مرابضها التي تم تشييدها على مسافة مائتى متر فقط من جدران المعقل الإسباني، وذلك في شهر رمضان ٩٣٦ هـ (٦ أيار - مايو - ١٥٢٩ م). وأمر (خير الدين) بتجهيز كل السفن الحربية وشحنها بالرجال والعتاد، وأذاع في كل مكان أنه سيبحر إلى السواحل الإسبانية من أجل الغزو والجهاد وخرجت السفن فعلاً من وراء صخور الجزائر، وأخذت طريقها نحو الشمال، لكن تلك السفن عادت أدراجها تحت جناح الظلام، واختبأت في مرفأ (نتغوس) المقابل للجزائر على الطرف الآخر من الخليج. وكان معقل الصخرة حصيناً جداً، وقد بذل الإسبانيون جهداً كبيراً لتحسينه وزيادة قوته، وأقاموا فيه مستودعات ضخمة من الأسلحة والأعتدة والمواد التموينية حتى تتمكن حاميته من الدفاع عنه لمدة طويلة.

لم تتمكن الرمايات الأولى من التأثير كثيراً على تحصينات المعقل وأسواره، وفي يوم الخميس ٢٢ أيار (مايو) فتحت بطاريات المدفعية الجزائرية المتمركزة في المدينة نيرانها بكثافة عالية. واستمر القصف طوال يوم الخميس وليلة الجمعة بكاملها حتى الفجر، ثم صمتت المدفعية. وظن أفراد الحامية الإسبانية أن العملية قد انتهت، وأنه باستطاعتهم أخذ قسط من الراحة، وفي تلك الفترة بالذات كان الأسطول الجزائري يخترق الخليج من ناحية (تاما - نتغوس) تتقدمها تلك السفينة الضخمة التي كان خير الدين قد غنمها من البنادقة - دولة البندقية وشحنها بالأسلحة والرجال. وأحاطت السفن بالجزيرة من الشرق والغرب. وعندما تنبه الحرس

والمراقبون في القلعة لحركة القوات الإسلامية، وأطلقوا النفير لاستنفار القوات، كان الوقت متأخراً جداً. إذ ما لبث المجاهدون حتى غادروا سفنهم وقاموا بالإنزال فوق أرض المعقل، وهاجموا الحصن بإغارة مباغتة وتمكنوا من اقتحامه.

دارت بعد ذلك معركة قصيرة وحاسمة، سقط فيها (٦٥) مقاتلاً من الإسبان وأنصارهم وخسرت قوات المسلمين (١١) تركياً و(٣٥) عربياً. وأسر المسلمون من الإسبان (٩٠) جندياً و(٢٥) من النساء والأطفال. وكان قائد معقل الصخرة (مارتينو دي فاركاس) بين الأسرى. وقد حاول التستر على المخبأ الذي أودع فيه مقداراً من المال، فتعرض للتعذيب حتى استخرج الأموال التي بلغت ألفي دوقية (٤٨) ألف دينار جزائري. ثم جعلوه بعد ذلك على بقية الأسرى، الذين كلفوا ببناء منارة مسجد خير الدين، الذي كان قد بدئ ببنائه في العاصمة الجزائر. وقسم (خير الدين) الأسرى إلى قسمين تم تكليف القسم الأول بتدمير التحصينات التي أقامها الإسبان في جزيرة الصخرة (أبنون) فيما تم تكليف القسم الثاني ببناء المسجد ورفع مئذنته.

وما كادت هذه العملية تتم حتى ظهرت في الأفق سفينة إسبانية ضخمة تحمل على ظهرها قوة تتكون من سبعمائة محارب علاوة على الأسلحة والإمدادات المختلفة. وكانت أبراج الحراسة الجزائرية تتابع - بالمنظير المقربة - تحرك هذه السفينة وهي تقترب من معقل الصخرة. ولم يلبث سفن المجاهدين أن انقضت عليها وأسرتها، واقتادتها إلى ميناء الجزائر^(١).

وقرر (خير الدين) تحصين الجزائر، فأمر جماعة الأسرى بنقل الصخور والحجارة التي تراكت من أنقاض معقل الصخرة، وذلك لوصل البر بجزيرة أصطفلة تحت إشراف معلمى البناء الجزائريين. كما أرسل السفن إلى الجهة المقابلة نحو الخليج عند مرفأ (تامانتغوس) فجاءته بصخور رومانية قديمة لإكمال العمل. وبذلك أمكن بناء الجسر العريض الذي لا يزال يحمل حتى اليوم اسم (جسر خير

(١) خير الدين باربروسا المرجع السابق ص ١١٩.

الدين) والذي وصل بين الجزر العشرين بعضها ببعض ببناء دائري متين ليست فيه إلا فتحة واحدة. وهكذا تم إنشاء مرسى مدينة الجزائر العتيق (الذي يعرف اليوم باسم الجفنة) والذي أصبح مقراً للأسطول الجزائري يحميه من العواصف التي تحملها رياح الغرب.

وما إن حقق خير الدين انتصاره العظيم بتحرير جزيرة (أبنيون) حتى أعلن: (أن من كان يؤمن بالله ورسوله، ويريد الجنة في الدار الآخرة، فعليه أن ينضم إلى جيشه بكل سرعة، وذلك لمهاجمة وهران والمرسى الكبير). وانصرف الأسطول الإسلامي أثناء ذلك للجهاد في البحر، وكان الأسطول الجزائري يشمل (١٥) سفينة من نوع (القالير) وألقى الرعب والهلع في قلوب سكان السواحل الإسبانية، إذ أمعن فيهم حرباً وتدميراً إلى درجة أن السكان تركوا قراهم وهجروها والتجأوا إلى داخل البلاد. ومقابل ذلك كانت بقايا المسلمين الأندلسيين تشعر بالبهجة لهذه الانتصارات التي بعثت الأمل في نفوسهم، وعوضت عليهم بعض ما يلقونه من قهر واضطهاد^(١).

وتلقى قائد الأسطول الإسباني في سنة (١٥٣٠م) أمراً إمبراطورياً بأن يتقدم لمهاجمة الأسطول الإسلامي وتدميره. فاستعد الأميرال (أفريدركو بور - توندو) للحملة الصليبية الجديدة. وانطلق بقوة (١٢) سفينة حربية ضخمة لمطاردة أسطول (خير الدين) إلى أن وجده بين جزيرتين من جزر الباليار. وظن الأميرال الإسباني أن الموقف لمصلحته، فهاجم الأسطول الجزائري بقوة وعنف، وقذفه بنيران مدافعه. غير أن الأسطول الإسلامي تلقى الصدمة بثبات، ووجه (خير الدين) على الفور هجوماً مضاداً ركزه على سفينة القيادة الإسبانية. وقاد (خير الدين) سفينته بنفسه، وانطلق بها كالسهم حتى وقف بمحاذاة الهدف، وقفز المجاهدون على ظهر السفينة الضخمة وسيوفهم تلتمع في أيديهم. ودارت معركة عنيفة قتل خلالها قائد الأسطول الإسباني وقسم كبير من أفراد سفينته، ووجه (خير الدين) هذه السفينة نحو بقية سفن الأسطول الإسباني، واستمرت الهجمات السريعة، فتم أسر بعض

(١) المرجع السابق ص ١٢١.

السفن الإسبانية وحرقت بعضها الآخر وإغراق عدد منها. وانتهت معركة اليوم بتدمير الأسطول الإسباني تدميرًا كاملاً بحيث لم تنج منه إلا سفينة واحدة استطاعت الفرار لإعلام قيادتها عن المجزرة الرهيبة التي قضت على الأسطول، وانسحب الأسطول الجزائري بعد أن ضم إليه الغنائم والأسلاب التي كسبها من المعركة.

أثارت معركة جزر الباليñar مناخًا من الفرع الذي تجاوز حدود إسبانيا. فبادر (شارلكان) إلى معالجة الموقف بحزم. وعمل على إعادة تنظيم أسطوله وأسند قيادته إلى ضابط مغامر كان قد اكتسب شهرة واسعة في قيادته للأساطيل البحرية وممارسة أعمال القرصنة. وكان هذا الضابط هو (الأميرال أندريا دوريا) الذي كان يعتبر باستمرار أن (خير الدين هو عدوه اللدود).

انصرف (أندريا دوريا) إلى مدينة جنوة من أجل تنظيم أسطوله، وأمضى سنة (١٥٣٠) في الاستعداد لحملته الضخمة القادمة. ثم غادر المرسى الإيطالي الكبير في تموز (يوليو) سنة (١٥٣١) على رأس أسطول يضم عشرين سفينة تحمل ألفًا وخمسمائة من المقاتلين الأشداء، وسار بهم نحو الساحل الجزائري وقد حدد هدفه بتدمير الأسطول الإسلامي كمرحلة أولى، ثم الانطلاق من مركز بجاية في الشرق ومركز وهران والمرسى الكبير في المغرب لخلق الدولة الجزائرية، ووضع المغرب العربي الإسلامي بكامله تحت الحكم الكاثوليكي - الإسباني^(١).

كان (خير الدين) يتابع جهود عدوه (أندريا دوريا) باستمرار، وعندما علم باقتراب ركوبه البحر جمع أسطوله الذي كان يضم أربعين سفينة، وحشد قواته، واستنفر الحاميات، وأخذ في الاستعداد للمعركة. غير أنه كان يجهل محور تحرك الأسطول المسيحي بقدر جهله لما كان يعتزم خصمه تنفيذه. ولم يبق أمامه إلا الانتظار ريثما يحدد المكان الذي يختاره عدوه مسرحًا لعملياته.

حدد (أندريا دوريا) مدينة شرشال هدفًا مباشرًا لهجومه، وكان يعرف أن حامية

(١) خير الدين باربروسا المرجع السابق ص ١٢٢.

هذه المدينة مكونة من أبنائها مع عدد محدود من الأتراك العثمانيين . وكانت هذه الحامية ضعيفة بالمقارنة مع قوة أسطوله حتى لو انضم لدعمها المجاهدين من القرى والمراكز المجاورة، وإنها والحالة هذه لا تستطيع الصمود لفترة طويلة للدفاع عن قلعتها، وبذلك يصبح (خير الدين) عاجزاً عن مهاجمته أو إخراجه من هذه القاعدة.

وكانت مدينة شرشال يومئذٍ مركزاً من أكبر مراكز الدولة الجزائرية الحديثة، وقد عرف (عروج) أهمية موقعها الممتاز فعمل على تحصينها، وشيد فيها قلعة قوية، وأقيم فيها مصنع لتأمين متطلبات الجيش الإسلامي وإمداده بالأعتاد والمواد التموينية، كما أقيم فيها مصنع الأخشاب يعتمد على غابات (الونشريس) والغابات الكثيفة التي كانت قريبة منها. وكانت شرشال بحكم موقعها الطبيعي - وهي لا تبعد عن مدينة الجزائر الواقعة إلى شرقها إلا بمسافة ١٢٠ كيلو متراً، ووهران الواقعة إلى غربها تشكل تهديداً مباشراً للجزائر إذا ما أمكن للأسطول الإسباني احتلالها تمهيداً لعملياته التالية^(١).

واستيقظت الحامية الإسلامية المدافعة عن (شرشال) فإذا بالأسطول الإسباني يتقدم من الأفق ويقترب بسرعة نحو مدينتهم، فاجتمع القادة على عجل، وتقرر إخلاء البلدة من سكانها على الفور، وحشد كل القوى في القلعة للدفاع عنها، واستنزاف قدرة العدو لأطول مدة ممكنة ريثما يصل الدعم من الجزائر ومن داخل البلاد.

أنزل (أندريا دوريا) قواته على أرض شرشال بدون مقاومة تذكر، وتركزت الحامية الإسلامية ومن معها من المجاهدين في معقل القصبية، وأخذوا في متابعة تحركات العدو بيقظة وحذر.

وبادر الإسبان بالبحث عمن بشرشال من أسرى النصارى وكانوا نحواً من ثمانمائة، فوجدوا مخابئهم وأخرجوهم، وضموهم إلى الجيش، وعمل هؤلاء

(١) خير الدين باربروسا المرجع السابق ص ١٢٣.

الأسرى كإدلاء نظر لمعرفتهم بديار كبار القوم وبالأماكن التي تضم مخابئ الأموال ونفائس الذخائر، وانتشر الجيش الإسباني وراء الأسرى، وتحول إلى عصابات للنهب والسلب. وأخذت زمرة منه في التوغل إلى داخل الديار حتى وصل بعضهم إلى الحدائق والمزارع المحيطة بالبلدة. وأيقنت القيادة الإسلامية ساعتئذ أنه بات بالإمكان الانتصار على هذه الفرق الممزقة بعزل بعضها عن بعض وتدمير كل قوة منها على حدة. ففتحوا أبواب القلعة، واندفعوا وهم يرددون صيحة حرب المسلمين: (الله أكبر) وأحاطوا بالعدو من كل جانب، وحالوا بين تجمع هذه الفرق والتقاء بعضها مع بعض، كما حالوا بينها وبين البحر، في حين كانت مدفعية القلعة تقذف قطع الأسطول الإسباني بيرانها وقذائفها. فاختل نظام العدو، وسادت الفوضى والاضطرابات في صفوفه، فيما كانت نيران الجزائريين وسيوفهم تدمر قوة الغزاة بحيث لم تغرب شمس ذلك اليوم حتى انتشرت فوق أرض شرشال جثث ألف وأربعمائة من الإسبانين بالإضافة إلى ستمائة أسير وقعوا في قبضة المجاهدين ولم يتمكن من الوصول إلى السفن أكثر من ثلاثمائة رجل من بقايا القوة الإسبانية ومن الأسرى الذين تمكنوا من النجاة.

ووقف (أندريا دوريا) مذهولاً أمام قوة هذه الصدمة، وتلكاً في الرحيل عن شرشال وهو لا يدرى إلى أين يتجه ولا ماذا يعمل. وعندها وصله إنذار باقتراب أسطول الجزائر مسرعاً تحت قيادة (خير الدين) وعرف (دوريا) أنه لا قبل له بمنازلة خصمه في مثل هذه الظروف فقرر مغادرة أرض المعركة بسرعة لحماية ما بقي لديه من القوة، وعندما وصل خير الدين إلى شرشال وعرف نتيجة المعركة، انطلق بأسطوله لمطاردة خصمه، الذي كان أسرع منه في التحرك فلم يتمكن من اللحاق به. غير أن هذه المطاردة لم تكن محرومة من الثمار؛ إذ عثر خير الدين على سفينتين إسبانيتين كانتا محمليتين بالأعتدة والمواد التموينية، فاستولى عليهما واقتادهما.

ترددت أصداء هذا الانتصار بقوة وانعكست على مختلف دوائر الصراع بأشكال مختلفة. فقد أصبح الشعب في الجزائر أكثر ثقة بقدراته وإمكاناته، وباتت الجماهير

الخاضعة لحكم (بنى زيان) فى تلمسان تنتظر لحظة تحررها للانضمام إلى مسيرة المجاهدين فى سبيل الله .

وأصبحت الإمبراطورية العثمانية أكثر استعداداً لدعم (خير الدين) من أجل طرد أعداء الدين من المغرب العربى الإسلامى .

وأصبحت المملكة الإسبانية وإمبراطورها شارلكان أكثر تصميمًا على تجهيز حملة قوية يتم بواسطتها التعويض عن الهزائم السابقة . والتي نالت من هيبة الإمبراطورية التى فرضت ذاتها على زعامة الغرب لقيادة الحرب ضد المسلمين .

ونتج عن ذلك تعرض المسلمين فى الأندلس لمزيد من القهر والاضطهاد بعد أن تجمعوا فوق بقعة محدودة ما بين ساحل البحر وجبال البشرات . فارتفعت أصوات الاستغاثة التى لم يعد باستطاعة خير الدين تجاهلها أو التكرار لها ، لا سيما وأنه تولى مهمة إنقاذ المسلمين فى الأندلس ومساعدتهم يوم لم يكن يمتلك إلا إمكانات محدودة ، فكيف به وهو يمتلك اليوم إمكانات أرهبت أكبر دولة أوربية^(١) .

وهكذا مضى (خير الدين) ومعه (٣٦) سفينة حتى بلغ السواحل الإسبانية التى التجأ إليها المسلمون ، ولم يجرؤ الأسطول الإشباني التعرض لأسطول (خير الدين) فأخذ هذا على سفنه أكبر عدد من الراغبين فى الحفاظ على دينهم وكرامتهم . وكان يترك أكبر عدد من بحارته الجزائريين فوق الأرض الأندلسية حتى يحمل مقابلهم عدداً من النازحين . حتى إذا ما أوصلهم إلى الجزائر ، عاد إلى إسبانيا ليأتى بغيرهم ، وكرر غدوه ورواحه بين الساحلين سبع مرات متوالية ، حتى تمكن من إنقاذ سبعين ألفاً من رجال الأندلس ونسائهم وأطفالهم ، واشتد بهؤلاء ساعد المسلمين الذين نزلوا بمدينة الجزائر وسهل متيجة (متوجة) وعمرؤا مدناً مثل البليدة ودلس وأدخلوا إلى البلاد بقايا حضارتهم العريقة وصناعاتهم وفنونهم وخبراتهم المختلفة .

عمل (خير الدين) بعد ذلك على تطوير صراعه ، فاتخذ جزائر (هيار) الأندلسية

(١) خير الدين باربروسا ص ١٢٦ .

قاعدة لعملياته في غرب المتوسط والمحيط الأطلسي، حيث كانت السفن الإسبانية والبرتغالية تحمل وهي عائدة من أمريكا الجنوبية، ذهب الهنود الحمر وثرواتهم. فركز خير الدين وقادته جهودهم لحرمان إسبانيا من هذه الثروة ووضعها في خدمة المسلمين ليتقووا بها على أعدائهم.

وجمع (خير الدين) حنوله نخبة من الرجال جعلهم هيئة قيادته ومنهم ابنه (حسن خير الدين) و(طورغود ريس) و(صالح ريس - موحد الأرض الجزائرية فيما بعد) و(سنان منقذ تونس فيما بعد أيضاً) و(محمد حسن أغا) الذي جعله نائباً عنه أثناء غيابه عن الجزائر.

واشتدت الحرب الصليبية ضراوة بين الدولة العثمانية وأوروبا التي تتزعمها الإمبراطورية الإسبانية. وتبع ذلك تصعيد في الصراع البحري الذي تولى قيادته (أندريا دوريا)، ورد السلطان سليمان على ذلك بتعيين (خير الدين) أميراً عاماً على البحر (قبودان باشا) مع بقاءه على رأس دولة الجزائر.



ثانياً: تنظيمات البحرية العثمانية ومصطلحات الأسطول العثماني

كانت غاليبولى إلى عام ١٥١٦م مقر قيادة الأسطول، فكان قبودان باشى يحكم صنجدقية غاليبولى ولذلك أطلق عليه أيضاً بكربكى غاليبولى. وألحقت الدولة بهذه الصنجدقية كلاً من قضاء جالاطة وإزميد فى نيقوميديا فى الأناضول، لأن الغالبية العظمى من سكان جالاطة - وهى إحدى ضواحي إستانبول - من أهل جنوة. وقد أسهموا بجنودهم وخبرائهم البحرية والملاحية فى تطوير الأسطول العثماني ودعمه بعد أن فتح السلطان محمد أبو الفتوح القسطنطينية.

أما إزميد فكانت تعد من المصادر الرئيسية لتزويد ترسانة البحرية بالأخشاب اللازمة لبناء الأسطول، ولما نقلت قواعد الأسطول إلى إستانبول على عهد سليم الأول ألحقت بسلطة القبودان باشى جميع السواحل تقريباً لشبه جزيرة البلقان والجزر القريبة منها ومناطق ساحلية أخرى فى حوض البحر المتوسط، وتكونت من هذه المناطق والجزر (إيالت بحر سفيد) وترجمتها الحرفية ولاية بحر إيجه، ولكنها كانت تشمل أقاليم ساحلية فى حوض البحر المتوسط بعامة.

وقد قسمت هذه الأيالة إلى صناجق يحكم كل منها (ريا بكلى) أى بك البحر وقد شمل سلطانه أربعة عشر صنجدقاً. ومما يذكر أن بعض الثغور فى ولايات الدولة كانت تتبع مباشرة القبودان باشى، وعلى سبيل المثال كانت الإسكندرية خارجة عن سلطة الباشا العثماني فى القاهرة، وكانت تتبع القبودان باشى مباشرة. وظل هذا الثغر على هذا الوضع الإدارى حتى تم جلاء الحملة البريطانية عن مصر عام ١٨٠٧م فى مستهل حكم محمد على؛ ولذلك يقرر أحد المؤرخين أن محمد على كان هو المستفيد الوحيد من هذه الحملة بعد أن أخفقت فى تحقيق الأغراض التى توختها بريطانيا منها، ونجح محمد على فى حمل الباب العالى على الموافقة على إلغاء تبعية هذا الثغر لقبودان باشا، وجعل الإسكندرية

تابعة لحكومة القاهرة. وكان حكام كل من رشيد ودمياط والسويس يطلق عليهم قبودان. وقد عادت هذه الثغور الثلاثة إلى الحكومة الأم: حكومة القاهرة^(١).

وكان أول ضابط يشغل منصب قبودان باشى هو (بلطه أوغلى سليمان) وقد عينه السلطان محمد أبو الفتوح فى هذا المنصب تقديراً لجهوده فى أثناء حصار القسطنطينية عام ١٤٥٣م. وأصدر السلطان سليمان المشرع فرمانه بترقية خير الدين باربروس إلى منصب قائد عام للأسطول العثمانى مكافأة له على خدماته الحربية للإسلام فى الجزائر وتونس. وسنرجئ الكلام عن هذه الشخصية لحين تعرضنا لهذين الإقليمين الإسلاميين العربيين، وحسبنا أن نذكر هنا أنه منذ تعيينه فى منصب قبودان باشى رفعت هذه الوظيفة إلى مرتبة وزير هنا، وأنه منذ شاغلها ثلاثة أطواخ ورتبة الباشوية وأصبح يطلق عليه قبودان باشا، وكانت له أسبقية على جميع الوزراء الآخرين، وكان ترتيبه يأتى مباشرة بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام، وعين عضواً فى الديوان الهمايونى (الإمبراطورى). ومنذ تعيين خير الدين باربروس فى الديوان أصبحت التقاليد المرعية أن شاغل هذا المنصب يكون عضواً فيه بحكم منصبه وكان يحضر جلساته كلما كان موجوداً فى العاصمة.

وحدات الأسطول،

كانت سفن الأسطول تتكون فى القرن السادس عشر - شأن كل الأساطيل المقاتلة فى البحر المتوسط وقتذاك - من السفن المزودة بأشرعة قليلة ومجاديف، ويطلق عليها فى اللغة التركية جكديرى، أو جكديرية، وكانت الأشرعة تستخدم حين لا يكون العدو على مرمى البصر. أما المجاديف فلا تستخدم إلا فى وقت الاشتباك فى المعركة. ويجلس المجدفون فى أماكن معدة لهذا الغرض، ويوجهون السفينة إلى الالتحام بسفن العدو ومهاجمتها طبقاً لأوامر قائد السفينة، وكانت مرتبة السفينة تتحدد بعدد الأماكن المخصصة للمجدفين فيها. ولذلك كان عدد الملاحين فيها قليلاً فى حين كان عدد المجدفين والمقاتلين كبيراً. وعلى سبيل المثال

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٨٧٢.

كان طاقم السفينة المقاتلة من النوع المتوسط ذات المجاديف، ويطلق عليها في اللغة التركية (قادرغة)، على النحو التالي:

مجدفون	١٩٦	مقاتلون	(رجال مسلحون)	١٠٠
بحارة	٣٠	ضباط	٣	

أما السفينة المقاتلة من النوع الكبير الحجم ذات المجاديف، ويطلق عليها في اللغة التركية (مأثونة)، فكان عدد العاملين عليها كالاتي:

مجدفون	٣٥٧	مقاتلون	١٧٥	
بحارة	٥٥	ضباط	٦	

أما سفينة القيادة وتسمى (باشترده) القبطان وهي مأخوذة من كلمة إيطالية فكان طاقمها موزعاً وفق النظام التالي:

مجدفون	٤٩٧	مقاتلون	٢٥٠	
بحارة	٧٦	ضباط	٨٠	

وكان من الرجال المسلحين في السفن ذات المجاديف على اختلاف أحجامها: الطويجية أى الذين يطلقون قذائف مدافعهم على سفن الأعداء، ومنهم من كانوا مزودين بالسيوف الباترة لاستخدامها إذا اقتضى الأمر ونجحوا في التسلل إلى سفن الأعداء واشتبكوا في معارك على ظهورها. أما البحارة فكانوا على الرغم من قلة عددهم النسبي ذوى اختصاصات متباينة كان منهم من يسهر على صيانة أسلحة السفينة ويطلق على الواحدة منهم آلججر، ومنهم من يعمل فى تسيير السفينة، ويطلق عليه الدومنجى، ومنهم غلمان السفينة، ويسمون يلكنجى، ومنهم النجارون والمقلفون.

وكان القائمون بهذه الاعمال رجالاً تخصصوا فى الشؤون البحرية أو درجوا على ركوب البحار فى المقام الأول وعلى شئون القتال، ويطلق عليهم فى اللغة التركية (لوند) ومعناها بحارة مقاتلون متمرسون، وهى مأخوذة من مصطلح

إيطالي^(١)، ولكن أعفى اللوند من أعمال التجديف والقتال في سفن الأسطول منذ القرن السادس عشر؛ إذ كان عملهم شاقاً وخطيراً وكانوا يقبلون القيام به على مضض، وخشى القبودان باشا أن تؤثر حالتهم النفسية على كفايتهم العالية، فعهد بهذه العمليات إلى رجال يمكن إجبارهم عليها، وكان هؤلاء الرجال من أسرى الحرب البالغين والذين كانوا يصبحون عبيداً بمجرد وقوعهم في الأسر، ومن المجرمين العتاة الذين صدرت عليهم أحكام بالعمل كعبيد في السفن ذات المجاديف عقوبة لهم.

وقد أدخلت تطويرات مهمة في نوعية سفن الأسطول العثماني، إذ أقبلت في منتصف القرن السابع عشر على بناء سفن شراعية كبرى مزودة بمدافع كان يتراوح عددها بين أربعين وخمسين مدفعاً في كل سفينة. وكان هذا التطوير قد سبقها إليه الدول الأوربية الكبرى التي تبحر سفنها في المحيطين الأطلنطي والهندي بعد أن اتضح لهذه الدول أنه لا قيمة للسفن ذات المجاديف في المعارك الحربية، ورأت الدولة العثمانية ألا تظل متخلفة في هذا الميدان. وكانت قد مرت بتجربة مريرة في حملتها على جزيرة كريت التي أرادت انتزاعها من جمهورية البندقية لأسباب سياسية وعسكرية ودينية وعائلية. وخاضت صراعاً دامياً استطال أمده خمسة وعشرين عاماً (١٦٤٤-١٦٦٩م) وتعرضت الدولة لهزائم كثيرة اعتبرت إحداها - وقد حدثت عام ١٦٥٦م - أنها لا تقل كثيراً من حيث نتائجها السيئة عن معركة ليانت.

وكان القبودان باشا المسئول هو كنعان باشا، والواقع أن الدولة العثمانية في حملة كريت واجهت تفوقاً بحرياً من جمهورية البندقية التي كانت أسبق منها في تطوير نوعية سفن أسطولها وخاضت المعركة وهي تملك مجموعة قوية من السفن الشراعية الكبرى بالإضافة إلى السفن ذات المجاديف، وكانت وحدات الأسطول العثماني مقصورة على السلاح التقليدي وهو السفن ذات المجاديف، ويفضل السلاح المطور استطاعت جمهورية البندقية في بداية الحرب فرض الحصار على الدردنيل وقطع الطريق بين القوات العثمانية في كريت والاتصال المباشر بحراً

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٨٧٥.

بإستانبول^(١). وإزاء تدهور الموقف الحربى ركزت الدولة العثمانية، والحرب مشتعل أوارها، جهودها على بناء سفن شراعية كبرى مزودة بالمدافع، واستمر هذا التركيز حتى المراحل الأخيرة من الحرب. وكان من نتائج هذا التطوير أن خفت وطأة حصار البندقية للدردنيل وتوجت الحملة بانتزاع جزيرة كريت من جمهورية البندقية وتوقيع اتفاقية التسليم فى اليوم السابع والعشرين من شهر سبتمبر - أيلول - عام ١٦٦٩م، وقعها أحمد كوبريللى باشا الصدر الأعظم والقائد فرانسيسكو مورو سيني قائد قوات جمهورية البندقية.

وكان من بين السفن الشراعية الكبرى التى قامت ببنائها الدولة العثمانية ثلاث سفن رئيسية عرفت باسم سفن القيادة (صنجاك كميليرى) وهى من حيث الأهمية قبودانة، باطرونة، وريالة، وهذه الأسماء الثلاثة مشتقة من كلمات إيطالية، وكان قادة هذه السفن الثلاث يحملون البكوية، فكان يقال بك قبودانة، وبك باطرونة، وبك ريالة.

وعلى عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧٣٠م) بنت الدولة عدداً من السفن الشراعية الكبرى من ذوات الأسطح الثلاثة وعدداً من السفن الصغيرة السريعة والخفيفة. وجرت عادة العثمانيين على إطلاق أسماء من نسج الخيال على السفن الحربية مثل (تحفة الملوك) و(فاتح بحرى) أى فاتح البحر، و(بريدى ظافر) أى بريد الظفر. وقد استخدمت السفن الشراعية الكبرى فى غارات حربية على سواحل إسبانيا وفى الهجوم على مالطة. ويعلق أحد المؤرخين الإنجليز على تعزيز الأسطول العثمانى فى ذلك الوقت بأنه كان بعثاً لذكريات مجد قديم.

وكان من المعتاد أن ترجع السفن الكبيرة المخصصة للخدمة فى البحر المتوسط إلى قواعدها فى الخريف قبيل اليوم من هذه القواعد إلا فى أواخر أكتوبر - تشرين أول - كل عام، وألا تخرج من هذه القواعد إلا فى أواخر الربيع فى اليوم الثالث والعشرين من شهر أبريل - نيسان - إذ يخرج الأسطول فى رحلات تفتيشية.

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٨٧٦.

فكان هذان التاريخان - عند العثمانيين - يشيران إلى الوقت الذي يفصل بين الصيف والشتاء. وقبل حلول اليوم الثالث والعشرين من شهر أبريل - نيسان - كان قسودان باشا يرسل سنوياً إلى النيابات الثلاث في شمالي إفريقيا، وهي طرابلس وتونس والجزائر، عدداً من ضباط الأسطول يجمعون المتطوعين للخدمة في الأسطول، ويعطون أجر ستة أشهر مقدماً لتدبير معيشة عائلاتهم. وكان يطلق على هؤلاء المتطوعين (بايراق عسكرى) أى قوة البيارق، وقد عرفوا بهذا الاسم لأن كل ضابط يختص بجمع هؤلاء المتطوعين إنما كان يجمعهم تحت لواء - بيرق - ينم عن وظيفته^(١). أما السفن الحربية المخصصة للخدمة في البحر الأسود فلم تكن تخضع لهذا التنظيم الزمنى، وبالتالي لم تكن تتمتع بفترة استرخاء عسكرى خشية أن تتعرض لهجوم غادر من الأسطول الروسى. أما أسطول البحر الأحمر فكان يخضع فى تحركاته ونشاطه لمقتضيات الظروف.

مصطلحات الأسطول العثمانى؛

وجدير بالذكر أن أسماء أنواع السفن فى الأسطول العثمانى ووظائفه وألقاب شاغلها مأخوذة من مصطلحات إيطالية^(٢) تقابلها فى المعنى لعدة أسباب منها: تغلغل بحارة البندقية وجنوة فى الشرق، وكان رجال الأسطول العثمانى فى نشأته قد تتلمذوا على أيدي هؤلاء البنادقة والجنويين. وقد تعمق هذا التأثير الإيطالى نتيجة سياسة السلطان محمد الفاتح، وكان الإمبراطور ميخائيل السابع باليولوج أراد أن يكافئ أعضاء جالية جنوة فى القسطنطينية على مساعدتهم له فى العودة إلى العرش سنة ١٢٦١م، وإعادة قيام حكم يونانى فى القسطنطينية فسمح لهم بأن يحكموا ضاحية جالاطة من ضواحي العاصمة بمثابة مستعمرة ذات استقلال ذاتى. ولما فتح السلطان محمد أبو الفتوح القسطنطينية وأطلق عليها إستانبول عهد إليهم بمساعدته على تدعيم الأسطول العثمانى؛ لأن العثمانيين كانوا حديثى عهد بصناعة بناء السفن وعلوم الملاحة البحرية فى أعالي البحار، ولأن أهل جنوة كانوا بحارة

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٨٧٧.

(٢) المرجع السابق

ممتازين . هذه الكثرة الملحوظة في المصطلحات الإيطالية التي أدخلها العثمانيون على أسطولهم، والتي مرت بنا أمثلة كثيرة عليها، جعلت أحد كبار المؤرخين الإنجليز المتخصصين في تاريخ الدولة العثمانية ونظمها يذهب رأياً إلى أنه كان من المتوقع أن يأخذ الأسطول العثماني، حين خرج إلى حيز الوجود، طابعاً تركياً (عثمانياً) بوجه خاص أو طابعاً إسلامياً على الأقل، ولكن لم يحدث شيء من هذا فعلى العكس كان صورة طبق الأصل من أساطيل إيطاليا^(١).

ثم أكد في موطن تال من كتابة هذا الرأي بصورة أخرى ولسبب آخر فقال: (وطبقاً لجميع الآراء، تظهر على الأقل حقيقة واحدة واضحة، هي أن كل من كان يسميهم الأوروبيون المعاصرون (أتراكاً) بمعنى المسلمين الذين يتكلمون اللغة التركية، لم يتألقوا كبجارة. وإن الأسطول كان يعتمد بشكل مثير في جانبه الخاص بركوب البحر - تمييزاً له عن مظهره الحربي على اليونانيين من أهل جزر وسواحل بحر إيجه وعلى المسلمين الذين يتكلمون العربية من سكان نيابات شمالي إفريقية. ومن هذا الحكم تظهر الحقيقة البارزة وهي أن الأسطول العثماني لم يكن نتاجاً عثمانياً أصيلاً (إذا أجزى استخدام هذا التعبير). وهذا الرأي قابل للمناقشة، لأن العبرة ليست في المظهر وإنما في المخبر. فالأسطول العثماني حمل راية الجهاد البحري الديني الإسلامي ضد تكتلات بحرية صليبية أوربية عاتية سواء في حوض البحر المتوسط أو البحر الأسود أو المحيط الهندي أو منطقة الخليج العربي، ودافع عن الإسلام وأمن الحدود الجنوبية والشرقية للولايات العربية في آسيا من الغزو الصليبي البرتغالي بوجه خاص. وقد اعترف كبار المؤرخين الأوروبيين بأن المعارك التي خاضها الأسطول العثماني كانت معارك صليبية. وطبقاً لرأي مؤرخ إنجليزي عاش في عصر سابق لعصر جب وبوون، كان الأتراك العثمانيون يناظرون اليونانيين تفوقاً في الملاحة البحرية علماً وفناً وممارسة^(٢).

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٨٧٨.

(٢) المصدر السابق ص ٨٧٩.

ولا يقدح في قيمة السلاح البحري العثماني أن الدولة اعتمدت أول الأمر على عدد من المهندسين والعمال المدربين الإيطاليين في بناء وحدات الأسطول، أو أن دور بناء السفن كانت تضم عمالا يونانيين وإيطاليين، ومن المعروف أن خدمتهم في دور الصناعات البحرية لم تكن تتسم بطابع الاستمرار، فهي تتأثر بأحكام الحاجة ومقتضيات الظروف، ولكن الحقيقة التي لا مرء فيها أن الأسطول العثماني قد ضم أخلاطاً من الأتراك العثمانيين والعرب من سكان شمالي إفريقية ومن العناصر البلقانية التي اعتنقت الإسلام وتدريبوا جميعاً في ظل الأسطول العثماني. وإلى جانب هؤلاء وأولئك كان الأسطول ينتظم عدداً من البحارة اليونانيين المسيحيين وعدداً أقل من بحارة شبة الجزيرة الإيطالية اجتذبتهم المغنم الوفيرة التي كانوا يظفرون بها في خدمة الأسطول العثماني، فجاءوا زرافات زرافات إلى قاعدة الأسطول في إستانبول ينشدون العمل.

لقد كان يعوز الأسطول العثماني العمود الفقري الذي مكن للأساطيل الأوربية المعادية له وأمدّها بقوة فائقة، ونعني به القوة البحرية التجارية القوية. ولكن كان مما عوض هذا الضعف الإمكانيات المادية للعثمانيين. كانوا يحصلون على الأخشاب بكميات وفيرة من بعض جهات الأناضول وبخاصة من الغابات القائمة على سواحل البحر الأسود، وكانت مناجم ولايتي الأفلاق والبغدان - رمانيا حالياً - تقدم المعادن الضرورية لصناعة الملاحة والأسلحة وكانت أشرعة السفن تستورد من فرنسا.

ثم كانت السرعة والمرونة اللتان كانت عمليات بناء السفن تتم بهما ومع ذلك؛ فإن الدولة كانت تعتمد بصورة أو بأخرى على السفن العثمانية التجارية التي كانت تتردد على الموانئ العثمانية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، إذ كان القبودان باشا يلجأ إلى إجراء استثنائي لسد النقص في عدد بحارة الأسطول الحربي. فكان يتفق مع قباطنة إعفاهم من دفع الرسوم الجمركية على البضائع التي تحملها سفنهم في أوقات السلم، وبهذا الإجراء استطاع قبودان باشا أن يحصل على خدمات ما يزيد على ألفي بحار مدرب يعملون في خدمة الأسطول في وقت الحرب.

وبقى هذا الإجراء الاستثنائي معمولاً به حتى عهد السلطان محمود الأول (١٧٣٠ - ١٧٥٤م) فقد اعترض كمر كأمينى - مدير الجمارك - على الإعفاء الجمركى لشحنات السفن التجارية، وأصر على أن يؤدى أصحاب البضائع الرسوم الجمركية المقررة عليها - وكان يهدف من هذا الاعتراض إلى استنباط موارد مالية لخزانة الحكومة واستطاع أن يحقق هدفه. وأصبح لزماً على قبودان باشا أن يعتمد اعتماداً كلياً على السفن الحربية دون سواها مما جعل الأسطول العثمانى يواجه موقفاً صعباً إبان الحرب التى اشتعلت عام ١٧٣٦م بين الدولة العثمانية والروسية؛ إذ استطاعت الأخيرة أن تحتل ميناء آزوف وغيره من الثغور البحرية فى البحر الأسود، وأن تتقدم فى نهر الدانوب وتحتل ولاية البلقان وتدخل مدينة ياسى عاصمتها واضطرت الدولة إلى تخصيص جزء لا يستهان به من الأسطول العثمانى للعمل فى البحر الأسود لمواجهة احتمالات خطر التقدم الروسى فى هذا البحر، وإلى إبقاء عدد من السفن الصغيرة فى نهر الدانوب للدفاع عن ولايتى الأفلاق والبلقان^(١).

الإخوة باربروسا وزملائهم مجاهدون وليسوا قراصنة بحار:

أُطلق على قراصنة شمال إفريقيا، اسم «القراصنة البربريين». وكانوا ينطلقون فى أعمالهم من موانئ تونس وطرابلس الغرب، والجزائر وبعض مرفئ المغرب، وذلك منذ بداية الحروب الصليبية وحتى القرن التاسع عشر. وقد اشتهر منهم «خير الدين باربروسا» الذى أصبح حاكماً لشمال إفريقيا من قبل الدولة العثمانية وقائداً لأسطولها البحرى فى عدة معارك ضد الأساطيل الأوربية فى البحر المتوسط، وانتصر فى عدة معارك بحرية أهمها معركة بريفيزا (Preveza)، وفى عام ١٥٣٨م عينه السلطان العثمانى «سليمان القانونى» أميراً للبحر (Fleet Admiral)، حيث تمت السيطرة على البحر المتوسط من قبل العثمانيين حتى معركة «ليانتو» عام ١٥٧١م، وهنا يجب التمييز ما بين القراصنة الذين يقومون بأعمالهم العدائية تجاه السفن الأخرى لمصلحتهم الخاصة، وبين «القراصنة المفوضين» (Privateer)، الذين يقومون بأعمال القرصنة للسطو، أو الاستيلاء على السفن العدو بتفويض

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٨٨١.

من إحدى الدول، التي تكون بحالة عداء مع دولة أخرى، وهذا التقليد كان متبعاً خلال القرون الوسطى وحتى القرن العشرين، من قبل الدول الأوربية وغيرها، أى أن العمل يصبح مسئولية الدولة المفوضة التي تتحمل تبعات عملها، وهذا ما حدث عندما شنت الولايات المتحدة الأمريكية أول حرب لها في البحر المتوسط ضد القراصنة البربر في تونس والجزائر والمغرب ما بين ١٨٠١ و ١٨١٦م، وعاملت القراصنة كأسرى حرب نظراً إلى ارتباطهم بدول ترعاهم وتوجههم في أعمالهم.

اجتذب هذا الصراع الصليبي عدداً كبيراً من البحارة المسلمين من أقاليم شمالي إفريقيا. وكانوا قد نشأوا في مطلع حياتهم في خدمة الأسطول العثماني، ثم كونوا سفناً كانت بمثابة أساطيل صغيرة تعمل لحسابهم في عمليات النقل البحري، وتجاهد في ذات الوقت ضد البرتغاليين والإسبانيين، وأطلق عليها (مراكب الجهاد) وكان من قادة هؤلاء المجاهدين المغامرين: عروج، وأخوه خير الدين باربروس، وحسن باشا، وصالح ريس، ودراجوت باشا، وغيرهم، ويصر المؤرخون والباحثون الأوربيون إصراراً شديداً على أن الفضل في نجاح هؤلاء الرؤساء البحريين المسلمين؛ إنما يرجع إلى أصولهم المسيحية المغاربة بأنهم أجناب عن الدولة، وأنهم قوم بلا قلوب، ومجردون من المبادئ الخلقية، وأن هدفهم الأسمى هو خوض المعارك جرياً وراء مغانم يظفرون بها، وأوغل هؤلاء المؤرخون في التهكم عليهم والسخرية بهم ليوضحوا -في زعمهم- وضاعة أصلهم، فقالوا عن بياله باشا: إنه ابن إسكافي، وقالوا عن العليج علي: إن والده كان صائد سمك. وهكذا لم يغادروا صغيرة ولا كبيرة تسيء إلى قادة الأسطول العثمانيين المسلمين إلا أحصوها.

مع أن هؤلاء القادة كانوا مثلاً أعلى في الفدائية والبطولة في المعارك التي خاضوها ضد تكتلات صليبية دولية، كما كانوا على جانب كبير من التقوى؛ فقد حرصوا على إنشاء مساجد في إستانبول وأفردوا فيها أماكن لتكون مثوى لهم بعد وفاتهم.

وقد خلص رأى أولئك المؤرخين إلى إطلاق صفة (القراصنة) على قادة الأسطول العثماني، وكانوا يحرصون على ذكر اسم كل قائد مقروناً بهاتين الصفتين وبهذين الترتيبين: قرصان، وأمير بحر تركي، وهذا الرأى وما سبقه من تبريرات يعد نوعاً من التحامل على الدولة العثمانية لا يقدر في قدرها ولا في كفاية هؤلاء القادة المسلمين. فالدولة هي التي تعهدتهم بالتدريب في حياة البحر، وأن يخوضوا بنجاح، دفاعاً عن دينهم، صراعاً صليبيّاً ضارياً ضد دولتين بحريتين هما البرتغال وإسبانيا، كانتا تتمتعان في ذلك الوقت بمصادر مالية وحرية رهبة، وأسهمت كلتاهما بأكبر نصيب في حركة الكشف الجغرافية فيما وراء البحار سواء في الأمريكيتين أو في إفريقية وآسيا بعد الوصول بحرّاً إلى الهند، وبعد عبور المحيط الأطلنطي، فالوصف العلمى الذى يلحق بهؤلاء القادة ورجالهم هو أنهم مجاهدون إسلاميون بحريون خاضوا صراعاً صليبيّاً ضد البرتغاليين والإسبانيين الذين أرادوا الاستيلاء على بلادهم، وتحويل سكانها إلى المسيحية وطمس عروبتهم.

أما وصفهم قرصنة فهو قول يجانب الحق ويجافى الواقع، وكان مبعثه شعور الأوربيين بالقت والضعف بسبب ما أنزله المجاهدون من خسائر بالأوربيين ويفرسان القديس يوحنا. ومن المؤسف حقاً أن نفرّاً من المؤرخين والباحثين العرب قد سايروا مسaire عمياء المؤرخين الأوربيين في هذا الرأى الخاطئ، وقد سبق أن تعرضنا لموقف أولئك العرب من هذه التسمية الخاطئة والظلمة معاً^(١).

برز من بين صفوف المجاهدين في شمالي إفريقية بابا عروج، وكان ذا شخصية قوية ودراية واسعة بأساليب مهاجمة الإسبانيين، وذاع اسمه في كل مكان على أثر انتصاراته عليهم، طلب إليه رجال القبائل في الجزائر أن يساعدهم على استرداد ميناء بجاية من الإسبانيين، وكانت بجاية تعتبر أكبر ميناء في المنطقة الشرقية من المغرب المتوسط - الجزائر - في ذلك الوقت. وحقق بابا عروج الآمال المعقودة عليه، فكانت بجاية أول ميناء استطاع المسلمون تحريره من حكم الإسبانيين، ونقل

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٩٠٦.

قاعدة عملياته من جزيرة جربة إلى ميناء جيجل في شرقي الجزائر، ثم طلب مواطنو بلدة الجزائر إلى عروج مساعدتهم على الصمود في وجه الإسبانيين؛ الذين كانوا قد أقاموا قلعة منيعة تسمى بينون على الجزائر المواجهة للساحل والبلدة، ويلاحظ أن بينون مصطلح يطلق على الجزر الساحلية والريوس الداخلية في البحر.

واعتاد الإسبان أن يقيموا عليها قلاعاً حصينة كي تهدد سكان الساحل وتمنع في ذات الوقت وصول سفن المسلمين إليهم، فسار بابا عروج بطريق البر على رأس ثمانمائة جندي نظامي وخمسة آلاف متطوع جزائري في الوقت الذي أرسل فيه سفناً محملة بالمجاهدين ومسلحة بالمدفعية لتهديد حصن بينو ونجح في صد هجوم إسباني عن هذه البلدة عام ١٥١٦، وتمكن من إقامة حكمه على السواحل المواجهة للجزيرة الخاضعة للإسبانين، وساعده هذا النجاح على أن يؤسس، بصفته قائد تحرير، حكومة عسكرية تحت قيادته انضم إليها عدد كبير من القبائل وسكان المدن، واستولى على أقاليم المغرب الأوسط الواحد بعد الآخر^(١).

وعهد بابا عروج إلى أخيه خير الدين بإدارة كل شرقي البلاد واتخذ دلس مقراً لإقامته وعاصمة للشرق^(٢)، وكان لنجاح بابا عروج أصداء واسعة في تلمسان عاصمة بني زيان في غربي الجزائر، إذ ظهر فيها اتجاه نحو توحيد الجهود مع هذه السلطة البحرية المجاهدة، وخاصة أن بني زيان هادنوا الإسبانين الذين كانوا يحتلون في ذلك الوقت وهران والمرسى الكبير.

وتخرج موقف المسلمين حين استنجد آخر حكام بني زيان بالإسبانين الذين رحبوا بهذا التقارب، وكانوا يخشون هجوم بابا عروج على وهران فأرسلت إسبانيا حملة قوية بلغت خمسة عشر ألف مقاتل تمكنت من التوغل في أرض الجزائر، وحصار مدينة تلمسان ووقع بابا عروج في أيديهم أسيراً وقتلوه عام ١٥١٨، وكان يبلغ من العمر وقتذاك أربعة وأربعين عاماً. ومما يذكر أنه كانت له لحية حمراء

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٩٠٦.

(٢) دكتور عبد الرحمن التميمي، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة ١٥١٩.

فأطلق عليه عروج باربروس، أى صاحب اللحية الحمراء، وقد لحق هذا اللقب بعد وفاته باسم أخيه خير الدين الذى كان يسمى خزر ريس وفاقت شهرته به شهرة عروج بهذا اللقب الذى أصبح لصيقاً بخير الدين. ويهمنا أن نذكر أن عروج كان قد نجح فى ضم معظم صفوف الشعب الجزائرى، وقرب بينه وبين سائر مسلمى شمالى إفريقيا فى كفاحهم ضد العدو المشترك وخلفه أخوه خير الدين باربروس فى قيادة عمليات الجهاد فى بلاد المغرب الكبير.

كان موقف خير الدين حرجاً بعد مقتل أخيه، وقد أدرك فى الحال ضعف موقفه السياسى ومركزه الحربى. فقد كان يحيط به الأعداء، وهم بقية بنى زيان فى تلمسان وأنصارهم، وبنو حفص، والإسبانيون. وكانوا جميعاً يتربصون به الدوائر ويعملون على الإطاحة به، ولم يكن يتمتع أول الأمر بشعبية واسعة عريضة كشعبية أخيه، ولم تكن له صداقات برؤساء القبائل، فضلاً عن أنه كان يواجه نقصاً فى السلاح والعتاد، فكل هذه العوامل جعلت خير الدين يستنجد بالدولة العثمانية، وكانت قد نجحت فى إنزال ضربة أليمة بالدولة الصفوية فى فارس (١٥١٤م)، ونجحت فى ضم بر الشام (١٥١٦م) ومصر والحجاز والمناطق الساحلية فى اليمن إليها (١٥١٧م).



ثالثاً: النشاط الحربي للأسطول العثماني

كانت بدايات النشاط للأسطول العثماني في عهد السلطان مراد الأول ١٣٨٨م إذ ساهم مساهمة كبيرة في التوسع الإقليمي في البلقان، وقد اهتم هذا السلطان بالأسطول اعتناء كبيراً فأقام داراً للصناعات البحرية وأنشأ سكناً عسكرية للبحارة، وقد انتهج السلطان أبو يزيد الأول ١٣٨٨ - ١٤٠٣م واهتم بتقوية الأسطول، ولكن قد واجه هذا الأسطول خسارة وهزيمة الأمير في معركة أنقره بقيادة تيمورلنك عام ١٤٠٢م.

ولما تولى الحكم السلطان محمد أبو الفتوح بدأ الأسطول يخطو خطوة مهمة وأصبح يمثل بداية مرحلة جديدة إذ ساهم في فتح القسطنطينية والذي بلغ عدد سفنه أربعمئة وعشرين سفينة بين كبيرة ومتوسطة وصغيرة^(١).

واستطاع السلطان محمد أبو الفتوح أن يستولى على عدد من الموانئ المهمة في بلاد المورة، كما كان للحرب التي اندلعت بين السلطان محمد أبي الفتوح وجمهورية البندقية أشد عنفاً من تلك الحروب التي خاضها ضد جمهورية جنوة، إذ استمرت حرب البندقية زهاء سبعة عشر عاماً (١٤٦٣ - ١٤٧٩م).

وامتد نشاط الأسطول العثماني حتى سيطر على الحوض الشرقي للبحر المتوسط واتخذ الصراع بين ذلك الأسطول والأساطيل الأوربية شكل الصراع الصليبي وانتصر انتصاراً عظيماً سيطر من خلاله على بلاد الأرخبيل وبخاصة جزيرة «نجرين».

كما حقق الأسطول العثماني نجاحات عظيمة في الجبهة الأوربية حيث اجتاح ساحل دالمشيا واستولى على الموانئ المطلة عليه ومراكز أخرى تابعة للبندقية^(٢).

(١) د/ عبد العزيز الشناوي. الدولة العثمانية. مرجع سابق ج ٢ ص ٨٨٢ وما بعدها.

(٢) للمزيد انظر المرجع السابق ج ٢ ص ٨٨١ وما بعدها.

أ- الأسطول على عهد السلطان سليمان المشرع:

ظفر الأسطول بعناية كبرى منذ عام (١٥٢٠ - ١٥٦٦م) وذلك إبان عهد السلطان سليمان المشرع، حيث قام بأعمال عظيمة أدت إلى رفع شأن الأسطول العثماني ورهبة الأساطيل الأخرى للقوى البحرية العثمانية ومن تلك الأعمال:

- أنشأ قواعد بحرية في جزر بحر الأرخبيل وفي أفلونا على ساحل ألبانيا وفي غيرها.

- كما أنشأ السلطان قاعدة بحرية وترسانة في ميناء السويس يركز إليها أسطول البحر الأحمر والبحار الشرقية^(١) حيث أعطى للأسطول حرية مباشرة الملاحة في البحر الأحمر والهيمنة عليه.

- انتزاع جزيرة رودس من فرسان القديس يوحنا في أواخر عام ١٥٢٢م.

- كانت تقدر قوة الأسطول العثماني المهاجم غالباً من ثلاثمائة سفينة بين سفن حربية وسفن نقل الجنود، وبدأت بنقل طلائع الحملة وكان عدد أفراد هذه الطلائع عشرة آلاف بقيادة السلطان.

- تمت السيطرة التامة للأسطول العثماني على الحوض الشرقي للبحر المتوسط، بالإضافة إلى سواحل الأناضول والبلقان والشام ومصر.

- وقد استطاع الأسطول بفضل استيلائه على جزيرة رودس تطهير بحر إيجه من الجزر والمحطات البحرية التي كان يتخذها البنادقة وغيرهم جيوباً عسكرية لهم، وقد يتبادر إلى الذهن أنه من الضروري أن نتحدث عن نشاط ذلك الأسطول في بحر إيجه حيث تمكن من أن يتصدى لأساطيل الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وقد استولى الأسطول العثماني على أفلونا وهو ميناء يقع على البحر الأيوني، ومن هذا الميناء اتجه الأسطول إلى جزيرة كورفو وفرض عليها حصاراً، وتصدى للعثمانيين الأسطول الإسباني بقيادة أندريه دوريا أحد

(١) انظر الدكتور عبد العزيز محمد الشناوي: المراحل الأولى للوجود البرتغالي.

مشاهير القادة البحريين الإسبانيين، وانتصر على الأسطول العثماني في المراحل الأولى، ولكن سرعان ما تفوق عليه خير الدين باربروس باشا وحول الهزيمة إلى نصر، ثم اضطر إلى رفع الحصار عن كورفو وعوض هذا الانسحاب بفتح جزر إيجه بما تضمه من جزر الدوديكانيز، ولما رأى حاكم جزيرة ناكسوس وهي كبرى جزر الأرخبيل اليوناني ما حل بسائر الجزر سارع إلى إعلان خضوعه للسلطان العثماني، وعقد معاهدة تعهد فيها بدفع جزية كبيرة تقدرها المراجع بخمسة آلاف دوكة في السنة، وأن يخضع حاكم تلك الجزيرة إلى سلطان العثمانيين ويكون من زمرة أتباعهم^(١).

نشاط الأسطول على سواحل دلماشيا في البحر الأدرياتي سنة ١٥٣٨م:

وعلى الرغم من عقد هدنة نيس في اليوم الثامن عشر من شهر يونيو - حزيران عام ١٥٣٨م بين الإمبراطور شارل الخامس وفرانسوا الأول ملك فرنسا (عن هدنة نيس انظر دكتور عبد العزيز الشناوي: أوروبا في مطلع الطبعة الأولى ص ٢٦٢، ٢٦٣) وفيها تقرر وقف العمليات الحربية بينهما لمدة عشر سنوات، أثبتت الأحداث أن هذه الهدنة لم تكن إلا قصاصة ورق لا قيمة لها، فقد استمرت الحرب مستعرة أوراها بين العاهلين في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وتدعم مركز الإمبراطور بانضمام جمهورية البندقية والبابا بول الثالث وفرديناند ملك النمسا إليه. وظهر التحالف الفرنسي العثماني قوياً في هذا الوقت العصيب، فواصل خير الدين باربروس باشا - قبودان باشا - عملياته الحربية ومضى يستكمل الاستيلاء على بقية جزر بحر الأرخبيل، ثم قام بهجوم على جزيرة كريت وتصدى له أندريه دوريا القائد البحري الإسباني، ولكن كان النصر حليف خير الدين باربروس الذي أشعل النيران في مدينتين بقذائف مدفعية الأسطول، كما أحرق عدداً كبيراً من القرى الساحلية في الجزيرة.

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٨٨٩.

سيطرة القوى البحرية العثمانية على الحوض الغربى للبحر المتوسط:

عرفنا سابقاً نشاط الأسطول العثماني فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط وفى بحر إيجه والبحر الأدرياتي ولكن القادة العثمانيين رأوا أن يخوضوا الصراع البحرى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط، ولم تكن تلك الانتقالية من الحوض الشرقى إلى الحوض الغربى نقلة اعتباطية ولكنها جاءت استجابة لإستراتيجية حربية جديدة وهى أن تكون قريبة من سواحل الشمال الإفريقى وسواحل الأندلس حتى تتمكن من مد يد العون للمستغيثين بالعثمانيين من هجمة الإسبان والبرتغال والحمالات الصليبية المتتابعة، وقد ساهمت عدة عوامل فى تلك النقلة المهمة للأسطول العثماني منها:

١- اشتداد الصراع الدينى بين الإسلام والمسيحية فى منطقة شمالي إفريقيا، وهو الصراع الذى وصل إلى حد الاشتباك المسلح بين البرتغال وإسبانيا من ناحية، والقوى الإسلامية فى شمالي إفريقيا من ناحية أخرى، وقد أضفى عليه البرتغاليون والإسبانيون الطابع الصليبي العنيف مما دعا القوى الإسلامية إلى الاستنجد بالدولة العثمانية بصفتها أكبر دولة إسلامية.

٢- سياسة التوسع الإقليمى البحرى التى انتهجتها الدولة العثمانية باستيلائها تباعاً على ممتلكات جمهورية البندقية.

٣- التحالف بين الدولة العثمانية وفرنسا ضد عدوهم المشترك شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة.

وكان امتداد نشاط الأسطول العثماني إلى الحوض الغربى للبحر المتوسط بمثابة فتح جبهة حربية ثانية ضد الإمبراطور شارل الخامس وسياسة عليا للدولة على عهد السلطان سليمان استهدفت منها مزيداً من التعاون بين الدولة العثمانية وفرنسا، إذ أصبح الاتصال العسكرى والتعاون الحربى بين الدولتين بفضل الأسطول العثماني، مباشراً وأكثر سهولة وأشد فاعلية^(١)، فإن الحروب البرية التى خاضتها الدولة ضد

(١) الدولة العثمانية. مرجع سابق ج ٢ ص ٨٩٢.

المجر وضد النمسا لم تتح الفرصة أمام فرنسا لتنسيق التعاون المنشود. أما وقد فتحت الدولة العثمانية جبهة حربية في هذا الحوض الغربي الذي تطل فرنسا على سواحله الشمالية فقد أصبح في مقدور الدولتين تنسيق وتعزيز التعاون الحربي بينهما واستطاع الأسطول العثماني أن يتغلغل في أنحاء الحوض الغربي وأن يتخذ من الموانئ الفرنسية قواعد له يحتمى بها، وأن يقوم بمهاجمة ممتلكات الإمبراطور شارل الخامس، في إيطاليا وإسبانيا، كي يخفف الضغط على القوات الفرنسية في حربها ضد هذا الإمبراطور، ولم تكن الانتصارات التي حققها الأسطول العثماني تقل من حيث أهميتها عن الانتصارات التي سجلتها الجيوش العثمانية على أرض القارة الأوروبية في بلغراد وفي موهاكز، بل كانت انتصارات الأسطول العثماني أبقى أثراً من فتوحات المجر والنمسا، لأنه نجم عن انتصاراته في الحوض الغربي للبحر المتوسط إنقاذ شمالي إفريقيا من الغزو الصليبي الأوربي ودخول ثلاثة أقاليم إسلامية عربية تحت السيادة العثمانية وتراوحت فترة هذه السيادة بين قرنين وثلاثة قرون.

وقد تم تعاون كبير بين الأسطولين العثماني والفرنسي على ثغر نيس حيث أبحر خير الدين باربروس من إستانبول عام ١٥٤٣م على رأس قوة بحرية إلى جنوب فرنسا ليخلص ميناء نيس من قوات شارل الخامس، ثم مضى الأسطول العثماني في الهيمنة على المنطقة الواقعة في منتصف حوض البحر المتوسط وتم التعاون بين الأسطولين الفرنسي والعثماني في الاستيلاء على ثغر نيس وإعادته إلى فرنسا.

وقد ظفر الأسطول العثماني باتخاذ قاعدة له في ميناء طولولون الفرنسي في حوض البحر المتوسط، إذ تحولت تلك القاعدة إلى قاعدة حربية إسلامية عثمانية في جنوب أوروبا بموافقة السلطات الفرنسية، وبالتعاون المشترك بين الأسطولين تم مهاجمة الأهداف العسكرية الإسبانية.

وقد اشتد غضب الأوربيين وبلغ سخطهم أقصاه على الملك فرانسوا الأول الذي تحالف مع أكبر دولة إسلامية، وأطلق عليه الأوربيون الاتحاد المدنس بين فرنسا والهلال^(١).

(١) المرجع السابق ٨٩٤.

وتوالى انتصارات الأسطول العثماني في عهد السلطان سليمان المشرع وأحرز انتصارات بحرية متعاقبة، إذ احتل ميناء بنذرت عام ١٥٥٦م ودمر ميورقة وأحرق سورنتو بالقرب من نابولي. ولعل من الأفضل أن نعطي مثالا عملياً لإحدى انتصارات الأسطول العثماني على قوى الصليبيين مجتمعة وهي معركة برفيزا وسميت بذلك نسبة إلى ميناء جنوبي جزيرة كوفو بقيادة خير الدين باربروس.

معركة برفيزا في منتصف البحر المتوسط ٩٤٤هـ - ١٥٣٧م

الخلفية التاريخية:

شهد الحوض الغربي للبحر المتوسط إبان النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى - كما قلنا - صراعاً محتدماً بين القوى البحرية الإسلامية ممثلة في الأسطول التركى، وبين القوى البحرية الإسبانية، وإن كان ذلك الصراع قد بدأ بصورة غير مباشرة حيث اعتمد كل منهما على إثارة بعض الطوائف الموالية من أبناء المغرب الإسلامى، إلا أن الصراع تطور بعد ذلك واحتدم لعدة أسباب منها:

١ - بناء البحرية الإسلامية العثمانية: عندما ارتقى السلطان «سليم الأول» عرش الدولة العثمانية، رأى أن أول عمل ينبغى أن يقوم به لتوطيد أركان الدولة الإسلامية هو بناء قوة بحرية قادرة على انتزاع سيادة البحر المتوسط من الدول الأوروبية. فقد قال لأحد معاونيه في هذا الصدد: «طالما بقيت أساطيل جنوة والبندقية وورودس ونابولى وصقلية فى مياه البحر المتوسط بدون رادع، فإنى لن أستطيع أن أحكم فى أوربا أو فى آسيا ما دام البحر حزاماً يربط كلاً منهما بالآخر، كما سأظل سجيناً فى إمبراطورية تقتصر مهمتى فيها على حراسة ما بها من طرق وبوابات عالمية^(١)».

وبالفعل بذل سليم الأول قصارى جهده إلى أن اكتمل بناء أسطول له الحربى والذى ازداد اكتمالا وقوة ضاربه فى عهد السلاطين من بعده وقد انطلق ذلك الأسطول يجوب البحر المتوسط من مشرقه إلى مغربه، ثم بدأ ينافس الأسطول

(١) محمد عبد المنعم السيد، أحمد الحنة - الغزو العثمانى لمصر مؤسسة شباب الجامعة ص ٢٣٧.

الإسباني في مشاريعه البحرية ويقف له بالمرصاد وقد غصن الجزء الغربي من البحر المتوسط بعد ذلك بأساطيل هاتين الدولتين إلى أن وضعت معركة «برفيزا» حداً مؤقتاً لهذا الصراع.

٢- غروب شمس الأندلس وضعف البحرية المغربية: وقد عاصر بناء البحرية العثمانية في المشرق الإسلامي تدهور خطير للبحرية الإسلامية في غرب البحر المتوسط حيث غربت شمس الأندلس بسقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين في أيدي الإسبان، وانطوت بسقوطها آخر صفحة في تاريخ الدولة الإسلامية وأسطولها الذي ساد البحر قروناً، فانفرد البحر المتوسط أمام البحرية الإسبانية تعيثُ فساداً وغطرسة في سواحل المغرب العربي في محاولات جادة لفرض سلطانها على مسلمي المغرب إما بالوعيد أو بحماية عروش بعض ملوكه.

وفي غمرة هذه الأحداث المؤلمة ظهرت حركة عامة بين رجالات البحر المغاربة تستهدف العمل على حماية موانئهم وسواحلهم من غارات الإسبان وتأمين وصول إخوانهم المسلمين المهاجرين من الأندلس بعد تنصيرها إلى المغرب ومصر وبعض البلدان الإسلامية، كما أجمعوا على الانتقام من هؤلاء الإسبان الذين اضطهدوا المسلمين وأكروههم على التنصر.

٣- غارات المجاهدين انتقاماً للأندلس الشهيد في ذلك الحين، إذ غادرها آلاف المسلمين المجاهدين الذين ألفوا العيش في وطنهم المسلوب وعبروا البحر إلى شواطئ المغرب، واستقر بهم الحال في بعض القواعد الساحلية بالمغرب الإسلامي مثل وهران والجزائر وبجاية، وقد وهب الكثيرون منهم حياتهم للجهاد في سبيل الله والانتقام من أولئك الذين استأصلوا شأفة أمتهم وانتهكوا حرمة دينهم.

٤- أعمال القرصنة البحرية في الشواطئ المغربية: فقد كان البحر المتوسط منذ أقدم العصور مسرحاً خصباً للمغامرات البحرية وأعمال القرصنة الفردية بجانب نشاط الأساطيل الرسمية للدول، وقد ساعدت الحروب الصليبية في مشرق العالم الإسلامي ومغربه على تنشيط أعمال القرصنة وانتشارها في البحر المتوسط حيث

اندفع القراصنة من نصارى اليونان وأهل سردينية وجنوة ومالطة ومن انضم إليهم من المغامرين يجمعون الثروات الباهظة التي يحصلون عليها من مداهمتهم للأساطيل التجارية في عرض البحار، والاتجار في الرقيق والسلع الممنوعة وافتداء الأسرى.

لقد اتخذ هؤلاء المغامرون البحريون من الشواطئ البحرية أوكاراً صالحة في عملياتهم البحرية لما تتميز به طبيعة تلك البلاد من وعورة أرضها، ووفرة ثغورها ومراسيها، وكثرة خلجانها، ومما أذكى نشاط هؤلاء المغامرين في هذه المنطقة على وجه الخصوص ما وصلت إليه أحوال المغرب الإسلامى من تدهور وانحلال عقب سقوط غرناطة، حيث اضطربت العلاقات البحرية والتجارية المنظمة بين دول المغرب والدول النصرانية.

وبعد أن فرغ السلطان سليم الأول من بناء البحرية التركية زاد نشاط المغامرين من المسلمين في هذه البقعة متخذين من سقوط غرناطة واضطهاد الإسبان للمسلمين سبباً مشروعاً للجهاد فى سبيل الله والانتقام لما نزل بمسلمى الأندلس من ضروب العسف والإرهاق^(١).

أهم قادة المعركة

أ- القادة المسلمون:

ومن أهم أمراء البحر الذين ساهموا فى تلك المعركة الأخوان الشهيران أروج «عروج» وأخوه خضر الذى اشتهر «بخير الدين» والمعروف عند الأوربيين بـ «باربروسا» أى صاحب اللحية الحمراء، وكان خير الدين متبهاً يتابع جهود عدوه أندريا دوريا وعندما علم باقتراب ركوبه البحر جمع أسطوله الذى يضم أربعين سفينة، وحشد قواته واستنفر الحاميات وأخذ فى الاستعداد للمعركة. وكان هذان الأخوان من أهم قواد المعركة فى الأسطول الإسلامى ومعهما نخبة كبيرة من الرتب البحرية من قادة ومستشارين ومهندسين مهرة أكفاء.

(١) محمد عبد الله عنان. نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين. مطبعة نصر طبعة ثانية ص ٣٦٨.

ب- القادة المسيحيون:

تولى قيادة المعركة أندرياس دوريا وهو من بيوتات مدينة جنوة الإيطالية ومن أسرها العريقة وقد ورث عن أبيه وعن جده حب المغامرة البحرية وقد خدم ملك فرنسا فرانسوا الأول وكان قائد أساطيله ثم ترك ملك فرنسا ودخل في خدمة الإمبراطور شارل كان أكبر رؤساء أوربا وأقواها. وانصرف أندرياس دوريا إلى مدينة جنوة من أجل تنظيم أسطوله استعداداً لحملة الضخمة القادمة.

والتقى الجمعان في موقعة بحرية حاسمة عرفت بموقعة «برفيزا» على مياه البحر المتوسط، سجل فيها باربروسا نصراً مؤزراً على الأساطيل الإسبانية، له أبعاده السياسية والعسكرية وحرى بالعسكريين أن يعكفوا على دراستها، فما زالت حتى اليوم مادة خصبة لكل باحث عسكري على المستوى الإستراتيجي والتكتيكي بفروعهما المختلفة.

الاستعداد للمعركة (الفتح التعبوي)**أولاً: حشد القوى وتعبئة الأساطيل:**

الأسطول الإسلامي: علم خير الدين باربروسا أن إسبانيا تستعد لحوض معركة بحرية فاصلة ضد الأساطيل التركية، وأرادت أن تجعل منها حرباً دينية صليبية كبرى فتوددت إلى إيطاليا وروما مركز الإمبراطورية الكاثوليكية، وأثمر هذا التودد نجاحاً ملموساً في نسيان الخلافات القديمة وبارك البابا تلك الحملة ودعا النصارى للاشتراك فيها.

وأدرك باربروسا خطورة تلك الحملة والبواغث التي دفعت إليها فهي ليست حرب أساطيل فقط؛ وإنما هي حروب قومية دينية في المقام الأول، فإذا ما أسفرت الحملة على تخطيط أساطيله فسوف تضع سيادة المسلمين على حوض البحر المتوسط، ولن تخفق للإسلام بعد هذا اليوم راية على مياهه.

فأعلن صيحة الجهاد مدوية ودعا الأتراك إلى التعبئة العامة في جميع الولايات الإسلامية، فجهزت المراكب وزودت بالوقود والنفط، وملئت بالذخيرة والسلاح

وحشد عليها البحارة المقاتلون المسلمون من الأتراك والمغاربة وغيرهم من مجاهدي العرب المهاجرين من إسبانيا، وقد أضحى الجميع متشوقين إلى ذلك اللقاء الحاسم، وقد اضطرت نفوسهم بروح الجهاد العالية والرغبة الصادقة لنيل إحدى الحسينين: فلما ثار وانتقام من الأعداء وسيادة مطلقة على البحر المتوسط، وإما شهادة في سبيل الله.

وتم حشد الأساطيل الإسلامية على خير ما يرام، وصدقت النيات وصحت العزائم، وعقد السلطان العثماني «سليمان القانوني» الذي خلف والده «سليم الأول» لواء قيادة الأسطول إلى أمير البحر «خير الدين باربروسا»، فتطلعت إليه الأنظار وعقدت عليه الآمال في أن يحقق للمسلمين نصراً مؤزرًا.

وباشر باربروسا مهام عمله الجديد وكان عليه أن يواجه الأسطول الإسباني ويتصر عليه، وأدرك أن النصر ليس سهلاً وإنما طريقه في هذه المرة محفوف بالمخاطر والأهوال، فهو يواجه خصماً عنيداً، وقوى بحرية هائلة تفوق قوته عدة وعدداً، فكان من الأفضل أن يترى في وضع خطة محكمة للمواجهة الشاملة. وتفتقت قريحته في أن يواجه الإسبان بإستراتيجية حربية ذات شعبتين هما:

الأولى: أن يواصل مناوشاته وغاراته الصغيرة مع الأعداء دون الدخول في معركة تصادمية كبيرة إلى حين التوصل إلى خطة للمواجهة الشاملة وذلك لاستنزاف قوات العدو، وسوف يستفيد من هذه المرحلة أيضاً جمع معلومات عن عدوه تفيده في خطته التصادمية.

الثانية: أن يضع خطة تصادمية للمواجهة الشاملة مع القوى البحرية الإسبانية، واستغرقت هذه الخطة عامين كاملين خطط لها بأناة وصبر ودقة متناهية هادفاً من ورائها أن يملك زمام المبادرة، ويحدد الوقت والمكان اللازمين لها وأن يتحكم هو في إدارة دفعة القتال كما يريد، ولا يترك لخصمه طريقاً من طرق الحل المفتوح لينفذ منها ويغير مسار خطته^(١).

(١) راجع في عرض المادة التاريخية: غزوات عروج وخير الدين الجزائر ١٩٣٤م

الأسطول الإسباني:

أما الأسطول الإسباني فقد تحرك من مراسيه بإسبانيا بقيادة أمير البحر الجنوى «أندريا دوريا» وقد حشد أعداداً هائلة من المراكب البحرية العامة والملكية الخاصة والغليونات الضخمة ذات الأبراج العالية سواء الشراعية أو التي تسير بالمجاديف الكثيرة، وقد زودت بالمدافع النارية والذخيرة، وحشد عليها أعداداً لا حصر لها من البحارة والمقاتلة تضطرم نفوسهم بنار الحقد والكراهية التي أذكتها الكنيسة، وتقدم أندريا بأسطوله نحو الشرق، شاقاً البحر المتوسط، ثم اتجه شمالاً إلى «البحر الأيوني» خائضاً بأسطوله سيادة المياه التركية ليلحق بالأسطول التركي. ولكن الأسطول التركي كان قد سبقه إلى هذه المنطقة، ثم رسا بالقرب من السواحل الإيطالية ليفرض عليها حصاراً قوياً يمنع دعمهم للقوات الإسبانية. ثم تقدم الأسطول الإسباني وبدأ جولته بشن غارة على الموقع التركي «كورون» في شبه جزيرة «المورة» جنوب اليونان، ثم زحف إلى خليج «أرتا» وأرسى أسطوله على طريق القناة الموصلة إلى الأسطول التركي الراسي داخل هذا الخليج^(١).

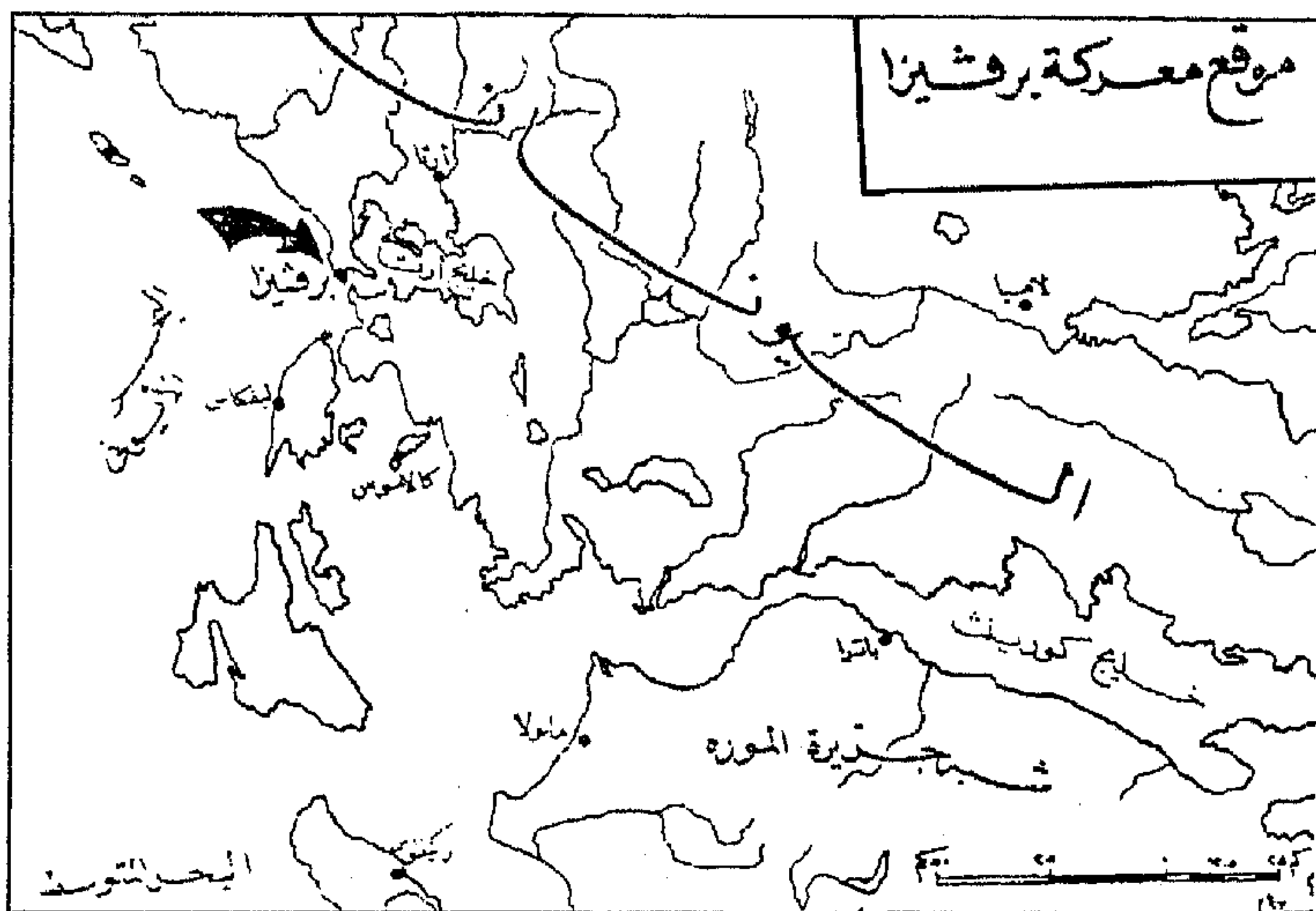
مقارنة القوات:

وإن كانت المراجع التي اعتمدنا عليها لا تشير من قريب أو من بعيد إلى إحصاء يبين عدد القطع البحرية والبحارة المقاتلين من كلا الطرفين، إلا أنها تشير بوضوح تام إلى ضخامة الحشود التي تميزت بها القوات البحرية الإسبانية، وهذا ما تشهد به الرواية النصرانية ذاتها^(٢) في: عدد المراكب التي قدرتها بمئات، وفي أحجامها الكبيرة وفي عدد الرجال. ورغم أن أسطول باربروسا كان أقل منه في النوعيات السابقة إلا أنه تميز عنه بصغر الحجم وخفة الحركة والمقدرة البارعة على المناورة وسرعة الانتشار.

(1) Thomas faster . Alistair review history of - convict on land, sea and air , marshal Cavendish limed . Hong Kong , 1974, p . 16 - 25 .

(٢) راجع في عرض المادة التاريخية: غزوات عروج وخير الدين الجزائر ١٩٣٤م، وكذلك:

- Thomas faster . Alistair review history of - convict on land , sea and air , marshal Cavendish limed . Hong Kong , 1974, p . 16 - 25 .



موقع معركة برفيزا

ثانياً: خطة المعركة:

خطة باربروسا: درس باربروسا ظروف المعركة قبل أن يخوضها وجمع معلومات وافية عن عدوه وعن المنطقة المائية التي ستدور فوقها المعركة، وعن الظروف الجوية التي تسود مكان القتال وقدر قوات عدوه ونوعية سلاحه وأسلوبه في القتال، وحلفائه الذين ينضمون إليه خلال المعركة وقارن ذلك بإمكانياته البحرية، ثم رسم خطته المحكمة والتي استغرقت عامين كاملين وقد قدر في هذه الخطة أن يحتفظ بزمام المبادرة، ويحرص على المناورة وخفة الحركة وسرعة الانتشار مع البراعة في التشكيل، وأن يجبر عدوه على خوض معركة يحدد هو زمانها ومكانها، ولا غرو أن تكون خطته محكمة، فهو ملك البحار وعمله لسنوات طويلة في أعمال القرصنة والمغامرات البحرية كان له أثره الفعال في إحكام تلك الخطة وفي تنفيذها، ويمكننا من خلال دراسة الواقعة أن نحدد معالم خطته في النقاط الآتية:

أ- أن يربط أسطول له كاملاً أمام السواحل الإيطالية حليفة الإسبان ليرهب الحكومة الإيطالية ويمنعها من دعم القوات الإسبانية، ثم تقوم بعض القطع البحرية التركية بشن غارات منفردة، ومناوشة الأسطول الإسباني لتثير قائده فتدفعه للحاق بها، فيجد نفسه وأساطيله معرضين للهجوم من الأسطول التركي المختفى عن الأنظار داخل المياه الإقليمية التركية.

ب- اختيار جزيرة المورة جنوب اليونان من مجموعة الجزر الصغيرة ميداناً للمعركة، وإخفاء الأساطيل في أحد خلجانها «خليج أرتا» "arta bay" بعيداً عن أنظار الأسطول الإسباني.

ج- اعتمد في مناوراته وأعماله الهجومية على مجموعة من المكامن المخططة والمدروسة دراسة واعية، وقد ساعده على رسم المكامن معرفته الكاملة لطبيعة الجزر والمضايق اليونانية من جهة، ومراكبه الخفيفة والقليلة الحجم ومقدرتها البارعة على السرعة والانتشار وخفة الحركة في الكر والفر من جهة أخرى.

خطة أندريا دوريا:

بنى القائد الإسباني خطته أيضاً على رسم مجموعة من المكامن تناسب وطبيعة سفنه الشراعية الكبيرة في مياه عميقة معتمداً على المبادئ الآتية:

أ - محاولة جر باربروسا بأساطيله إلى منطقة مياه عميقة مفتوحة تناسب ضخامة حجم أساطيله وارتفاع أبراجها بعيداً عن القنوات والخلجان المغلقة ذات المياه الضحلة والصخور المرتفعة التي تعوق بطبيعة الحال حرية الحركة وسرعة انتشار قطع أسطوله.

ب - التفوق على الأسطول التركي في عدد وحجم مراكبه حيث انضم إلى أساطيله الأسطول الذهبي «الملكي» بمراكبه وجليوناته ذات الأحجام الكبيرة والأبراج العالية.

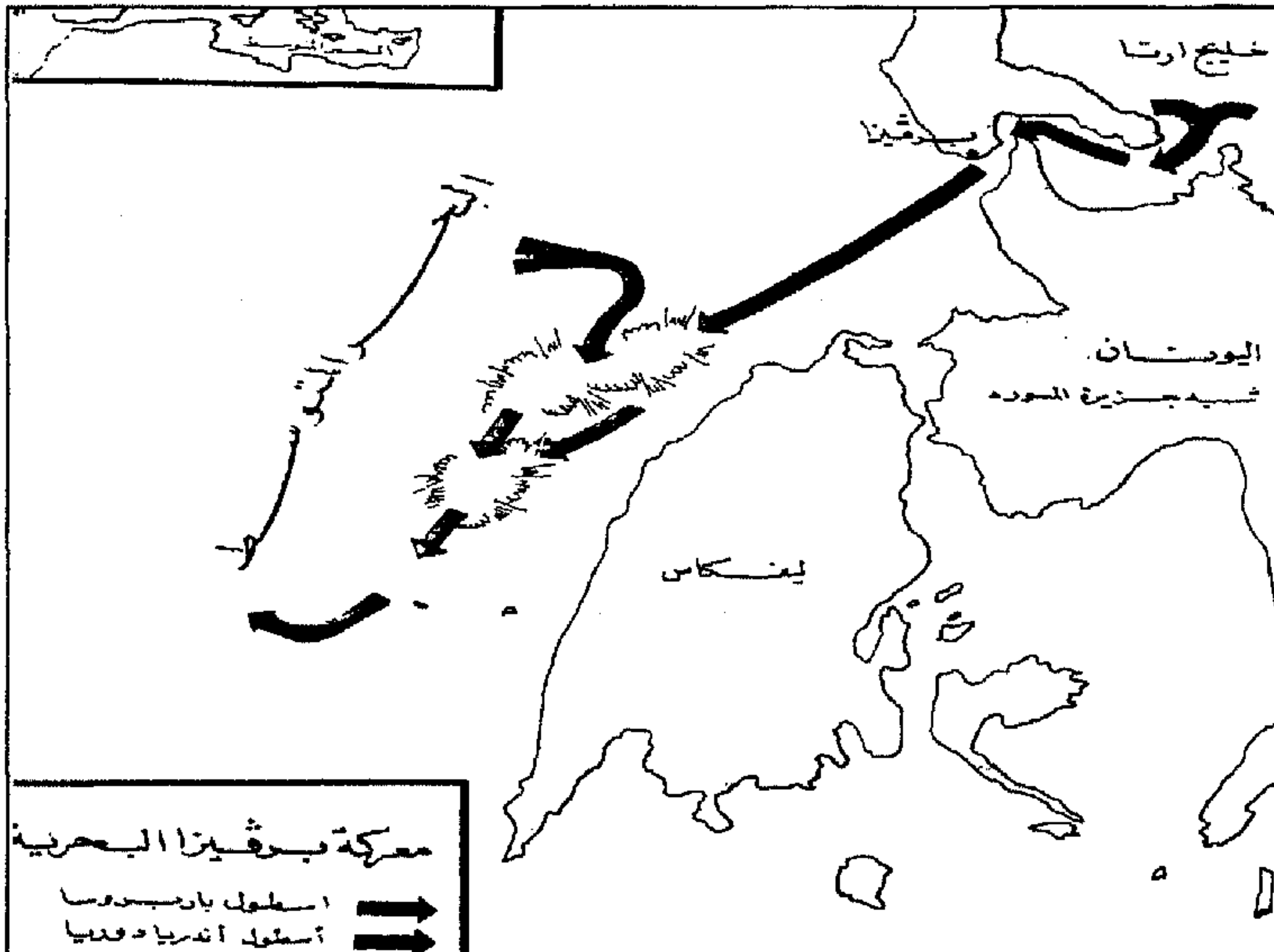
ج - تزويد سفنه بمقادير هائلة من الذخيرة والمدافع النارية.

د - حشد أعداد هائلة من البحارة والمقاتلين للقيام بحصار برى وبحرى لأسطول باربروسا.

سير القتال «الضن التكتيكي»

المرحلة الأولى: الاستطلاع والاقترب: (انظر الخريطة المرفقة)

بدأت الجولة الأولى بأن أطلق كل قائد مراكب الاستطلاع ليرقب تحركات خصمه ويحدد مكانه، ثم بدأ باربروسا مباشرة خطته فشن غارات عنيفة قامت بها بعض قطع أسطوله ضد المواقع الخارجية للحلف الكاثوليكي هادفاً من ذلك إغراء العدو بتتبع هذه القطع ثم جره إلى كمين مرسوم، ونجحت حيلته؛ فعلى الفور قاد «أندريا دوريا» أسطولاً كبيراً واتجه به نحو موقع الأسطول التركي، ومن ثم قاد باربروسا أسطوله هو أيضاً مجتازاً القنوات الملتفة للجزر الصغيرة جنوب اليونان. وفى داخل خليج أرتا قبع أسطوله مستتراً فى أمان وفى وضع تعبوى قوى داخل ربع دائرة ضخمة، وجعل انحناءات السفن فى اتجاه المدخل الصغير للخليج، فإذا ما تعقبهم «أندريا دوريا» فسوف يقع فى الكمين المعد له.



ونتيجة لعدم إدراك أندريا دوريا لما يدور في خلد باربروسا جاء بأسطوله داخل المياه تحت السيطرة التركية وبدأ في البحث عن الأسطول التركي، وبعدما وافته الأنباء بمكانه داخل خليج «أرتا» قرر دخوله لاكتساح الأسطول التركي، ولكن القناة التي تؤدي إلى داخل الخليج كانت ضيقة ومضللة، وعليه فإن المهمة لن تكون سهلة رغم تفوقه في الحجم والعدد فغليوناته ذات الأبراج المرتفعة لا تقدر على عبور القناة بأمان دفعة واحدة، وعليها أن تعبرها واحدة واحدة وفي بطء وتثاقل في الوقت الذي كانت فيه سفن باربروسا تغطي مدخل القناة بتشكيلها القوى في حالة استعداد للانقضاض على غليوناته، قبل أن يأخذ أي تشكيل للمعركة وذلك لصغر حجمها وخفتها.

ومن هنا أدرك «دوريا» أنه لن يستطيع أن يحقق أي نصر فاكتفى بأن ينتظر عند مدخل القناة حين أن تلوح فرصة لمهاجمة باربروسا. وانتهت الجولة الأولى باقتراب الأسطولين، ولم يفصل بينهما سوى تلك القناة الملتوية والخطيرة والتي اتخذ منها باربروسا ملاذاً أميناً وموقعاً حصيناً لسفنه يحميه من عصف الرياح ويمتلك منه ناصية خصمه^(١).

المرحلة الثانية:

بدأت الجولة الثانية بتفكير كل من القائدين بإنزال قوة برية تسير عبر برزخ يمتد بطول القناة، التي يرسو بالقرب من طرفيها الأسطولان وذلك لفرض حصار قوى والضرب بقوة على أسطول الخصم، ومن ثم يضعه تحت إذعانه ورغبة من باربروسا في امتلاك زمام المبادرة، فقد سارع بإنزال قوة من جنده فوق البرزخ لإقامة بطارية تقصف أسطول الإسبان، ولكن دوريا كان يقظاً فرصد تحرك الجند على امتداد القناة، وعلى الفور أصدر أوامره لغليوناته الكبيرة بالاقتراب من الشاطئ وإطلاق مدفيعتها على رجال باربروسا، فسقط أغلب هذه القوة غرقى في دمائهم بينما فر الباقون مذعورين إلى خط أسطولهم وانتهت هذه الجولة عندما

(١) راجع في عرض المادة التاريخية: غزوات عروج وخير الدين الجزائر ١٩٣٤م.

سحب أندريا دوريا سفنه إلى مياه أكثر عمقا تاركة البقية الباقية من رجال باربروسا تأخذ طريقها عائدة إلى البرزخ دون إطلاق قذيفة واحدة عليهم^(١).

المرحلة الثالثة:

وبدأت الجولة الثالثة برسم كمين أعده قائد الأسطول الإسباني بعد طول انتظار، حيث سحب أسطوله وتحرك به صوب الجنوب لإيجاد مأوى ملائم عند جزيرة لفكاس، وكان هدفه من ذلك إغراء باربروسا بتعقبه خارج خليج أرتا، وحدث ما توقعه «أندريا دوريا» حيث أخرج باربروسا أسطوله من مرساه في القناة الضيقة المفتوحة مندفعاً بسفنه بأسرع ما يمكن كي يطارد عدوه، وعندما لحق به أخذ كل من القائدين يعيد تشكيل أسطوله وظلت هذه الجولة سجلاً بين القوتين كالآتي:

- تعثر تشكيل الأسطول الإسباني حيث هبت رياح متقلبة جعلت الأشرعة تتحرك بشكل مضطرب، وعلى الرغم من أن رجاله بذلوا قصارى الجهد في وضع السفن المضطربة الهائجة في تشكيل، إلا أن النجاح كان ضئيلاً حيث فقد الأسطول كل تنسيق ثم اصطف أخيراً في خط طويل غير منظم.

- بينما أظهر باربروسا أسطوله فوق الأفق في تشكيل كامل، حيث كانت راحات مجاديف سفنه تشرق في الشمس لتلقى بانعكاساتها على خط الأسطول الإسباني، مما عاق حركة تقدم السفن الكبيرة منه إلى الأمام وجعلها تسير في خط منتشر غير منتظم جاعلاً منها هدفاً سهلاً وصيداً ثميناً لمراكبه.

- استغل باربروسا فرصة اضطراب السفن الإسبانية الكبيرة في الحركة والمناورة وأمر بإطلاق نيران المدفعية عليها وفتحت البحرية الإسبانية مدافعها وبدأت هجمات الاختراق عنيفة بين الخصمين، وبعد موجات عنيفة من الهجمات المتبادلة تم ضرب أسطول دوريا وتمكنت سفن الأتراك من الاندفاع إلى أجناب السفن الإسبانية وضربها بعنف، مما أدى إلى ترنحها فأخذت طريقها إلى داخل قلب الأسطول الإسباني غير المنسق.

(1) Thomas faster . Alistair review history of - convict on land , sea and air , marshal Cavendish limed . Hong Kong , 1974, p . 16 - 25 .

- ثم انتظمت السفن الإسبانية بعد ذلك وعادت للقتال والقصف المركز على السفن التركية القريبة وأحدثت فيها ثقباً بالغة وسحقت المجاديف والرجال معاً، واحترقت أجناب تلك السفن وتساقط الرجال بلا حراب، وتكدست جثثهم فوق رءوس المجدفين الذين ناضلوا كي تتقدم سفنهم إلى الأمام نحو أجناب الغليونات بصعوبة بالغة، مما جعل باربروسا يسحب سفنه إلى الخلف ليعيد تشكيلها، وانتهت هذه الجولة بتوقف الهجوم وانسحاب الأسطولين بعد أن عانى كل من الطرفين خسائر فادحة وإصابات بالغة ولم يقدر أحدهما على تحمل الجروح والإصابات أكثر من هذا .

المرحلة الرابعة:

تميزت هذه المرحلة بأعمال العنف والقسوة البالغة رغم الإعياء الذي بدا على كلا الطرفين حيث حاول كل من القائدين حسم المعركة لصالحه على النحو التالي:

- رأى دوريا ترنح السفن التركية التي تحاول إعادة تجميعها فانتهازها فرصة سانحة ليقوم بهجوم ثانٍ كاسح لها ليحدث بها أكبر دمار ممكن، ثم ينسحب بأسطوله قبل أن يتمكن الأتراك من الرد، فأمر سفنه بالتحرك صوب ذلك الهدف، ولكن الرياح جاءت بما يشتهي باربروسا فإن سنوات خبرته في أعمال البحار قد عرفته كيف يستغل الرياح لصالحه، فأعاد تجميع سفنه، وانقض بها على أسطول دوريا انقضاض الصاعقة محدثاً فيها أكبر تدمير ممكن، واشتعل أوار المعركة أغلب ساعات النهار وبلغت ذروته حتى ما بعد الظهر.

وعندما هدأت الرياح سحب دوريا أسطوله ليعيد تشكيله تاركاً الأسطول التركي يتعقبه، ولم يسمح باربروسا لأسطول عدوه أن يخرج من قبضته بسهولة فقد دوخ فريسته وبلغ معها الإعياء مداه وما عليه إلا أن يقتنصها، فتقدمت سفنه الخفيفة تضرب بعنف في أجناب ما تبقى من غليونات الإسبان وقد تم تدمير المجاديف التي على أجناب السفن.

وبينما كانت ألسنة اللهب والدخان تملآن الفضاء تم جذب الغليونات الإسبانية إلى سفن الأتراك وقرنها بالسلاسل الحديدية واتخذوا من سطوحها ميدان قتال برى، ونشب تلاحم رهيب بالسلاح الأبيض أودى بمعظم رجال الأسطول الإسباني، وعندما رأى القائد الإسباني أسطول باربروسا يحيط بمعظم أسطوله ولا يمكن له أن يفعل شيئاً لإنقاذه، حيث فشلت الغليونات العملاقة في مواجهة السفن الصغيرة أمر بانسحاب الأسطول بعد أن فقد الكثير من رجاله وغليوناته ما بين قتيل وأسير، وعندما غربت الشمس وأسدل الليل ظلامه على لجة المياه قبع دوريا مع غليوناته التي أفلتت من الدمار، وشهدت ساعات الظلام الأولى إصلاحاً سريعاً للسفن المحطمة، وعندما انتصف الليل قرر «أندريا دوريا» الانسحاب بما تبقى من أسطوله وفي ضوء الفجر شوهد وهو يختفى بسرعة وراء الأفق تجاه موطنه، ووجد باربروسا نفسه بدون عدو، وانتهت معركة «بيرفيزا» في الثامن والعشرين من سبتمبر عام ١٥٣٧م عن نصر عظيم للمسلمين واستحق خير الدين بربروسا لقب ملك البحار^(١).

الدروس المستفادة

أسفرت معركة «بيرفيزا» عن نتائج ودروس مفيدة على المستويين السياسى والعسكرى على النحو التالى:

المستوى السياسى:

- كان انتصار خير الدين فى موقعة «بيرفيزا» نقطة تحول مهمة فى تاريخ البحرية الإسلامية ممثلة فى البحرية التركية.

وإن كان نشاطها قد بدأ بغارات بحرية على الشواطئ الأوربية، إلا أن تلك المعركة كانت أول صدام بحرى على المستوى الرسمى بين قوتين متنافستين على

(١) راجع فى عرض المادة التاريخية: غزوات عروج وخير الدين الجزائر ١٩٣٤م

- Thomas faster . Alistair review history of - convict on land , sea and air , marshal Cavendish limed . Hong Kong , 1974 , p . 16 - 25 .

سيادة البحر المتوسط هما: البحرية التركية، والبحرية الإسبانية، وبانتصار باربروسا في هذه الموقعة جاء تأكيد سيادة المسلمين على هذا البحر بينما جمدت حركة البحرية الإسبانية داخل سواحلها بعدما كانت من قبل سيدة البحار.

- كما أسفرت هذه الموقعة عن نجاح الأتراك المسلمين في تطوير بحريتهم ووقوفهم لأول مرة أمام الأساطيل الأوربية الكبيرة كأساطيل إسبانيا والبندقية ورودس، بل إنهم نجحوا في الاستيلاء على رودس وأمنوا تجارتهم من الغارات البحرية التي كانت تشنها بحرية الفرسان على السفن التركية، وبذلك تمكن الأتراك من إغلاق شواطئ البحر المتوسط وجعله بحيرة إسلامية.

- استحوذ الحوض الغربى للبحر المتوسط على جل نشاط البحرية الإسلامية التركية بعد ذلك سواء على مستوى الأساطيل الرسمية أو القيام بغارات بحرية وأعمال القرصنة ضد الشواطئ الإسلامية، حيث كانت فكرة الانتقام للأمة الأندلسية الشهيدة تكمن في معظم الأحيان وراء هذا النشاط البحرى هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن تدهور أحوال المغرب العربى بعد سقوط الأندلس، كان إيذاناً بترديه هو أيضاً فى قبضة إسبانيا والتي خلا لها الجو، فصارت تعيثُ فساداً فى سواحلها وتضع مشاريعها الحربية للاستيلاء عليه، وعندئذ يتم لها إجهاض الجناح الغربى لأمتنا الإسلامية، فلا غرو إذن أن نرى أنشطة البحرية الإسلامية التركية تهيم تماماً على الحوض الغربى للبحر المتوسط فتتوغل فى قلب أوربا إلى فيينا، ثم تتجه غرباً حتى القواعد الإسبانية وتتزع منها السيادة على الجزائر وتونس وطرابلس، محققة بذلك عمقاً إستراتيجياً هائلاً لما حوته من إمكانيات اقتصادية وبشرية وحربية مكنتها من مواجهة القوى الأوربية، وصيانة دولة الإسلام ضد الزحف الصليبي لقرون عديدة.

المستوى العسكرى:

كان لنجاح خير الدين فى الحصول على أدق المعلومات عن أسطول خصمه وتحركاته أولاً بأول فضل كبير فى إحكام وضع خططه التى استغرقت منه زهاء

العامين وحرص فيها على تطبيق أهم مبادئ الحرب البحرية ليفرض المعركة الوشيكة على خصمه فى المكان والزمان الذى يناسب سفن المسلمين وخططهم.

كما ساعده على تحقيق النصر فى برفيزا سابق معرفته الجيدة بمسرح المعركة فى البحر وجزره وخلجانه وممراته المائية، علاوة على معرفته بتنظيم وتسليح وأسلوب قتال خصمه، الأمر الذى أتاح له استغلال ميزات أسطوله وعيوب أسطول خصمه لأقصى حد ممكن^(١).

وقد أظهر خير الدين مقدرة بارعة فى انتزاع زمام المبادرة ثم الاحتفاظ بها فى جميع مراحل القتال، وذلك بفضل المكامن المتعددة التى استمر ييثها لعدوه، والمناورات الواسعة التى حققها خلال الجزر الصغيرة والقنوات الضيقة، حيث تفوقت سفنه الصغيرة على سفن عدوه الضخمة فى الملاحاة والمناورات وخفة الحركة.

وقد أظهرت أحداث المعركة مهارة باربروسا فى حشد أسطوله بأسلوب مبتكر ليواجه مختلف مواقف القتال مع ادخار بعض السفن كقوة احتياطية يدخلها فى الوقت المناسب ليفاجأ أندريا ويوقع ارتباكاً فى تنظيم أسطوله ويحرمه فرصة التنسيق بين قطعه، ويفضل الهجوم الساحق المدمر الذى اكتسب به باربروسا السيطرة على خصمه والزمه باتخاذ خطط الدفاع فى أغلب الحالات تم له النصر المؤزر.

وبعد... فهذه إحدى معارك باربروسا البحرية التى قوض فيها جسور الوهم واليأس التى إقامتها إسبانيا فى السيطرة على البحر المتوسط، فقد اختارته العناية الإلهية فى هذه الفترة التاريخية الحرجة وحبته من صفات الشجاعة والعظمة والغيرة على الدين ما هياً له أن يقوى على تحطيم أسطول خصمه تحطيمًا كاملاً، ويرسى لبنى الإسلام أمنًا عزيزاً راسخًا، إنه ظفر عظيم للإسلام كله سوف تظل أنباؤه تتردد فى مسمع التاريخ ويتردد معه اسم البطل العظيم «باربروسا» ملك البحار^(٢).

(١) خير الدين باربروسا لبسام العسلى ص ١٨٦ .

(٢) عبد الرحمن الجيلالى تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ١٨٢ ط ١٥٥ .

لقد سيطر الأسطول العثماني على شرق حوض البحر المتوسط سيطرة تامة إلا أن الإسبان قد استغلوا انشغال العثمانيين بالحروب الدائرة بالشرق، وسارعت بعض القوى الغربية وبخاصة إسبانيا بمواجهة القوى البحرية العثمانية في حوض البحر المتوسط، وكان جُل الأنشطة البحرية آنذاك يتركز في غرب حوض البحر المتوسط، وقد اتخذت المواجهة عدة أشكال، وقد تبين مخطط الإسبان حيث اتجهوا بأنشطتهم البحرية لتنفيذ مخطط استعماري ضد دول الشمال الإفريقي الإسلامية، وكانت الهجمة البحرية الأولى ضد ميناء المرسى الكبير في الجزائر لما له من أهمية خاصة في رسو السفن هذا فضلا عن كونه مأوى البحارة المسلمين الذين كانوا يغيرون على السفن والسواحل الإسبانية.

وقد بدأت تجهيزات الأسطول الإسباني في مالقة وأبحر منها (٩١١هـ - ١٥٠٥م) بقيادة دون ديغو ديفي وكان في هذا الأسطول قوة تقدر ١٠,٠٠٠ أنزلت كلها بعد ثمانية كيلو مترات غرب وهران بالقرب من ميناء المرسى الكبير ولم يكتفِ الإسبان بذلك بل أرسلوا في نفس الوقت حملة كبيرة بقيادة بيدروا دي نافرو سنة (٩١٤هـ - ١٥٠٨م) واستولت على حجر باديس على سواحل المغرب الأقصى الشمالية^(١)، كما استولى الإسبان على وهران سنة (٩١٥هـ - ١٥٠٩م)^(٢)، ثم أصبحت منذ ذلك التاريخ المركز الرئيسي لنشاط الإسبان في البحر المتوسط، وفي سنة (٩١٧ - ١٥١١م) تحرك الأسطول المكون من ١٤ سفينة عليها ١٠,٠٠٠ جندي وهاجم ميناء بجاية^(٣) واستولى عليه ثم واصل الإسبان فتوحاتهم في الجزائر فاستولوا على شرشار وغيرها من المدن الساحلية^(٤).

كما استطاع الإسبان الاستيلاء على طرابلس الغرب سنة (٩٣٧هـ - ١٥٣٠م) ولم تأت سنة (٩٩٢هـ - ١٥٢٢م) حتى بدأت البحرية العثمانية في السيطرة على أهم جزر البحر المتوسط وخاصة جزيرة رودس التي استسلمت للعثمانيين، وتم إجلاء

(١) الناصري أبو العباس أحمد بن خالد. الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ج ٥ ص ١٤ سنة ١٩٥٥م.

(٢) الجيلالي. مرجع سابق ج ٢ ص ١٨٥. (٣) الناصري. الاستقصا. مرجع سابق ج ٥ ص ٢٩.

(٤) الجيلالي. مرجع سابق ج ٢ ص ١٩١.

الإسبانية عن جميع ممتلكاتهم في بحر إيجه فانسحبوا إلى إيطاليا ثم إلى جزيرة مالطة التي اتخذوا منها قاعدة جديدة منحهم إياها الإمبراطور شارلز الخامس^(١).

والحقيقة أن الأسطول العثماني لم يقف نشاطه على طرد فرسان الإسبانية من شرق البحر المتوسط، بل حاربت كذلك البنادقة حيث استطاعت الاستيلاء على جزيرة كريت في معركة بحرية هائلة شارك فيها الأسطول المصري الذي أبلى بلاء حسنا والذي انتهى بانتزاع تلك الجزيرة من أيدي البنادقة سنة (١٠٨٠هـ - ١٦٦٩م).

ضعف الأسطول العثماني وتعرضه للهزائم:

لقد عرفنا فيما سبق عظمة الأسطول العثماني المتمثلة في نشاط وقوة رجالات من أمراء البحر والبحارة إلى غير ذلك من العاملين في وحدات الأسطول، وكم ساهم في العديد من الصراعات أنصف فيها الدولة العثمانية حيناً وأخفق حيناً آخر ولكن على ما يبدو أن الدولة العثمانية قد انشغلت بمزيد من الصراعات السياسية، إذ تكالبت عليها أغلب دول أوروبا للنيل منها ومن سيادتها هذا من ناحية وإزالة شأفة الإسلام من بلادهم أو بالقرب من حدودهم من ناحية أخرى، وعلى ما يبدو كانت وطأة تلك الدول شديدة، وترتب على ذلك إهمال للأسطول وإهمال لرجاله، وخاصة بعد انقراض الجيل الأول من أمراء الأساطيل العثمانية العظام.

فلا غرو بعد ذلك أن تروى المراجع العديد من الإخفاقات للأسطول العثماني أسلمته في النهاية إلى الضعف، ومن هذه الإخفاقات:

أ - فشل الأسطول في فتح جزيرة مالطة سنة ١٥٦٥ على عهد السلطان سليمان المشرع وتعرضه لخسائر فادحة في الأرواح والسفن

ب - إخفاقه في معركة لابنتو سنة ١٥٧١ إبان عهد السلطان سليم الثاني. إذ كانت هزيمة منكرة تحطمت فيها غالبية وحدات الأسطول.

(١) تاريخ فن القتال البحري في البحر المتوسط في العصر الوسيط دكتور أحمد رمضان أحمد. مشروع المائة كتاب. سلسلة الثقافة الأثرية التاريخية. كتاب رقم ٧ ص ٤٤.

ج- كما استشهد عدد كبير من كبار القادة البحريين والبحارة المدربين .

د- لم تتمكن الدولة العثمانية من بناء قادة على طراز ممتاز كما قلنا .

هـ- تأخر الأسطول في السيطرة على جزيرة كريت من جمهورية البندقية، إذ استغرق انتزاعها خمسة وعشرين عاماً . وسوف نقرده بعض الصفحات للحديث عن ضعف ذلك الأسطول من خلال إحدى المعارك التي هزم فيها الأسطول العثماني ليتبين للقارئ فداحة تلك الهزيمة

معركة لابنتو Lepanto وهزيمة العثمانيين^(١)

تعتبر معركة (Lepanto) التي دارت رحاها بين تحالف الدول المسيحية وبين الدولة العثمانية، وذلك في أكتوبر سنة (١٥٧١م - ٩٢٣هـ) نهاية المطاف بالنسبة إلى السيطرة الإسلامية على حوض البحر المتوسط وبصفة خاصة للدولة العثمانية^(٢)، وتحدثنا المراجع^(٣) عن القوات التي اشتركت في المعركة فتقول: إن القوات التي اشتركت في المعركة هي: سفن البندقية وتتكون من (١٠٥) سفينة مسطحة المعروفة باسم شيني (galley) سفينة وعدد (٦) من نوع الشيني (gallease) و (١٠) من نوع^(٤) الغليون (galliot) أما قوات البابا وكذا قوات سافوي وجنوة

(١) يطلق على هذه المعركة في المراجع الفرنسية lepante وفي المراجع الإنجليزية lepano الإيطالية lepanto، وقد دارت المعركة في المنطقة الواقعة بين خليج لبانت وخليج باتراس patras ولهذا يرى بعض المؤرخين بأنه خليق بأن يطلق على هذه المعركة البحرية اسم معركة باتراس وليس معركة لبانت. ومن الملاحظ أيضاً أن القادة العثمانيين كانوا على استياء شديد من تلك الهزيمة، حيث أطلق عليها العثمانيون صنفين (دونما سفرى) أى معركة الأسطول الذى غرق وذلك لتخفيف وقع تلك الهزيمة على أنفس الشعب.

(٢) هناك العديد من المؤلفات التي تكلمت عن هذه المعركة الحاسمة في تاريخ الحروب البحرية بين تركية ودول أوروبا المسيحية. وكان طبيعياً أن تتعدد وتختلف الآراء في تقدير الأطراف المتحاربة، أما النتيجة فكانت بطبيعة الحال واحدة، وهي انتصار الدول المسيحية على الدول العثمانية.

(3) Giuseppe: a history of naval tactical thought p.61 Andre Siegfried : the Mediterranean p.94.

Grousset : l'empire du levant p.217.

(٤) الغليون سفينة حربية خفيفة الحركة، وكانت تستعمل في بعض الأحيان لحمل البضائع النفيسة أو الشخصيات المهمة وقت الحروب (البحرية في مصر الإسلامية ص ٣٣٥).

ومالطة ونابولي وإسبانيا فتتكون من (٣١) سفين مسطحة تعرف باسم الشلندي^(١) (cheland جمعها شلنديات) و(٢٠) غليوناً. وقد كان هذا الأسطول تحت قيادة دون جون (donjohn) النمساوي والقائد العام للتحالف المسيحي. هذا بالإضافة إلى (٢٠٩) سفن مسطحة و(٦) من نوع الشيني و(٣٠) سفينة بضائع^(٢) (cargo) أما عدد ما على هذه السفن من قوات فهو كما يلي (٢٨٠٠٠) جندي (١٢٩٢٠) بحاراً و(٤٣٥٠٠) مجدف و(١٨١٥) مدفعياً^(٣).

أما القوات التركية فقد كانت مكونة من (٢٢٩) سفينة مسطحة (شيني) (Galleys) و(٦٠) سفينة صغيرة للحرفيين تحت قيادة على باشا^(٤)، أما عدد القوات التركية فقد كانت تزيد قليلاً عن عدد القوات المسيحية^(٥) وهي كما يلي: (٣٤٠٠٠) جندي و(١٣٠٠٠) بحار و(٤١٠٠٠) مجدف^(٦) أما عدد المدفعيين فكانوا (٧٥٠) فقط^(٧).

وقد بدا القائد العام للقوات المسيحية دون جون (Donjohn) بتشكيل خط المقدمة (الصدر) وقسمه إلى ثلاثة أقسام^(٨) يحمل كل قسم منها علم له لون خاص، فالقسم الأوسط كان لونه أزرق ويحتوي على (٦١) شيني (Galley) بما فيها سفينة القائد العام وكذا سفينة البابا^(٩) وعلمه، وسفن ساقوى وعلمها وسفن البندقية وعلمها وسفن جنوة وعلمها وكذا سفن إسبانيا وعلمها. أما الجانب الأيمن

(١) مركب حربي كبير مسطح كان مخصصاً لنقل المقاتلة والأسلحة. ويقول ابن ممتي (قوانين الدواوين - ٣٤٠): أن الشلندي مركب سقوف تقاقل الغزاة على ظهره وجدافون يجدفون تحته واستعملها العرب فقالوا، صندل ويستعمله الإفرنج لنقل البضائع.

(٢) j.bury:naval poliey p 189.

(٣) giusepp : ahistory of naval though

(٤) سرهنك حقائق الأخبار عن دول البحار ص ٤٢ .

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٦) على مبارك: الخطط ج ١٢ ص ٧٢ .

(٧) la graviere: dori et barberousse p . 252

(٨) ahistory of naval tactical thought .p.63

(٩) l'empire du levant.p 217

من الأسطول الأخضر اللون فكان يحتوى على (٥٣) سفينة بقيادة جينادرا دوريا (Giannand Doria) وعلى الجانب الأيسر من الأسطول، كانت السفن صفراء اللون وعددها (٥٥) سفينة كان معظمها من البندقية، وكانت تحت قيادة أجوستينو باريريغو^(١) (Agostion Barbarigo).

وقد أمرت جميع السفن أن تكون قريبة من بعضها البعض بحيث لا تترك بينها وبين بعضها إلا ما يكفي للتجديف، وأن تكون المسافة بين كل تشكيل بحري والآخر قرابة (٧٥) متراً. وتنقسم (Gallesses) الستة إلى ثلاثة أقسام، كل منها يتكون من مركبين، تحت قيادة فرانسيسكو ديودو (Francesco Duodo) بحيث تكون ما يشبه المروحة على رأس كل مجموعة^(٢).

وعشر سفن شينى (Galleys) وضعت فى مؤخرة سفن الأعلام الخمس^(٣) لمساعدتهم. وعلى بعد ميل واحد من ذلك، توجد فرقة المؤخرة ذات الأعلام البيضاء ويبلغ عددها (٣٠) سفينة.

أما الأسطول التركى فقد كان مقسماً إلى ثلاثة فرق بالإضافة إلى فرقة احتياطية^(٤). وكان قائد الأسطول بالنيابة على باشا مركزه فى الوسط وتحت إمرته (٩٤) سفينة. أما الجناح الايمن تحت أمرة محمد سيركو (M.Sirocco) حاكم الإسكندرية، وتتكون مجموعته من (٦٠) سفينة^(٥). والجناح الأيسر كان تحت أمرة (أغلو على) (Uiuch Ali)، ويبلغ عدد سفنه (٦٠) أما مجموعة سفن الاحتياطى فكانت تبلغ ٦٠ سفينة تحت أمرة عمارة دراجوت (Omurat Tragut) وكانت تقف فى مؤخرة سفن على باشا^(٦).

(1) andre Siegfried: the mediterranean p. 195

(2) history of naval tactical thought .p.69.

(٣) البابية وسافوى والبندقية وجنوة وإسبانيا.

(٤) سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار ص ٤٥.

(٥) الخطط التوفيقية ج ١٢ ص ٨٥.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٤٥.

ويحدثنا سرهنك^(١) عن بداية المعركة فيقول: وفي صباح (٧) أكتوبر كان الأسطولان على أهبة الاستعداد للمعركة وكان كل منهما في مواجهة الآخر، فبينما كان الأسطول المسيحي في الجنوب الغربي من ساحة المعركة، كان الأسطول التركي في الجهة الشرقية. وبدأ الأسطول المسيحي يجعل جناحيه نحو الشاطئ حتى يصعب على العدو تطويقهما^(٢).

وقد انتهز الأسطول التركي هبوب رياح جنوبية شرقية مواتية له فعزم على باشا مهاجمة صدر الأسطول المسيحي. فتقدمت سفن الأسطول التركي لدفع المجاديف التي وقع على إيقاعها المنخفض صوت الرياح^(٣)، إلا أنه لسوء الحظ، انقطع فجأة هبوب الرياح الجنوبية الشرقية، فوقف شرع السفن التركية التي كانت تدفعها الرياح وفقدت طريقها، وبدأت تتوقف^(٤) ويكمل أندريا سيجفريد (Andre Sieg-fried)^(٥) سير المعركة بالنسبة إلى الأسطول المسيحي فيقول: وعند الظهيرة حركت نسمة من الهواء الأمواج في صالح الأسطول المسيحي، فلما رأى ذلك القائد Don John شجع رجاله وطلب منهم الاستعداد للقتال، وبدأت المجموعة الوسطى، الزرقاء اللون توسع جبهتها وكذا المجموعة اليسرى الصفراء. أما المجموعة اليمنى بقيادة جياندره دوريا (Giannandrea Doria) بدت كأنها ابتعدت عن المجموعات الأخرى مما جعل على باشا يفتح نيرانه عليه على مساحات كبيرة إلا أن القائد دون جون (Don Dohn) سارع برمي سهامه على المجموعة التي ابتعدت وهي مجموعة جنوة، ولكنها سرعان ما عادت إلى قواعدها وانتهى الأمر بتجمع جميع فرق المسيحية مرة أخرى^(٦). وبينما كانت مجموعات الأسطول المسيحي تتجمع إلى بعضها، أخذت السفن التركية تسرع في استعمال المجاديف بغية الإسراع في

١- سرهنك: حقائق الأخبار ص ٤٧ .

(2) ahistory of naval tactical thought .p.64

(٣) حقائق الأخبار ص ٤٩ .

(٤) الخطط التوفيقية ج ١٢ ص ٧٦ .

(5) the Mediterranean .p. 110

(6) ahistory of naval tactical thought .p.65

الحصول على النصر القريب، وإذا بها تفاجأ بفرق فرانسيسكو ديودو (Francesco Duodo) التي لم تكن في الحسبان، ولم يمض الوقت طويلا حتى اصطدمت القوتين مع بعضهما وقد استعملت في هذه المعركة جميع أنواع الأسلحة البرية والبحرية على حد سواء، فقد استعملت السهام والسيوف والخنجر التي أطلقت كقذائف الخفافات العليا لجوانب السفن^(١).

وكان أشد المعارك قسوة، القتال الذي دار بين قوات على باشا وقوات البابا واستعملت فيها الأيدي وجهًا لوجه^(٢) وكما قال سرهنك في كتابه حقائق الأخبار، وبعد قتال عنيف بين الطرفين قبض على مجموعات على باشا وسحب من عليها العلم الذي يحمل (محمد رسول الله)، ووضع مكانه علم عليه الصليب. ودارت بعد ذلك معارك شرسة بين الطرفين، لعل أقساها وأهمها تلك التي وقعت بين مجموعات محمد سيركو (Sirocco) وقوات البندقية والتي فقد فيها قائدها أجوستينو باريريغو (Agostino Barbarigo) إحدى عينيه برمييه سهم. وقد أدى ذلك إلى قدوم قوات من البندقية بسرعة، مما أدى إلى هزيمة قوات سيروكو (Sirocco)^(٣) وهكذا سارت الأمور في صالح القوات المسيحية، لولا ما قام به جينادرا دوريا (Giannan-drea Doria) قائد الجناح الأيمن الذي ابتعد عن المعركة، بل وسمح للقائد التركي أوغلو علي (Uluch Ali) أن يختبئ ومعه قرابة (٤٠) سفينة^(٤).

كذلك خالفت (فرق الأعلام) أوامر القائد دوريا (Doria) وهاجمت فرق حاكم الإسكندرية، وقد فقد في هذه المعركة ألف من المسيحيين و(١٢) سفينة. إلا أن ما قام به النبلاء المسيحيون لم يضع سدى، فقد خربوا (٢٥) سفينة من الأسطول المسيحي جاءت مسرعة لمساعدة حلفائهم^(٥).

(١) ابن إياس بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٥ .

(2) ahistory of naval tactical thought .p.65

(3) from the pinogue to the aircraft carrier p.

(٤) سرهنك ص ٨٥ .

(5) naval policy .p. 211

وهكذا تحقق النصر للأسطول المسيحي، ولم يبق للبحرية العثمانية بعد ذلك قائمة فقد حرق من سفن على باشا البالغ عددها (٢٢٩) (٨٠) سفينة وأسر (١١٧) سفينة. أما السفن الصناعية الصغيرة البالغ عددها (٦٠) سفينة فقد أُسر منها (٢٧) وأسر (١٣) سفينة^(١)، هذا فضلاً عن قائد الأسطول التركي على باشا وجميع قواده الآخرين فيما عدا أوغلو علي (Uluch Ali). كذلك فقد الأسطول التركي (٤٠٠ و ٤٠) جندي وبحار وأسر (٨٠٠٠)، كما حرروا (١٠٠٠ و ١٠) بحار مسيحي كانوا أسرى الأسطول التركي، وكانوا مقيدين في مقاعد التجديف في السفن التركية^(٢) أما الأسطول المسيحي فقد أُسر منه (٧٦٥٦) بحاراً بما فيهم أجوستينو باريريغو (Agostino Barbarigo) الشرير، وجرح (٧٨٤، ٧) بحاراً^(٣).

على أن أهمية معركة (لابتو) لم تقتصر على أنها قضت على سيطرة الإمبراطورية العثمانية وقوة نفوذها في البحر المتوسط فحسب، بل لأنها كانت نهاية للأساطيل البحرية المكونة من السفن الخفيفة ذات المجاديف. وهكذا أخذت المجاديف تتلاشى شيئاً فشيئاً، ولم يعد يستخدمها إلا قرصان البربر في البحر المتوسط الذين استمروا حتى أوائل القرن ١٩م في شمال إفريقيا^(٤).

وهكذا نستطيع القول بأن فن القتال البحري في البحر المتوسط ظل قرابة تسعة قرون لم تطرأ على أدواته الرئيسية، وهي السفن تطور يذكر، فقد ظلت تعتمد في حركتها على المجاديف مع الشراع.

كما أن المهارة في استخدام الريح كانت من أهم أسباب النصر في المعارك ومن أهم الأمثلة لذلك معركة (لابتو) البحرية التي تعتبر صورة جلية للمعركة البحرية المعقدة لكثرة السفن والقوات المشتركة فيها، مما جعل سيطرة كل طرف من الأطراف على سفنه فضلاً عن تحريكها حتى تتخذ مواضعها القتالية المناسبة، يتطلب مهارة ومقدرة فنية فائقة.

(1) l'empire du levant p.220

(٢) سرهنك ص ٥٩ .

(3) ahistory of naval tactical thought .p.65.

(4) ahistory of naval tactical thought .p.66.

وبرغم التطور الكبير الذى بلغه فن القتال البحرى، وذلك من حيث الأساليب الفنية التى اتخذت فى المناورة، إلا أننا نستطيع القول بأن جميع المعارك البحرية التى دارت رحاها طوال العصور الوسطى، كانت تتم بجوار الشواطئ، بل لا نكون مبالغين إذا قلنا إن فن القتال البحرى، طوال تلك العصور كان يعتمد إلى حد بعيد على تضاريس ساحة القتال.

وإذا كان تطور بناء السفن الحربية فى العصور الوسطى بطيئاً، إلا أن التقدم الذى وصلت إليه الأسلحة الحربية التى استخدمت فيها كان كبيراً وعظيماً وذلك بعد اختراع النار الإغريقية التى أثرت تأثيراً كبيراً على سير المعارك البحرية. كما ترتب على اختراع النار الإغريقية استخدام المكاحل بعيدة المدى هذا فضلاً عن ظهور البنادق، مما جعل الرمى الذى كانت تبدأ به المعارك البحرية يصبح على مسافات أبعد وفى الوقت نفسه ذا تأثير أكبر، لكن كل هذا لم يغنى عن القتال المتلاحم.



رابعاً: نبذة مختصرة عن أمراء البحرية العثمانية

في حوض البحر المتوسط

١- أمراء أسرة باربروس:

- عروج: عاش مجاهداً في سبيل الله منذ نعومة أظفاره - في العاشرة من عمره - وحتى يوم استشهاده (ببني سناسن) وعمره لا يتجاوز الخمسين عاماً - ويقال أربعة وأربعون.

ولقد أثارت حياته بقدر ما أثار استشهاده نوعاً من الإثارة التي لا يمكن وصفها، وحتى اسمه بقي موضع جدل كبير، فلقد أريد - عن جهل أو عن عمد - الإساءة لهذا المجاهد العظيم، وأمكن بالاعتماد على الوثائق إجراء تصحيح اسمه فجاء كالتالي^(١):

(الاسم الحقيقي لهذا البطل الإسلامي العظيم، مؤسس دولة الجزائر، إنما هو (عُرُوج - بضم العين وضم الراء) وهي عربية صميمة ومعناها الارتفاع والصعود، ودخلت التركية عن طريق ذكرى حادث الإسراء والمعراج).

ولا ريب في أن البطل قد ولد في ليلة المعراج، فدعاه أبوه (عروج) تيمناً بذلك الحادث العظيم، كما يطلق الأتراك كثيراً على مواليدهم الذين يولدون خلال تلك الأشهر الحرم أسماء (رجب وشعبان ورمضان ومحرم). ومعروف أن الأتراك لا ينطقون حرف العين، بل يقلبونها ألفاً يندمج مع ما بعده. فمدينتنا (عشاق وعين أونى) مثلاً وهما في بلادهم تلفظان حسب نطقهم (أوشك وأين أونى) وكلمة (عروج) ينطقون بها (أروج). وهذا هو الاسم الذي اشتهر به بطلنا شرقاً وغرباً. وقبل أن يرجع الجزائريون هذا الاسم إلى أصله العربي، ويعيدون له (عينه) نطقاً، كانوا في مستهل الفتح يكتبونه على الطريق التركية (أوروج) ويدل على ذلك أثران

(١) حرب الثلاثمائة سنة - أحمد توفيق المدني - ص ١٥٩ - ١٦١ و ١٩٢ - ١٩٥.

قديمان، لا يزالان موجودين إلى اليوم: أحدهما: الرخامة المنقوشة والتي كانت موضوعة على باب حصن شرشال. وثانيهما: الرخامة المنقوشة التي كانت على باب مسجد الشواش بالعاصمة الجزائرية. فرخامة شرشال قد نقش عليها:

(بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله - هذا برج شرشال أنشأه القائد محمود بن فارس التركي، في خلافة الأمير القائم بأمر الله، المجاهد في سبيل الله، أوروغ بن يعقوب، بإذنه، بتاريخ أربع وعشرين بعد تسعمائة^(١)).

أما رخامة مسجد الشواش الذي هدمه الفرنسيون، والذي كان على مقربة من ساحة الشهداء في الجزائر فهي تحمل اسم أوروغ بن أبي يوسف يعقوب التركي. ويظهر من ذلك أن والد البطلين المنقذين كان تركياً صميماً وأمهما سيدة أندلسية كان لها الأثر على أولادها في تحويل نشاطهم شطر بلاد الأندلس التي كانت تئن في ذلك الوقت من بطش الإسبان والبرتغاليين. وكان لعروج وخير الدين أخوان آخران مجاهدان هما إسحاق ومحمد المعروف بإلياس خلافاً لما يدعيه كثير من مؤرخي الإفرنج ويمكن أن يضاف إلى ذلك بعض المعلومات التي يمكن استنباطها من الرخامة الموجودة بمتحف مدينة الجزائر، والتي كانت موضوعة فوق باب المسجد الذي أمر ببنائه في الحضرة الجزائرية السلطان خير الدين وهذا نصها:

(بسم الله الرحمن الرحيم ﴿فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦] أمر ببناء هذا المسجد المبارك السلطان المجاهد في سبيل رب العالمين مولانا خير الدين بن الأمير الشهير المجاهد أبي يوسف يعقوب التركي. بلغه الله سؤله، وأعانه على جهاد عدو الله ورسوله. بتاريخ أوائل جمادى الأولى من عام ستة وعشرين وتسعمائة^(٢) أي نسيان - أبريل - سنة ١٥٢٠ م).

ولقد سقط (عروج) فوق ثرى الجزائر الطهور، ولم يصدق الأعداء حصولهم على مثل ذلك النصر، فما كان من الإسبانين الحانقين إلا أن احتزوا رأسه وساروا

(١) خير الدين باربروس لبسام العسلى ص ١٨٧.

(٢) انظر المصدر السابق حرب الثلاثمائة سنة نفس الصفحات.

به توجّه نحو وهران، ومن هنالك سير بها إلى إسبانيا، حيث طيف بها خلال أغلب المدن الأوربية التي كانت فرائصها ترتعد من مجرد ذكر اسم (باربروس)، أما ثيابه المزركشة التي تركها في تلمسان، فقد أخذت إلى إسبانيا، وطيف بها أيضاً أغلب المدن قبل إيداعها في معتكف (سان جيروم) القرطبي. ويذكر أن جثمانه حمل إلى العاصمة (الجزائر) بعد ذلك حيث دفن بجوار ضريح (سیدی رمضان). وقبره عن يمين الداخل متصلاً بجدار المسجد^(١).

ومضى الشهيد المجاهد إلى (جنة الخلد) تاركاً للدنيا ذكراً خالداً قيل عنه:

(كان للشقيقين - عروج وخير الدين - من الإقدام والجرأة، مقدار يفوق المتعارف عند الرجال، وكان لهما من الدهاء السياسي الخارق للعادة، ما يجعل الناس مشدوهين من وجود مثله عند رجلين لم تؤهلتهما ثقافتهما البدائية ليقوما بهذا الدور العظيم، دور قيادة الشعوب).

وهكذا كانت الخاتمة البطولية لهذا القرصان المغامر الذي لا نتمالك أنفسنا عن الإعجاب بإقدامه وبجرأته النادرة، كما نعجب أيما أعجاب بهذه العبقرية التي سادت أعماله في ميدان الحرب، وفي ميدان تنظيم الدولة. كما إننا نستنكر إلى جانب إعجابنا هذا كل الاستنكار، ما كان متصفاً به من مصانعة ومن قسوة فظيعة.

تلك كانت كلمات المؤرخ بيشو في كتابة - تاريخ شمال إفريقيا. ولكن لا بد من التوقف قليلاً عند عبارته الأخيرة التي وصف بها (عروج) بالقسوة الفظيعة، فهل كانت (قسوة الإسبانيين) أقل فظاعة وهم يجتاحون (وهران)؟ أم هل كانت بالمستطاع مجابهة تلك الوحشية - بإنسانية؟ المهم أن أقنعة الإنسانية هي أقنعه غريبة الألوان، غريبة الأشكال، وفقاً للوجوه التي تتقنعها.

والمهم في الأمر متابعة ما قاله المؤرخ - دي قرامون - في كتابه (تاريخ الجزائر تحت حكم الأتراك) حيث ذكر ما يلي: (لا يرى كثير من المؤرخين في - عروج -

(١) المصدر السابق ص ١٨٨.

أكثر من زعيم عصابة - لا غير - وإننى لا أعرف حكمًا جائرًا مخالفًا للحقيقة كمثّل هذا الحكم. فإن الباربروس الأول - عروج - ما كان إلا جنديًا من جنود الإسلام المغاوير، جاهد فوق متن البحار جهادًا لا هوادة فيه، ضد أعداء ملكه، وضد أعداء دينه. على أنه كان ملتزمًا خلال جهاده هذا، بكل القواعد والأسس التى كان العمل جرياً بها خلال تلك الحقبة من التاريخ، فلم يكن أبداً أكثر قسوة ولا أقل قسوة من الأعداء الذين كان يمعن فى محاربتهم، وعندما سنحت له الفرصة، وأمكنته غزواته من جمع قوة كافية حوله، تمكنه من القيام بجلال الأعمال، حاول إنشاء إمبراطورية فى الشمال الإفريقى، حيث كانت الفوضى ضاربة أطنابها.

أما الوسيلة الوحيدة التى كانت تمكنه من إدراك تلك الغاية وتضمن له البقاء والاستمرار، إنما هى إبعاد المسيحيين عن البقاع التى يحتلونها فى البلاد. ومن أجل تحقيق هذا الهدف أخذ يحارب المسيحيين قبل كل شىء، فى شخص حلفائهم والخاضعين لهم، حتى يقطع عن النصارى كل طريق يتزودون منه، ويضطرهم بذلك إلى الاعتماد خاصة على ما يرد عليهم من إسبانيا. ولقد كانت بداية أمره سعيدة. ولقد مات مأسوفاً عليه كل الأسف من قبل جميع الذين انضوا تحت رايته وعملوا تحت لوائه).

أما المؤرخ الكبير (شارل أندرى جوليان) فيقول فى مؤلفه (تاريخ الشمال الإفريقى):

(وهكذا انتهت فى سن الرابعة والأربعين، هذه الحياة المجيدة فى ميدان المغامرة، إنه هو الرجل الذى أنشأ القوة العظيمة لمدينة الجزائر وللبلاد البربرية - إنه بنظرة صادقة لا تخطئ، وهى نظرتة المعتادة، قد أدرك مدى ما تستطيع أقلية عاملة تحقيقه فى وسط ملئ بالمنافسات بين مختلف الإمارات المغربية، لكى يؤسس على حساب تلك الإمارات، دولة إسلامية قوية، لا تستطيع أن تنالها بسوء هجمات النصارى. وعلى هذه الصفة تمكن من بسط سلطانه على جهات متيجة (أو متوجة

- بضم وفتح التاء والواو والجيم) ووداي شلف وتيطرى والظهرة والونشريس ثم تلمسان، ونسف مملكة بنى زيان نسفاً لم تقم لها من بعده قائمة، وكانت مآثرته هذه تتلاشى وتضمحل، لو لم يتلقفها ويحتضنها شقيقه خير الدين، الذى سار بها فى طريق النجاح والكمال). تلك هى كلمات قليلة لا يمكن لها أبداً أن تفى المجاهد الشهيد بعض حقه.

ويمكننا أن نبرز بعضاً من مآثره:

- ١- إبرازه أهمية الجهاد فى البحر.
 - ٢- إعداد أخيه (خير الدين) لمتابعة دوره.
 - ٣- انصرافه الكلى لإقامة الجزائر وتنظيمها بالتعاون مع شعبها وبإرادته ودعمه وتأييده، وكان فى ذلك انتصاره الكبير الذى مهد لهذا الوطن العربى المسلم سبيل بناء المستقبل، وضمن له القدرة لمقاومة الحملات الصليبية طوال خمسمائة عام تقريباً (من الاستعمار الإيبانى ثم الاستعمار الفرنسى).
- ولقد كان عدد المجاهدين من الأتراك العثمانيين قليلاً، وهنا يبرز الدور العظيم الذى اضطلع به الشعب الجزائرى العربى المسلم عبر تاريخه الطويل، وما قدمه من تضحيات، وما تحمله من نوائب. وبقي ذكر (عروج) خالداً فى طليعة الشهداء الخالدين. ومضت قوافل الشهداء فكانت تضحياتها بحق هى المنارات التى أضاءت لها دنيا الجزائر (المحروسة الخالدة). وقد يتبادر إلى الذهن هذا التساؤل المهم حول النشاط البحرى لذلك الرجل فنقول:

ما الأسباب التى دفعت الأخوين لنقل جهادهما إلى صراع القوى المسيحية فى بلاد الأندلس وشمالي إفريقيا؟

نشأ الأخوان يجاهدان فى محيط مسقط رأسيهما منذ ١٥١٠م، وكان الصراع فى بقعة محدودة هى بحر الأرخبيل لكن على ما يبدو أن ضراوة الصراع بين القوى المسيحية فى بلاد الأندلس وفى شمالي إفريقيا بين المسلمين هناك، والذى

اشتد ضراوة في مطلع القرن السادس عشر، هو الذي استقطب الأخوين لينقلا نشاطهما إلى هذه المناطق، وبخاصة بعد أن تمكن الإسبان والبرتغاليون من الاستيلاء على العديد من المراكز والموانئ البحرية في شمالي إفريقيا.

وقد حقق الأخوان العديد من الانتصارات على القراصنة المسحيين، الأمر الذي أثار إعجاب القوى الإسلامية الضعيفة في هذه المناطق، ويبدو ذلك من خلال منح السلطان (الحفصي) لهم حق الاستقرار في جزيرة جربة التونسية، وهو أمر عرضه لهجوم إسباني متواصل اضطره لقبول الحماية الإسبانية بالضغط والقوة، كما يبدو من خلال استنجد أهالي هذه البلاد بهما وتأثيرهما داخل بلادهم مما أسهم في وجود قاعدة شعبية لهما تمكنهما من حكم الجزائر وبعض المناطق المجاورة. فهل كان تواجد الأخوين في الجزائر ينم عن دلالة حب أم دلالة خوف من بطش هذين الرجلين، والسؤال بمعنى آخر: هل كان دخول عروج وأخيه الجزائر برغبة من أهلها أم دخلاها مكرهين لهم؟

ويرى بعض المؤرخين أن دخول (عروج) وأخيه الجزائر وحكمهما لها لم يكن بناء على رغبة السكان، ويستند هؤلاء إلى وجود بعض القوى التي ظلت تترقب الفرص لطرد الأخوين والأتراك المؤيدين لهما، ولكن بعض المؤرخين الآخرين يرون أن وصول (عروج) وأخيه كان بناء على استدعاء من سكانها لنجدتهم من الهجوم الإسباني الشرس، وأن القوى البسيطة التي قاومت وجودهما كانت تتمثل في بعض الحكام الذين أبعادوا عن الحكم أمام محاولات الأخوين الجادة في توحيد البلاد، حيث كانت قبل وصولهما أشبه بدولة ملوك الطوائف في الأندلس، وقد ساند أغلب أهل البلاد محاولات الأخوين واشتركت أعداد كبيرة منهم في هذه الحملات، كما ساندتهما العديد من الحكام المحليين الذين شعروا بخطورة الغزو الصليبي الإسباني.

وبظهور دور الأخوين المجاهدين في محاولة تحرير بجاية من الحكم الإسباني سنة (١٥١٢م)، يكونان قد نقلا - لهذا الغرض - قاعدة عملياتهما ضد القوات

الإسبانية في ميناء جيجل شرقى الجزائر بعد أن تمكنا من دخولها وقتل حمايتها الجنوبيين سنة (١٥١٤ م) لكى تكون محطة تقوية لتحرير بجاية من جهة ولمحاولة مساعدة مسلمي الأندلس من جهة أخرى، ويبدو أن الأخوين قد واجها تحالفًا نتج عنه العديد من المعارك النظامية وهو أمر لم يتعوداه لكن أجبرا عليه بفعل الاستقرار في حكم الجزائر، وزاد من حرج الموقف قتل (عروج) فى إحدى المعارك سنة (١٥١٨م)، مما اضطر خير الدين للبحث عن تحالف القوى المرشحة لهذا التحالف سواء لدورها البارز فى ساحة البحر المتوسط، أم لأن القوى المحلية فى الشمال الإفريقى كانت متعاطفة معها وتتابع انتصاراتها على الساحة الأوربية منذ فتح القسطنطينية، كما أن الاتجاه لمحالفتها سيكسب دور خير الدين مزيداً من التأييد من قبل هذه القوى، وإلى جانب ذلك فإن الدولة العثمانية قد أبدت استجابة للمساعدة حين طلب الأخوان ذلك، كما أبدت رغبتها فى مزيد من المساعدة لدوره، وكذلك لبقايا المسلمين فى الأندلس، ومن منظور دينى أسهم فى إكساب دورها تأييداً جماهيرياً، وجعل محاولة التقرب منهما أو التحالف معهما عملاً مرغوباً^(١).

ومن جهة أخرى كانت الظروف فى الدولة العثمانية فى عهد السلطان سليم الأول مهيأة لقبول هذا التحالف، وبخاصة بعد أن اتجهت القوات العثمانية إلى الشرق العربى، وكان من أبرز أهدافها فى هذا الاتجاه - كما سبق التوضيح - هو التصدى لدور البرتغاليين والإسبان وفرسان القديس يوحنا فى المنطقة، وكان من المنطقى التحالف مع أى من القوى المحلية التى تعينها على تحقيق هذه الأهداف.

وقد رغب الأخوان فى التحالف مع العثمانيين وأن يكونا من أتباعهم، فمتى اتجه الأخوان للتحالف مع العثمانيين؟ وما أثر ذلك التحالف فى صراعات القوى فى حوض البحر المتوسط؟

اختلف علماء التاريخ حول بداية التحالف بين العثمانيين والأخوين عروج وخير الدين، فتذكر بعض المراجع أن السلطان سليماً الأول كان وراء إرسالهم إلى

(١) الدولة العثمانية المفترى عليها ج ٢ ص ٩٠٢.

الساحل الإفريقي تلبية طلب المساعدة من سكان الشمال الإفريقي، وعملاً على تعطيل أهداف البرتغاليين والإسبان في منطقة البحر المتوسط، وعلى الرغم من عدم تداول هذه الرواية بين المؤرخين، إلا أنها توضح أن العثمانيين لم يكونوا بمعزل عن الأحداث التي تدور على ساحة البحر المتوسط.

ويرجع بعض المؤرخين التحالف بين الجانبين إلى سنة (١٥١٤م) في أعقاب فتح عروج وخير الدين لميناء (جيجل)، حيث أرسل الأخوان إلى السلطان سليم الأول مجموعة من النفائس التي استوليا عليها بعد فتح المدينة، فقبلها السلطان ورد لهما الهدية بإرسال أربع عشرة سفينة حربية مجهزة بالعتاد والجنود، وكان هذا الرد من السلطان العثماني يعكس رغبته في استمرار نشاط دور الأخوين ودعمه، على أن بعض المؤرخين يذكرون أن الدعم العثماني لهذه الحركة كان في أعقاب وفاة (عروج) سنة (١٥١٨م) وبعد عودة السلطان العثماني من مصر إلى إستانبول سنة (١٥١٩م)^(١).

على أن الرأي الأكثر ترجيحاً أن الاتصالات بين العثمانيين وهذه الحركة كان سابقاً لوفاة عروج وقبل فتح العثمانيين للشام ومصر، وذلك يرجع إلى أن الأخوين كانا في أمس الحاجة لدعم أو تحالف مع العثمانيين بعد فشلهما في فتح (بجاية)، كما أنهما حوصرا في (جيجل) بين الحفصيين الذين أصبحوا من أتباع الإسبان وبين (سالم التومي) حاكم الجزائر الذي ارتكز حكمه على دعم الإسبان له هو الآخر، فضلاً عن قوة الإسبان وفرسان القديس يوحنا التي تحاصروهم في البحر، فكان لوصول الدعم العثماني أثره على دعم دورهما وشروعهما في دخول الجزائر برغم هذه العوامل، حيث اتفق العثمانيون مع الأخوين على ضرورة الإسراع بدخولها -أي الجزائر- قبل القوات الإسبانية لموقعها الممتاز من ناحية وكى يسبقوا الإسبان إليها، ليتخذوها قاعدة بهدف تخريب الموانئ الإسلامية الواقعة تحت الاحتلال الإسباني كبجاية وغيرها من ناحية أخرى.

(١) الدولة العثمانية للصلابي ص ٢٥٨.

وقد تمكن عروج من دخول الجزائر بفضل هذا الدعم وقتل حاكمها بعد أن تأكد من مساعيه للاستعانة بالقوات الإسبانية، كما تمكن من دخول ميناء شرشال، واجتمع له الأمر في الجزائر، وبويع في نفس السنة التي هزمت فيها القوات المملوكية أمام القوات العثمانية في الشام سنة (١٥١٦م) في موقعة مرج دابق. ولم يكن من الممكن للأخوين أن يقوموا بهذه الفتوحات لولا تشجيع السلطان العثماني ودعمه إلى جانب دعم شعوب المنطقة وقد سبق أن فشلا في دخول بجاية أمام نفس القوات المعادية.

خير الدين باربروس:

قتل عروج عام ١٥١٨م إثر معركة نشبت بينه وبين الإسبان^(١)، ثم خلفه على حكم الجزائر أخوه «خير الدين» وأمدّه السلطان سليم الأول بقوة تقدر بألفى جندي مزودين بمدافعهم وذخائرهم وعددهم الحربية الكاملة، ومن ثم أصبحت تحت إمرته قوة عامة بلغت حوالي أربعة آلاف جندي من الترك والقوات الأخرى الموالية له فكون منهم «الأوجاق» أي قوة الجزائر الحربية^(٢).

وتألق نجم «خير الدين باربروسا» منذ ذلك الحين وتجمعت حوله كوكبة من أمهر البحار الأتراك أمثال: طرغود، وصالح ريس، وسانان اليهودي، وإيدين ريس، وغيرهم من المغامرين الذين عرفوا بالجرأة والشجاعة، وانضم إليهم المغامرون والمجاهدون من أنحاء كثيرة ولا سيما المهاجرون من الأندلس وبسط هؤلاء البحارة سطوتهم على معظم جنبات البحر المتوسط وقاموا بشن غاراتهم على الشواطئ الإيطالية والإسبانية^(٣).

وتوالت غاراته الجريئة على الشواطئ الإسبانية بصورة تفوق كل وصف وتدعو إلى الإعجاب والدهشة مما دفع الحكومة الإسبانية أن تخلى معظم سواحلها من السكان عندما عجزت أن تجد سبيلا إلى قمع تلك الغارات أو التخلص منها.

(١) يوسف فهمي الجزايري، أرض البطولة، الجزائر، الوكالة العربي للنشر سنة ١٩٦٤م ص ٣٤٣.

(٢) المصدر السابق ص ٣٤٤.

(٣) عنان نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ص ٣٦٩.

وتشيد الروايات العربية بالدور الذي قام به خير الدين باربروسا في استجابته لصريخ العرب المستضعفين في إسبانيا عندما اشتدت عليهم وطأة الإسبان وذلك لإكراههم على التنصر، فكان يرسل بحريته للإغارة على سواحل إسبانيا ثم تعود سفنه مثقلة بالمسلمين المهاجرين حتى بلغ ما نقلته سفنه منهم إلى شواطئ المغرب العربى ما يقرب من السبعين ألفاً^(١).

وهكذا لبثت الغارات البحرية التي قام بها «خير الدين» ورجاله عصراً طويلاً وقد كثر عبثها واشتدت وطأتها على الشواطئ الإسبانية وأعاقت حركة أساطيلها وجمدتها في مراسيها، مما حدا بالحكومة الإسبانية إلى إعداد حملة بحرية كبيرة للقضاء على «خير الدين» وتصفية نشاطه البحري فدعت إسبانيا حلفاءها وأنصارها من الكاثوليك لهذا الهدف وجعلت منها حرباً مقدسة لإعادة هيتها ونفوذها إلى البحر المتوسط، وما عسى أن تفعل تلك الأساطيل مجتمعة أمام مناورات باربروسا ملك البحار.

تولى رئاسة الأسطول بعد موت أخيه وسار على الدرب على خير ما يكون، وقد تردد خير الدين في قبول إمارة الجهاد بعد أخيه ولكن أهل الجزائر ألحوا عليه إلحاحاً شديداً حتى قبل ذلك، وعلى ما يبدو أن خير الدين كان يود الذهاب إلى إستانبول والبقاء فيها ولكنه قبل إمارة البحر بعد إلحاح كما قلنا، واستمع إليه وهو يقول: (بقيت منفرداً دون إخوتي الذين استشهدوا جميعاً فوق أرض الجزائر وقد رأيت ما فعله بنا صاحب تلمسان من بنى زيان واستعانته علينا بغير ملتنا حتى كفانا الله أمره وصاحب تونس (الحفصى) الذي لا يرى ضرورة نصرتنا وإعانتنا والذي أسلمنا للعدو بمنع البارود عنا أثناء حملة بجاية^(٢))، وقد أبدى خير الدين مشورة لأهل الجزائر بأن يتحالفوا مع القوة الإسلامية الكبرى وهي قوة السلطان

(١) راجع مغامرات عروج وخير الدين في كتاب غزوات عروج، وخير الدين. الجزائر ١٩٣٤م ص ١٩، ٤٨، ٨١، ٨٢، وكذلك نهاية الأندلس عنان ص ٣٦٩، ٣٧٠. وأرض بطولة الجزائر ص ٣٤٤ وما بعدها.

(٢) خير الدين باربروس بسام العسلى ص ١٠٧.

سليم خان العثماني آنذاك، ومن هنا قرر الجزائريون أن تكون دولتهم الفتية جزءاً من الدولة العثمانية الضخمة.

بعد أن بويغ (خير الدين) في الجزائر في أعقاب ما حققه من انتصارات على الإسبان والزعماء المحليين المتحالفين معهم، أصبح محط كثير من الولايات والموانئ التي كانت وما زالت خاضعة سواء للإسبان أو لعمالئهم، وكان أول الذين طلبوا نصرته أهل تلمسان، مع أن استنجد الأهالي كان من الممكن أن يكون كافياً لتدخل (خير الدين) إلا أن موقع تلمسان الإستراتيجي الذي كان يجعل وجود (خير الدين) في الجزائر غير مستتب قد جعله يفكر في التدخل قبل أن يطلب الأهالي نجده، وأن مطالبهم قد دعتة للتعجيل بذلك^(١).

وأعد (خير الدين) جيشاً كبيراً زحف به إلى تلمسان سنة (١٥١٧م) وأمن الطريق إليها، وبعد أن نجح في السيطرة عليها تمكن الإسبان وعمالئهم من بنى حمود من استعادتها، ولقى أحد إخوة (خير الدين) حتفه وهو (إسحاق) كما قتل (عروج) وكثيرون من رجاله أثناء حصارهم للمدينة، ذلك الحصار الذي امتد لسته أشهر أو يزيد، امتد حتى سنة ١٥١٨م. وقد تركت هذه الأحداث أثراً بالغاً في نفس خير الدين، مما دفعه إلى التفكير في ترك الجزائر لولا أهلها ألحوا عليه بالبقاء، وكانت موافقته على البقاء تفرض عليه بذل المزيد من الجهد خشية أن يهاجمه الإسبان ومؤيدوهم، كما أن ذلك قد أدى إلى مزيد من الارتباط بالدولة العثمانية، وبخاصة بعد أن دالت لها مصر والشام، فكان ذلك يؤكد احتياج الجانبين إلى مزيد من الارتباط بالآخر.

توزع جهاد خير الدين على جبهتين في وقت واحد:

اتجهت اهتمامات خير الدين بربروس إلى مواجهة التحديات التي كانت تنتظره وتعوق مسيرته نحو تحقيق أمله، ولقد توزعت اهتماماته على جبهتين دار فيهما

(١) الدولة العثمانية للصلاحي ص ٢٥٨.

الصراع ليستظم وضعه السياسى والعسكرى والذى ظهر له فى الجزائر. وهاتان الجبهتان هما:

١- الصراع مع الجبهة الإسبانية: لطرد الإسبانين من الجيوب التى أقاموها فضم إليه عنابة وقالة فى شرقى الجزائر، وحقق انتصاراً باهراً على الإسبانين حين استولى عام ١٥٢٩م على حصن بينون الإسبانى المقام على الجزائر المواجهة لبلدة الجزائر، وقد كان قد استمر يقصف الحصن بقذائف مدافعة طوال عشرين يوماً حتى تداعت جوانبه، ثم اقتحم الحصن مع قوات كثيفة العدد كانت تحملها خمس وأربعون سفينة جاءت من الساحل، وأسر قائد الحصن مع كبار ضباطه.

إن استيلاء خير الدين على الينون سنة ١٥٢٩ م بعد بداية تأسيس ما عرف باسم نيابة الجزائر، ومنذ ذلك التاريخ أصبح ميناء الجزائر عاصمة كبرى للمغرب الأوسط، بل ولكل شمال إفريقيا العثمانية فيما بعد، وبدأ استخدام مصطلح الجزائر للدلالة على إقليم الجزائر حتى نهاية القرن الثامن عشر.

٢- الصراع فى الجبهة الداخلية: وكانت تتمثل فى محاولة توحيد المغرب الأوسط التى لم تخل من مؤامرات بنى زيان والحفصيين ومن بعض القبائل الصغيرة، ولكنه استطاع مد منطقة نفوذه باسم الدولة العثمانية ودخلت الإمارات الصغيرة تحت السيادة العثمانية لكى تحتمى بهذه القوة من الأطماع الصليبية الإسبانية ومن قهرها على اعتناق النصرانية، وما لبث أن مد خير الدين النفوذ العثمانى إلى بعض المدن الداخلية المهمة مثل القسطنطينية^(١).

لقد نجح خير الدين فى وضع دعائم قوية لدولة فتية فى الجزائر، وكانت المساعدات العثمانية تصله باستمرار من السلطان القانونى واستطاع خير الدين أن يوجه ضرباته القوية للسواحل الإسبانية، وكانت جهوده مثمرة فى إنقاذ آلاف المسلمين فى إسبانيا، فقد قام عام (٩٣٦هـ / ١٥٢٩م) بتوجيه ست وثلاثين سفينة خلال سبع رحلات إلى السواحل الإسبانية كما قلنا سابقاً فى الحوض الغربى

(١) عبد العزيز الشناوى. الدولة العثمانية.. ج٢ مربع سابق ص ٩١٢، ٩١٣.

للبحر المتوسط، وبفضل الله ثم مساعدات الدولة العثمانية وموارد خزانة الجزائر المتنوعة من ضرائب وسبي ومغانم وزكاة والعشر والجزية والفىء والخراج وما يقوم به الحكام ورؤساء القبائل والعشائر من دفع العوائد وغيرها أصبحت دولة الجزائر لها قاعدة اقتصادية قوية.

لقد تضررت إسبانيا من نجاح خير الدين في الشمال الإفريقي، وكانت إسبانيا يتزعمها شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة والتي كانت تضم وقتذاك إسبانيا وبلجيكا وهولندا وألمانيا وإيطاليا، وكانت الدولة الرومانية المقدسة تدفع عن أوروبا المسيحية الخطر العثماني نحو شرق ووسط أوروبا، لذا يمكن القول بأن الصراع بين شارل الخامس وبين بيليربكية الجزائر كان بمثابة فتح جبهة حربية جديدة ضد الدولة العثمانية في الشمال الإفريقي؛ لذلك لم يكتف شارل بالهجوم المفاجئ على سواحل الجزائر، بل أرسل مبعوثاً للتجسس في شمال إفريقيا سنة ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م، وهو الضابط (أوشوا دوسلا) الذي طاف بأنحاء تونس وهناك وجد استعداد الحفصيين للتعاون مع شارل الخامس، وحذر من امتداد النفوذ العثماني على تونس، وذكر أن هذا الاستيلاء سيسهل على العثمانيين السيطرة على إفريقيا، ثم يتجهون بعد ذلك لاسترداد الأندلس، وهذا ما يخشاه العالم المسيحي.

كانت سياسة المملكة الحفصية في تونس تسير نحو انحطاط مستمر، كان السلطان الحفصي الحسن بن محمد قد أساء السيرة في البلاد وقتل عدداً من إخوته فاضطربت الأحوال في تونس وخرج البعض عن طاعة السلطان الحفصي، وكان أخو الحسن المسمى بالأمير الرشيد قد هرب من أخيه خوفاً من القتل، ولجأ عند العرب في البادية، ثم ذهب إلى خير الدين في الجزائر، وطلب منه الحماية والعون ضد أخيه، فمنحه ذلك خير الدين، الذي كان مركزاً اهتمامه على تونس، بسبب ضعف الحفصيين والخلافات الداخلية التي مزقت الأسرة الحفصية، كما كان لتونس - في نظره - أهمية إستراتيجية كبيرة؛ لإشرافها على المضيق الصقلي، بحيث تسمح له السيطرة عليها في تحديد وقطع المواصلات بين حوضي المتوسط الشرقي

والغربي، بالإضافة إلى رغبة خير الدين في توحيد بلاد المغرب تحت حكم الدولة العثمانية ليتمكنوا من استرداد الأندلس.

تفاهم بين السلطان العثماني وخير الدين استعداداً لاسترداد الأندلس:

تباينت آراء المؤرخين حول جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، فمنهم من ينفي أية جهود من جانب الأتراك لإنقاذ المسلمين في الأندلس، بينما يرى البعض منهم أنه قد قام الأتراك بتلبية مطالب الموريسكيين وقد استجابوا لاستغاثتهم، وقد قدموا جهوداً لا بأس بها وفق الظروف الطارئة آنذاك، فقد كانت تلك الجهود بهدف استرداد الأندلس مرة أخرى.

عزم السلطان سليمان القانوني - بعد أن استولى على بلغراد - السفر بسائر جنوده إلى إسبانيا للاستيلاء عليها، وبدأ للسلطان سليمان أنه لا بد له من رجل يعتمد عليه في دخول تلك البلاد على أن يكون عالماً بأحوالها، فوقع اختياره على خير الدين لما يعرفه عنه من شجاعة وإقدام، وكثرة هجمومه على تلك النواحي، وما فتحه من بلاد العرب في الشمال الإفريقي، وكيف أقر الحكم العثماني فيها، فوجه إليه خطاباً يطلبه فيه إلى حضرته، ويأمره باستنابة بعض من يأمنه في الجزائر، وإن لم يجد من يصلح لذلك يبعث إليه نائباً، وبعث ذلك الخطاب مع رجل يدعى سنان جاوشى، فوصل الجزائر، وأوصل خطاب السلطان إلى خير الدين فقبله، ووضع فوق رأسه، ولما قرأه وعلم ما فيه نصب ديواناً عظيماً، وأحضر كافة العلماء والمشايخ، وأعيان البلاد، وقرأه عليهم، ولما سمع أندريا دوريا زعيم الأسطول النصراني في البحر المتوسط بما عزم السلطان عليه من فتح إسبانيا واستقدام خير الدين من الجزائر، لذلك أراد أن يشغل خير الدين من سفره إلى حضرة السلطان، وأشاع بين الأسرى المسيحيين في الجزائر عن عزم الحكومة الإسبانية في الهجوم على الجزائر وتخليصهم من الأسر، فخرج الأسرى الإسبان لذلك الخبر، وتمردوا على خير الدين، الذي رأى أن من المصلحة العامة إعدام

أولئك الأسرى ليأمن غائلتهم، ثم قام بتقوية الاستحكامات في الجزائر، وزاد من عدد القلاع مظهرًا أتم الطاعة للسلطان.

عزم خير الدين على السفر إلى إستانبول (٩٤٠ هـ - ١٥٣٣ م) وعين مكانه حسن أغا الطوشي، وكان رجلاً عاقلاً وصالحاً، صاحب علم واسع. أبحر خير الدين شرقاً في البحر المتوسط وبرفقته أربع وأربعون سفينة، وهزم في طريقه فرقة من أسطول آل هابسبرج بالقرب من المورة، واستمر خير الدين في رحلته ووصل إلى مدينة بيروازن، وفرح أهالي المدينة لمقدمه، وكانوا خائفين من هجوم أندريا دوريا، الذي ابتعد عندما سمع بمقدم خير الدين، ثم واصل خير الدين في سفره، ورسد مراكبه في قلعة أوارين (أنا وارييه) فصادف هنالك أسطولاً للسلطان سليمان القانوني، وفرحوا بذلك، ثم خرجوا جميعاً حتى وصلوا إلى قرون، ثم كتب خير الدين إلى السلطان، يعلمه بوصوله، ويستأذنه بالقدوم على حضرته، فوجه إليه السلطان خطاباً يستحثه بالقدوم عليه، أقال خير الدين من قرون، ولم يزل مسافراً حتى وصل إلى إستانبول، ورسا بها، ورموا بالمدافع كما هي العادة في ذلك، ومثل خير الدين بحضرة السلطان، ووقف بين يديه، فأمر بأن يخلع عليه وعلى خواص أصحاب الجرايات الوافرة، وأنزلهم بقصر من قصوره، وفوض إليه النظرة الكاملة؛ لمساندة النظام في الجزائر؛ لتحقيق هدف الدولة في استعادة الأندلس.

كان الصدر الأعظم في ذلك الوقت في مدينة حلب، فسمع بقدوم خير الدين على السلطان، وقد كانت أنباء غزواته ونكايته بالمسيحيين تصل إليه، فاشتاق إلى لقاء خير الدين فوجه خطاباً للسلطان يلتمس منه أن يتوجه خير الدين لمقابلته، فأرسل السلطان خير الدين مخبراً عن رغبة الصدر الأعظم فأجابه خير الدين بالموافقة، وسافر وأنزله في بعض القصور المهيبة، وفي اليوم الثاني من وصول خير الدين وصل مبعوث من قبل السلطان، ومعه خلعة، وأمر بمقتضاه أن خير الدين من وزراء السلطان، ويلبس الخلعة، فنصب الديوان الأعظم وألبسوه خلعة الوزراء، واحتفل به احتفالاً مهيباً، وأكرم إكراماً عظيماً؛ لما قدمه من خدمات

للإسلام والمسلمين في حوض البحر المتوسط. ثم رجع خير الدين إلى إستانبول، وأكرمه السلطان سليمان غاية الإكرام، وشرع خير الدين فسي النظر في أمر دار الصناعة كما رسم له السلطان.

وبعد أن تم إعداد الأسطول العثماني الجديد خرج خير الدين باربروسا بأسطوله القوى من الدردنيل متجهاً نحو سواحل إيطاليا الجنوبية، فاستطاع أن يأسر الكثير منها، وأغار على مدنها وسواحلها، ثم اتجه نحو جزيرة صقلية، فاسترجع كورون وليانتو، وكان السلطان سليمان قد تشاور مع خير الدين باربروسا بأهمية تونس وضرورة دخولها في إطار إستراتيجية الدولة العثمانية، لتحقيق هدفها نحو استرداد الأندلس، وتأتي أهمية تونس بالنسبة إلى الدولة من حيث موقعها الجغرافي؛ إذ تقع في منتصف الساحل الشمالي لإفريقيا، وتوسطها بين الجزائر وطرابلس، ولقربها من إيطاليا التي تعتبر أحد جناحي الإمبراطورية الرومانية المقدسة، بينما يمثل الجناح الآخر إسبانيا، علاوة على ذلك مجاورتها لجزيرة مالطة مقر فرسان القديس يوحنا حلفاء الإمبراطور شارل الخامس وأشد الطوائف المسيحية عداوة للمسلمين، ثم الإمكانيات الهائلة التي تتيحها موانئ تونس في التحكم في المواصلات البحرية في البحر المتوسط، وهكذا تضافرت تلك العوامل على إضفاء الأهمية العسكرية على تونس.

وكانت المرحلة الثانية لخير الدين بعد هجومه على السواحل الجنوبية لإيطاليا وجزيرة صقلية هي تونس، وذلك لتنفيذ خطة الدولة، والتي تقتضي تطهير شمال إفريقيا من الإسبان كمقدمة لاستعادة الأندلس^(١)، إذ سبق أن أشار خير الدين باربروسا على السلطان سليمان القانوني في خطابه للسلطان الذي بعثه قبيل استدعاء السلطان له في ٩٤٠هـ - ١٥٣٣م، إذ قال فيه: إن هدفي إذا قدر لي شرف الاشتراك هو طرد الإسبان في أقصر وقت من إفريقيا، ومن الممكن أن تسمع

(١) محمد عبد الله عنان. نهاية الأندلس مرجع سابق ص ٣٨٢ - ٣٩٠. وانظر أيضًا الدكتور عبد العزيز الشناوي. الدولة العثمانية ج ٢ ص ٩٢٦.

بعد ذلك أن المغاربة قد أغاروا على الإسبان من جديد؛ ليستعيدوا مملكة قرطاجنة، وأن تونس قد أصبحت تحت سلطانك. إننى لا أبغى من وراء ذلك أن أحول بينك وبين توجيه قواتك ناحية المشرق، كلا؛ لأن هذا لن يحتاج إلى كل ما تملك من قوات، ولا سيما أن حروبك فى آسيا أو إفريقيا تعتمد أكثر ما تعتمد على قوات برية، أما هذا الجزء الثالث من العالم فكل ما أطلبه هو جزء من أسطولك، وسيكون ذلك كافياً؛ لأن هذا الجزء يجب أن يخضع لسلطانك أيضاً^(١).

وصل الأسطول العثماني تحت قيادة خير الدين إلى السواحل التونسية، فخرج على مدينة عنابة، وتزود ببعض الإمدادات، ثم تقدم نحو بنزرت، ثم اتجه إلى حلق الواد، إذ تمكن منها بدون صعوبة، واستقبل خير الدين من قبل الخطباء والعلماء وأكرموه، وتوجهوا إلى تونس فى نفس الوقت، وهرب السلطان الحفصى الحسن بن محمد إلى إسبانيا، ثم عين خير الدين الرشيد أخا الحسن بن محمد على تونس، وأعلن ضم تونس للأملاك العثمانية، فى وقت بدت فيه سيادة العثمانيين فى حوض البحر المتوسط الغربى.

أثر جهاد خير الدين على المغرب الأقصى؛

استفاد السلطان أحمد الأعرج السعدى من الجهود التى بذلتها الدولة العثمانية والشعب الجزائرى بقيادة خير الدين باربروسا، فقام بمحاصرة مدينة آسفى بأزمور، وذلك سنة (٩٤١هـ - ١٥٣٤م) وكادت المدينة أن تقع بيد السعديين لولا النجادات التى بعثها البرتغاليون للمدينة المحاصرة، وقد بدا وكأنهما تعاونا وقد حصل بين العثمانيين والقوى الإسلامية فى المغرب ضد المسيحيين ومركزهم فى الشمال الإفريقى، وعندما سمع الملك البرتغالى جان الثالث بوصول الأسطول فى (٣ ربيع الأول ٩٤١هـ / ١٣ سبتمبر ١٥٣٤م) بقيادة خير الدين باربروسا إلى الشمال الإفريقى فكر فى الجلاء عن بعض المراكز مثل سبتة وطنجة؛ باعتبارهما مناطق حيوية للدفاع عن مصالح المسيحيين فى غرب البحر المتوسط، ولصد الهجوم العثماني عن شبه الجزيرة الأيبيرية بعث الملك يوحنا الثالث استفتاء إلى جميع

(١) فتح العثمانيين عدن. محمد عبد اللطيف البحراوى ص ١٢٧.

الوجهاء والأعيان، والأساقفة في بلاده؛ يستشيرهم في موضوع الجلاء عن بعض مراكز الوجود البرتغالي في جنوبي المغرب، وكان المطلوب الإجابة عن الأسئلة الآتية: هل ينبغي ترك آسفي وأزمور للمغاربة؟ هل ينبغي الجلاء عنهما أو عن بعضهما؟ وإذا كان ينبغي الاحتفاظ بهما، هل تحول إلى حصون للتقليل من حجم المصروفات؟ ثم ما هي الأضرار الناتجة عن ذلك؟ وكيف نتفادها؟

تلقى الملك البرتغالي إجابات عديدة بين مؤيد في الإبقاء على المناطق الجنوبية في حوزة البرتغاليين وبين معارض، وكانت إجابات رجال الدين للملك جان الثالث موحدة تقريباً تضمنت النصح بالتخلي عن المراكز الجنوبية، ويحول الملك كل وسائل الدفاع الموجودة هناك إلى المركز الشمالي؛ لصد الخطر العثماني بقيادة خير الدين باربروسا، فأسقف ينصح بإخلاء سنتاكروز، وآسفي، أزمور؛ لأن أهميتها أقل بكثير من النفقات التي تصرف عليها، ويرى توجيه القوى ضد فاس، كما ينصح بتحسين وسائل الدفاع عن سبتة؛ خوفاً من هجوم خير الدين عليها.

إن للوجود العثماني في الجزائر أثر على موقف الملك البرتغالي في المغرب؛ إذ تراجع عن القيام بعمليات عسكرية فيه، كما أدخل استيلاء العثمانيين على تونس الحيرة لدى البابا، والإمبراطور شارل الخامس الذي اعتبر ذلك تهديداً مباشراً للمسيحية، ولخطوط مواصلاته البحرية مع أطراف مملكته، فوصل التهديد العثماني أقصاه، فضلاً عن أن الدولة العثمانية ضمنت السيطرة على الممرات الضيقة بين صقلية وإفريقيا.

عودة خير الدين إلى الجزائر:

عاد خير الدين إلى الجزائر بعد هزيمته في تونس، كما قلنا سابقاً واستقر أول الأمر بمدينة قسطنطينية، ومن هناك أخذ يستعد لاستئناف الجهاد ضد الإسبان في الجبهات التي يحددها، وكان لزاماً على خير الدين - وقد استقر مؤقتاً بمدينة الجزائر، نظراً لالتزاماته التي تفرضها عليه خطته الجديدة كقبودان باشا للأسطول الإسلامي العثماني - أن يشعر شارل الخامس بوجوده، وأن يرد على ضربة تونس

بضربة مثلها، فقام بالهجوم على جزر البليار الإسبانية وعلى سواحلها الجنوبية، فاجتاز مضيق جبل طارق، وأطلق العنان لنفسه بالانقضاض على السفن الإسبانية والبرتغالية العائدة من الأراضي الأمريكية، والمحملة بالذهب والفضة، فاهتزت لتلك الأحداث جميع الأوساط المسيحية، وأقلقت شارل الخامس الذي اعتقد أن خير الدين لن يقوى شأنه بعد حادثة تونس السابقة في (٩٤٢هـ - ١٥٣٥م)، ويعتبر ذلك هو رد الفعل على الهجوم المضاد الذي قام به الإسبان على تونس، وبدا وكأن الإمبراطورية الرومانية المقدسة قد طوقت من قبل خصومها الفرنسيين والعثمانيين، مما أدى إلى استئناف الحروب بينهما من جديد، كما صارت أهداف إسبانيا والبرتغال واحدة، وذلك في احتلال مراكز في بلاد المغرب، بالإضافة إلى خوفهم من تقدم العثمانيين داخل شبه الجزيرة الأيبيرية.

تلقى الملك أحمد الوطاس هزيمة (٩٤٣هـ - ١٥٣٦م) من السعديين في موقعة بير عقبة قرب وادي العبيد، بسبب تخلى قبائل الخلوط التي كادت تكون القوة الأمامية للجيش الوطاسي، ونشرت الفوضى في سائر الجيش، وإثر هذه الهزيمة تقرب أحمد الوطاسي من البرتغال، وذلك نتيجة شعوره بانشغال العثمانيين في حروبهم ضد الإسبان ووقع معهم معاهدة لمدة أحد عشر عاماً، تقضى بوضع المغاربة المقيمين في ضواحي أصيلا، وطنجة، والقصر الصغير تحت السلطة القضائية لملك فاس، كما يجوز لرعايا الملك الوطاسي المتاجرة بحرية داخل تلك المناطق، باستثناء تجارة الأسلحة والبضائع المحظورة، وإذا وصلت مراكب عثمانية، أو فرنسية، أو تابعة لمسيحيين من غير الإسبان ولا البرتغاليين إلى أراضٍ برتغالية، محملة بغنائم أخذت من المغاربة، فلن يشتري منها شيئاً وكذلك الحال بالنسبة إلى المغاربة، لن يشتروا من العثمانيين، ويتم الاستيلاء على الغنائم، وترد من طرف إلى آخر، ما لم يسمح قوات العدو في مهاجمتها.

حاول البرتغاليون كذلك عقد هدنة مع السعديين، فبعثوا وفداً إلى مراكش للتفاوض مع المولى أحمد الأعرج الذي استجاب لذلك، لأنه كان في حاجة إلى تنظيم أمور دولته الناشئة، لا سيما بعد الانتصارات التي حققها ضد خصومه

الوطاسيين في موقعة بير عقبة (٩٤٣هـ - ١٥٣٦م)، واتفق البرتغاليون مع السعديين لعقد هدنة يبنهما في (٢٥ ذى القعدة ٩٤٤هـ / ٢٥ أبريل ١٥٣٧م) لمدة ثلاث سنوات، مع إقامة تبادل تجارى بين رعايا الطرفين، كان هدف البرتغاليين من التقرب مع الوطاسيين والسعديين هو الحيلولة دون قيام تعاون حقيقى بين العثمانيين من ناحية، والوطاسيين والسعديين من ناحية أخرى، لأن أى تعاون من هذا القبيل معناه تهديد لمصالح شبه الجزيرة الأيبيرية في المغرب، والأهم من ذلك خوف إسبانيا والبرتغال من تقدم الدولة العثمانية داخل شبه الجزيرة الأيبيرية، وتحقيق هدفها في استرداد الأندلس^(١).

٢- المجاهد الكبير حسن أغا الطوشى:

اشتغل خير الدين باربروسا بحكم منصبه قبودان باشا بالعمل فى الأسطول العثمانى، وبدأ نشاطه فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط، بينما استمر حسن أغا الطوشى فى منصبه المستخلف عليه نائب البيلريك، يعمل على قهر القرصنة الأوربية، فأبلى فى سبيل ذلك البلاء الحسن، وصار شخصه فى الجزائر مثلاً بارزاً فى البطولة والتضحية الإسلامية فى سبيل الدفاع عن بلاد الإسلام فى الشمال الإفريقى، فاكسب الجزائر مهابة وجلالا، وجعلت الأمم المسيحية تهرع إلى عاقلها الأكبر الإمبراطور شارل الخامس، مستنجدة بسلطانه، منضوية تحت لوائه، ومن بينها البابا بول الثالث، وقد حاول شارل الخامس (٩٤٦هـ - ١٥٣٩م) عقد هدنة مع خير الدين إلا أنه خاب مسعاه مثلما خاب فى محاولته السابقة، عندما عرض على خير الدين سرّاً الاعتراف به حاكماً لشمال إفريقيا مقابل جزية بسيطة؛ إذ كان شارل الخامس يأمل فى قيام تحالف إسباني جزائري يجابه به التحالف الفرنسى العثمانى، ويعمل على فصل شمال إفريقيا عن إستانبول على أمل أنه إذا تحقق ذلك فلن تستطيع شمال إفريقيا إبداء مقاومة قوية يكون من السهل سقوطها.

(١) الدولة العثمانية للصلاحي ص ٢٧٣.

انهماك حسن أغا الطوشي في توطيد الأمن، ووضع الأسس للإدارة المستقرة ومحاولة جمع أطراف البلاد حول السلطة المركزية الجزائرية، فأخضع مدينة مستغانم لدولته، ثم تقدم نحو الجنوب الشرقي، فاستولى على عاصمة الزاب بكرة وملحقاتها، وشيد هناك حصناً، وأقام به حامية^(١).

ركب الجيش العثماني في شهر (جمادى الأولى ٩٤٩هـ / سبتمبر ١٥٣٩م) البحر، وكان قوامه (١٣٣٠ رجلاً) على ظهر ثلاث عشرة سفينة، واندفعوا منها إلى الإسبان، ثم نزل حسن أغا وجيشه إلى البر، فاحتل البلدة وتمكن منها، واستحوذ على ما فيها من خيرات وأرزاق وغنائم للمسلمين، وتوغل في جهات الساحل الإسباني الجنوبي، وغنم ما وقع تحت يده من أموال ومتاع الإسبان، ويختار من بينهم جماعات من الأسرى والسبايا، يسوقهم للبيع في المدن المغربية الشمالية خاصة تطوان، ثم يعود للميدان؛ وعندما أراد الرجوع إلى الجزائر اعترضت طريقه عمارة إسبانية كبيرة العدد وقامت المعركة بين القوتين، وكانت عنيفة قاسية، أسفرت عن غرق عدد من سفن الجانبين، ومع ذلك كانت خسائر الإسبان في هذه المعركة عظيمة.

عزم شارل الخامس على القيام بحملة عسكرية تستهدف القضاء على الجهاد الإسلامي في الخوض الغربي للبحر المتوسط، وقبل أن يشرع في تنفيذها كان هدوء نسبي يسود القارة الأوربية؛ إثر عقد هدنة نيس في محرم (٩٤٥هـ / يونيو ١٥٣٨م) مع فرنسا والتي كانت مدتها عشر سنوات، مكنت شارل الخامس أن يرسو أمام مدينة الجزائر في يوم الثامن والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة (٩٤٨هـ) الموافق الخامس عشر من شهر أكتوبر (١٥٤١م)، وعندما شاهدته حسن أغا الطوشي، اجتمع في ديوانه مع أعيان الجزائر وكبار رجال الدولة، وحثهم على الجهاد والدفاع عن الإسلام والوطن قائلاً لهم: «لقد وصل العدو عليكم؛ ليسبى أبناءكم وبناتكم، فاستشهدوا في سبيل الدين الحنيف، هذه الأراضي فتحت بقوة

(١) الدولة العثمانية للصلابي ص ٢٧٤.

السيف، ويجب الحفاظ عليها، ويعون الله النصر حليفنا، نحن أهل الحق^(١)...»، فدعا له المسلمون وأيدوه في جهاد العدو، ثم بدأ حسن أغا في إعداد جيوشه، والاستعداد للمعركة.

من ناحية أخرى بدأ الإسبان في تحضير متاريسهم، وتعجب شارل الخامس لاستعدادات حسن أغا وأراد أن يستهزئ به، فأمر كتابه بإعداد خطاب لحسن أغا، جاء فيه: (... أنت تعرفني أنا سلطان... كل ملة المسيحيين تحت يدي إذا رغبت في مقابلي سلمني القلعة مباشرة... أنقذ نفسك من يدي، وإلا أمرت بإنزال أحجار القلعة في البحار، ثم لا أبقى عليك، ولا سيدك، ولا الأتراك، وأخرب كل البلاد...)(٢).

وصل ذلك الخطاب إلى حسن أغا، وأجاب عليه: (... أنا خادم السلطان سليمان... تعال واستلم القلعة، ولكن لهذه البلاد عادة: أنه إذا جاءها العدو لا يعطى إلا الموت) وفي رواية: غزت إسبانيا الجزائر في عهد عروج مرة، وفي عهد خير الدين مرة، ولم تحصل على طائل، بل انتهت أموالها، وفنيت جنودها وستحصل المرة الثالثة كذلك إن شاء الله)(٣).

وفي الليلة ذاتها وصل إلى معسكر شارلكان رسول من قبل الجزائر يطلب إذنًا للسماح بحرية المرور لمن أراد من أهل الجزائر، وخاصة نساءها وأطفالها مغادرة المدينة عبر (باب الواد) وعرف (شارلكان) أن حامية الجزائر مصممة على الدفاع المستميت، وأنه من المحال احتلال الجزائر إلا إذا تم تدميرها تدميرًا تامًا، ولم يكن الإمبراطور قد أنزل مدفعية الحصار حتى تلك الساعة، فلم يتمكن بذلك من قصف الجزائر بالمدفعية، وفي الوقت نفسه كان المجاهدون يوجهون ضرباتهم الموجهة إلى القوات الإسبانية في كل مكان، حتى قال أحد فرسان مالطة في تقريره عن المعركة: لقد أذهلتنا هذه الطريقة في الحرب؛ لأننا لم نكن نعرفها من قبل)(٤).

وكانت أعداد المجاهدين تتعاضم باستمرار؛ بفضل تدفق مقاتليهم من كل مكان

بمجرد سماعهم بإنزال القوات الإسبانية، وكان المجاهدون يستفيدون في توجيههم لضرباتهم من معرفتهم الدقيقة بالأرض، واستخدامهم لمميزاتها بشكل رائع، وسخر الله لجنود الإسلام الأمطار، والرياح، والأمواج (وهبت ريح عاصفة، استمرت عدة أيام، واقتلعت خيام جنود الحملة، وارتطمت السفن بعضها ببعض، مما أدى إلى غرق كثير منها، وقذفت الأمواج الصاخبة ببعض السفن إلى الشاطئ، وهجم عليها المدافعون المسلمون، واستولوا على أدواتها وذخائرها، أما الأمطار فقد أفسدت مفعول البارود، وفي وسط هذه الكوارث حاول الإمبراطور مهاجمة مدينة الجزائر، إلا أن كل محاولاته باءت بالفشل). وظهرت بطولات رائعة من القائد (الحاج البشير) الذي استطاع بجنوده أن يحصد رءوس النصارى بشجاعة فائقة، وبسالة نادرة، وبطولة رائعة، لقد استطاعت القيادة العسكرية الجزائرية أن تستفيد من الوضع المحيط بالنصارى، ووجهت جنودها بطريقة متميزة في الكر والفر، أفنت جزءاً كبيراً من الأعداء، واضطر الإمبراطور إلى الانسحاب مع بقية جنوده على ما تبقى له من سفن، واتجه بأسطوله إلى إيطاليا بدلاً من إسبانيا، وكان من العوامل التي ساعدت على إلحاق الهزيمة بالإمبراطور القيادة الرشيدة، والتفاف الشعب الجزائري حولها، وتدفق رجال القبائل إلى ساحة الوغى؛ طلباً للشهادة في سبيل الله، ودفاعاً عن الإسلام والمسلمين، وقد شبه أهل الجزائر هذه الهزيمة بهزيمة أصحاب الفيل التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، فقالوا في رسالة وجهوها إلى السلطان سليمان: إن الله - سبحانه وتعالى - عاقب شارل الخامس وجنوده بعقاب أصحاب الفيل، وجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم ريحاً عاصفاً وموجاً قاصفاً، فجعلهم بسواحل البحر ما بين أسير وقتيل، ولا نجا منهم من الغرق إلا قليل^(١).

لقد بعث سكان الجزائر - سواء أهل الإقليم الأصليون أو مسلمو الأندلس الذين فروا بدينهم إليها - برسالة في الشهر التالي لهزيمة شارل الخامس إلى السلطان سليمان، وقد أوضحت هذه الرسالة الأحوال المؤلمة والمفجعة التي تحيط بالمسلمين

(١) المصدر السابق ونفس الصفحات.

الذين احتفظوا بدينهم في إسبانيا بعد أن طوى صفحة الحكم الإسلامى فى الأندلس، وتعرضهم لاضطهاد السلطات المسيحية، ولمحاكمات ديوان التحقيق - محاكم التفتيش - وإحراقهم، وأشادت الرسالة بالخدمات الجليلة التى أداها للإسلام خير الدين باشا (المجاهد فى سبيل الله، وناصر الدين، وسيف الله على الكافرين)، ومضت الرسالة تقول: (إن أهل الأندلس قد سبق لهم أن استغاثوا به فأغاثهم)، وكان سبباً فى خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين، ونقلهم إلى أرض الإسلام، وأصبحوا من رعايا الدولة العثمانية المخلصين، وحددت الرسالة مطلبين أساسيين:

١- إرسال نجدات عسكرية لنصرة الجزائر؛ لأنها سياج لأهل الإسلام، وعذاب وشغل لأهل الكفر والطغيان، وهى موسومة باسمكم الشريف، وتحت إيالة مقامكم المنيف، وقد أصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة، والرعية المختلفة بها مؤتلفة أليفة.

٢- إعادة خير الدين باشا إلى منصبه السابق - بكلر بك الجزائر (فهو المتمثل لأوامر مولانا؛ لأنه أحيا هذا الوطن، وأرعب قلوب الكفار، وخرب ديار المردة والفجار وإنه لهذا الوطن نعم ناصر، وجميع أهل الشرك منه خائف وحائر).

وصل خير الدين باربروسا إلى مدينة الجزائر؛ للإسهام فى الدفاع عنها، وبتوفيق الله للمسلمين ثم بسواعدهم قد قضت على أسطول الإسبان، فاكتفى بتفقد أمور البليربكية واطلع على سير الأمور فيها، ثم انطلق بأسطوله نحو البلاد الإسبانية يذيقها العذاب الأليم، وأنعم السلطان سليمان على حسن أغا الطوشى برتبة الباشوية، لدوره الفعال فى النصر، وخلا البحر المتوسط تقريباً من الأساطيل الإسبانية التى كانت تضمد جراحها، وتحاول استرجاع قوتها، فانطلقت السفن العثمانية نحو السواحل الإسبانية والإيطالية، وتوالت هناك الغزوات، وساد الرعب والفرع تلك النواحي التى بقيت مفتوحة فوضعت للعثمانيين حساباً، فاهتز بذلك مركز الإسبان فى وهران وغيرها من مناطق نفوذهم فى الشمال الإفريقى، وحقق

السعديون على صعيد آخر نصراً كبيراً على البرتغاليين، وفتحوا حصن ستاكروز، وما إن علم الملك البرتغالي جان الثالث بهذا الخبر حتى أمر حاميات آسفى وأزمور بالجلء فوراً عنها، وقد وجه الملك جان الثالث فى هذا الشأن إلى سفيره بمدير رسالة مؤرخة فى الثانى والعشرين (رمضان ٩٤٨هـ - ديسمبر ١٥٤١م) يطلع فيها الإمبراطور الإسباني شارل الخامس، حيث جاء فيها ذكر للأسباب التى أجبرت البرتغال على اتخاذ قرار الجلء عن قاعدتى آسفى وأزمور، فبالإضافة إلى موقعها الحرج هناك، تزايدت قوات السعديين بفضل المساعدات العثمانية، حيث صار الحاكم السعدى يملك المدفعية العثمانية والآلات الحربية، وحصل على جنود مدرسين، وظهرت تلك الإمدادات عند ستاكروز، مما جعل الاحتفاظ بهذين المركزين أمراً شاقاً وصعباً، ثم إن الجلء عن آسفى وأزمور ليس معناه التخلي عن المغرب، فقد أعطيت الأوامر لتحصين ماركان؛ لسهولة استغلال مينائها طوال أيام السنة، يظهر من ذلك مدى اهتمام الدولة العثمانية فى تقديم المساعدة للقوى الإسلامية فى المغرب ضد المسيحيين المتواجدين فيها؛ وذلك لأن الدولة ترغب فى تأمين ظهرها حتى يتسنى لها الهجوم، فرغبت الدولة هنا فى مساعدة السعديين؛ لينهوا التواجد البرتغالى فى المراكز الجنوبية فى المغرب، ثم ليعبروا للأندلس؛ لأن المغرب يمثل أقرب نقطة للعبور.

استمر حسن أغا فى القيام بواجبه المقدس حتى وفاته (٩٥١هـ / ١٥٤٤م) فأجمع أهل الديوان فى الجزائر على تولية الحاج بكير، ورثما يعين الباب العالى بإستانبول الحاكم الجديد الذى عين حسن بن خير الدين^(١).

مصير شارلكان بعد هزيمته فى الجزائر:

كان فشل شارلكان (شارل الخامس) فى حملته على الجزائر، ذا أثر عميق لا على الإمبراطورية الإسبانية، ولا على ملكها شارلكان فقط، وإنما على مستوى الأحداث العالمية، وقد حفظ الشعر العربى هذا الحديث الذى قيل فيه:

(١) الدولة العثمانية للصلابى ص ٢٨٠.

سلوا شارل كان كم رأى من جنودنا فليس له إلا هم من زواجر
فجهزوا أسطولا وجيشاً عرمرما ولكنه قد آب أوبة خاسر

ونزلت أنباء الهزيمة نزول الصاعقة على أوروبا، وتطورت الأحداث هناك بسرعة، فلم يبق حليف للإمبراطور سوى هنرى الثالث ملك إنجلترا، وانضم إلى ملك فرنسا الدوق (دى كليف) وملك الدنمارك، وملك إسكندنافيا. وكان فرح الفرنسيين عظيماً؛ لأن سقوط الجزائر كان يؤدي لا محالة إلى سقوط فرنسا، وبادر ملكها فرانسوا الأول لإبرام معاهدات مع السلطان العثماني، وكان لهذه الغارة أيضاً نتائج داخل الشمال الإفريقي، وأما في أوروبا فقد بقي رعب المسلمين في قلوب أهل أوروبا لمدة طويلة.

ولم يعد شارل الخامس قادراً على التفكير في حملة أخرى ضد الجزائر، وطغى شبح خير الدين وحسن أغا على العامة والخاصة، حتى أصبح الناس إذا رأوا جفنًا عن بعد نسبوه إلى خير الدين، فيتصاعد الصراخ، ويكثر العويل، ويفر السكان من ديارهم، ومن حقولهم ومتاجرهم، وإذا حطمت الزوابع مركبًا توهم الناس أن خير الدين باربروسا هو الذي أثار البحر وهيجه وأغراه على إغراق سفنهم، وبلغ الخوف من قادة الجزائر أقصى درجة، حتى أصبح أهل إسبانيا وإيطاليا إذا ما حدثت جريمة أو سرقة، أو وقع فساد، أو تخريب، أو مرض، أو وفاء أو قحط، قالوا: خير الدين وأصحابه هم السبب في ذلك، وكانوا في نحيبهم يقولون^(١):

باربروسا	باربروسا
كل شر	أنت صاحب
ألم أو عمل	ما كان من
مدمر	مؤذ وجهنمى
ففيه	إلا والسبب

(١) الدولة العثمانية للصلاحي ص ٢٧٩.

هذا القصر صان الذي
لا نظير له في العالم

٣- المجاهد حسن خير الدين باربروسا وأسباب عزله^(١)؛

تولى حسن بن خير الدين ملك الجزائر بعد موت حسن أغا عام ٩٥١ هـ - ١٥٤٤ م بمرسوم عثماني من الباب العالي بإستانبول. وبعدما انتظمت أمور الدولة شرع حسن بن خير الدين حال وصوله إلى الجزائر يستعد للجهاد، ومواجهة المسيحيين فعمل على تحصين مدينة الجزائر، وذلك في المناطق التي أظهر هجوم شارل الخامس عن ضعفها، كما أخذ يعمل على توطيد النظام في الجزائر وبين صفوف الجيش، ثم انصرف إلى حل مشكلة تلمسان، إذ تبين له أن بقاء الأسرة الزيانية، ووجود الإسبان في وهران يعيقان حل المشكلة.

كان حاكم تلمسان (أبو زيان) أحمد الثاني قد تولى الحكم بدعم من العثمانيين، غير أنه ما لبث أن خضع لمؤامرات خارجية، وانساق في تيارها، وأخذ يتقرب من الإسبان مما أدى إلى كره الأهالي له وقرروا خلعهم عن العرش، ومبايعة أحد إخوته (الحسن) فتوجه أبو زيان إلى وهران؛ طالباً الدعم من الإسبان، مقدماً لهم التعهدات بأن يحافظ على ولائه لهم، فقرر حاكم وهران انتهاز هذه الفرصة، فجهز جيشاً، وانضم إلى جموع الخاضعين للإسبان من بنى عامر، وفليته، وبنى راشد، وعلى رأسهم القائد المنصور بن بو غنام، وتقدموا إلى تلمسان لإبعاد الحسن، وإعادة تنصيب أبي زيان على عرش المدينة، وما إن علم حسن بن خير الدين بتحريك القوى الإسبانية حتى قاد الجيش الإسلامي في تلمسان؛ ليمنع الإسبان من الوصول إلى هدفهم، وتمكن حسن بن خير الدين من ذلك، ودعم حليفه الملك الحسن في تلمسان، الذي اعترف بسلطة الدولة العثمانية، كما ترك الباشا حسن بن خير الدين حامية عثمانية بقيادة محمد في قلعة المشوار في تلمسان، إلا أنه مع ذلك، ظل نفوذ الدولة العثمانية مهترجاً خارج تلمسان؛ بسبب

(١) الصلابي ص ٢٨١.

مضايقات بعض القبائل المجاورة بقيادة المزوار بن بوغنام، الذي يرغب في مساندة زوج ابنته الأمير مولاي أحمد حليف الإسبان.

قامت الدولة العثمانية بدعم السلطان الشريف السعدى بنحو عشرين ألف مجاهد، فالتفوا حوله، ودفعوه إلى بناء مراكب حربية؛ للاستيلاء على إسبانيا، فوافق الشريف السعدى على ذلك، وصرف لهم الأجور والمكافآت. واستطاع الشريف السعدى أن ينهى الحكم الوطاسى، وأصبح الإسبان متخوفين من هجوم عثمانى سعدى مشترك، فقاموا بإنهاء استحكامات مليلة، وفرضت عدة إجراءات أمنية على جبل طارق، وقادش، وغير ذلك من الاحتياطات.

لقد ظهر السعديون أول الأمر كمحررين للمغرب من الوجود المسيحى فأكسبهم ذلك تأييد المسلمين، إذ اعتبروا ذلك نوعاً من الجهاد، فقدمت الدولة العثمانية مساعدات كبيرة؛ لتحقيق ذلك، ثم عرضت على السعديين مشروع استرداد الأندلس، وهذا هو السبب فى مساعدته من قبل العثمانيين إلا أنه بعد أن دانت بلاد المغرب للشريف السعدى، فلم يرع عهداً ولا حرمة وعمل على انتهاء الحكم العثمانى فيها، وعندما شعر العثمانيون بتلك الأطماع، وانحرف الشريف السعدى عن الهدف الإسلامى أرسلت له حملات ليعود إلى بلاده، وقد تمت هزيمته.

ثم إن حسن بن خير الدين باربروسا بعد أن هزم السعديين فى تلمسان، ووطد دعائم الحكم العثمانى فيها (٩٥٩هـ / ١٥٥١م) انتهج سياسة مضادة لكل الدول الأجنبية، بما فيها فرنسا التى كانت ترتبط بالدولة العثمانية بروابط رسمية جيدة، ساعدت الفرنسيين على الإفادة من الامتيازات الاقتصادية التى منحت لها مع إستانبول، والتى شملت جميع أقاليم الدولة العثمانية، غير أن حسن بن خير الدين لم يلتزم بذلك، وأعلن عداؤه لفرنسا فى مناسبات عديدة، فما كان من فرنسا إلا أن أرسلت سفيرها المعتمد فى إستانبول إلى الجزائر بهدف معرفة المدى الذى سيصل إليه حسن بن خير الدين فى عداؤه لفرنسا، وفيما إذا كان هذا العداء سيؤثر على العلاقة الاقتصادية ما بين فرنسا وبيلايكية الجزائر.

اجتمع سفير فرنسا بالبيلر بك حسن بن خير الدين، وعرض عليه تقديم مساعدات عسكرية، لتنفيذ مشروع الدولة العثمانية في مهاجمة إسبانيا، ونجدة مسلمي الأندلس، لكن حسن بن خير الدين رفض هذا العرض؛ لمعرفته بمواقف فرنسا السابقة من الدولة العثمانية نفسها، وأعلن صراحة أن قضية الجهاد هي قضية خاصة بالمسلمين، وبين أنه لا ينتصر بكافر على كافر، ورجع السفير الفرنسي إلى إستانبول، حتى يغير صدر الباب الأعظم، وقد حاول إفهامه أن توسيع مملكة الحسن في الجزائر كما يرى سيؤثر على وحدة الدولة العثمانية، ويهدد كيانه بالانقسام، خاصة وأن والدته من الأسر الجزائرية المعروفة.

رأت الدولة العثمانية أنه لزاماً عليها تغيير سياستها في المنطقة، خاصة بعد أن صار المغرب حليفاً قوياً للإسبان، مما أدى إلى قلب الموازين الإستراتيجية رأساً على عقب، فاتخذ السلطان عدة تدابير لمواجهة الحالة الجديدة، ومن ذلك عزل السلطان سليمان القانوني ببيلر بك الجزائر حسن بن خير الدين؛ بدعوى الإساءة إلى حسن الجوار مع المغرب، كما دعا إلى الوحدة الإسلامية وإلى حسن الجوار^(١)، أسندت الدولة العثمانية بيلربكية الجزائر إلى صالح ريس في (صفر ٩٦٠ هـ / يناير ١٥٥٢م) بدلا من حسن بن خير الدين. بعدما أدرك السلطان سليمان القانوني تلميحات السفير الفرنسي التي تخوفه من حسن بن خير الدين؛ فإذ به يعزله كما عرفنا، ثم يرسل رسالتين إلى بعض حكام المغرب على النحو التالي:

الأولى: رسالة السلطان سليمان القانوني إلى حاكم فاس محمد السعدي يدعوه فيها إلى إحياء مراسم الإسلام والوقوف في وجه الكفرة والمتمردين، وأن يتعاون معه ومع سائر أمراء الإسلام، وأن يحسن المجاورة مع حاكم الجزائر، وأن يحسن المعاشرة مع سكان ذلك البلد^(٢).

(١) بداية الحكم المغربي للسودان الغربي لمحمد المغربي ص ٩٠، ٩١.

(٢) انظر الوثائق، في آخر الكتاب الوثيقة الأولى.

الثانية: مرسوم السلطان العثماني بتقليد صالح رايس مقاليد الولاية (٩٥٩هـ/ ١٥٥٢م): وقد بعث السلطان العثماني مرسومه إلى العلماء والفقهاء، وسائر رعايا الجزائر، يعلمهم فيه بتقليد صالح رايس مقاليد الولاية^(١).

سياسة حسن بن خير الدين في ولايته الثانية والتضييق على الإسبان،

عاد حسن بن خير الدين ليزاول مهام عمله مرة أخرى بعد ما عزله السلطان سليمان القانوني وتولية صالح رايس مكانه، وكان أول شىء فكر فيه في وهران هو أن يستعد في مدينة الجزائر لجمع قوى جديدة منظمة منقادة إلى جانب الجيش العثماني، فجند عشرة آلاف رجل من زواوة، كما أنشأ قوة أخرى ووضع على رأسها أحد أعوان والده القدامى، وفي الوقت نفسه حاول الحصول على تأييد القوة المحلية فتزوج من ابنة سلطان كوكو ابن القاضي، وكان هذا الزواج يخدمه من ناحية أخرى في الاستعانة بقوة ابن القاضي لمواجهة زعيم قبلى آخر (عبد العزيز بن عباس) الذى أعلن استقلاله في المغرب، بذلك صار أسطول الدولة العثمانية يتردد دائماً على مدينتي حجر باديس وطنجة^(٢).

عين حسن بن خير الدين في عام ٩٦٥هـ / ١٥٥٨م بويحيى الرايس قائداً على باديس، فقام بتخريب الساحل الإسباني من قرطاجنة حتى رأس سانت فنست، وصار تحت قيادته في باديس عدة سفن وتلقب بحق سيد مضيق جبل طارق، وقد جاء في تقرير إسباني بقلم فرانسكو دى إيبانير أن يحيى يملك أربع سفن حربية الأولى بقيادته وعلى ظهرها ٩٠ عثمانياً مسلحاً بالسهام والأقواس والمناجيق، والثانية يقوده قره مامى وعلى ظهرها ٨٠ عثمانياً مسلحاً بنفس الأسلحة، والثالثة والرابعة أيضاً بنفس التجهيز^(٣)، وبالإضافة إلى هذه السفن الأربعة العاملة عبر مياه المضيق، كان في حوزة بويحيى سفينتان في باديس ويقوم بصناعة سفينة أخرى،

(١) انظر الوثيقة السابقة.

(٢) الدولة العثمانية للصلاحي ص ٣٠٢ - ٣١٠.

(٣) المرجع السابق.

ويتصل بنشاط سفن باديس سفن تطوان العرائش وسلا ففى تطوان ثلاث سفن صغيرة، وفى العرائش ثلاث سفن أخرى على شاكلة سفن تطوان، وفى سلا سفيتان من النوع الآخر، إلا أن السفن الأخيرة للنهوض بنشاط يستهدف تخريب سواحل الأندلس والاستيلاء على سفن الهند ورفع تجار إشبيلية نتيجة لذلك رفعوا شكواهم للملك الإسباني يشكون فيها الفظائع التى تركتها سفن باديس والسفن الإسلامية الأخرى ضد السفن الإسبانية على طريق الملاحة والتجارة الهندية^(١)، ولم تستطع السفن العبور دون إذن من بو يحيى، فعم الخوف سكان الساحل الإسباني، لدرجة أن هؤلاء لم يكونوا يزرعون أراضيهم إلا بكل حذر، وغالبًا ما كان العثمانيون يحاصرونهم أثناء عملهم وكذلك الصيادون لم يكونوا يتعدون كثيرًا عن الشاطئ.

استمر حسن بن خير الدين فى استعدادته لمهاجمة المغرب، فشرع فى تكوين قوة من رجال القبائل كان ينوى أن يوكل إليها حراسة الجزائر أثناء غيابه لعدم ثقته بالإنكشارية، والذين أحسوا بالخطر فقاموا فى صيف ٦٩٦هـ / ١٥٦١م باعتقال حسن باشا وأعوانه وأرسلوه مقيدين إلى إستانبول، ورافق حسن باشا عدد من زعماء الجند مهمتهم أن يوضحوا للسلطان الأسباب التى دفعتهم إلى هذا التصرف متهمين حسن باشا أنه كان ينوى القضاء على الأوجاق والاعتداء على جيش محلى بغرض الاستقلال عن السلطان، لكن السلطان أرسل أحمد باشا مع قوة بحرية لمعاقبة المتمردين والقضاء على الفوضى ونجح أحمد باشا فى اعتقال زعماء التمرد وأرسلهم إلى إستانبول^(٢).

أعاد السلطان العثماني سليمان القانوني حسن بن خير الدين إلى بيلربكية الجزائر للمرة الثالثة^(٣) فى أواخر سنة ٩٧٠هـ / ١٥٦٢م معززاً بعشر سفن حربية ومزوداً بقوة عسكرية مسلحة، قضى بعدها حسن خير الدين خمسة أشهر بعد

(١-٣) المرجع السابق.

عودته يهيئ العدة والعتاد لمهاجمة وهران والمرسى الكبير وهما كل ما بقى لإسبانيا ببلاد الجزائر.

خرج حسن بن خير الدين في سنة ٩٧١هـ/١٥٦٣م من مدينة الجزائر نحو الغرب، يقود جيشاً كبيراً مؤلفاً من خمسة عشر ألف رجل من رماة البندقية وألف فارس من الصباحية تحت إمرة أحمد مقرن الزواوي، واثنى عشر ألف رجل من زواوة وبنى عباس، أما مؤن وذخيرة الجيش فقد حملها الأسطول العثماني إلى مدينة مستغانم التي اتخذها قاعدة للعمليات، وفي ١٣ أبريل وصل حسن خير الدين بكامل قوته أمام مدينة وهران وضرب حصاراً حولها، وكان الإسبان مستعدين لتلقى الصدمة وراء حصونهم وقلاعهم، بعد أن توالت النجذات الإسبانية والبرتغالية على وهران استجابة لنداء حاكمها^(١)، ومنذ أن صارت القوات العثمانية على مسافة مرحلتين، وبينما كان البيلر بك نفسه على بعد ست مراحل اضطر حسن بن خير الدين إلى رفع الحصار قبل وصول المزيد من هذه النجذات التي اتخذت من مالطة مركزاً لتجمعها، وهكذا لم يستطع حسن بن خير الدين من تحقيق هدفه ذلك لأن فيليب الثاني كان قد وضع برنامجاً طموحاً للأسطول الإسباني، والبناء البحري في ترسانات إيطاليا وقطالوني، كما وردت لخزنة إسبانية إعانة من البابوية واجتمعت سلطة قشتالة التشريعية في جلسة غير عادية، وأقرت وجوب إمداد إسبانيا بمعونات مالية، لتساندها في حربها مع العثمانيين^(٢)، وكانت ثمرة تلك المجهودات إعادة التنظيم لهيكل إسبانيا وهزيمة العثمانيين في وهران سنة ٩٧١هـ/١٥٦٣م.

بدأ فيليب الثاني يستعد لاحتلال جزيرة باديس وتشجع بذلك النصر الذي حققه في وهران، ووجه لذلك أسطولاً في نفس السنة ٩٧١هـ/١٥٦٣م، فقاومه المجاهدون مقاومة عنيفة، اضطرت الأسطول إلى التراجع^(٣)، والجدير بالذكر أن جزيرة باديس كانت أقرب نقطة مغربية إلى جبل طارق، وأنها كانت بالنسبة إلى

(١) المرجع السابق ونفس الصفحات.

(٢، ٣) المرجع السابق.

المجاهدين ميناء مهماً، إذ يمكنهم من خلالها العبور للأندلس، كما يمكنهم التسلل لداخل الأراضى الإسبانية لتقديم المساعدة للمسلمين هناك والذين أطلقوا على أنفسهم الغرباء، وهذا ما دفع الإسبانين للهجوم عليها من خلال محاولتهم السابقة، كما كانت جزيرة باديس -بالإضافة إلى ذلك- مشار رعب وخوف لدى السلطان السعدى الغالب بالله، إذ خاف السلطان أن يخرج الأسطول العثماني من تلك الجزيرة إلى المغرب، فاتفق مع الإسبان أن يخلي لهم الإدالة من حجرة باديس ويبيع لهم البلاد ويخليها من المسلمين، وينقطع أسطول العثمانيين فى تلك الناحية، مقابل الدفاع عن شواطئ المغرب، إذ هاجمها الأسطول العثماني^(١) الذى علم بتلك المؤامرة فانسحب ورجع إلى الجزائر، وتم عزل بو يحيى ريس من منصبه فى باديس فى أواخر عام ٩٧١هـ / ١٥٦٣م، وانصرف العثمانيون عن الحرب فى غرب البحر المتوسط، إذ توجه نشاط الأسطول الحربى إلى جزيرة مالطة فى الشرق.

كان السلطان العثماني سليمان القانوني قد عزم على فتح جزيرة مالطة التى كانت أكبر معقل للمسيحيين فى وسط البحر المتوسط، والتى سبق وأن استقر فيها فرسان القديس يوحنا، فأرسل السلطان العثماني أسطوله بقيادة بيالى باشا نفسه، كما طلب من درغوث ريس حاكم طرابلس وجربة، وحسن بن خير الدين أن يتوجها على رأس أسطوليهما الإسلاميين للمشاركة فى عملية مالطة^(٢) وإخضاعها استعداداً لمنازلة بقية المعازل الإسلامية بعد ذلك؛ فسار حسن بن خير الدين على رأس عمارة تشمل ٢٥ سفينة وثلاثة آلاف رجل، ووصل الأسطول الإسلامى أمام مالطة يوم ١٨ مايو وفرض الحصار عليها، واستمر الحصار ضيقاً شديداً إلى أن جهزت المسيحية رجالها وأساطيلها ووصل المدد تحت قيادة نائب الملك فى صقلية، برفقة أسطول تعداده ٢٨ سفينة حربية تحمل عدداً كبيراً من المقاتلين ونشبت المعركة بين الطرفين، وتمكن الأسطول الإسلامى من الانسحاب فى ١٨ ربيع الاول ٩٧٣هـ / ٨ ديسمبر ١٥٦٥م.

(١) المرجع السابق.

(٢) الدولة العثمانية للصلاحي. مرجع سابق.

خلف السلطان سليمان القانوني السلطان سليمان الثاني، الذي أسند منصب القائد العام للأسطول العثماني إلى حسن بن خير الدين^(١)؛ فترك الجزائر متوجهاً إلى إستانبول سنة ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م، وتولى منصب بيلر باي الجزائر بعد حسن بن خير الدين محمد بن صالح رايس^(٢)، في ذى الحجة ٩٧٤هـ/ يونيو ١٥٦٧م وصادف في تلك السنة انتشار الأوبئة والمجاعة، كما صاحبها تمرد الجند العثماني ثم أضرب الشعب واضطربت البلاد، فاضطر إلى صرف وقته في مواساة المصابين وتسكين الفتن، ثم فاجأ محمد بن صالح رايس ثورة عامل قسطنطينية المتأثرة بولاية تونس الحفصيين، فعزله البيلر باي وقضى على ثورته وولى على قسطنطينية القائد رمضان بن تشولاق، وفي ربيع الأول سنة ٩٧٥هـ/ سبتمبر ١٥٦٧م، هاجم الإسبان مدينة الجزائر، إلا أنهم ردوا على أعقابهم^(٣)، ثم لم تطل ولاية محمد بن صالح رايس، إذ تعين نقله إلى ولاية أخرى في أنحاء الدولة.

٤- قلج علي والى العثمانيين يستعد لفتح الأندلس:

أسند منصب بيلر بك الجزائر إلى قلج علي في ١٤ صفر سنة ٩٧٦هـ الموافق أغسطس ١٥٦٨م وعرف عنه بالعزم في تسيير الإدارة والبطولة الحربية والشجاعة. اتخذ قلج علي خطوات عملية لتنفيذ مشروع خطير للغاية وهو إعادة الحكم الإسلامي في إسبانيا وتحرير الشمال الإفريقي من الجيوب الصليبية، فوجه اهتمامه إلى الأسطول أكثر من غيره وصار مبعث قلق ورهبة للأوروبيين، كما انتزع من الفرنسيين حق احتكار المرجان بمركز القالة بسبب تماطلهم وتخلفهم عن دفع الضريبة لثلاث سنوات مضت وتصرفهم في المنطقة التي نزلوا فيها تصرف السادة^(٤).

صمم قلج علي على ضرورة تصفية القواعد الإسبانية في تونس، قبل أن يبدأ نشاطه في شبه الجزيرة الأيبيرية، وذلك لتعبئة الدفاع عن طرابلس والجزائر، وكان الإسبان قد اتخذوا من تونس نقطة ارتكاز وقاعدة انطلاق على العثمانيين في طرابلس والجزائر، لذلك لا بد من تأمينها. كان قلج علي على اتصال بالوزير

(١-٣) المرجع السابق.

(٤) الدولة العثمانية للصلاحي ص ٣٠٨.

الحفصى أبى الطيب الخضار ورأى ذلك الوزير أن فتح تونس قد حان وقته، وأرسل إلى قلع على يهون عليه أمرها ويتعهد له بتقدير العون.

جهز بيلر بك الجزائر قلع على جيشاً مؤلفاً من نحو سبعة آلاف مقاتل وزحف به نحو تونس فقابل سلطانها أبا العباس أحمد بباجة، ثم بعد قتال عنيف انهزم الأمير الحفصى، وتقدم قلع على بمجموعة نحو تونس وأخذ بيعة أهلها للسلطان سليم الثانى^(١)، ورتب حامية لحراسة البلاد تحت رعاية حيدر باشا وعاد إلى مقره بالجزائر، وبقيت منطقة حلق الواد بيد الإسبان، وكانت قوات قلع على لا تكفى وحدها لتطهير البلاد من الاحتلال الإسباني، لذا فإنه كتب إلى إستانبول يطلب مده بقوة تكفى لتحرير الموقع، وكان اهتمام قلع على بشرق الجزائر سياسة اختص بها من دون أسلافه، فكان يرى أنه لا بد من تأمين ظهره ليتسنى له التقدم للغرب، ثم التوجه للأندلس بعد أن يكون قد أضعف التواجد الإسباني فى الشمال الإفريقى.

قلع على وثورة مسلمي الأندلس،

كانت حركة الجهاد فى الشمال الإفريقى قد شجعت مسلمي الأندلس وفجرت طاقاتهم الكامنة وجعلتهم يتغلبون على الحواجز النفسية التى تزاхمت فى نفوسهم على مر السنين، وسادت الأقاليم الإسبانية موجة من الظلم والإرهاب والفظائع فهذه الحالة المربكة وما صاحبها من مظالم وويلات جعلت بقية مسلمي إسبانيا فى الجنوب سواء من الذين ظلوا محافظين على دينهم أو المتنصرين ظاهرياً، يتأهبون للانقضاض على الحكم الإسباني.

سادت إسبانيا إرهابات ثورة المسلمين فى غرناطة، فشكل الملك الإسباني فيليب الثانى نوعاً جديداً من الميلشيات تقيم فى كل مدينة من مدن إسبانيا لمواجهة الثورة بين الذين استقبلوا مبعوثين من ملك فاس لجمع الخراج على تبعيتهم فى الولاء لسيادة الأمير السعدى، وبين مسلمي الأندلس الذين تلقوا مساعدات عثمانية، وأصبح الموقف صعباً بالنسبة إلى إسبانيا خاصة غرناطة ومما زاد الحالة

(١) المصدر السابق.

خطورة أن بحرية فيليب الثاني كانت متفرقة في أنحاء بعيدة، وحصونه غير معززة والسواحل مكشوفة خاصة الشواطئ الجنوبية موقع المجاهدين^(١).

بعد أن أعيت النصارى كل الوسائل للقضاء على الروح الدينية لمسلمي الأندلس وتحويلهم للمسيحية لجأوا إلى العنف فحرموا على المسلمين التحدث بالعربية والاتصال بالمسلمين في الشمال الإفريقي وفي بعض أقاليم إسبانيا، كما حرموا على النساء الخروج إلى الشوارع متحجبات، وقفل أبواب دورهم وتحطيم الحمامات وإقامة الحفلات حسب تقاليدهم، كل ذلك فجر الثورة وقاد مسلمي الأندلس إلى حرب البوشار التي هي أهم حرب أو ثورة مسلحة قام بها المسلمون بعد سقوط غرناطة وقد بدأت هذه الحرب في ١٥٦٨ م وتزعّمها محمد بن أمية^(٢).

بذل السلطان السعدي الغالب بالله الوعود المعسولة لرسل الثوار البورشاريات ووعدهم بالنصر وتقديم كل ما يحتاجون إليه من عتاد وسلاح ورجال... لكن من ناحية أخرى استمر الغالب بالله محافظاً على روابطه الودية مع فيليب الثاني، وعمل على خذلان أهل الأندلس: (وأما أهل الأندلس وغشه لهم وتوريطه للهلكة في دينهم وأقوالهم وأولادهم وفي نفوسهم فأمر مستعظم عند جميع من في قلبه ذرة من الإيمان، وأدنى مملكة من الإسلام وذلك أنه لما احتوى عليهم النصراني، وأخذ جميع أراضيهم وشملها سلطانه، بقي المسلمون بضع سنين تحت الذمة والذلة فقهرهم بكثرة المكس فصاروا يكتبون إلى ملوك المسلمين شرقاً وغرباً وهم يناشدونه الله في الإغاثة، وأكثر كتبهم إلى مولاي عبد الله أنه هو القريب إلى أراضيهم، زمان قد قوى سلطانه وصحت أركانه وجندت أجناده وكثرت أعداده فأمرهم غشاً منه بأن يقوموا على النصارى ليثق بهم في قوله ويظهروا فعلهم، فلما قاموا على النصارى تراخى عما وعدهم به من الإغاثة وكذب عليهم وكان هذا غشاً منه لهم ولدين الله عز وجل ومصلحة الملك الزائل، وكانت بينه وبين

(١) الدولة العثمانية للصلاحي ص ٣١٠.

(٢) المرجع سابق.

النصارى مكاتبات فى ذلك ومراسلات، وأنه استشار معهم وأشار عليهم أن يخرجوا أهل الأندلس إلى ناحية المغرب وقصده بذلك تعمير سواحله، ويكون لهم بمدينتى فاس ومراكش جيش عظيم ينتفع به فى صالح ملكه.

تسارعت الأحداث فى إسبانيا، وبلغ عدد المجاهدين فى أوائل سنة ٩٧٦ هـ / ١٥٦٩ م أكثر من مائة وخمسين ألف، وصادف تلك الثورة صعوبات كبيرة بالنسبة إلى الحكومة الإسبانية، إذ كانت غالبية الجيش متقدمة مع دوق البابا فى الأراضى المنخفضة، وأثبتت الدوريات البحرية أنها غير قادرة على حرمان الثوار المسلمين من الاتصال بالعثمانيين فى الجزائر^(١).

كان قلج على على اتصال مباشر بقيادة مسلمى الأندلس عبر قنوات خاصة أشرف عليها جهاز الاستخبارات العثمانية، واستطاع هذا القائد أن يمد الثوار فى إسبانيا بالرجال والأسلحة والعتاد، وتم الاتفاق مع مسلمى الأندلس على القيام بثورة عارمة فى الوقت الذى تصل فيه القوات الإسلامية من الجزائر إلى مناطق معينة على الساحل الإيبانى. جمع قلج على جيشاً عظيماً قوامه أربعة عشر ألف رجل من رماة البنادق وستون ألفاً آخرون استعداداً للهجوم على وهران ثم النزول فى بلاد الأندلس، وكان يرافق ذلك الجيش عدد كبير من المدافع وألف وأربعمائة بغير محملة بالبارود الخاص بالمدافع والبنادق^(٢).

وفى اليوم المتفق عليه وصلت أربعون سفينة من الأسطول العثمانى أمام مرسى ألمرية الإيبانى، لشد أزر الثورة ساعة نشوبها لكن أخفق ذلك المخطط وذلك بسبب سوء تصرف أحد رجال الثورة الأندلسيين إذ انكشف أمره فداهمه الإيبان، وضبطوا ما كان يخفيه من سلاح بعد أن نجح قلج على فى إنزال الأسلحة والعتاد والمتطوعين على الساحل الإيبانى، لم تقع الثورة فى الموعد المحدد لها، وضاعت بذلك فرصة مفاجأة الإيبان^(٣).

(١) الدولة العثمانية للصلايى ص ٣١١.

(٢) الدولة العثمانية للصلايى. نفس الصفحات.

(٣) الدولة العثمانية للصلايى. نفس الصفحات.

لقد قام قلعج على في شعبان سنة ٩٧٦هـ يناير سنة ١٥٦٩م ببعث أسطول الجزائر لتأييد الثائرين في محاولتهم الأولى، وحاول إنزال الجند العثماني في الأماكن المتفق عليها، لكن الإسبان كانوا قد عرفوا ذلك بعد اكتشاف المخطط فصدوا قلعج على عن النزول وكانت الثورة في عنفوانها، وزوابع الشتاء قوية في البحر، فالأسطول الجزائري صار يقاوم الأعاصير من أجل الوصول إلى أماكن أخرى من الساحل ينزل بها المدد المطلوب، إلا أن قوة الزوابع أغرقت ٣٢ سفينة جزائرية تحمل الرجال والسلاح، وتمكنت ست سفن من إنزال شحنتها فوق سواحل الأندلس، وكان فيها المدافع والبارود والمجاهدون. استمر قلعج على في إمداد مسلمي الأندلس رغم الكارثة التي حلت بقواته، وتمكن ذلك المجاهد الفذ من إنزال أربعة آلاف مجاهد من رماة البنادق مع كمية كبيرة من الذخائر وبعض من قادة المجاهدين العثمانيين، للعمل في مراكز قيادة جهاد مسلمي الأندلس^(١).

وعاد العثمانيون فأرسلوا دعماً جديداً من الرجال والسلاح وإعانة للثورة الأندلسية، فصدرت الأوامر إلى قلعج على بذلك في ٢٣ شوال ٩٧٧هـ / ٣١ مارس ١٥٧٠م (عليك بالتنفيذ بما جاء في هذا الحكم حال وصوله وأن تعاون أهل الإسلام المذكورين بكل ما يتيسر تقديمه لهم وأن الغفلة عن الكفار غير جائزة)^(٢). وكان القائد المجاهد قلعج على قد عزم على الذهاب بنفسه ليتولى قيادة الجهاد هناك ولكن ما شاع عن تجمع الأسطول الصليبي للقيام بمعركة حاسمة مع المسلمين هذا من ناحية، وأمر السلطان العثماني له بالاستعداد للمشاركة في هذه المعركة من ناحية أخرى جعله مضطراً للبقاء في الجزائر منتظراً لأوامر إستانبول^(٣). وفي غمرة الثورة الأندلسية اتهم زعيم الثورة ابن أمية بالتقاعس عن الجهاد وهاجمه المتآمرون وقتل في منزله واختير مولاى عبد الله بن محمد بن عبدو بدلا منه وبعث قلعج

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق ص ٣١٣.

(٣) الدولة العثمانية للصلاحي ص ٣١٣.

على تعزيزات له ونجح الزعيم الجديد في حملاته الأولى ضد النصارى الإسبان وطوق جيشه مدينة أرجيه.

انزعجت الحكومة الإسبانية لهذه التطورات وعينت دون جوان النمساوى على قيادة الأسطول الإسباني (وهو ابن غير شرعى للإمبراطور شارل) فباشر قمع الثورة في سنواتها ٩٧٧ - ٩٧٨ هـ / ١٥٦٩ - ١٥٧٠ م، وأتى من الفظائع ما بخلت بأمثاله كتب الوقائع فذبح النساء والأطفال أمام عينه، وأحرق المساكن ودمر البلاد وكان شعاره لا هوداة وانتهى الأمر بإذعان مسلمي الأندلس، لكنه إذعان مؤقت، إذ لم يلبث مولاي عبد الله أن أعاد الكرة، فاحتال الإسبان عليه، حتى قتلوه غيلة ونصبوا رأسه منصوباً فوق أحد أبواب غرناطة زمناً طويلاً^(١).





أحوال مواركة الأندلس بين العثمانيين والإسبان

أولاً: العثمانيون ومازق الانتقاذ.

ثانياً: أشر المواركة (المورييسكيين) في المغرب العربي.

ثالثاً: جهود الدونمة وتآمرهم على الخلافة العثمانية.

رابعاً: المواركة (المورييسكيون) بين الطرد وأمل العودة.

خامساً: ماذا خسرت إسبانيا بعد رحيل المورييسكيين.

هناك عدة قضايا تتعلق بالعثمانيين من ناحية وهم المنقذون، وتتعلق أيضاً بالإسبان من ناحية أخرى وهم الذين عذبوا مسلمي الأندلس من أجل التنصير ثم طردوهم من البلاد شر طرده، كما تتعلق أيضاً بمسلمي الأندلس (الموريسكيين) مرة ثالثة الذين اضطرت ظروفهم البقاء في أرض الأندلس أو هاجروا منها إلى الشمال الإفريقي أو مصر أو تركيا، ويرى الباحث أنه من الإنصاف والعدل أن نقف مع كل قضية وقفة متأنية نكشف عن غوامضها ونبين وجه الحق فيه؛ لأنها قضايا شغلت الكثيرين من المفكرين والمؤرخين وما زال صداها يتردد على مسامعنا حيناً بعد حين، وسوف نعرض تلك القضايا على النحو التالي:

أولاً: العثمانيون ومأزق الإنقاذ

كثر الحديث حول المدد العثماني لمسلمي الأندلس المعذبين على أيدي النصارى ومحاكم التفتيش؛ فبعض الكتاب يرى أن العثمانيين قد مددوا يد العون لإنقاذهم، وقد جاءوا بأساطيلهم إلى حوض البحر المتوسط وسيطروا على أغلب مدن الشمال الإفريقي بهدف الانقضاض على أرض إسبانيا وإعادة الأندلس المسلمة مرة أخرى. ومن الكتاب من رأى أن العثمانيين لم يقدموا المعونة الكافية لمسلمي الأندلس وقد انشغلوا بصراعات أخرى مع الدول الكبرى في البحر المتوسط وفشلوا فشلاً ربيعاً في إنقاذ الأندلس. ولكي نوضح حقيقة ذلك المأزق لا بد أن نثير سؤالين مهمين في هذه القضية:

السؤال الأول: هل طلب مسلمو الأندلس النجدة من مسلمي المشرق؟

إن المتأمل في تاريخ الحقبة الأخيرة والتي تقدر بأربعة قرون وهي المدة التي شهدت المعاناة الحقيقية لمسلمي الأندلس. أقول إن المتأمل في تاريخ الأندلس في تلك الحقبة، سيقف على بعض المساعدات التي قدمتها الدولة العثمانية إبان القرن السادس عشر، فقد عملت تلك الدولة على توسيع أملاكها في سواحل الحوض

الشرقي والغربي للبحر المتوسط واتجهت أساطيلها وجيوشها البرية إلى السيطرة على المدن التي تعد الخطوط الأولى لمواجهة للسواحل الإسبانية حتى يتم الانقضاء على السواحل الإسبانية وإنزال الجنود العثمانيين لاسترداد الأندلس. وكان ذلك هدفاً نبيلاً من أهداف السلطان سليمان القانوني والذي ما فتئ أن يتحدث عن هذا المشروع مع قواده ووزرائه - كما أوضحنا سابقاً -.

وقد واجه العثمانيون صراعاً عنيفاً عند محاولة استيلائهم على الجزائر - وهران - بجاية - تونس - طرابلس، وكان هذا الصراع ذا شعبتين: صراع من قبل القوى الغربية الصليبية مجتمعة من إسبانيا والبرتغال وغيرهما، حيث اصطدمت أساطيل العثمانيين مع أساطيل تلك البلاد في أكثر من مرة، فكانوا ينتصرون تارة وينهزمون تارة أخرى حتى جاء النصر العظيم على يد خير الدين باربروسا على خصمه العنيد (أندريا دوريا) قائد الأساطيل الغربية في موقعة برفيزا.

فمن الظلم والإجحاف أن نصف العثمانيين بالسلبية وعدم نصرة إخوانهم المسلمين في إسبانيا، ولدينا بعض الوثائق التي أرسلت إلى بعض السلاطين العثمانيين يحثونهم على النجدة ويستغيثون بهم لما وقع عليهم من ظلم وإجحاف واضطهاد؛ بل إن بعض الرسائل أرسلت إلى جهات أخرى مثل الرسالة التي أرسلها أهل غرناطة إلى الأشرف ملك مصر في أواخر القرن الخامس عشر.

من أمثلة تلك الرسائل هذه الرسالة التي أرسلت إلى السلطان سليم الثاني سنة ٩٧٧هـ يشكو فيها مسلمو الأندلس من سوء حالهم، وقد رد عليها بكتاب أرسله إلى المسلمين في إسبانيا والجزائر:

(لقد أرسلتم إلى سدة سعادتنا عرض حالكم، وكيف أن الكفار الضالين ذوى الشعارات المضللة يتآمرون على المسلمين ويمنعونهم من التخاطب باللغة العربية ويكلفون زوجاتهم بما يخالف الشرع الحنيف، مقترفين الظلم والاعتداء تجاههم، ويوجد الآن عشرون ألفاً من الرجال غير أن عدد الأشخاص الذين لا سلاح لهم وصل إلى مائة ألف كما هو مقرر وثابت، وفي صورة وصول هذا المقدار من السلاح

إلى الجزائر، فإن ذلك من شأنه أن يقوى من عزيمة الناس وقد أخبرتمونا أنكم أنزلتم بالكفار الملاعين هزائم عديدة، والحمد لله الذى يجعل أهل الإسلام ينتصرون دوماً على الكفار الضالين. وكل ما حدث ذكرتموه وقررتموه فى عرض حالكم مفصلاً، قد وصل إلى علم سيادتنا، وأن كل ما يتعلق بكم قد بلغ إلى شريف وشمول علم سلطاننا الذى يحرص دوماً على إظهار الاهتمام والعطف لجانبيكم^(١).

ويمكننا تلخيص الوثيقة كالآتى:

١- يطلب منهم أن يتحدوا جميعاً، سواء المسلمون فى الجزائر أو فى إسبانيا لمقاومة حكام إسبانيا الذين عذبوا المسلمين ومنعواهم من التخاطب باللغة العربية إلى غير ذلك من مصاعب ويقدر عددهم بعشرين ألفاً من الرجال المسلحين ومائة ألف من المسلمين بدون سلاح.

٢- ثم يعلمهم بأنه سيبدأ أولاً بإعادة فتح جزيرة قبرص لأهميتها فى طريق الملاحة للسفن الحربية والتجارية والزائرين للحج من المسلمين، وقد أعد السفن الضخمة والعساكر غفيرة العدد لهذه المهمة.

- وقد أرسل أهل غرناطة فى منتصف سنة ١٤٧٧م سفارة إلى إستانبول ملفتين نظر السلطان العثمانى آنذاك وهو محمد الفاتح إلى حالة المسلمين بالأندلس، طالبين تدخله لإنقاذهم. هذا وإننى لم أعثر على نص لهذه الرسالة فى المراجع.

- رسالة من مسلمى غرناطة إلى السلطان سليمان القانونى سنة ١٥٤١م:

بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م اتبعت إسبانيا المسيحية تجاه مسلمى الأندلس سياسة تهدف للقضاء تدريجياً وبصورة جذرية على كل مظاهر الإسلام.

إن نخوة النصر التى اجتاحت إسبانيا قد ألهمت العواطف وغطت على منطق العقل ومن ثم ظهر منطق جديد أحاطه رجال الكنيسة بقدسية سماوية تحكمت فى كل القرارات التى اتخذها رجال الدولة السياسيين. وأصبحت إسبانيا تؤمن بأن

(١) انظر باقى الوثيقة فى قسم الوثائق فى آخر الكتاب.

عليها واجب تطهير أرضها من الإسلام والمسلمين والتي أصبحت تخشى منه ومن شبحه، خصوصاً بعد نجاح التوسع العثماني السريع في أوروبا وإفريقيا وآسيا.

اندفعت إسبانيا في محاولة لتصفية المسلمين فارضة أقسى الإجراءات عليهم وتنصيرهم بالجملة خلال عشر سنين، وقد اعترف ملوك إسبانيا خلال القرن السادس عشر بحتمية الاستمرار في تطبيق هذا القانون، وبذلك خيرت الأقلية الإسلامية الأندلسية التي عرفت شتى ظروف التبع والملاحقة عن طريق ديوان التحقيق بين التنصير أو الرق مدى الحياة، وصودرت أملاكهم وحرم عليهم التكلم باللغة العربية، وارتداء الألبسة الوطنية والتردد إلى الحمامات، وفتح أبواب منازلهم أيام الحفلات والجمعة والسبت، وإقامة الشعائر الدينية وعدم التسمية بأسماء عربية، كما حولت جميع المساجد إلى كنائس، ومنع المسلمون من حمل السلاح كما فرض عليهم العيش في أحياء خاصة وارتداء ألبسة معينة وأن يحملوا إشارة زرقاء على القبعة إذا ما بقوا على دينهم، كما حرم عليهم بيع الحرير والذهب والفضة والأحجار الكريمة، وأمروا أن يسجدوا في الشوارع متى مر كبير الأحرار، وسلطت عليهم أقصى أنواع العقوبات إذا لوحظ عليهم بعض الولاء إلى ماضيهم أو التعلق بدينهم في أبسط مظاهره وعاداته. على اتجاه آخر كان تشكيلهم وحدة اجتماعية وسيطرتهم على الاقتصاد بفضل نشاطهم وذكائهم وخبرتهم في تصريف شئون التجارة والزراعة وازدهارها على أيديهم قد أثار نجاحهم هذا حقد الإسبان عليهم، حيث اتهموهم بالتآمر ضد أمن الدولة خصوصاً وهم الحلفاء الطبيعيون لإخوانهم قراصنة «شمال إفريقيا» كما كانوا يعتبرونهم آنذاك.

ومن الطبيعي في مثل هذه الظروف أن يلتجئ المورييسكيون إلى الثورات والانتفاضات في أغلب المدن التي بها أقلية إسلامية وخاصة في غرناطة وبلنسية وقد أقمعت تلك الثورات بدون رحمة ولا شفقة، واتخذت وسيلة لتعميق الكره والحقد على هذه الطائفة، ومن جهة أخرى كان من الطبيعي أن يلتجئ المورييسكيون إلى ملوك المسلمين في المشرق والمغرب لاستنقاذهم، ولا غرابة أن تتكرر دعواتهم

ووفودهم ورسائلهم إلى هؤلاء الملوك للعمل على إنقاذهم مما يعانونه من الظلم وخاصة من رجال الكنيسة وديوان التحقيق الذي عاث فساداً وأحل لنفسه كل العقوبات التي طبقت عليهم.

وقد نقلنا جزءاً من هذه الرسالة المرسلة إلى السلطان سليمان القانوني، وليرجع القارئ إلى قسم الوثائق في آخر الكتاب لطلب الاستزادة.

(فإن عبيدك الفقراء (كذا) المساكين المتقطعين بجزيرة الأندلس وجملة عدتهم ثلاثمائة ألف وأربعة وستون ألفاً منهم من رسايتهم بغرناطة وغيرها خمسون والباقي من عامة المسلمين، رافعين شكواهم، وما يلاقون من بلواهم باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان دام عزه ونصره لما أصابهم من أعداء الدين وطغاة المشركين، ولما هم فيه من مكابدة الكفار، ومقاساة (كذا) التضيق والأضرار، وجو على الشرك أناء الليل وأطراف النهار، وتحريقهم إيانا بالنار قد تكالب العدو علينا، ومدد السوء والضرر إلينا، وأحاطت بنا الأعداء من كل جانب، ورمونا عن قوس واحد بسهم صائب، وطالت بنا الأيام، وعاشت فينا يد الكنانة والإيلام، وخذلنا جيراننا وإخواننا ببلاد المغرب من أهل الإيمان، وقد كان بجوارنا الوزير المكرم، المجاهد في سبيل الله خير الدين وناصر الدين وسيف الله على الكافرين، علم بأحوالنا، وما نجده من عظيم أهوالنا لما كان بالجزائر، واجتمعت أهل الإسلام على إطاعة مولانا ومحبة بالخواطر والضمائر (كذا)، وانتظم العدل والشرع والأمان في البادية والحاضر، فاستغثنا به فأغاثنا وكان سبباً في خلاص كثير من المسلمين، من أيدي الكفرة المتمردين، ونقلهم إلى أرض الإسلام، وتحت آيالة طاعة مولانا السلطان ولعمارة مدينة برشك (٣٧) وشرشال ونواحي تلمسان، فلما سمع الكافر اللعين بذلك ولم يقدر على منعنا بالسياسة والإهانة والخرق بالنيران، علم أننا اخترنا المصيبة في الأموال والأبدان، وآثرنا ديننا على سائر الأديان فلما صدقت الضمائر، وبلغت القلوب الحناجر، خلف من عصبتنا واجتماع كلمتنا وتركنا أموالنا وأوطاننا وهجرتنا وفرارنا إلى بلاد الإسلام لسلامة ديننا، تحاير في أمره، وجمع إليه أهل تدبيره وحزنه، فدبروا ومكروا وهل يحقق المكر السيئ إلا بأهله؟

واتفق رأسهم المعكوس، وتديسهم المنكوس، على قتال الجزائر، لئلا يبقى ببلاد المغرب لأهل الإسلام ناصر، فعاقبهم الله بعقاب أصحاب الفيل، وجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم ريح عاصف وموج قاصف (كذا) فجعلهم بسواحل البحر ما بين أسير وقتيل، ولا نجا منهم من الغرق إلا قليل، والآن اشتد غضبهم على أهل الإسلام، وهم يتوسلون بالرهبان والأصنام، ونحن نتوسل بسيد الأنام إلى موجب الوجود ذي (كذا) الجلال والإكرام، وهم عازمون (كذا) على الجزائر، والله تعالى هلكهم وينصر دينه وهو نعم الناصر، يا مولانا سلطان البرين والبحرين نصركم الله، المدد المدد لنصرة الجزائر لأنها سياج لأهل الإسلام، وعذاب وشغل لأهل الكفر والطغيان، وهي موسومة باسمكم الشريف، وتحت آيالة مقامكم المنيف، وقد أصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة، والرعية المختلفة بها مؤتلفة أليفة، وطرأ رونقها المجاهد في سبيل الله عبدكم الوزير الأجل خير الدين، الممثل لأوامر مولانا، ونتاج عز الدنيا والدين، فإنه أحيا هذا الوطن، وجميع النواحي والسكن، وأرعب قلوب الكفار، وخرب ديار المردة والفجار، وأظهر نظام السلطنة العثمانية وأحكام مولانا نصره الله حتى تزينت بها الديار والأمصار، فترغب ونطلب من مولانا نصره الله فيما يراه من إرساله لهذا الوطن إن رأى (كذا) مولانا صلاح (كذا) في ذلك فيكون ذلك غاية الإحسان لجميع أهل الإسلام وقهر ونكاية لحزب الشيطان، وقد اتفق جمعنا من المسلمين المذكورين على رفع الشكوى (كذا) إلى مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام لا زال بالعز موصوفاً (كذا) وبالبهاء والنصر محفوفاً (كذا) بأن يغشنا بإرسال المجاهد خير الدين باشا (كذا) إلى الجزائر، فإنه لهذا الوطن نعم ناصر وجميع أهل الشرك منه خائف وحائر (كذا) والسلام التام على المقام الشريف العالي ورحمة الله بتاريخ أوائل شهر شعبان أحد شهور سنة ثمانية وأربعين وتسعمائة).

- رسالة أهل غرناطة إلى ملك مصر -

كما أرسل مسلمو إسبانيا سفارة إلى سلطان مصر الملك الأشرف في أواخر القرن الخامس عشر، مستنجدة إياه في التدخل لإنقاذهم من الملوك النصارى، وقد

بعث الملك الأشرف بوفود إلى البابا وملوك النصرانية يذكرهم بأن النصارى الذين هم تحت حمايته يتمتعون بكل الحريات، فى حين أن أبناء دينه فى مدن إسبانيا يعانون أشد أنواع الظلم، وقد هدد باتباع سياسة التنكيل والقصاص تجاه رعاياه المسيحيين إذا لم يكف ملك قشتالة وأراجون وغرناطة عن هذا الاعتداء وترحيل المسلمين عن أراضيهم^(١).

أما السلطان بايزيد الثانى فقد وصلت إليه رسالة وبها قصيدة من أحد الموريسكيين تصور له مأساة المسلمين ويستنجد به لنصرتهم وإنقاذهم. فوصلته هذه الرسالة^(٢): (الحضرة العلية، وصل الله سعادتها، وأعلى كلمتها، ومهد أقطارها، وأعز أنصارها وأذل عداتها، حضرة مولانا وعمدة ديننا ودنيانا، السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، قامع أعداء الله الكافرين، كهف الإسلام، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام، محيى العدل، ومنصف المظلوم ممن ظلم، ملك العرب والعجم، والترك والديلم، ظل الله فى أرضه، القائم بسنته وفرضه، ملك البرين وسلطان البحرين، حامى الدمار، وقامع الكفار، مولانا وعمدتنا، كهفنا وغيثنا، لا زال ملكه موفور الأنصار، مقروناً بالانتصار، مخلص المآثر والآثار، مشهور المعالى والفخار، مستأثراً من الحسنات بما يضاعف به الأجر الجزيل، فى الدار الآخرة والثناء الجميل، والنصر فى هذه الدار، ولا برحت عزماته العلية، مختصة بفضائل الجهاد ومجرد على أعداء الدين من بأسها، ما يروى صدور السحر والصفائح والسنة السلاح، بأذلة نفائس الذخائر فى المواطن التى تألف فيها الأخايير مفرقة الأرواح للأجساد، سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يقوم الأشهاد).

وكانت ضمن الرسالة أبيات القصيدة يمدح فيها الدولة العثمانية والسلطان بايزيد، ويدعو للدولة بدوام البقاء قائلاً:

(١) الدولة العثمانية. د. على الصلابى ص ٢٠٩.

(٢) المصدر السابق.

سلام كريم دائم متجدد
سلام على مولاي ذى المجد والعلا
سلام على من وسع الله ملكه
سلام على مولاي من دار ملكه
أخص به مولاي خير خليفة
ومن ألبس الكفار ثوب المذلة
وكايده بالنصر فى كل وجهة
قسطنطينية اكرم بها من مدينة
ثم تبين الأبيات بعد ذلك وتوضح شعور المسلمين المنتصرين نحو الدولة
العثمانية وتقدم شكواها للسلطان العثماني، فيقول شاعرهم ويستفيض فى شرح
مأساتهم وتغيير دينهم:

شكونا لكم مولانا ما قد أصابنا
غُدرنا ونُصْرنا وبُدل ديننا
وكنا على دين النبی محمد
من الضر والبلوى وعظم الرزية
ظُلمنا وعُوملنا بكل قبيحة عوملنا
نقاتل عمال الصليب بنيه
ثم يطلب الموريسكيون تدخل السلطان بايزيد لإمدادهم وإنقاذهم مما هم فيه وأن
يتوسط لدى السلطان فى روما^(١):

سألناك يا مولاي بالله ربنا
عسى تنظروا فينا وفيما أصابنا
فسل بابهم أعنى المقيم برومة
ومالهم مالوا علينا بغدرهم
وبالمصطفى المختار خير البرية
لعل إله العرش يأتى برحمة
بماذا أجازوا الغدر بعد الأمانة
بغير أذى منا وغير جريمة
ويشير المسلمون المنتصرون إلى أن سلطان مصر قد توسط لدى المسيحيين
ليخففوا عنا ولكنهم لم يغيروا شيئاً وظلوا فى تشددهم وتعتهم:

وقد بلغت إرسال مصر إليهم
وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا
وما نالهم غدر ولا هتك حرمة
رضينا بدين الكفر من غير قهرة

(١) الدولة العثمانية، د. على الصلابي ص ٢١٣.

ومع هذا العذاب وتلك المحنة الشديدة فقد صمموا على البقاء على دينهم
الإسلامي الحنيف:

والله ما نرضى بتبديل ديننا ولا بالذى قالوا من أمر الثلاثة
إن زعموا أنا رضينا بدينهم بغير أذى منهم لنا ومساءة
فسل وحرا عن أهلها كيف أصبحوا أسارى وقتلى تحت مذلة ومهنة
وينهى الشاعر قصيدته بأن يجدد الاستغاثة بالدولة العثمانية ويرجو منهم
إنقاذهم وإجلاءهم من تلك البلاد^(١):

فها نحن يا مولاي نشكو إليكم فهذا الذى نلناه من شر فرقة
عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا كما عاهدونا قبل نقض العزيمة
والا فيجلونا جميعا عن أرضهم بأموال للعرب دار الأحبة
فإجلاؤنا خير لنا من مقامنا على الكفر فى عز على غير ملة
فهذا الذى نرجوه من عز جاهكم ومن عندكم نقضى لنا كل حاجة
وثم سلام الله قلته ورحمته عليكم مدى الأيام فى كل ساعة^(٢)

أما طلب النجدة والاستغاثة من ملوك المغرب فقد تعددت مع مرور الأيام غير
أن الأوضاع الداخلية التى كان عليها المغرب وخضوع بنى وطاس لإسبانيا وعقد
معاهدة ١٥٣٨م معهم وازدياد النفوذ الإسباني -البرتغالى على السواحل المغربية قد
جعل من المستحيل القيام برد فعل حازم وفعال، وسوف يأتى الحديث عن تلك
الرسائل لنظهر من خلالها علاقة المشرق الإسلامى بالموريسكيين فى تلك الفترة.

(١) الدولة العثمانية، د على الصلابى ص ٢١٣ - ٢١٥.

(٢) انظر رسالة اهل الأندلس بعد استيلاء النصارى عليها وتعذيبهم للمسلمين إلى السلطان بايزيد. المكتبة
الوطنية بالجزائر رقم ١٦٢٠ نقلا عن الدولة العثمانية للدكتور: على الصلابى مكتبة العلوم والحكم
ص ٢٠٩ - ٢١٥، وانظر أيضاً كتاب النوازل الكبرى فى التاريخ الإسلامى. للدكتور. فتحى زغروت
(محنة الموريسكيين واستنجادهم بالعثمانيين) من ص ٥٠٨ - ٥١٥.

على أن النجاح السريع الذي عرفته الدولة العثمانية في كل من أوروبا وإفريقيا ومدى الانتصارات الحربية التي حققها السلطان سليم وسليمان القانوني على الجيوش الأوربية الخليفة آنذاك، وسقوط عدد من العواصم الأوربية، قد أعطى أبعاداً أخرى لهذا الصراع الذي واجهته الدولتان العثمانية والإسبانية والذي اتخذ شكل حرب دينية عقائدية ساعدت على إشعال نار الصراع بين الدولتين. على أن الانتصارات التي حققها العثمانيون والأهمية التي أصبحت عليها إستانبول بعد فتح القسطنطينية، قد شجع عدداً من المهاجرين المسلمين واليهود على الاستقرار بالعاصمة العثمانية.

كان الموريسكيون يتبعون باهتمام مدى النجاح الذي حققه العثمانيون وكيف دانت لهم كل من سوريا ومصر، وخاصة الجزائر التي أصبحت حصناً منيعاً يلتجئ إليه المهاجرون الأندلسيون. إن وجود القائد البحري خير الدين باربروسا باي الجزائر في العقد الثالث والرابع من القرن السادس عشر ومدى النجاح الذي حققه في ملاحقة الإسبان بالجزائر ثم تدميره حصن البينون سنة ١٥٢٩م في تلك الولاية وتشجيعه حركة إنقاذ مسلمي الأندلس. كل هذا قد جعل الإسبان يصرّون على ملاحقة المسلمين أينما كانوا، وتشديد الحملات عليهم، وإقامة القلاع الحصينة على أرض إفريقيا الشمالية، ومراقبة الحركة البحرية العثمانية، وقطع الطريق للمحاولات المتكررة التي ما فتئ البحارة المغاربة يقومون بها بنجاح لإنقاذ الموريسكيين من الأرض الإسبانية، كما كان هؤلاء يتصلون سرّاً برجال البحر المسلمين ويمدّونهم بالمعلومات اللازمة للقيام بهجماتهم بنجاح.

وقد أظهر قادة إسبانيا خوفهم من اتحاد كلمة الموريسكيين مع العثمانيين فشددوا المراقبة على موانئهم بل ذهبوا بقرار من الملك إلى إنشاء ميليشيا لرد هجمات المغاربة الخطيرة بهدف إنقاذ الأقليات الإسلامية المبتوتة في عدد من الولايات الإسبانية، وبالفعل كان نشاط خير الدين باربروسا في هذا المضمار حاسماً وفعالاً، وكان ذلك راجعاً لما يتمتع به من صفات، فهو الذي عرف ببعد نظره وحيويته الفائقة وتمسكه بالأصول الحربية التي اشتهر بها فضلاً عن شخصيته القوية وما

تمتعت به من إرادة، وهذا أكسبه احترام أعدائه وخوفهم منه. إن نجاح حركة خير الدين البحرية وهجماته الموفقة على السواحل الإسبانية جعل الموريسكيين يستنجدون به لإنقاذهم كأهل بلنسية وغرناطة وغيرها وكثيراً ما قام قواد أمثال صالح رايس وإيدين رايس وطبقة رايس بهذه المهمة. ويذكر لنا المؤرخ كاتب شلبي أن خير الدين تمكن خلال سبع سفرات أن يوجه ٣٦ بارجة إلى السواحل الإسبانية لنقل سبعين ألف موريسكى خلال سنة ١٥٢٩م، ويدل هذا على مدى الدور الفعال الذي قام به خير الدين لإنقاذ آلاف من مسلمي الأندلس إلى السواحل المغربية^(١).

إن نجاح خير الدين في خلق هيكل دولة قوية بالجزائر، ثم المساندة المعنوية والعسكرية التي كان يلقاها لدى السلطان سليمان القانوني قد حثه على الاستمرار في جعل المغرب قاعدة عثمانية لصد الهجوم الإسباني، بل إن السياسة العثمانية كانت تهدف إلى إشغال جيوش شارل الخامس في حوض الأبيض المتوسط الغربي، وهذا ما يفسر إقدام خير الدين أثناء رجوعه من إستانبول منذ ١٥٣٤م على احتلال تونس وإعلانها ولاية تابعة للإمبراطورية العثمانية.

أدخل هذا الانتصار الحيرة لدى البابا، وكذلك الإمبراطور شارل الخامس الذي اعتبر ذلك تهديداً مباشراً للمسيحية ولخطوط مواصلاته البحرية مع أطراف مملكته من ناحية، فضلاً عن إعانة وتشجيع البحارة المغاربة للهجوم على السواحل الإسبانية، ونجدة مسلميها من ناحية أخرى، وبالفعل بذل شارل الخامس جهوداً في الاستيلاء على تونس وإبعاد خير الدين عنها وقد نجح في ذلك. غير أن الخطة التي كان يحلم بتحقيقها ليست الاستيلاء على تونس حيث كانت أوضاعها الداخلية، واستنجاد مولاي حسن الحفصي بشارل الخامس، قد ساهمت بشكل كبير في إنجاح الحملة إنما كان جل هدفهم هو ضرب مدينة الجزائر والاستيلاء عليها، خصوصاً وأن الشخصية القوية (خير الدين) قد دعت إلى إستانبول ليصبح قبطان دريا أي

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص ٣٠.

وزير البحر العثماني، ولم يبقَ للإمبراطورية العثمانية على الساحل المغربي إلا الجزائر، وعليه كان شارل الخامس يخطط للقيام بحملة على الجزائر التي أصبحت قاعدة قوية وحصينة للسلطان سليمان القانوني تجاه السواحل الإسبانية، خصوصاً بعد الأنباء الحزينة التي وصلتته من أوروبا إثر نجاح جيوش السلطان سليمان في الاستيلاء على مدينة بود وتحويل أكبر كنائسها إلى مسجد. كان هذا الحدث بمثابة إهانة وتهديد للتكتلات المسيحية الأوربية^(١).

أصر شارل الخامس إذن على التوجه بأضخم أسطول قام على إشرافه وإحضاره، ويبدو أنه من أكبر التجمعات البحرية المقاتلة التي ظهرت في القرن السادس عشر، وكان البحارة والجيش خليطاً من مختلف أصقاع الإمبراطورية الإسبانية، وكان هدف الحملة هو الاستيلاء على الجزائر، واجتثاث العثمانيين من البحر الأبيض المتوسط وعزل فرنسا وقطع طريق النجدة إليها عن طريق حلفائها العثمانيين. وكان الإسبان يعتقدون أنه لولا بروز العثمانيين بالمغرب لأمكنهم إنشاء مملكة على السواحل المغربية، وذلك بهدف قطع الطريق على رسل الموريسكيين إلى إستانبول لطلب النجدة. وما لا شك فيه أن احتمال قيام العثمانيين بحملة على إسبانيا قد أثرت آنذاك في بلاط مدريد^(٢).

إن إصرار شارل الخامس الشخصي في اختيار زمن الهجوم من ناحية وتجمع كلمة الجزائريين وراء حسن أغا من ناحية أخرى، ثم نزول الأمطار بكثرة وهبوب عواصف مبكرة. كل هذا ألحق بجيش شارل الخامس أكبر هزيمة حربية وبحرية منى بها في حياته وكان ذلك في أواخر شهر أكتوبر ١٥٤١م، على أن نتيجة تلك الحملة كانت بعيدة المدى وذات نتائج محسوسة، حيث أصبحت الجزائر أكثر أمناً ورخاء وهبطت فيها الأسعار ونعم الناس بالطمأنينة، ولم يبقَ لهم عدو يخافون منه، وشاعت هذه القضية في مشارق الأرض ومغاربها، فاثارت رعب المسلمين في قلوب الكفار مدة طويلة.

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين مرجع سابق ص ٣١.

(٢) المصدر السابق نفسه.

وقد ترددت أنباء تلك الهزيمة فى إسبانيا وكان وقعها شديداً على القادة ورجال الدين، إلا أن صداها لدى الموريسكيين قد كان مؤثراً وبالغاً حيث جعلتهم يتطلعون إلى النجدة من السلطان العثماني، وبالفعل ففى أقل من شهر فقط من هزيمة شارل الخامس أمام الجزائريين بعث مسلمو الأندلس برسالة إلى السلطان سليمان القانوني، وعلى الرغم من تعدد رسائل الموريسكيين إلى السلاطين العثمانيين، حسب مختلف الروايات التركية والعربية والأوربية إلا أنه قد عثر على نص من هذا القبيل^(١)، وإن كان لا يتضح منه الاسم أو الأسماء التى قامت بتحرير تلك الرسالة، وعلى ما يبدو أن السبب فى ذلك هو الخوف من وقوع تلك الرسالة فى يد السلطة الإسبانية التى كانت تحرص دوماً على بث العيون والجواسيس للعثور على مثل هذه الرسائل والمعلومات، وأنها لتكشف عن معلومات ذات أهمية تاريخية، كعدد الموريسكيين الموجودين بالأندلس، وإعطاء صورة حية مؤلمة لما يلقونه من السلطة الإسبانية المسيحية آنذاك ومدى الحيرة التى تمكنت منهم، ثم التأكيد على نشاط خير الدين وما قام به لإنقاذهم، ومطالبة السلطان سليمان القانوني بإعادة تعيينه بيلر باى الجزائر لأنه الشخصية الوحيدة القادرة على إنقاذهم من الهجومات الإسبانية.

وبخصوص عدد الموريسكيين بالأندلس تضاربت الإحصائيات تضارباً كبيراً خلال القرن السادس عشر وبالنسبة إلى المدن الكبرى كغرناطة آخر معقل للمسلمين وبلنسية وقشتالية وأراجون وغيرها، وقد جاء فى هذه الرسالة ما يلى: «إن عبيدك الفقراء «كذا» الغرباء «كذا» المنقطعين بجزيرة الأندلس وجملة عدتهم ثلاثمائة ألف وأربعة وستون ألف منهم من رسائلهم بغرناطة خمسون وغيرها بجزيرة الأندلس والباقي من عامة المسلمين...» يتبين لنا أن ذكر هذا الرقم لا يدل قطعاً على إعطاء رقم اعتباطي إجمالي، بل إن ذكر الأربعة آلاف بعد الستين ألفاً توحى بمدى حرص محرر الرسالة ودقة إطلاعه على عدد الموريسكيين، على أننا أخذنا بعين

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص ٣٢.

الاعتبار إحصائية سكان إسبانيا البالغ عددهم ستة ملايين^(١) سنة ١٥٤١م، وهى السنة التى حررت فيها تلك الرسالة فلا نستغرب الرقم الذى قدمته هذه الوثيقة ومما يساعد على تقريب هذا العدد ما قدمه المؤرخ محمد عبد الله عنان من أن سكان غرناطة وحدها بلغ ٤٠٠ ألفاً فى أوائل القرن السادس عشر والمؤرخ شونو ٥٠٠ ألف وأنطونيو بلستيرو ٧٠٠ ألف، ومن جهة أخرى يذكر المؤرخ هنرى لاير أن المسلمين القاطنين سنة ١٦٠٩م بإسبانيا بلغ ٢٩٦ ألف حوالى ٣٠٠ ألف وأن الذين غادروا إسبانيا بلغ عددهم ٢٧٥ ألف. ولا بد أن نأخذ بعين الاعتبار الهجرات المتكررة من إسبانيا إلى المغرب لنلمس تأثير ذلك على عدد السكان خلال ثمان وستين سنة وهى المدة الفاصلة بين هذين التاريخين.

يتبين لنا إذن أن رقم ٣٦٤ ألف الذى قدمته هذه الوثيقة يمكن الاعتماد عليه، وأنه اليوم أقربها إلى الصواب والواقع^(٢)، وترسم الوثيقة بعد ذلك صورة مؤلمة وحية لما قاساه الموريسكيون فى عهد محاكم التحقيق والقرارات الجائرة التى سلطت عليهم، ولا أدل على ذلك من قراءة نص الرسالة نفسه ليعكس لنا هذا النداء الأليم والمفجع الذى اضطبغت به الكتابات النادرة من الجانب العربى والتى وصلت إلينا عن هذا الموضوع.

وقد تعددت منها نداءات النجدة لملوك المغرب الأقصى، إلا أن التحديات والحملات التى ما فتئت السفن الإسبانية والبرتغالية تشنها على الساحل المغربى لم تدع مجالاً لاتخاذ موقف أكثر فاعلية ونجاعة فى نظر الموريسكيين، على أن ذلك لم يمنع المهاجرين الأندلسيين المرابطين على السواحل المغربية من العمل على نجدة إخوانهم الأندلسيين.

على أن الذى يلفت انتباهنا فى هذه الرسالة هو إطلاع الموريسكيين الدقيق على أحداث وحروب ونتائج وسرعة وصول الأخبار إليهم، إذ بعد شهر من هزيمة شارل الخامس، وعلى الرغم من تحويل بقايا جيشه إلى إيطاليا بدلاً من إسبانيا،

(١) المصدر السابق.

(٢) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلس. للدكتور عبد الجليل التيمى. مرجع سابق. ص ٣٣.

وصل إلى علم الموريسكيين خبر فداحة هزيمة عدوهم شارل الخامس أمام الجزائريين واعتبروا ذلك نصراً من عند الله وقوى أملهم، وهذا ما يفسر تلقائياً تحريرهم هذه الرسالة إلى السلطان سليمان القانوني واستنجادهم به وتذكيره ما قام به خير الدين الذي أنجدهم عندما كان بيلر باي الجزائر.

إن هزيمة شارل الخامس أمام الجزائريين قد أضفت على هاته المدينة مغزى كبيراً ورمزاً للجهاد والدفاع عن المسلمين باعتبارها: «سياجاً لأهل الإسلام وعذاباً لأهل الكفر والطغيان...» وأصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة والرعية المؤتلفة بها مؤتلفة أليفة.

ثم نأتى إلى التساؤل الثانى وهو:

- هل أعرض العثمانيون عن مساعدة الموريسكيين؟

ولعل دراسة تلك القضية إذا ما اقترنت بتاريخ الدولة العثمانية تتضح أبعادها وينجلي غموضها من خلال صلة الموريسكيين بالدولة العثمانية.

وإذا كانت تركيا الإسلامية فى القرن الثالث عشر هى القوى الوحيدة المشرقية المهيمنة على العالم آنذاك، واتسعت أراضيها لتشمل بقاعاً كثيرة من العالم العربى والإسلامى والأوروبى، فلا عجب أن يتطلع مسلمو الأندلس إلى تلك القوة يلتمسون منها العون والغوث، وقد أثبتنا ذلك من خلال السؤال الأول وتم اتصال من هذا القبيل بينهم وبين القادة العثمانيين؟ وماذا كان موقف العثمانيين تجاه المسألة الموريسكية آنذاك؟ ثم ماذا كان وزن هذا المشكل على سياستهم العامة بالبحر الأبيض المتوسط وفى أوروبا؟

لا شك أنه انطلاقاً من استيلاء العثمانيين على القسطنطينية ومن الانتصارات العسكرية التى حققوها فى أوروبا الشرقية، أصبح الأتراك العثمانيون يتمتعون بوزن دينى وعسكرى وسياسى ذى أهمية كبرى تدرك أثره دول حوض البحر المتوسط وخاصة أثناء حكم محمد الفاتح وابنه بايزيد الثانى. وذلك بفضل جيوشهم البرية التى ملأت الأرض وأساطيلهم الضخمة المهيمنة على أعالي البحار.

من هذا المنطلق رأى الموريسكيون أنه لا سبيل لمنجاتهم إلا بطلب النجدة من سلاطين العثمانيين وبخاصة بعدما انقطع الرجاء من دول عدوة المغرب. وقبل سقوط الأندلس بخمس سنين أى عام ١٤٨٧م أرسلت سفارة إلى السلطان العثماني بايزيد كما قلنا سابقاً هي إلى طابع الرثاء العربى أقرب منها إلى شيء آخر، وفيها يشتكى الأندلسيون من المعاناة التي يتكبدوها المسلمون وكيف أن سقوط الإسلام في إسبانيا أصبح وشيك الوقوع، وقد طلبت الرسالة بعبارات مؤثرة جداً مساعدة الشعوب والملوك المسلمين^(١).

إن السلطان بايزيد الذي عرف بالتقوى والتدين قد رد على هذا الاستنجد بإرسال أسطول عثماني تحول إلى الشواطئ الإسبانية، وقد أعطى قيادته إلى كمال ريس الذي أصبح بعدئذٍ مصدر الرعب الذي كانت تشعر به الأساطيل المسيحية في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي.

لقد كان رد فعل السلطان بايزيد الثاني لقيامه بمساعدة هؤلاء المستضعفين من مسلمي غرناطة، إنما كان يترجم عن شعور صادق بالقيام بواجب ديني تفرضه رابطة الأخوة في الدين والتضامن الإسلامي. وقد كانت أخبار هؤلاء الموريسكيين تتناقل عن طريق الحجاج الأندلسيين والمغاربة ورحلاتهم إلى الأماكن المقدسة الإسلامية وقد كانت تلك الأماكن مناسبة للقاءات المسلمين العالمية، ولا شك أن المشكل الموريسكى والأخبار الموريسكية كانت تتناقل وتناقش وتنتشر عبر العالم الإسلامي، وأنا لا نستغرب على ضوء ذلك أن تعظم سمعة الدولة العثمانية وشهرة أسطولها وقوة جيوشها البرية، ذلك أن الإسلام في الدولة العثمانية يحتل المكانة الأولى وقد دخل الأتراك منذ العصور الوسطى في الأعمال الدينية والاقتصادية، ولا غرو في ذلك فإن مفتى وهران صرح في رسالة كان قد وجهها إلى مسلمي الأندلس سنة ١٥٠٣م قائلاً: «إني أدعو المولى سبحانه وتعالى أن يغير

(١) انظر عبد الجليل التيمى. الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين. منشورات الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية. زغوان ١٩٨٩م. ص ١١.

الأحداث لصالح دين الإسلام، وحتى تتمكنوا من عبادة الخالق دون لوم أو خوف، وهذا بفضل التحالف مع الأمراء الأتراك»^(١).

وبالفعل فقد أصبحت إستانبول منذ بداية القرن السادس عشر «الأرض الموحدة» بالنسبة إلى المضطهدين سواء أكانوا مسلمين أو يهوداً، وأن الأقلية الموريسكية أخذت في الازدياد وأصبح بإمكانهم أن يلعبوا دوراً رئيساً لإحاطة رجال الدولة العثمانيين بالوضع المؤلم والحقائق المذهلة لكل ما يتعلق بالموريسكيين.

كما أن قنصل البندقية ذكر أن عدداً كبيراً من اللاجئين الموريسكيين يمتحنون الترجمة أو الاستخبارات لفائدة الدولة العثمانية وأنهم يؤمنون كل المراسلات تقريباً، والتي كانت تتم مع الولايات المغربية ومع المدافعين عنهم أينما كانوا وحتى اليهود فقد اتهموا بالجاسوسية والاستخبارات لفائدة العثمانيين^(٢).

إن مختلف المعلومات التي كانت تصل إلى مركز الدولة العثمانية عن الموريسكيين ابتداء من النصف الثاني من القرن السادس عشر، تؤكد بصورة لا مجال للشك فيها أن رجال الدولة العثمانية كانوا يراقبون ويتابعون عن كثب معطيات المشكل الموريسكي، وقد ذكر أحد التجار الألمان المقيمين بإستانبول حوالي سنة ١٥٦٠م أن الشائعات كانت تروج بمركز الخلافة العثمانية حول وجود ٨٠ ألف موريسكي قد التجأوا إلى فاس وأنهم اعتنقوا البروتستانتية بغرض الانتقام من محاكم دواوين التفتيش الإسبانية، ويعتبر هؤلاء اللاجئين مرآة صادقة تدل على عمق المأساة التي يعيشها الموريسكيون على الأرض الإسبانية، وقد أعلن بعضهم أنهم: سوف يلحقون الضرر بالمسيحيين مثلما فعل هؤلاء بالموريسكيين في إسبانيا^(٣).

إن السلطان العثماني قد استقبل عدداً من السفارات الجزائرية كان أهمها تلك

(١) انظر عبد الجليل التميمي: الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين. منشورات الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية. زغوان ١٩٨٩ م ص ١٦، ١٧.

(٢) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص ٧٩ وما بعدها.

(٣) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص ٤١.

التي ترأسها العالم أبو العباس بن أحمد بن قاضى والتي أحاط فيها السلطان علماً بوضعية الولايات المغربية وصراعها مع إسبانيا الكاثوليكية والتي أنزلت بالمجموعة الإسلامية الأندلسية كثيراً من المحن لتجبرها بالقوة على اعتناق الدين المسيحى . بعد أن قامت بتحويل كل الجوامع إلى كنائس ، وكان يساعدها فى ذلك محاكم دواوين التفتيش التى كانت تحرص بإصرار على أن تقضى على الوجود الأخلاقى والحضارى للموريسكيين واليهود والبروتستانت ، فى حين كان للمسيحيين بإستانبول على العموم ، كنائسهم المحمية من طرف الجيش التركى وإن كان كل فرد منهم حراً فى ممارسة دينه ، وقد أثار هذا التسامح أعجاب مختلف الزائرين لإستانبول خلال القرن السادس عشر ، وهى الظاهرة التى لا يمكن حدوثها فى هذا الظرف ، بإسبانيا .

وعلى ضوء ذلك ، فإن نشاط الدولة العثمانية بالبحر الأبيض المتوسط وتجاه المشكل الموريسكى بدأ يأخذ بعداً جديداً وأهمية خاصة . فإنه انطلاقاً من سنة ١٥١٩م بعدما ارتبطت ولاية الجزائر بالدولة العثمانية ، يمكننا أن نتحسس ، على ضوء الأحداث ، خلفية الموقف العثمانى وأهدافه وغاياته بالنسبة إلى موقفهم فى القضية الموريسكية .

إن التاريخ العثمانى إبان القرن السادس عشر فى علاقته مع الأوربيين قد تميز بظهور شخصيات كبرى حققت الانتصارات العثمانية ، كما أنها ساهمت فى إبقاء التوازن بين الدولة العثمانية والقوى الأوربية مجتمعة وزادت من قدرة العثمانيين على الدفاع والوقوف للمحافظة على التفوق العسكرى العثمانى ، ومن أهم هذه الشخصيات القائد البحرى عروج وخير الدين باربروسا وغيرهما وكان يعاونهما فى أعمال البحر ٥٠٠ شخص موريسكى ، وقد تضاعف عددهم وكان على علم بميدان العدو وتحركاته وكانوا يجيدون لغته^(١) .

إن الدور الذى لعبته هذه الأقلية فى إدارة خير الدين . ما زال مجهولاً ، ويحتاج إلى المزيد من الدراسة . وهو الدور الذى يترجم عن عمق قلقها وحقدتها وإصرارها لمساعدة إخوانهم بالأندلس ، ويكاد يكون مسلماً به اليوم ، إن خير الدين كان يدرك

(١) المصدر السابق ص ١٥ .

جيداً الملف الإسباني وحيث يعتبر المشكل الموريسكى أهم قضية فيه، ويرجع الفضل في ذلك إلى هؤلاء اللاجئين الموريسكيين الذين أحاطوا بخير الدين وأخلصوا له تماماً.

إن معرفة خير الدين بالملف الموريسكى بعد ذلك، قد دفعه إلى الاعتقاد بوجوب إنشاء دولة قوية وموحدة بالمغرب، وانطلاقاً منها يكون باستطاعته استرجاع الأندلس وإنقاذ الموريسكيين من ربة الإسبان ومحاكم دواوين التفتيش. ونتيجة لذلك فإن خير الدين بعد أن قضى على قلعة السينون الإسبانية في عرض البحر أمام مدينة الجزائر سنة ١٥٢٩م، استجاب لاستغاثات موريسكى الأندلس مرسلًا إليهم في نفس السنة: «ستاً وثلاثين باخرة استطاعت أن تنقذ عشرة آلاف منهم في كل مرة، بحيث إنه خلال سبع رحلات متوالية، أنقذ سبعين ألفاً من عرب الأندلس^(١)».

إن النجاح الذي حققه خير الدين قد أكسبه سمعة وهيبة لدى الجزائريين والموريسكيين على حد سواء، أما السلطان سليمان القانوني الذي اتصل بلائحة من الموريسكيين فقد سارع بإرسال فرمان إلى خير الدين يأمره بالتحول إلى إستانبول، للمشورة، وفي الحقيقة كان ثقل السياسة العثمانية في الولايات المغربية، يتركز على خير الدين في هذه الفترة. وعلى ضوء المقابلة التي تمت، أدرك السلطان جيداً خلفية وأهداف السياسة الإسبانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط ووضع الموريسكيين الدقيق ووجوب العمل على تقوية الوجود العثماني في هذا الجانب، وهذا وفقاً للإستراتيجية العسكرية التي يسعى خير الدين شخصياً لإنجازها.

واستجابة لهذه الرؤية الجديدة، اتخذت عدة قرارات منها بناء ٦١ وحدة من وحدات الأسطول في القرن الذهبي بإستانبول «وإن مشاعر عطف السلطان سليمان «لشمال إفريقيا» قد قويت من جديد بفضل سياسته الوفاقية مع فرنسا، وعليه أصبحت سياسة سليمان القانوني ملتزمة حيال الولايات المغربية من أجل الموريسكيين. وقد وجه هؤلاء سنة ١٥٤١م رسالة سوف نعرضها فيما بعد.

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص ١٦.

ومن جهة أخرى فإن تقدم الدولة العثمانية في أوروبا الغربية، في هذا الظرف على وجه الخصوص، والتأثير الذي أحدثته على مصائر الأمراء الأوربيين، قد أعطى أكثر من أي وقت مضى، إشعاعاً وهيبة لهذه الدولة ومنحها وزناً سياسياً وعسكرياً كبيرين. وقد انعكس هذا التأثير على دول الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. فلا نستغرب بعد ذلك اهتمام المسؤولين العثمانيين للمشاكل الموريسكية، وهو اهتمام ظهر على جميع المستويات على النحو التالي:

- التدخل المباشر أحياناً في بعض القضايا وذلك واضح في مراسيم وكتب السلطان العثماني إلى حكام الجزائر وتونس وطرابلس ومراكش.

- تقوية الوجود العثماني وذلك بإنشاء وحدات إضافية للأسطول العثماني الذي هيمن على شرق ووسط حوض البحر المتوسط.

- ربط الصداقة والتعاون مع الملك ألفونسو الأول ملك فرنسا وكذلك حكام البندقية.

- فتح طرابلس الغرب والمهدية وجربة والقيام باتصالات مع مسئولى المغرب الأقصى وتونس للتنسيق مع بعضهم بعضاً في مواجهة عدو مشترك.

وقد ساهم هذا النشاط السياسى والحربى فى التعاون بين مسلمى الشمال الإفريقى من أجل نصره القضية الموريسكية، وقد نجح أمراء البحر المجاهدين وبعض الولاة المنحازين الى الدولة العثمانية فى تحقيق بعض الانتصارات الجانية، وإن لم تكن أغلبها انتصارات قد وقعت على أرض الأندلس وإنما قد قربت العثمانيين من هدفهم الذى يسعون اليه.

أما حكام مدريد، فكانوا على علم تام بعلاقات الموريسكيين بالعالم الإسلامى، وأن أغلب المؤرخين ومدونى الوقائع أو القساوسة وحتى الشعراء، فقد اتهموا الموريسكيين بارتباطهم بالأتراك العثمانيين، وهذا ما زاد فى تخوفات فيليب الثانى، خاصة بعد الشائعات التى كانت تروج بكثرة حول تهديد الأسطول العثماني وتدخله فى الثورة الموريسكية بغرناطة.

أما الصدر الأعظم محمد صوفلى الذى عرف بورعه وتقواه، والذى أحيط علمًا بمحن الموريسكيين عن طريق العديد من الرسائل التى وجهت إلى الباب العالى فيبدو أنه كان يخطط للهجوم على إسبانيا لغرض مساعدة موريسكى غرناطة الثائرين وأنه اقترح على السلطان القيام بحملة على إسبانيا بدل قبرص وقد سبق للصدر الأعظم أن أصدر فرمانين مهمين لمشكل الموريسكيين وهذا يدل على تقدير العثمانيين لهذه القضية.

وقد شوهدت مشاهد كثيرة فى هذه الفترة تؤكد أن الثوار قد تلقوا مددًا وأسلحة وبعض مئات من المتطوعين من الجزائر، فهذا سفير فرنسا (فوركوفوا) فقد أكد فى رسالة إلى (كاترين دوماديسيس) بتاريخ ٦ يناير ١٥٦٩م أنه: «يوجد ما بين ٤٠٠ و ٥٠٠ تركياً صحبة «أمير غرناطة» وقد أرسلوا للجزائر، وحتى يوحى أمير غرناطة بأن عددهم أكثر بكثير من ذلك فقد عمل على ارتداء عدد من العرب البواسل، الزى التركى»، كما أن المدد قد وصلهم من ملك فاس وحيث تمكن بفضل ثمانية عشر باخرة خفيفة نقل ٤٠٠ عربياً أو تركياً وكذلك الذخيرة^(١)...».

وموقف الدولة العثمانية سوف يترجم عنه هذا النشاط الحديث لدى ملك المغرب الأقصى لتنسيق عملهما للدفاع عن السواحل ومساعدة اللاجئين الموريسكيين. وكذلك تبادل السفراء المتواصل بين البلدين والذى يترجم للسعى إلى تنسيق الجهود، وهذا على الرغم من خوف واحتراز كل منهما للآخر، ومع ذلك فإن القضية الموريسكية تبقى المسألة التى اتفق عليها الطرفان، وذلك أن العثمانيين ما فتئوا يطالبون بمساعدة الموريسكيين، كما تؤكد تلك الرسالة التى وجهها السلطان العثمانى إلى ملك فاس بتاريخ شهر سبتمبر ١٥٧٣م.

على أن الاكتشاف بوجود مؤامرة موريسكية فى إشبيلية عام ١٥٨٠م تهدف إلى المساعدة على احتلال إسبانيا انطلاقاً من السواحل المغربية، يؤكد ولا شك ظاهرة

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص ١٨ - ٢٠.

التنسيق المشترك لكل ما يتعلق بالمسألة الموريسكية والتي كان يتم بالتعاون مع الإمبراطورية العثمانية^(١).

إن العوامل التي أثرت على مصير الموريسكيين كانت متعددة كما يقول الدكتور عبد الجليل التميمي، وأنه من المفيد ذكر عدد كبير من الوسطاء غير المسلمين فرنسيين أو غيرهم، كانوا على اتصال منذ أواخر القرن السادس عشر بالموريسكيين، وذلك أن التدخل الفرنسي لدى الموريسكيين كان حقيقة يعلمها الإسبان وقد قام الجاسوس المزدوج (باسكال دوسانت استاف) بأمر من الملك (هنري الرابع) (ودوك دولا فورس) سنة ١٥٩٩م بالاتصال بالموريسكيين^(٢).

ومن خلال هذه الإستراتيجية السياسية والعسكرية، فإن الولايات المغربية قد خدمت بشكل جذري الدولة العثمانية في كل ما يتعلق بالموضوع الموريسكي خلال القرن السادس عشر، ذلك أنه قبيل الطرد النهائي للموريسكيين فإن الولايات المغربية أصبحت أقل خطراً على إسبانيا نتيجة اختفاء الظاهرة الموريسكية.

أما موقف الدولة العثمانية من عملية الطرد النهائي للموريسكيين سنة ١٦٠٩م فسوف توضحه تلك الرسالة المهمة المرسلة من السلطان العثماني أحمد الأول إلى دوق البندقية سنة ١٦١٤م، وقد ظهرت من خلالها المساعي السياسية للإمبراطورية العثمانية لدى معظم الدول الأوروبية يومئذ، لمساعدة الموريسكيين وتقديم كل عون وتمكينهم من الالتحاق بأرض الدولة العثمانية في أحسن ظروف الأمن والسلم والطمأنينة.



(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص ٢١.

(٢) المرجع السابق ص ٢١.

- لقد اعتمدنا في كتابة هذا الجزء على كتاب الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين بالأندلس للدكتور عبد الجليل التميمي «بتصرف». منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات رغبان ١٩٨٩م. ومن يرد الاستزادة فليرجع إليه.

ثانياً: أثر الموريسكيين في المغرب العربي

بعد سقوط دولة الإسلام في الأندلس -بل وقبيل السقوط- كانت الهجرة إلى بلد إسلامي تعد في كثير من الأحوال هي الحل الأنسب، فقد رأى نبلاء غرناطة أن الأمور في بلدهم تسير من سيئ إلى أسوأ وأن دولة الإسلام منهارة لا محالة، ولم يكن من الممكن آنذاك عمل أي شيء يوقف زحف الملك الكاثوليكي. بدأ الناس في الهجرة، وكانت لتلك الهجرة -كغيرها من الحركات الكبرى في التاريخ- ذات نتائج ملموسة، سواء على الذين هاجروا، أو على بعض البلاد التي هاجروا إليها. رحل الأندلسيون إلى تركيا ومصر وشمال إفريقيا وأوروبا، بل وأمريكا التي كانت قد تم اكتشافها منذ قليل، لم تكن هجرة الأندلسيين ذات أثر بارز في بلد كمصر، فالمهاجرون قد استقروا فيها وصاهروا أهلها. وبعد فترة قصيرة لم يعد من الممكن التمييز بين المصري والأندلسي^(١)، ونظن أن الوضع لم يكن يختلف كثيراً في بقية البلاد الإسلامية مثل تركيا.

لكن الوضع في شمال إفريقيا كان مختلفاً تماماً، فقد أقام المهاجرون في قرى ومدن خاصة، شيدوها على غرار المدن التي جاءوا منها، وظلوا يتحدثون الإسبانية فيما بينهم، ولم يندمجوا في المجتمعات المغربية التي هاجروا إليها إلا بعد زمن طويل. كان لهجرة الأندلسيين نتائج ملموسة على المغرب العربي، فقد نقل الأندلسيون إلى شمال إفريقيا ثقافتهم الخاصة، بإيجابياتها وسلبياتها، كما سنعرض فيما بعد. كانت إعادة تأسيس مدينة تطوان على يد المنطري، وهو نبيل غرناطي، هي أولى ثمار الهجرة الأندلسية إلى المغرب، حيث يبرز الطابع الغرناطي الخالص الذي تمتعت به مدينة تطوان عند إعادة تأسيسها. وصل الغرناطيون إلى شمال إفريقيا فأعادوا هيكلة الجهاد البحري الذي تحول في بعض الأحيان إلى وسيلة

(١) راجع كتاب عبد الرحيم عبد الرحمن عن الأندلسيين في مصر من واقع ملفات المحاكم الشرعية، إصدارات مؤسسة التميمي للبحث العلمي - زغوان، تونس.

لكسب العيش. إن الجهاد - بشقيه: البرى والبحرى - قد جعل من تطوان قبلة للمسلمين المضطهدين فى أوروبا.

كانت هجرة نبلاء غرناطة المسلمين إلى شمال إفريقيا سبباً فى وضع حد للتوسع البرتغالى على حساب بلاد المغرب العربى، وقد استطاع المغاربة - بمعاونة الغرناطيين المنفيين - تحقيق ما لم يستطيعوا تحقيقه بمفردهم. إن النصر على البرتغال فى معركة القصر الكبير عام ١٥٧٨م إنما ترجع أسبابه الرئيسية إلى معاونة الأندلسيين الذين وقفوا إلى جانب السلطان المغربى على أن ثمار الوجود الموريسكى فى المغرب لم تقتصر على الجانب الجهادى، ولعلنا نتذكر أن الأندلسيين بالإضافة إلى تقديم المحاربين الشجعان للجيش المغربة كان من بينهم الوزراء ذوى رأى، وكان منهم المستشارون والصناع المهرة والجنود والتجار، هذا إلى جانب المسائل الفقهية التى أثارها الوافدون الجدد إلى المغرب، وإلى جهود الأندلسيين أنفسهم فى ترجمة العلوم الدينية. كل ذلك أسهم فى أن يلمع بريق الأندلس فى الشمال المغربى. حيث أظهرت الآثار المعمارية التى خلفها الموريسكيون فى المغرب والتى انعكست - دون شك - على الطراز المعمارى المغربى فيما بعد.

لا نستطيع أن نؤكد أن ترحيب أهل المغرب العربى بأولئك المسلمين المهاجرين كان ترحيباً بلا تحفظ، فقد كان القادمون الجدد يمثلون - فى نظر البعض - تهديداً للقيمة العيش من ناحية، وكان المغاربة ينظرون إليهم بعين الشك أحياناً حين يرون أنهم يمارسون إسلاماً مختلفاً فى شكله عن الإسلام الذى عرفه الناس فى المغرب. وعليه فقد تعين على الموريسكيين أن يدافعوا عن أنفسهم ضد سكان البلاد الأصليين وضد البرتغاليين فى آن واحد.

وقد أدى انهماك المسلمين الغرناطيين فى المغرب على توفير متطلبات حياتهم والدفاع عن أنفسهم، ضد البرتغاليين من ناحية وضد سكان البلاد الأصليين من ناحية أخرى - كما قلنا -، إلى نتائج منها اتجاه الوافدين الجدد إلى الجهاد البحرى، ومن هنا أهملوا بقية الأنشطة الاقتصادية كالزراعة والصناعة، كما انحصر النشاط الأدبى فى كتابات دينية ضرورية.

ذكرنا أن الأندلسيين قد نقلوا إلى المغرب الطراز المعماري للمدن والبيوت التي كانوا يقيمون فيها في إسبانيا، وهذا أثر إيجابي. لكن الهجرة الموريسكية إلى المغرب وانتشارها في مدن العدو المغربية في إحدى ضفتي المضيق كانت لها أيضاً جوانب سلبية ترتبت عليها.

إن قراءة تاريخ ضفتي مضيق جبل طارق في القرن السادس عشر يدل على أن تاريخهما لا يمكن فصله، وعليه فإن دراسة تاريخ المغرب العربي - من قبل الباحثين الإسبان - ليست من باب التعرف على الآخر، بل هي ضرورة للتعرف على الذات. ولكن الحقيقة أن ما كتب من خلال تلك الفترة من قبل المؤرخين الإسبان كان قليلاً جداً ونادراً، فإن الموريسكيين لم يجدوا اهتماماً بالغاً إبان القرن السادس عشر، حتى إن المؤرخين الإسبان إذا ما كتبوا عن هؤلاء الموريسكيين الذين استقروا في المغرب فأحياناً يرجعون إلى المصادر العربية كابن الخطيب وابن خلدون، وقد يلجأ بعض المؤرخين إلى الكتابة عن تلك الطائفة من ناحية واحدة معتمداً إما عن المصادر العربية أو المصادر الإسبانية وحدها، وإذا ما كانت الرؤية الغربية هي السائدة عن تلك الطائفة فهل يعتد بها في غياب الرواية العربية؟

لقد أصاب اليهود ما أصاب المسلمين من طرد وتشريد على أيدي الإسبان، وكان من الطبيعي أن تنشأ علاقة طيبة بين المسلمين واليهود في المنفى، فالمجموعتان تربطهما علاقة الوطن المفقود وعلاقة اللغة الإسبانية التي كانوا يتحدثونها. إن الدور البارز الذي لعبه اليهود كتجار ووسطاء في المفاوضات التي كانت تجري بين المسلمين والمسيحيين لا بد أن يدرس بعناية. مبلغ علمنا أن عدد اليهود الذين رحلوا إلى المغرب كان ضئيلاً إذا ما قورن بأعداد المسلمين الذين اختاروا نفس المكان كوطن بديل. ورغم قلة عدد اليهود إلا أنهم قاموا بدور بالغ الأهمية في المجال الاقتصادي وفي مجال السياسة في حوض البحر المتوسط. إن أهمية الأمة لا تكمن في عددها وإنما في إيجابية مواطنيها واجتهادهم في تحقيق أهدافها.

وقد لعب اليهود دوراً بارزاً على الرغم من قلة عددهم ونرى ذلك فى مفاوضات تحرير الأسرى الإسبان، وربما يكون من المناسب أن تخصص دراسة مستقلة للدور الذى لعبه اليهود فى عالمنا العربى الإسلامى بعد طردهم من إسبانيا عام ١٤٩٢م. قام اليهود فى بعض الأحيان بدور بارز فى الترجمة، ولعلهم بذلك عرفوا كثيراً من الأسرار واستغلوها لصالحهم، وقد عاشوا فى المغرب فى جو من الحرية والتسامح لم يتمتعوا بهما فى إسبانيا الكاثوليكية.

على أن اليهود لم يصلوا إلى المغرب ابتداء من عام ١٤٩٢م حين طردتهم إسبانيا منها، بل تدل الوثائق على تواجدهم فى بلاد المسلمين قبل ذلك التاريخ بكثير وتوليهم مناصب مهمة وإساءتهم إلى من أحسن إليهم. أشير هنا إلى ما يذكره الدكتور عيسى الحريرى - نقلاً عن السلاوى: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى - فى كتابه عن دولة بنى مرين (ص ١٨٦) وكيف أن يهودياً تولى الوزارة وكان سبباً رئيسياً فى انهيار دولة بنى مرين:

واضطرم حقد السلطان على رعيته، فسولت له نفسه تعيين اثنين من اليهود هما هارون وشاويل فى منصب الوزارة تأديباً لرعيته وتشفيماً منهم. وأثار هذا التصرف كافة طوائف الشعب، لأنه تصرف يمس عواطفه الدينية، وفقد السلطان عبد الحق تأييد شعبه خاصة وعامة، ومما أذكى حقد الشعب على السلطان أن الوزيرين اليهوديين شرعا فى «أخذ أهل فاس بالضرب والمصادرة على الأموال واستبد اليهود بالمدينة وتحكموا فى الأشراف والفقهاء فمن دونهم، وكان اليهودى هارون قد ولى على شرطته رجلاً يقال له الحسين لا يألو جهداً فى العسف واستلاب الأموال، واستمر الحال على ذلك والناس فى شدة». واقتربت نهاية السلطان ومعه نهاية الدولة (المرينية)، ففى أحد الأيام قبض الوزير اليهودى على امرأة شريفة من البليدة - من أحياء فاس - «فانحنى عليها بالضرب ولما ألهبتها السياط جعلت تتوسل برسول الله ﷺ، فحمى اليهودى وكاد يتميز غيظاً من سماع ذكر الرسول ﷺ وأمر بالإبلاغ فى عقابها» وانتشر الخبر فى المدينة فأسرع الناس إلى الاجتماع عند

خطيب مسجد القرويين واتفقوا على خلع السلطان عبد الحق والبيعة للشريف أبي عبد الله الحفيد، وهو محمد بن علي عمران الإدريسي من أهل البيت وبايعوه في السابع عشر من رمضان (٨٦٩هـ / ١٤٨٥م)، وهكذا انتهت آخر صفحة من صفحات الدولة المرينية بعد أن عاشت في بلاد المغرب بعطائها السياسي والحضاري الغزير زهاء مائتي عام.

وهكذا نلمس دور الموريسكيين واليهود واضحاً في البناء الحضاري والثقافي في المغرب العربي فهم أصحاب حرف فنية وأصحاب معمار حربي ومدني على مستوى رفيع من الفن ولا يمكن أن ننكر دورهما في هذا المجال، على الرغم من الصعوبات التي واجهوها من سكان أهل المغرب من حيث التشكك والريب من إسلامهم، حيث كانوا ينظرون إليهم على أنهم السبب في ضياع ملك المسلمين لتلك المنطقة، ولكن مما يحمد لهم إضافة إلى ما سبق ذكره الجهاد في سبيل الله حيث ركبوا السفن ومسكوا الأسلحة لمواصلة الجهاد لإنقاذ المسلمين في الأندلس.



ثالثاً: يهود الدونمة وتأمرهم على الخلافة العثمانية

الدونمة كلمة تركية أطلقها الأتراك على اليهود الذين هاجروا من إسبانيا إلى تركيا بعد اضطهادهم وطردتهم والمسلمين على أيدي محاكم التفتيش الإسبانية، وقد فتحت تركيا الإسلامية أبوابها أمام طلائع اليهود التي أخذت تفد إلى مدينة «سالونيك» الواقعة في ممتلكات الدولة العثمانية آنذاك، وإلى سائر المدن التركية، بعد أن تعرضوا لمخاطر البحر وقراصنته وكادوا يهلكون جوعاً.

والدونمة كلمة تركية مركبة من جزأين: الأول (دو) بمعنى اثنين وهي فارسية الأصل والثانية (نمة) بمعنى نوع، ومعنى الكلمة بجزأها كما أرادها الأتراك الفرقة القائمة على نوعين من الأصول «النوع اليهودي» و«النوع الإسلامي»^(١)، وقد أطلقوها على تلك الفرقة اليهودية التي تظاهر أفرادها بالإسلام وأضمرُوا اليهودية وعاشوا بين الأتراك بوجهين، وكأنهم يعنون بها المرتد أو الملحد أو الزنديق، ومن ثم صارت لقباً شائعاً لتلك الجماعة اليهودية التي سكنت منطقة الغرب من آسيا الوسطى والتي ساهمت إسهاماً كبيراً في تقويض أركان الخلافة العثمانية.

وظاهرة الازدواجية الدينية عند اليهود ليست بغريبة عليهم، فقد وصفهم بها القرآن في أكثر من موضع: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

ويقول تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٦].

ولم تسلم الديانات الإلهية من تلك الظاهرة اليهودية وقد اندس نفر منهم إلى الديانة المسيحية الصافية وتظاهروا باعتناقها وهم لا يزالون على كفرهم حتى

(١) حسن ظاظا، الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه، ص ٢٦١، ولما كانت هذه التسمية تسيء إليهم قاموا بتعديلها وسموا أنفسهم «المؤمنين» و«الرفاق» و«المجاهدين».

قوضوا أركانها وحرفوا معتقداتها، ولعل يهود «المارانوس» في البرتغال مثال جيد لتلك الظاهرة، إذ تظاهروا باعتناق المسيحية خوفاً من بطش محاكم التفتيش، وكونوا فرقة تظاهرت بالكاثوليكية، بينما بقيت على دينها اليهودي في الخفاء. ولحرصهم الشديد على عدم الظهور بالمظهر اليهودي فقد قاموا بتشديد معابدهم على شكل الكنائس، وظهروا في الحياة العامة بين النصارى بمظهر لا يميزهم عن الكاثوليك بينما هم في عقائدهم وشعائهم كانوا يهوداً متعصبين ليهوديتهم^(١).

فقد كان نفاقهم ذلك وازدواجيتهم تلك سبباً في تعنت محاكم التفتيش الإسبانية معهم، إذ إنها همت بطردهم وطلبت منهم الرحيل فوراً أو الموت حرقاً، ولم يخبروهم مثل العرب المسلمين في الرحيل بدينهم أو البقاء على المسيحية، وذلك لأن الإسبان كانوا يدركون جيداً أنهم سيختارون البقاء على المسيحية ظاهراً من أجل البقاء في إسبانيا والنجاة من ويلات تلك المحاكم. ولما أدرك اليهود أنهم مأخوذون بواحد من الاثنين ولا مفر من ذلك شرعت طلائعهم تفد إلى تركيا الإسلامية التي أحسنت الظن بهم وعاملتهم معاملة كريمة طيبة تسودها روح التسامح، تلك الصفة التي عرف بها سلاطين العثمانيين.

ولكن هؤلاء اليهود على عاداتهم لم يرعوا حرمة المواطنة في الدولة الإسلامية، بل امتدت أستانهم لتعض الأيدي التي تفضلت عليهم، فزاهم يتحزبون ويكونون جيباً منفصلاً عن الدولة وعن نسيجها الاجتماعي، ومع تحزبهم ذلك إلا أنهم تمكنوا بنفاقهم وازدواجيتهم من التغلغل في الكيان الاجتماعي للدولة العثمانية، فهم أمام المسلمين يصلون ويصومون ويحجون ويتزيون بالزى التركي ويتسمون بالأسماء العربية والإسلامية، أما فيما بينهم فهم يقرءون التلمود والعهد القديم ويرتلون بالعبرية ويأكلون الفطير ويقىمون أعيادهم اليهودية، وإن أسماءهم في الأوكار عزرا وحاييم وديوره واستير وساراي وشبتاي وقره.

وقد اعترف بهذه الظاهرة «إسحاق بن زفي» رئيس إسرائيل السابق في كتابه الصادر عام ١٩٥٧م بعنوان «الدوثة» قال فيه:

(١) حسن ظاظا. الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه، مرجع سابق.

(إن يهوداً كثيرين جداً يعيشون بين الشعوب بطبيعتين إحداهما ظاهرة وهى اعتناق دين الشعب الذين يعيشون فى وسطه اعتناقاً جماعياً وظاهرياً، والثانية باطنة فهى إخلاص عميق لليهودية)^(١).

ولعل هذه الظاهرة الخطيرة التى دأب عليها اليهود تجاه الديانات قد آتت أكلها فى تركيا فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى، وما إن هل القرن التاسع عشر حتى كانت جماعات الدوغة قد تغلغلت وتداخلت وتدخلت فى شئون تركيا وهيمنت هيمنة كاملة على جميع مجالات الأنشطة الفكرية والاقتصادية والتربوية والسياسية، وكان منهم الوزراء والصدور العظام والنواب والمدرسون وأصحاب بيوت المال، وقد توجت نشاطاتهم بميلاد جماعة (الاتحاد والترقى) التى دبرت انقلاباً عسكرياً دونمياً عام ١٩٠٩م من مدينة «سالونيك» مركز تجمعهم وترساناتها العسكرية ضد السلطان عبدالحميد، وقد انتهى ذلك الانقلاب بعزله عن سلطنة الدولة العثمانية.

وقد يتساءل المسلم عن مؤسس تلك الطائفة وكيفية ظهورها فى تركيا الإسلامية، حتى أصبح لها مثل ذلك الشقاق السياسى والعسكرى الذى أودى بعرش ذلك السلطان المفترى عليه.

مؤسس الدوغة:

مؤسس تلك الطائفة هو «شبتاي صبى» وقد تنطقها بعض المراجع «ساباتاي رفى» أو «شبتاي ليفى» وهو يهودى من أصل إسباني قد هاجر أباه فى إطار الطلائع المهاجرة من إسبانيا، وقد ولد فى مدينة (أرمير) عام ١٦٢٦م ومات فى ألبانيا عام ١٦٧٥م وكان أبوه تاجراً ميسوراً فأدخله فى مدرسة يهودية تعلم فيها التوراة والتلمود وتخرج منها وهو ابن الخامسة عشرة، ومارس مهنة التدريس وبرع فى دراسة علم «القبالة» وأجاد تأويلات الباطنية والصوفية وكان يتميز بطلاقة

(١) محمد على الزعبي. الماسونية فى العراق. دار الجيل بيروت ١٩٨٣م نقلا عن جريدة الشهاب البيروتية. العدد الأول ليسان ١٩٦٩م.

اللسان وجمال المحيا والتأثير فى محدثيه. وقد وافق ظهور «شبتاي» فى أواسط القرن السابع عشر أن تلقى يهود أوروبا أشد أنواع الملاحقة والاضطهاد، الأمر الذى دفعهم إلى البحث عن مخلص يخلصهم من ذلك العنت، فلا عجب أن نراهم يلتفون حول هذا الرجل الذى زعم بأنه المسيح المنتظر والذى سوف يخلصهم من العذاب، ثم يعلن إليهم أن سنة خلاص بنى إسرائيل ستكون عام ١٦٤٧ م. ثم قام شبتاي بعدة تنقلات فى البلدان الأوربية والعربية لنشر دعوته حتى بلغ أوج مجده فى عاصمة الدولة العثمانية وأقام مملكة يهودية ولقب بملك الملوك، وقسم العالم إلى ٣٨ قسمًا وعين على كل قسم ملكًا وجعل توقيعيه (الابن الوحيد الأول ليهوه)^(١).

وإذا كانت الدولة العثمانية قد انزعجت من خطورة تلك الحركة، فإن الدلائل تشير إلى أن تنبيهها قد جاء متأخرًا، وبدون إدراك واعٍ لمرامى ذلك الدونمى الخطير ومخططة الرهيب، وكل ما أهمها من حركته هو إثبات الدليل على نبوته أو إظهار أكذوبته ومعاقبته، بينما الحقيقة التى كان ينبغى عليهم إدراكها أبعد من ذلك، فهم يريدون القضاء على الإسلام فى عقر مملكته وسلخ تركيا من هويتها المسلمة وتحويلها إلى دولة علمانية. وهذا ما حدث فيما بعد على يد (مصطفى كمال أتاتورك) رائد حركة الدوغة فى النصف الأول من القرن العشرين.

وتشير المراجع أنه عندما مثل «صبى» أمام السلطان محمد الرابع وطلب منه أن يثبت دعواه أو يقتل، أدرك ذلك المدعى أنه لا مناص من الموت فأنكر ادعائه بالمسيح المنتظر وبدعائه اليهودى أظهر رغبته فى الإسلام وذلك ليفتدى جماعته من القتل.

والعجيب أن السلطة الحاكمة آنذاك قد قبلت منه ذلك، والغريب حقًا أن تقوم بتكريمه وتعيينه رئيسًا للأذنين «الحجاب» مكافأة له دون أن تتبصر مرامى الرجل وأهدافه. ثم نراه يتسمى باسم.

(١) الفكر الدينى واليهودى مرجع سابق ص ١٢٤.

«محمد عزيز أفندي»^(١) أمام المسلمين، ويبقى على اتصال دائم مع جماعته. ثم يخطو ليؤمنهم من تعقب السلطات التركية لهم فيطلب من المفتي السماح لهم بدعوة إخوانه اليهود إلى الإسلام، ولما أذن له أمر جميع مريديه بالدخول في الإسلام فأطاعوه ولبسوا الجلب والعمام، فكانوا في الظاهر مسلمين وفي الباطن يهوداً، وبذلك تكون أول فرق الدوغم في تركيا تستتر بالإسلام لتأخذ مأمناها، بينما تتحرك نحو أهدافها وفق مخطط دس رهيب حتى لا ينكشف أمره، وقد أصدر لأتباعه وثيقة مكونة من (١٨) مادة تنص المادة رقم (١٦) على أنه يجب على اليهود الدوغميين تطبيق عادات الأتراك المسلمين بدقة لصرف أنظارهم عنهم، كما أنه يجب ألا يظهر أحد أتباعه تضايقه من صيام رمضان ومن الأضحية، وعليهم أن ينفذوا ذلك بكل دقة أمام مسلمي تركيا. كما تنص المادة رقم (١٧) على عدم مناقحة يهود الدوغم بالمسلمين منعاً باتاً^(٢).

تاريخ حركة الدوغم السري:

تستمد حركة الدوغم فلسفتها من تعاليم مدرسة (الكابالا اليهودية) التي عرفت على امتداد العصور التاريخية ببث الروح الثورية وإنشاء الجمعيات السرية وإثارة الحركات الهدامة في المجتمعات، «والكابالا» كلمة عبرية معناها «ما يتلقى» وهو نسيج من الفلسفة والتعاليم الروحية والشعوذة والسحر قد تعارف عليها اليهود من القدم. وقد ظهرت تعاليم «الكابالا» واضحة في المجتمعات الأوربية منذ القرن الثاني عشر عن طرق الجمعيات السرية التي أقامتها اليهود في تلك المجتمعات مثل جمعية «فرسان المعبد» وجمعية البناء الحر «الماسونية» وما انبثق منها من جمعيات فرعية مثل إخوة الشيطان، وأصحاب القداس الأسود، وشهود يهوه، وجمعية بنائ برت «أبناء العهد» وأندية الروتاري والليونز، والشيوعية والبهاية وغيرها^(٣).

(١) يقول الدكتور حسن ظاظا: إن اسمه محمد أفندي ولقبه «قافوجي باشا إيطراق» ومعناها خاتم الاعتبار، انظر الفكر الديني واليهودي ص ١٢٦.

(٢) محمد علي قطب. يهود الدوغم. دار الأنصار. القاهرة ط أولى ١٩٧٨ م.

(٣) انظر داوود عبد العفو سنقرط. القوى الخفية اليهودية العالمية الماسونية. دار الفرقان. طبعة أولى ١٩٨٣ م ص ١٥٩ - ١٦٢ وكذلك محمد علي الزغبى. حقيقة الماسونية ص ٣٢٨ - ٣٣٠.

والدوئمة أيضاً واحدة من الجمعيات السرية التى أقامها اليهود فى تركيا والتى باشرت نشاطها فى محفل سالونيك الماسونى تحت رعاية قناصل الدول الغربية الذين يتمتعون بنفوذ قوى الدولة العثمانية آنذاك، وقد كانت الدوئمة هى الأداة المنفذة لمخططات الصهيونية العالمية فى دولة الخلافة العثمانية، وقد تمكنت من الوصول الى مراكز النفوذ فى الدولة مستترة وراء جمعية الاتحاد والترقى التى أحكمت قبضاتها على مجريات الأمور فى تركيا بعد خلع السلطان عبد الحميد.

ولعل مذكرة السفير البريطانى فى تركيا إلى وزارة الخارجية آنذاك لأكبر دليل على ذلك النفوذ (إن لجنة الاتحاد والترقى تبدو فى تشكيلها الداخلى تحالفاً يهودياً تركياً مزدوجاً، والأتراك يمدونها بالمادة العسكرية الفاخرة، ويمدها اليهود بالعقل المدبر وبالتدبير وبالمال وبالنفوذ الصحفى القوى فى أوروبا). وتشير المذكرة أيضاً إلى الأسلوب الذى انتهجه يهود الدوئمة لإضعاف الدولة العثمانية وتمزيق شملها.

«ولكى يصل اليهود إلى مكان النفوذ فى مراكز النفوذ فى تركيا الفتاة، فإنهم يشجعون الاتجاهات القومية التركية» ويعث القوميات الوطنية كانت من أكبر معاول الهدم لدولة الخلافة العثمانية، إذ أخذوا ينفخون فى كير العروبة تارة، وفى كير القومية الطورانية تارة أخرى، ويدب الصراع بين أبناء تركيا الفتاة، وبين أنصار العربية الفتاة، وتضيق الفتاتان معاً وترتميان فى أحضان الصهيونية والاستعمار.

فلا عجب إذن أن ترتبط حبال يهود الدوئمة فى تركيا بشبكة الصهيونية العالمية وبالقوى الاستعمارية المتطلعة للإجهاز على الدولة العثمانية المترنحة والتى بلغت مرحلة من مراحل الضعف أغرتهم بمضاعفة نشاطهم فى تلك البلاد، وبالفعل استطاعت أن تحقق هدفاً مزدوجاً يصب على اتجاهين:

الأول: لخدمة الصهيونية والمتمثل فى استيطان اليهود فى فلسطين.

الثانى: لخدمة الاستعمار والمقصود منه إضعاف تركيا وتمزيق تركة الرجل المريض كما كانوا يسمونه فى أوروبا.

وتشير الوثائق الى تمكن طائفة يهود الدوئمة من القيام بهذين الهدفين والعمل

المقاصد من أجلهما في آن واحد، وقد تمخض نشاطهم داخل تركيا إلى ميلاد حزب تركيا الفتاة والذي كانت أغلب تشكيلاته من يهود الدوئمة الماسونيين الذين هيمنوا على مجربات الحياة الاقتصادية والإعلامية، كما أنهم كانوا يشجعون الاتجاهات القومية والعرقية في تركيا، ولعل مذكرة السفير البريطاني في تركيا إلى وزارة خارجيته على نشاط أولئك اليهود يعد دليلاً قوياً على النفوذ الذي آلت إلى تلك الفئة «إن لجنة الاتحاد والترقي تبدو في تشكيلها الداخلي تحالفاً يهودياً تركياً مزدوجاً، فالأتراك يمدونها بالمادة العسكرية الفاخرة، ويمدها اليهود بالعقل المدبر المحكم وبالمال وبالنفوذ الصحفى القوى فى أوربا».

وتقول المذكرة أيضاً: «إن اليهود الذين يبدون الآن فى موقف الملهم والمسيطر على الجهاز الداخلى للدولة يعملون على السيطرة الاقتصادية والصناعية فى تركيا الفتاة، ويبدو أنهم مصممون على ألا يبدأ أى مشروع عام فى العراق دون إسهامهم فيه بل دون سيطرتهم عليه^(١)، وتشير الوثيقة أيضاً إلى العراق حيث أشار السلطان عبد الحميد على (هرتزل) أن يتخذ منه مشروعاً استيطانياً لليهود بدلا من فلسطين. وسوف نوضح ذلك فيما بعد.

كما تشير المذكرة السابقة إلى الأسلوب الذى انتهجه اليهود لإضعاف الدولة وتمزيق شملها: «... ولكى يصل اليهود إلى مكان النفوذ فى مراكز النفوذ فى تركيا الفتاة فإنهم يشجعون الاتجاهات القومية التركية، وهذان العنصران يشكلان تزاوجاً قوياً مميزاً ينبغى على كل من يهتمون بالعراق أن يأخذوه فى الاعتبار»^(٢). ولم يقتصر نفوذ يهود الدوئمة على تركيا فقط وإنما امتد ليأخذ مكانه لدى يهود أوربا حيث أصبح المجمع اليهودى فى الآستانة مركزاً استشارياً يهرع، إليه يهود أوربا للمشورة وإبداء رأى فى أغلب مشاكله.

وظاهرة انتشار المحافظ الماسونية قد بدأت على نطاق واسع منذ القرن الثامن عشر الميلادى حتى شملت أغلب بلدان أوربا الشرقية والغربية وتوثقت أواصر

(٢) الوثيقة رقم (٧) ص ١٠٩ المجلد الثانى وثائق ونصوص تاريخية. حسن صبرى الخولى، سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين دار المعارف ١٩٧٠م.

(٢) الوثيقة السابقة فى المرجع السابق.

العلاقة بين محفل الآستانة ومحافل إنجلترا وباريس ومدريد ولاهاى، وقد استغلت تلك المحافل فى بادئ الأمر للعمل فى نطاق الأسر الملكية، لقد كانت مطية لتحقيق مطامعها إلى أن وضع الدكتور أندرسون دستورها الأول عام ١٧٢٣م، وكان هذا الدستور يحمل فى طياته الدعوة إلى دين يتفق فيه جميع الناس، وبذلك فإنه يدعوهم إلى نبذ النصرانية الأمر الذى جعل بعض الباحثين يرى أن البناء الحر الذى هو رمز لهذه المحافل إنما هى جمعيات هدامة تعمل كمعظم الجمعيات السرية على سحق التعاليم الدينية وبث الدسائس السياسية تحت ستار الإخاء والصدقة والحرية.

وبمرور الزمن تكشفت أهداف البنائين الأحرار نوعاً ما وإن كان من الصعب استخلاصها، إلا أنه يمكن القول أن نظام هذه المحافل يرتبط بغاية تختلف باختلاف الزمان والمكان والظروف، وقد تسلطت المحافل الماسونية بأنظمتها على شعوب العالم الأوروبى: قادته وزعمائه، ومن الملاحظ أن المحافل الماسونية تلك لم تسلك نظاماً واحداً فى جميع هذه البلدان، فى الوقت الذى كانت فيه الماسونية تخوض غمار الاضطرابات الثورية فى فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وبلجيكا وإسبانيا والبرتغال وغيرها، إذا بها فى شرق أوروبا تخوض غمار الاشتراكية الماركسية تحت إشراف اليهود وتديبرهم حيث ثبت بما لا يدعو إلى الشك أن الشيوعية اجتاحت جميع المحافل فى تلك البلدان، وأن نظريات ماركس وإنجلز كان يلقتها إخوة البناء الحر لشعوبها وقادتها، كما لوحظ أن الماسونية فى أنحاء أخرى من شرق أوروبا قد اتخذت صبغة سياسية قومية كما حدث فى تركيا، فقد أنشئ أول محفل ماسونى بها فى سالونيك عام ١٦٨٣م^(١)، وهو محفل عريق وأصبح هو الأب الروحى والشرعى لجميع المحافل الماسونية التى انتشرت فى جسم الدولة العثمانية وعلى رأسها محفل الآستانة^(٢).

وقد استطاعت هذه المحافل بمساعدة يهود العالم والدول الاستعمارية أن تدس

(١) القوى الخفية العالمية الماسونية. مرجع سابق ص ١٢٩.

(٢) تأسست محافل كثيرة فى الآستانة وأزمير، بعضها تابع للشرق الأعظم الإنجليزى وبعضها للفرنسى وبعضها للإيطالى إلى أن أنشأ «حليم باشا» مجمعاً وطنياً برئاسته، وقد أصبح عدد الماسون الأتراك «المسلمين» عام ١٨٨٢م نحو عشرة آلاف شخص. محمد على الزغبى مرجع سابق.

يهود الدونمة في جميع المراكز الحساسة في كيان الدولة تمهيداً لاحتوائها، ومن ثم قلب نظامها رأساً على عقب، فلا غرو أن أصبح منهم جل الوزراء والنواب وقادة الجيوش وكبار الموظفين من خلال مذكرات السلطان عبد الحميد يتبين لنا مدى تسلط يهود الدونمة على الدولة العثمانية وامتلاك صنع القرار. يقول السلطان عبد الحميد: «رأيت خطاباً تسلمه أحمد جلال الدين باشا من على كمال بك في مصر، وغالباً ما يكون هذا الخطاب بين محفوظات قصر (يلدز) - فيه أسماء ومصادر التمويل...» وفي هذا الخطاب أيضاً يذكر أن الدكتور عبدالله جودت والدكتور إسحاق سكوتى والدكتور بهاء الدين شاكر والدكتور ناظم والدكتور إبراهيم تيمو ينتسبون إلى المحافل الفرنسية والإيطالية، حتى إن هذه المحافل أيضاً تسلم عائلتهم الموجودة داخل البلاد النقود يدا بيد، هذا ما كتبه وأرسل معه الوثائق المؤكدة لهذه المعلومات^(١).

ومن الدراسة الوثائقية اتضح أن مجموعة هذه الأسماء قد شكلت تنظيمًا سرياً عرف باسم «الاتحاد والترقي» وكان في بداية الأمر فرعاً لحزب تركيا الفتاة، وقد تشكل هذا التنظيم عام ١٨٨٩م ضد السلطان عبد الحميد بزعامة رجل ماسونى ألبانى من هؤلاء الخمسة هو «إبراهيم تيمو» المعروف بأدهم، حيث اتفق مع عدد من طلاب المدرسة الطبية العسكرية في إستنبول على قيام ذلك التنظيم بهدف عزل السلطان عبد الحميد الثانى، وكان منهم إسحاق سكوتى، وشركس محمد رشيد، وعبدالله جودت، وكورديان، وقد باشرت أعمالها في جنيف أولاً عام ١٨٩١م ثم نقلت إلى باريس، وقد ركزوا دعوتهم داخل صفوف الجيش، وقد أنشأ كل من إسحاق سكوتى وعبدالله جودت مجلة «عثمانيلى» في جنيف لتأليب الرأى العام على السلطان عبد الحميد، وخوفاً من تعقب رجالات السلطان عبد الحميد لنشاط هذه الجماعة، فقد أوت إلى أوكار المحافل الماسونية في تركيا لعقد اجتماعهم بها، كما فتحت السفارات الأجنبية أبوابها داخل تركيا وخارجها لأولئك المتمردين

١- انظر مذكرات السلطان عبد الحميد. ترجمة وتحقيق الدكتور محمد حرب عبد الحميد. دار الأنصار القاهرة

لحمايتهم وتشجيعهم على معارضة السلطان عبد الحميد علناً لإسقاطه واستئصال شأفته^(١).

ولم يقتصر دور الماسون على هؤلاء الخمسة فهناك شخصيات مؤثرة أخرى كثيرة ستعرض لها في حينها، وإنما أود في هذه العجالة أن أتعرض لمحفل «سلانيك» بالدراسة لما له من ارتباطات دولية غامضة، كما أنه كان أكبر محفل تخرج فيه أعضاء الاتحاد والترقي.

ويقبع محفل سلانيك في ولاية سلانيك التركية وتتمتع هذه الولاية بمكانة إستراتيجية، فهي تعد من الثغور التجارية المعروفة بتجاريتها الواسعة وترتبط بالآستانة بخط سكة حديد وتغشاه سفن الشركات العثمانية والأوربية بالعديد من التجارات المتعددة، وقد بلغ عدد سكانها عام ١٩٠٩م ما يزيد على ٣٤٠ ألف نسمة منهم ثمانون ألفاً من اليهود ومائتا ألف من يهود الدوئمة^(٢).

ومعنى ذلك أن اليهود كانوا يشكلون الأكثرية العظمى في تلك الولاية وقد مكّنهم غناهم من تمويل الحركات المعادية لحكم السلطان عبد الحميد، وتشير جريدة الفتح إلى تبعية الاتحاديين للمحافل الماسونية التي دعمتهم بأموال للوقوف ضد السلطان عبد الحميد: «إن مسيو ليون قره صو» مدير المصرف المعروف باسم ابن النائب اليهودي في مجلس «المبعوثان» في زمن الاتحاديين «لوفين قره صو» هو الذي مثل دوراً خطيراً في السياسة العثمانية والذي تمكن من تفويض خلافة السلطان عبد الحميد، وعندما اشتدت الحال على الروملى ورأى أركان جمعية الاتحاد والترقي أن موقفهم بات خطيراً لجأوا إلى «قره صو أفندى» الثرى اليهودى فساعدتهم بأمواله وضمهم إلى المحافل الماسونية التي كانت قائمة في ذلك الوقت. فأخذوا يعقدون فيها اجتماعاتهم في سرية تامة دون أن يتمكن السلطان عبد الحميد من الاطلاع على أسرارهم ومقاومة تدابيرهم، وكان من جراء ذلك أن نجحوا في مساعيهم وأعلنوا الانقلاب المزعوم^(٣).

(١) حسان على حلاق. موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية. مرجع سابق ص ٢٨٧.

(٢) موقف الدولة العثمانية. مرجع سابق ص ٢٣٥، وانظر أيضاً إسماعيل سرهنك. حقائق الأخبار من دول البحار ج ١ طبعة أولى القاهرة ١٨١٤م ص ٤٤٦.

(٣) انظر أنور الجندي الصحافة الإسلامية الجزء الخاص بجريدة الفتح ص ١٩٣.

وتشير الوثائق أن السلطان عبد الحميد عندما أدرك خطر المحافل الماسونية في بلاده أصدر فرماتاً عام ١٨٩٤م بإغلاق جميع المحافل الماسونية فأغلقت جميعها ما عدا محافل سلانيك لم يستطع إغلاقها، وذلك لارتباطها الدولي مع قادة دول أوروبا ومحافلها آنذاك. ومن أبرز الأنشطة التي قام بها ذلك المحفل ضد السلطان عبد الحميد:

أولاً: ارتباط كل يهود الدوغة والماسونية في سلانيك بالصهيونية العالمية التي باتت تخطط للتغلغل في الأوساط الحاكمة على وجه الخصوص وكسب الطبقة الحاكمة العليا من حكام وقواد ووزراء وأصحاب نفوذ، ومن خطر تلك الحركة أن نشاط الدوغة كاد ينحصر في الأوساط الحاكمة وليس الأوساط الجماهيرية^(١). وقد أكدت مجلة الشرق في عددها الصادر في أغسطس عام ١٩١١م الارتباط العلمي بين الماسونية واليهودية «... إن الماسونية تحولت إلى اليهودية أو بالأحرى أن اليهود تميزوا لإدراك غايتهم الخبيثة»^(٢).

ولسنا في حاجة إلى إثبات نوعية العلاقة التي ربطت بين ماسون سلانيك والقوى الصهيونية العالمية بأدلة جديدة، إلا أنه يمكننا القول باطمئنان أن الحركة الصهيونية استطاعت بتحالفها مع جماعة (الاتحاد والترقي) في المحفل الماسوني قد تمكنت من بذل نشاط مضاعف لتحقيق المشروع الصهيوني الاستيطاني في فلسطين، وهذا هو الهدف المباشر لهم، وكان يهود الدوغة الأداة المنفذة لذلك المشروع.

ثانياً: بذل ماسون سلانيك نشاطاً سياسياً على الصعيد الأوربي ضد السلطان عبد الحميد الثاني^(٣) الذي وحد بين هاتين القوتين بعدائه لهما في آن واحد، والذي أصبح وجوده في الحكم حجر عثره في طريق تحقيق أغراضهم، وبالفعل قد بدأ

(١) عودة بطرس عودة القضية الفلسطينية من واقع العرب ص ١٤١.

(٢) من مقال لويس شيخو السر المصون في شيعة الفرمايون، مجلة الشرق، بيروت، أغسطس ١٩١١ نقلا عن كتاب موقف الدولة العثمانية للحركة الصهيونية ص ٢٨٦.

(٣) القائد التركي هو جواد رفعت إتلخان، انظر حسان على حلاق موقف الدولة العثمانية مرجع سابق ص ٢٨٦، ٢٨٧.

هذا النشاط . ويذكر أحد القادة الأتراك المعاصرين للسلطان عبدالحميد أن القرار رقم ٧٠ للجمعية الماسونية الفرنسية قد نص على تأسيس جمعية سرية باسم «جون ترك» قد باشرت نشاطها من سلانيك وقد ضمت اليهود الأكثر نفوذاً في أوروبا . . ويمكن القول أن فرق الاتحاد والترقي قد ولدت فعلاً في المحفل الماسوني المسمى «ماكدونيا ريزتورا» (المؤسس من قبل «قره صوه اليهودي السلانيكي»^(١)، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل قامت المحافل الأوربية ولا سيما الفرنسية والإيطالية بتأييد فرقة الاتحاد والترقي وتقديم العون المالي والسياسي لأفراد هذه الجماعة لتباشر نشاطها ضد السلطان عبدالحميد داخل تركيا وخارجها^(٢).

ويؤكد المؤرخ الصهيوني «kallel» الدعم الأوربي لتلك الطائفة حيث يشير إلى أن أكثر أعضاء جمعية الاتحاد والترقي كانوا من الدوغة ومن عاشوا في المنفى، وكان هؤلاء تلاميذ السياسة الأوربية والذين كانت تأتيمهم المساعدات المالية من الرأسمالية العالمية من فيينا وبودابست وبرلين ولندن وباريس^(٣).

ويستطرد السلطان عبدالحميد في مذكراته فيحدثنا عن الكوارث التي حلت بالدولة في ذلك الوقت وعن المكائد التي كانت الدول الأوربية الكبرى تدبرها ضدهم بمعاونة يهود الدوغة والماسون طمعاً في الأسلاب التي تنتظرهم بعد انهيار دولة الإسلام في تركيا: «وكما استغل الإنجليز غفلة أعضاء تركيا الفتاة عن طريق المحافل الماسونية بدأ الألمان يفعلون هذا مع الفريق الآخر منهم، وعن طريق المحافل الماسونية أيضاً وبهذا الشكل سيطر الألمان على تشكيل تركيا الفتاة في سلانيك وسيطر الإنجليز على تشكيل تركيا الفتاة في مناستر^(٤) من الحدود اليوغسلافية اليونانية الألبانية، وقد ضمت محفلاً ماسونياً أرمنياً يعمل مع جماعة الاتحاد

(١) القائد التركي هو جواد رفعت إتلخان انظر حسان على حلاق موقف الدولة العثمانية مرجع سابق ص ٢٨٦، ٢٨٧.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد مرجع سابق. ص ٦٠.

(٣) موقف الدولة العثمانية مرجع سابق ص ٢٩٧، ٢٩٨.

(٤) مناستر أو مناستير مدينة يوغسلافية.

والترقى ضد السلطان عبد الحميد، وقد نشرت هذه الجمعية مبادئها بين الضباط والجنود، ومن أشهر أعضائها طلعت بك ومدحت بك^(١).

ويبدى السلطان عبد الحميد أسفه الشديد لما عرفه عن بعض المسلمين في حكومته من قواد ووزراء كانوا على اتصال بالدولة الأجنبية للعمل ضده وضد أسرته «كنت أعلم أن السر عسكر عونى باشا قد أخذ من الإنجليز أموالاً، وأن رجلاً من رجال الدولة يأخذ مالاً من دولة أخرى لا بد أن يكون قد قدم لهم خدمات. ويعنى هذا أيضاً أن خلع المرحوم عمى السلطان عبدالعزيز وتولية السلطان مراد العرش بدله لم يكن حقداً فقط من حسين عونى باشا ولكنه مرضاة لرغبة دولة أخرى أيضاً»^(٢).

ويقول السلطان عبد الحميد الثانى عن مدحت باشا الصدر الأعظم وهو ماسونى من جماعة الاتحاد: (مدحت باشا أيضاً مثل حسين عونى باشا، اتبع سياسة مؤيدة للإنجليز وكان دائماً يصفح عن ثقته فى الإنجليز) ثم يعقب قائلاً: (لم يهزنى شىء فى حياتى هزاً ضخماً قدر شخص يرتفع إلى مقام قيادة الجيش أو إلى مقام الصدارة العظمى - رئاسة مركز الوزراء - ويقبل نقوداً من دولة أجنبية)^(٣).

ثم يتحدث عن الدور الذى لعبه مدحت باشا لصالح إنجلترا، إذ أوهم السلطان أن الإنجليز والفرنسيين سيؤيدون تركيا فى حربها مع الروس ولكن السلطان عبد الحميد يقف على حقيقة كذبه من خلال رسالة «السيسورى» وزير خارجية إنجلترا آنذاك يعتذر فيها عن تقديم العون لهم إذا قبلت تركيا الحرب ضد روسيا.

يقول السلطان عبد الحميد: «إنجلترا كانت دائبة على تسيير الفتن عن طريق الماسونية وكان مدحت باشا لم يكتفِ بإثارة ما أثاره من مشاكل، فهو من ناحية يريد خلق أزمة فى السراى، ومن ناحية أخرى يريد الزج بالبلاد فى أتون الحرب.

(١) انظر يوسف أصفاف. تاريخ سلاطين آل عثمان. تحقيق بسام عبدالوهاب. دار البصائر دمشق. طبعة ثالثة ص ١٦٨.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد مرجع سابق. ص ٦٩.

(٣) المرجع السابق. ص ٣٩.

أعمال كهذه يمكن أن تؤدي معاذ الله إلى تقويض الدولة من أساسها، وكان الملك العثماني يهتز من أساسه بناء على هذا كله»^(١).

ويقول السلطان عبد الحميد: «كنت أرى أن الصدر الأعظم يؤيد الإنجليز ويتعاون معهم سواء بدافع من ماسونيته أو بدافع من أسباب أخرى خاصة جداً به، ولم أعد أحتمل فاستندت إلى صلاحياتي في القانون الأساسي وعزلته -أي مدحت باشا- من الصدارة العظمى وأبعدته خارج الحدود»^(٢).

ثالثاً: النشاط الثالث الذي قام به يهود الدونمة عن طريق محافلهم الماسونية نشر الجاسوسية واستغلال ذوى النفوس الضعيفة من أبناء تركيا وغيرهم لتنفيذ أهدافهم ضد السلطان عبد الحميد. ولم تعدم الدونمة وسائلها في هذا الصدد فقد نفذت إلى الوزارة التركية نفسها وإلى البيت العثماني ذاته وهى تمتلك فى سبيل ذلك طابوراً خامساً من الخائنين على السلطان عبد الحميد، ومن ثم انتشروا فى جميع بلدان العالم داخل تركيا وخارجها يدعمونهم بالمناصب العليا والأموال اللازمة لتحقيق تلك الأهداف.

ولما كان لاتساع ممالك الدولة العثمانية أثره الكبير فى انتشار الجاسوسية لصالح اليهود وحلفائهم من المستعمرين، فقد دأب اليهود على وجه الخصوص على القيام بهذه المهمة، إذ كانوا يحملون جنسيات أمريكية أو إيطالية أو روسية أو فرنسية وغير ذلك، ثم يقدون إلى البلدان الإسلامية بشكل ممثلين دبلوماسيين أو مفاوضين أو فنيين أو ثقافيين أو مستشارين.

وكان أمثال هؤلاء ينتشرون فى السفارات والبعثات الأجنبية ويعملون على استكشاف أسرار البلاد وتسخير من يحدثونهم لخدمة أهدافهم، وتركيز نار الفتنة والعداوة بين الطوائف، ثم يلوذون بالسفارات الأجنبية يحتمون بها.

وخلاصة هذا العرض ليهود الدونمة ونشاطهم ضد السلطان عبد الحميد توضح

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد. مرجع سابق. ص ٤٠، ٤١.

(٢) المرجع السابق. ص ٤٣، ٤٤.

لنا كيف تمكنت تلك الجماعات من أن تتسلط وتهيمن على الدولة العثمانية المسلمة تسلطاً شديداً، وهيمنة ضاغطة على مجريات الأمور ومقدراتها كما يتضح إثارتهن للمشاكل وتديبرهم المؤمرات التي انتهت بانقلابهم العسكرى ضد ذلك السلطان، ثم القيام بعزله عام ١٩٠٩م وتولية الاتحاديين والكماليين للحكومة التركية فى ظل سلاطين عثمانيين ضعفاء كانوا ألعبوة فى أيديهم.

وفى ظل تلك الهيمنة قام الاتحاديون والكماليون بمؤامراتهم الكبرى التى خططوا لها تخطيطاً محكماً لإسقاط الخلافة لعثمانية نهائياً من حياة المسلمين، إذ تبين لهم أن التهجم على الخلافة مباشرة آنذاك قد يثير عليهم غضبة المسلمين فى كل البلاد الإسلامية، لذا فقد اتجهوا نحو إلغاء الخلافة تدريجياً، ومن ثم اتجهوا إلى كبرى الدول الاستعمارية آنذاك وهى بريطانيا وبدءوا يتفقون معها على صفقة لبيع الخلافة الإسلامية لإنجلترا نظير معاهدة سرية من شروطها:

- ١- إلغاء الخلافة الإسلامية نهائياً فى تركيا.
- ٢- أن تقطع تركيا كل صلة بالإسلام.
- ٣- أن تضمن تركيا تجميد وشل حركة جميع العناصر الإسلامية الباقية فى تركيا.
- ٤- أن يستبدلوا الدستور العثمانى القائم على الإسلام بدستور مدنى بحت^(١).

وكان بيع الخلافة العثمانية هى الصفقة الرابعة التى جنتها بريطانيا من مصطفى كمال أتاتورك، حيث أسقطت الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤م وأعلن قيام الجمهورية التركية واستبدلت العمايم الإسلامية بالقبعات الأوربية، وحلت العلمانية البغيضة محل النظم الإسلامية السمحاء، وقد تصدر الدستور الجديد بالعبارة التالية: (القرآن دستور البداوة) ثم تبلغ ذورة الوقاحة والتهجم على القرآن يوم افتتاح مجلس الشعب أعقاب إعلان الجمهورية، إذ يقول (أحد الكماليين): «نحن الآن

(١) محمد الصواف: المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام ص ١٧٤، ويوسف القرضاوى: الحلول المستوردة ص ١٢٣، والشيخ مصطفى صبرى فى كتابه الأسرار الخفية ص ٢٦٥، ٢٦٦.

فى القرن العشرين ولا نستطيع أن نسير وراء كتاب يبحث فى التين والزيتون»،
فصقق له يهود الدونمة مؤيدين قائلين: «سلمنا البلاد لأتاتورك وتركنا الكعبة
للعرب»^(١).

وهكذا تم إسقاط الخلافة الإسلامية جامعة شمل المسلمين والعرب على أيدي
يهود الدونمة التى لم تحسن رد الصنيع إلى أهله، فقد فتح العثمانيون أبواب دولتهم
ليكتنفوهم بالرعاية والعطف بدلاً من التشرد والضياع على أيدي الإسبان، ولكنهم
للأسف الشديد لم يراعوا حقوق المواطنة فى الدولة الإسلامية وعضت الأيدي التى
امتدت إليها بالخير والرحمة، وهكذا شأن اليهود فى كل مكان وزمان.



(١) محمد على الزغبى، الماسونية فى العراق، ص ٢٢١، الرجل الصنم، ترجمة عبدالله عبدالرحمن
ص ١٦٧ - ٤٩٣.

رابعاً: الموريسكيون بين الطرد وأمل العودة

توالى النقمات على مسلمي إسبانيا واشتدت وطأة القهر، ففي عام ١٥٧٠م قرر المجلس الملكي الإسباني تشتيت الموريسكيين وتوزيعهم على قشتالة^(١)، وصدر قرار بمصادرة جميع أملاك المهجرين الثابتة، وسمح لهم بنقل أملاكهم المنقولة وقد صدر ذلك القرار إذ اعتقد النصارى الإسبان أن تشتيت الغرناطيين على أنحاء قشتالة هو الحل الأنجع لإدماجهم في المجتمع النصراني. وقد حدد القائمون على أمر تهجير المسلمين سبع مراكز للتجمع هي: «غرناطة، وبسطة، ووادي آش، والمرية، وبيرة، ومالقة، ورندة» وفي كل نقطة تجمع يوجد بها نقاط أخرى ثانوية توزع عليها الأفراد، وقد استمرت المرحلة الأولى من التجمع أسبوعاً كاملاً ذاق فيها مسلمو الأندلس أشد صنوف العذاب، فتجمع في هذه المرحلة ما يقرب من ٤٦ ألف شخص، بينما فر الآخرون إلى الجبال^(٢) يعتصمون بها من أجل المقاومة.

ثم ابتدأت مرحلة التهجير الثانية بنقل المهجرين نحو الشمال والغرب في قوافل تتكون كل واحدة منها من حوالي ١٥٠٠٠ أندلسي و ٢٠٠٠ عسكري نصراني، تتبعها عربات تحمل أمتعة المهجرين، وقد عانى هؤلاء المهجرون إذ خاضوا أراضي واسعة مشياً على الأقدام تحت المطر والثلج أسابيع متواصلة، وقد مات منهم في الطريق عشرهم تقريباً ووصل منهم ٢١ ألف إلى البسيط و ٦ آلاف إلى طليطلة و ٢٢ ألفاً إلى قرطبة و ٥٥٠٠ إلى إشبيلية، أما المرحلة الثالثة من التهجير فقد ابتدأت قاسية عنيفة لأن المقصود منها هو تشتيت المسلمين من مراكز الوصول الأساسية إلى مراكز ثانوية. ثم تبعها المرحلة الرابعة بتوزيع المهجرين على المدن والقرى الثانوية مراعين أن تكون نسبتهم من السكان أقل ما يمكن، وهكذا تم تشتيت مسلمي إسبانيا ولم يبقَ منهم سوى حوالي ٣٣ ألف شخص يعانون من

(١) محمد عبده حتملة «التهجير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملك فيليب» عمان الأردن عام ١٩٨٢م

(٢) الصحوة الإسلامية في الأندلس اليوم، جلورها ومساها. دكتور على المنتصر الكتاني ص ٤٧.

وطأة الجوع والفقر والمرض والبؤس، وقد مات منهم ١٧ ألف شخص تقريباً، ثم قررت الحكومة تهجير الغرناطيين إلى قشتالة ولم تنته عمليات تهجير مسلمي مملكة غرناطة إلا سنة ١٥٧٤م وقد تم تهجير حوالي ٨٠ ألف غرناطى^(١).

وفى شهر فبراير سنة ١٥٧١م صدر مرسوم ملكى بمصادرة أملاك الغرناطيين سواء أكان منهم المجاهدون أو المسلمون وقد شملت تلك الأموال المصادرة المنقول وغير المنقول، وصارت جميعها ملكاً للملك ثم استقطب ما يقرب من خمسين ألف نصرانى مستوطن من الشمال، ووزعت عليهم أملاك الغرناطيين، وعلى ما يبدو أن حركة الاستيطان تلك قد فشلت فشلاً ذريعاً؛ إذ إن هؤلاء المستوطنين الجدد لم تكن لهم دراية بأعمال الزراعة ومن ثم رجع أكثرهم إلى قراهم فى الشمال، كما رجع لغرناطة أيضاً عدد من المهجرين المسلمين وبقي فى غرناطة معظم مسلميها إما متستري كنصارى أو مختبئين فى الجبال، وقد كان لهؤلاء الآخرين قدرة رائعة على القيام بأعمال فدائية ألقوا بها الرعب فى قلوب رجالات الكنيسة والمستوطنين الجدد والدولة بوجه عام وقد شملت تلك الأعمال كل مقاطعات إسبانيا ولم تستطع الدولة القضاء على الفدائيين، وحاولت الحكومة الإسبانية القضاء عليها ولكنها فشلت؛ إذ كانت هناك أكثر من فرقة فدائية تعمل بأساليب مختلفة للدفاع عن الإسلام والمسلمين مثل فرق «الزريق» فى قشتالة التى نشرت الرعب فى ألمرية وكذلك فرق «ابن المليح» التى جاهدت فى رندة وحاولت الحكومة عبثاً تهجير الغرناطيين من منطقة الأندلس، ولكنها لم تستطع تنفيذ القرار بل رجع أعداد كبيرة من المهجرين إلى مملكة غرناطة.

وحاولت الحكومة طرد الغرناطيين وقد وجدت معارضة شديدة ولكنها هجرت بعضهم قسراً إلى مناجم المعدن الرهيبة، حيث كان يتعرض فيها الغرناطيون للموت بسبب أوضاعها السيئة.

والحقيقة أن حركة الجهاد التى قام بها الغرناطيون أزعجت السلطات الإسبانية

(١) المرجع السابق ص ٤٨.

سواء الحكومة أو الكنيسة وصاروا يخافون من تجمع الأندلسيين وخاصة مسلمي غرناطة عبيداً أم أحراراً، فهي تسعى جادة لعدم تجمعهم إذ كانت تخشى من الاتصال الذي كان يتم بين مسلمي أراغون وشمال إفريقيا، هذا من ناحية، كما كانت الحكومة الإسبانية تخشى اتصال الموريسكيين بالدولة العثمانية من ناحية أخرى، لذا كانت تسرع لتشتيتهم كلما اجتمعوا.

ولكن كما يقولون رب ضارة نافعة، وقد أدى نقل مسلمي غرناطة وتشتيتهم في قشتالة إلى إحياء الروح الإسلامية في الجاليات الإسلامية المدجنة في تلك الإمارة؛ إذ تم الاتصال بين أغلب مسلمي إسبانيا وارتفعت الروح المعنوية للمسلمين حين أدركوا روح الفداء وأحسوا بالرباط الأخوي الذي يربطهم جميعاً، بل امتد أملهم إلى ما هو أبعد من ذلك فقد تمنوا إحياء الدولة الإسلامية في الأندلس؛ كما أذيعت أخبار انتصارات العثمانيين على النصارى وانتشرت الإشاعات هنا وهناك، وفي خضم هذه الأخبار اكتشفت الحكومة الإسبانية مؤامرة تخطط لإنزال متطوعين مغاربة على مصب الوادي الكبير^(١)، ويقول الدكتور على المنتصر: إن حركة الجهاد قد نشطت بين المنفيين في مناطق كثيرة مثل بشتيرنة وبطليوس وآبدة وأشبيلية، وحاولت الدولة تقييد تلك الحركات والحد منها، وفرضت قوانين تفرض على كل بلدة تسجيل أوصاف المسلمين المنفيين، ثم أصدرت قوانين صارمة لعقوبة كل من يتساهل في ذلك أو يظهر عليه ارتباطه بالإسلام، كما قررت الكنيسة من ناحية أخرى أخذ جميع أطفال المسلمين لتربيتهم على تعاليمها النصرانية، كما لجأت إلى بيع أعداد منهم كعبيد للنصارى ثم تابع ديوان التفتيش مطاردة المسلمين المنفيين دون هوادة^(٢).

وعلى الرغم من تهجير بعض من أهل غرناطة إلا أنه قد انتقلت القيادة الإسلامية إلى مسلمي مملكة أراجون، وقد وجد مسلمو غرناطة من إخوانهم في أراجون مساندة ومعاونة تدل على أن الإسلام ما زال حياً أثره وإن أثره في نفوسهم

(١) الصحوة الإسلامية في الأندلس مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق.

صار قوياً حيث اغتنم بعض النصارى حرب غرناطة وهجموا على المسلمين لسلب أموالهم وسبى أبنائهم ونسائهم وبيعهم كعبيد، وخاصة لاجئى غرناطة فكانوا يساقون إلى سوق النخاسة فيجتهد إخوانهم فى أراجون فى شرائهم لتحريرهم^(١).

وقد زاد رعب حكومة إسبانيا بعد أن حرر العثمانيون تونس وحلق الوادى من يد الإسبان ١٥٧٤م خوفاً من إنزال قوة عثمانية فى مملكة بلنسية بمساندة المسلمين، وبناء على هذا قرر الملك منع المسلمين من سكنى الشواطئ بمملكة بلنسية فأجلوا عنها إلى المناطق الداخلية.

وظل مسلمو إسبانيا طوال هذه الفترة لهم صلات قوية مع جهات ثلاث معادية لإسبانيا: الدولة العثمانية وهى أكبر قوة إسلامية فى البحر المتوسط، المملكة المغربية وهى الدعم الطبيعى لمسلمى الأندلس عبر التاريخ، وثم الفرنسيون الذين يشاركونهم فى عداوتهم للكاثوليك.

وقد عرفنا سابقاً علاقة مسلمى الأندلس بالدولة العثمانية منذ سقوط غرناطة وقد تزايد أملهم فى نصرتها. وبعد انهيار ثورة غرناطة عام ١٥٧٠م عملت السفن العثمانية على حمل اللاجئين ومن ثم تحول مركز المقاومة الإسلامية إلى بلنسية، وقد شهدت الشواطئ الإسبانية إبان تلك الفترة ما يقرب من ٣٣ حملة، وقد شاعت أخبار تنم عن أن المسلمين يستعدون لثورة شاملة يقوم بها الغرناطيون ويساندتهم العثمانيون بإنزال بحرى، ولكن على ما يبدو أن ذلك الأمل لم يتحقق ولم يصل الأسطول العثمانى.

وهكذا تعددت الهجمات الفدائية وتمت تحالفات أكبر ضد إسبانيا بتأييد من فرنسا والعثمانيين ولم يدخل القرن السابع عشر الميلادى حتى وصلت الكنيسة والحكومة الإسبانية إلى يأس تام من تنصير المسلمين، فانهزمت الكنيسة أمام عناد وثبات المسلمين على دينهم وارتعبت الدولة من حركاتهم الفدائية على الرغم من ضعفهم وقلة حيلتهم، ولما أدرك الملك وحكومته قلة حيلته إزاء هؤلاء المجاهدين أخذوا يفكرون فى حل يشفى غليلهم فاقترحوا ثلاثة حلول:

(١) المرجع السابق ص ٥٠.

١- جمع الموريسكيين كلهم فى أحياء خاصة بهم.

٢- إفناءهم جميعاً.

٣- طردهم خارج إسبانيا.

وقد ارتاح الجميع للحل الثالث سواء رجال الدولة أو رجال الكنيسة، وابتدأت الفكرة تتبلور فى أذهانهم فأمر الملك بتشكيل لجنة لدراسة وضع الدولة الداخلى والخارجى الناتج عن خطر الموريسكيين، وتوصلت هذه اللجنة إلى توصية للملك بطرد جميع الموريسكيين خارج إسبانيا، ولم يأت هذا القرار عشوائياً إذ تدارست اللجنة مساوئ القرار ومحاسنه، فمن مساوئه انخفاض دخل الملك والنبلاء فى حالة طرد المسلمين؛ وذلك لأن هؤلاء المسلمين هم عماد الاقتصاد سواء فى الزراعة أو التجارة أو الصناعة كما وجدوا لها مساوئ سياسية ودينية ولكن تهون تلك المساوئ إزاء الطرد، فأصدر الملك فى ١٨ من يناير ١٥٨٥م أمراً بطرد جميع الموريسكيين فى ظرف شهرين والحكم بإعدام كل متخلف، واستثنى القرار الأطفال من الطرد وقرر تسليمهم للكنيسة حيث تم تنشئتهم على الدين النصرانى ولكن على ما يبدو تعطل تنفيذ القرار أملاً فى تنصير الموريسكيين.

وفى ٣٠ من يناير ١٥٩٩م قرر مجلس الدولة طرد الرجال الذين تفوق أعمارهم على ستين سنة وكذلك النساء، أما الباقون فقد أرسلوا للأشغال الشاقة فوق السفن مدى الحياة، وفيما يخص الأطفال دون ١٥ سنة فيسلمون للكنيسة ثم تتم مصادرة جميع أموالهم، وقد اقترح وزير الملك إعدام الرجال بين ١٥ و ٦٠ سنة عوضاً عن طردهم وتقوية جيوش الأعداء بهم، ولكن على ما يبدو لم يطبق شىء من هذا القرار^(١).

وبعد سنة كاملة نفذ هذا القرار حيث استند الملك إلى ثلاثة أسباب شجعتة على إصدار قرار الطرد، فقد اتهم الموريسكيين بالخيانة لتآمرهم مع فرنسا، والمغرب، وكذلك الدولة العثمانية. وهناك سبب آخر وهو رعب الدولة من تكاثر

(١) الصحوة الإسلامية فى الأندلس ص ٥٤.

الموريسكيين بالنسبة إلى النصارى. فالمسلمون لا يشربون الخمر ويتزوجون وليس فيهم كهنة ولا رهبان ولا يلتحقون بالجيش ومن ثم فإنهم يتكاثرون بسرعة، ولكن هذه الشائعات كانت خاطئة لأن الثورات التي قام بها المسلمون قد قضت على أغلب شبابهم وأتت على الأخضر واليابس ولم تترك شيئاً يشجع على النسل.

وقد أدرك الملك أن الأوضاع الدولية مناسبة آنذاك لتطبيق قرار الطرد؛ فالمغرب مشغول في حروبه الدولية، والدولة العثمانية مشغولة مع الصفويين وإنجلترا عقدت معاهدة مع إسبانيا، وفرنسا لن تهاجم إسبانيا بمفردها.

وقد وقع الملك قرار تنفيذ الطرد يوم ٢٢ سبتمبر ١٦٠٩م واستقر الرأي على طردهم إلى بلاد شمال إفريقيا وإخراجهم جميعاً من مملكة بلنسية رجالاً ونساء وأطفالاً خلال ثلاثة أيام، يقبض بعدها على كل من تخلف ويقتل كل من قاوم وعلى مسلمى بلنسية المكوث في بيوتهم انتظار تنفيذ الأمر، ولا يسمح القرار للمطرودين بحمل شيء سوى أموالهم المنقولة التي يستطيعون حملها شخصياً؛ ويعدم كل من يخبئ ماله أو يتلفه وتسلم باقى الأموال للنبلاء، ويسمح القرار بإبقاء الأطفال الذين يودون البقاء بشرط موافقة أوليائهم ويبقى أيضاً الموريسكيين الذين برهنوا على إخلاصهم للنصرانية.

وكان تقبل الموريسكيين لقرار الطرد مختلفاً فمنهم من اعتبره فرجاً من الله، بينما رفض آخرون الخروج وحاولوا الاختفاء وإذا كان بعض المسلمين قد أعدوا أنفسهم للطرد إنقاذاً لدينهم وفق الخيار السابق، إلا أنهم أوذوا كثيراً؛ إذ صاحبت عمليات الطرد جرائم كثيرة فمنهم من منع من بيع منتجاته الزراعية فقد صادرها النصارى وأعطيت للنبلاء؛ ووقفت في الطرقات عصابات النصارى تسطو على المسلمين وتجردهم مما يحملون من حلى ومال، وللأسف الشديد قد شاركهم الجيش الإسباني في النهب والسلب والقتل، ومما ضاعف من مأساة المسلمين قرار الدولة بأن يتحمل الموريسكيون مصاريف ترحيلهم، وليت الأمر قد توقف عند هذا الحد؛ بل أغرق أصحاب السفن وهم النصارى كثيراً من الموريسكيين في البحر

للسطو على أموالهم، وتحكى المراجع أنه رحل خلال ثلاثة أشهر ما يقرب من ١٢٠ ألف مسلم، قد رحلوا متحملين تجاوزات النصارى وسوء المعاملة فوق السفن^(١).

وفى شهر مايو سنة ١٦١١م صدر قرار قاسٍ ينم عن الحقد الدفين للمسلمين ويقضى هذا القرار بالقضاء على المتخلفين من المسلمين فى بلنسية ولكى يضمنوا سرعة التنفيذ قدروا جائزة ٦٠ ليرة لكل من يأتى بمسلم حى، وقد قدر من طرد من بلنسية بحوالى ١٣٠ ألف شخص.

ثم بعد ذاك قررت الدولة طرد مسلمى غرناطة ومرسية وجيان وباقى مدن الأندلس وقشتالة ومنطقة بطليوس؛ أما منطقة أراجون فإن المسلمين فيها قد أهملوا مزارعهم وأعمالهم وباعوا ممتلكاتهم ورحلوا بعدما تأكد لهم رحيل المسلمين فى المناطق الأخرى، ويقدر عدد المطرودين من أراجون القديمة ما يقرب من ٦١ ألفاً، وحكم على كل من يخالف بالأشغال الشاقة فوق السفن لمدة ست سنوات^(٢).

وهكذا تم تهجير سائر المسلمين فى شتى ممالك إسبانيا وقد أحصيت أعداد من طرد من المسلمين من إسبانيا فى الحقبة بين سنتى ١٦٠٩ : ١٦١٤م أى فى مدة خمس سنوات تقريباً ما يقدر بحوالى ٣٢٧ ألف شخص، وقد تحملوا عنت النصارى ومصادرة أموالهم وحليهم وقتل الكثيرين منهم، وقد استقر معظم المهاجرين بالمغرب والجزائر وتونس، وهناك من المهاجرين من انتقل إلى البلاد الإسلامية الأخرى عبر فرنسا. ويقدر عدد الأندلسيين الذين دخلوا المغرب فى هذه الفترة بحوالى ٦٠ ألف شخص معظمهم من غربى الأندلس واستقر منهم ١٠ آلاف أندلسى فى مصب وادى أبى رقراق وفى المناطق الشمالية كمدينة تطوان وشفشاون والقصر الكبير، وقد عمل هؤلاء المهاجرون الذين نزلوا مدينة الرباط على تعميرها كما استقرت أعداد منهم فى فاس أيضاً.

(١) الصحوة الإسلامية فى الأندلس ص ٥٤.

(٢) المرجع السابق ص ٥٨، ٥٩.

ويقدر عدد المهاجرين إلى الجزائر بحوالى ٦٥ ألف شخص معظمهم من مملكتى بلنسية وأراجون القديمة، وقد تم تهجيرهم من خلال فرنسا واستقبلتهم السلطات العثمانية أحسن استقبال وكذلك أهالى الجزائر وتلمسان وبجاية، وقد استقر فى تونس ما يقرب من ٥٠ ألف شخص معظمهم جاءوا إليها عن طريق فرنسا، وقد ساهم هؤلاء المهاجرون فى تعمير تونس وخاصة فى المناطق الخالية حيث نهضت الزراعة والمهن الأخرى.

وبصفة عامة فإن عدد المهاجرين إلى الشمال الإفريقى كان يقدر بـ ١٨٠ ألف شخص تقريباً، وانتقل عدد من الأندلسيين عبر فرنسا وإيطاليا إلى الأراضى العثمانية والمشرق، وقد تدخل السلطان العثمانى أحمد الأول مع حكام فرنسا وبريطانيا وإيطاليا لتسهيل انتقالهم إلى الأراضى التركية فاستقر بعضهم فى البوسنة وبعضهم بسلانيك وآخرون بالقسطنطينية، ومنهم من توجه إلى بلاد الشام واستقروا فى دمشق والساحل اللبنانى، ويقدر عدد المستقرين فى الأراضى العثمانية بصفة عامة ٤٠ ألف أندلسى، وقد هاجر حوالى ١٠ آلاف أندلسى إلى البلدان الأوربية فى أوروبا وعلى وجه الخصوص فرنسا وأمريكا .

ويمكننا أن ننهى حديثنا عن قضية طرد الموريسكيين بأنه قد هاجر منهم ما يقرب من ٢٣٠ ألف شخص واستقروا فى البلاد التى سبق ذكرها، بينما مات منهم ٦٥ ألفاً نتيجة ما تحملوه من غرق فى البحار أو قتل فى الطرقات أو أمراض فتاكة أو جوع وفاقة، وقد تمكن ٣٢ ألفاً من مسلمى الأندلس من العودة إليها بعد طردهم^(١).

وهكذا أسدل الستار على صفحة من صفحات التاريخ الإسلامى عاشها المسلمون فى جنوب غرب أوروبا رفعوا فيها راية الإسلام خفاقة بالعزة والكرامة طوال ثمانية قرون، ولكن سنة الله غالبية فى كونه وفى خلقه، وقد وقع مسلمو الأندلس تحت طائلة هذا القانون بعدما تراخوا وتفرق شملهم وتوزعت دولتهم

(١) للاستزادة ينظر كتاب الصحوة الإسلامية للدكتور على الكتانى ص ٤٧ - ٦٢ .

واستبد بهم العدو الإسباني استبداداً لم نسمع به فى التاريخ، وقهراً للنفس الإنسانية لا تود العين رؤيته، ثم تشتتاً وطرذاً مهيناً حطم كرامة الإنسان تحطيماً.

فهل لنا نحن المسلمين أن نأخذ العبرة والعظة لنسترشد بذلك التاريخ، وخاصة أنه مازال فى بلاد أوربا حتى اليوم أقليات إسلامية تعيش مع الأوربيين فى دولة واحدة ويحكمهم قانون واحد؟

فهل يمكن لهذه الأقليات أن تعيش معززة الجانب موفورة الكرامة معتزة بدينها وشريعته بجانب هؤلاء الغربيين؟ ولم لا؟ وهم يشاركون فى صنع حضارة إنسانية واحدة وثقافة واحدة ويساهمون فى بناء المجتمع ونهضته، وهم ليسوا عالة على المجتمعات الغربية التى بدأت تتبرم بالمسلمين فى هذه الأيام ويتناولون الحجة تلو الأخرى للاصطدام بهم فى ساحات القضاء، كقضية الحجاب تارة ومنع النشيطين من أداء أدوارهم السياسية حيناً آخر، بل ذهبوا أبعد من ذلك إذ دأبوا على منع كبار علماء المسلمين من دخول بعض العواصم الأوربية، فهل لنا أن نربط الحاضر بالماضى ونستعيد الذكرى لنفهم الدرس ونأخذ العظة؟!



خامساً: ماذا خسرت إسبانيا برحيل الموريكسيين؟

تلك هي قصة الموريكسيين أو العرب المنتصرين كما سبق ذكره؛ قصة مؤسسية تفيض بألوان الاستشهاد المحزن، ولكن تفيض في الوقت نفسه بصفحات من الإباء والبسالة والجلد، خليقة بأعظم وأنبى الشعوب. وقد لبثت السياسة البربرية التي اتبعتها إسبانيا النصرانية، واتبعتها ديوان التحقيق الإسباني، إزاء العرب المنتصرين على مر العصور، مثار الإنكار والسخط، يدمغها المفكرون الغربيون، والإسبان أنفسهم، حتى يومنا بأقصى النعوت والأحكام^(١).

ويرى المؤرخون المعاصرون، أن العمل الذي تم على أيدي الإسبان بهدف إبادة الموريكسيين، كان ضربة شديدة لعظمة إسبانيا ورخائها؛ ولم تنهض إسبانيا قط من عواقب هذه السياسة الغاشمة، بل انحدرت منذ إصدارها قوانين التنصير ومحاكم التفتيش ثم نفى الموريكسيين إلى خارج البلاد، من أوج عظمتها التي سطعت في عصر شارلكان وفيليب الثاني، إلى غمرة التدهور والانحلال التي ما زلت تلازمها حتى عصرنا.

بل ترجع عوامل هذا الانحلال إلى ما قبل مأساة الموريكسيين ببعيد، أو بعبارة أخرى إلى السياسة التي اتبعتها إسبانيا النصرانية، نحو الأمة الأندلسية، منذ بداية عصر الغلبة والفتح، في أوائل القرن الثالث عشر. فقد كانت القواعد والولايات الإسلامية الزاهرة، تسقط تباعاً في يد إسبانيا النصرانية، ولكنها كانت تفقد في الوقت نفسه أهميتها العمرانية والاقتصادية، إذ كانت العناصر الإسلامية الذكية النشيطة من السكان، تغادرها إلى القواعد الإسلامية الباقية، فراراً من عسف النصارى، وتغادرها حاملة أموالها وفنونها وصنائعها، تاركة وراءها الخراب والفقر والضيق الاقتصادي. واستمر سبيل هذه الهجرة المخربة زهاء قرنين، حتى سقطت غرناطة، واحتشدت البقية الباقية من الأمة الأندلسية في المنطقة الجنوبية، في بعض

(١) (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين د. محمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص ٤١١).

القواعد الأندلسية القديمة، مثل بلنسية ومرسية، وهاجرت قبل سقوط غرناطة وبعده، جموع غفيرة من المسلمين إلى إفريقية، واستحالت الأمة الأندلسية غير بعيد، إلى شعب مهيض ممزق هو شعب الموريسكيين أو العرب المنتصرين. ومع ذلك فقد لبثت هذه الأقلية الأندلسية المضطهدة، عاملاً خطيراً في اقتصاد إسبانيا القومى، وفى ازدهار زراعتها وتجاربها وفنونها وصناعاتها. وكان الموريسكيون يحملون الكثير من تراث الأمة المغلوبة، وإلى نشاطهم ودأبهم، يرجع ازدهار الضياع الكبيرة التى يملكها السادة الإقطاعيون. فلما اشتد بهم الاضطهاد والعسف، وأخذت يد الإبادة تعمل لتمزيق طوائفهم، وسحق نشاطهم وقتل مواهبهم، ولما اتخذت إسبانيا النصرانية أخيراً خطواتها الحاسمة بإخراجهم، كانت الضربة القاضية لرخاء إسبانيا ومواردها فانحط الإنتاج الزراعى الذى برع الموريسكيون فيه، وخربت الضياع الكبيرة بفقد الأيدى الماهرة، وكسدت التجارة التى كان الموريسكيون من أنشط عناصرها، وركدت ريع الصناعة، وعفت كثير من الصناعات التالدة التى كانوا أساتذتها، وغاضت الفنون الرفيعة التى استأثروا بها منذ أيام الدولة الإسلامية. وأحدثت هذه العوامل بمضى الزمن نتائجها المخربة، فتناقص عدد السكان، وانكمشت المدن الكبيرة، وذوى عمرانها، وتضاءلت موارد الخزينة العامة، وشلت جهود الإصلاح والتقدم، ولم يمض على إخراج الموريسكيين زهاء قرن، حتى أصبح سكان المملكة الإسبانية كلها ستة ملايين، وكانوا يمثلون فى قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغرناطة أربعة أخماس سكانها، وعم الفقر والخراب مئات المناطق والمدن، وخيم على إسبانيا كلها جو من الفاقة والركود والانحلال^(١).

وإذا كان النقد الحديث ينوء بخطورة السياسة التى اتبعتها إسبانيا، فى إبادة الأمة الأندلسية ونفى الموريسكيين، كعامل قوى الأثر فيما أصاب إسبانيا من أسباب الدمار والبؤس والانحطاط، التى لم تهرأ منها حتى عصرنا، فإنه يعتمد فى هذا رأى على طائفة من النتائج المادية والأدبية، التى ترتبت على (النفى)، وحرمان إسبانيا من الثروات العقلية والفنية والصناعية، التى كانت تتمتع بها الأمة الأندلسية.

(١) (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين د. محمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص ٤١٢).

وقد ظهرت هذه الآثار المخربة، بالأخص في محيط الزراعة والصناعة، وكان تدهور إيراد الضياع الكبيرة، وإيراد الكنائس والأديرة، دليلاً على ما أصاب قوة إسبانيا المنتجة في الزراعة والصناعة، بسبب نفى طائفة كبيرة، من أنشط طوائف السكان وأغزرهم إنتاجاً. وكان من الحقائق المعروفة أن السكان الإسبان، كانوا يغيضون الأعمال الزراعية والفنية والحرفية، ويعتبرونها أمراً شائئاً، وأن الإسبان لا يربى أولاده لمزاولة العمل الشريف، فكان أولئك الذين لا يجدون عملاً في الجيش أو الحكومة، يلتحقون بالكنيسة.

ويبدى المؤرخ الإسباني الكبير ناباريتي أسفه لوجود أربعة آلاف مدرسة في عصره (أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر)، يتعلم فيها أبناء الفلاحين، بينما تهجر الحقول، ولأن أولئك الذين لا يجدون منهم عملاً في الكنيسة لنقص تعليمهم، يحترفون التسول أو التشرد أو السرقة. وقد كتب سفراء البندقية منذ القرن السادس عشر إلى حكومتهم ينوهون بهذه الحقائق، ويصفون الإسبان بأنهم زراع وعمال كسالى، يحتقرون العمل اليدوى، حتى إن ما يمكن عمله في البلاد الأخرى في شهر، يعمل به الإسبان في أربعة أشهر.

ويردد القول نفسه الوزير محمد بن عبد الوهاب الغسائي سفير سلطان المغرب مولاي إسماعيل إلى إسبانيا، وقد زارها في سنة ١٦٩١م، أعنى بعد النفي بثمانين عاماً؛ إذ يقول في رحلته: (وبحصول هذه البلاد الهندية (يقصد أمريكا) ومنفعتها وكثرة الأموال التى تجلب منها، صار هذا الجنس الإسبانيولى اليوم أكثر النصارى مالا، وأقواهم مدخولاً، إلا أن الترف والحضارة غلبت عليهم، فقلما تجد أحداً من هذا الجنس يتاجر أو يسافر للبلدان بقصد التجارة كعادة غيرهم من أجناس النصارى مثل الفلامنك والإنجليز والفرنسيين والجنوبيين وأمثالهم، وكذلك الحرفة التى يتداولها السقطة والرعاى وأراذل القوم يتأبى عنها هذا الجنس، ويرى لنفسه فضيلة على غيره من الأجناس المسيحيين).

وقد كان النبلاء والأخيار، وأصحاب الضياع الكبيرة بوجه عام، يعتمدون في تعهد أراضيتهم وفلاحتها، على نشاط الموريسكيين وبراعتهم، فلما وقع النفي جمد

النشاط الزراعى، وخلت معظم الضياع من الزراع، وأقفر كثير من القرى، وهدمت ضياع كثيرة لخلوها من السكان، ولاسيما فى منطقة بلنسية، واضطر النبلاء إلى استقدام العمال الزراعيين من الجزائر الشرقية (البليار) وأنحاء البرنية وقطلونية؛ ومع ذلك فقد حدث نقص ملحوظ فى غلات الضياع الكبيرة، ولم يتتفع النبلاء بما أصابوه من الاستيلاء على الأرضى التى نزع، وتعذر عليهم تعميرها وفلاحتها وحقاق بهم الضيق حتى اضطر العرش إلى منح كثيرين منهم نفقات سنوية من خاصة أمواله، هذا فضلا عما أصاب طوائف السكان الأخرى، التى كانت تتصل بالموريسكيين فى المعاملات والتبادل، من العسر والضيق^(١).

وكما انحط دخل الكنائس والأديار، فكذلك خسر ديوان التحقيق شطراً كبيراً من دخله، مما كان يصيبه من مصادرة أموال الموريسكيين والحكم عليهم بالغرامات الفادحة، واضطرت الحكومة أن تعول كثيراً من محاكم التحقيق، التى أوشكت على الإفلاس، من جراء اختفاء الجماعة التى كانت تزدهر بمطاردتها واستصفاء أموالها. وقد بيعت أملاك الموريسكيين وأراضيههم بمبالغ كبيرة، ولكن العرش استولى عليها، ووزع معظمها على أصفياائه من الوزراء والنبلاء والأخبار، ولم ينل ديوان التحقيق سوى جزء يسير منها.

ويقدمون مثلاً لما أصاب إسبانيا من الخراب من جراء (النفى) هو مثل مدينة ثوداد ريال (المدينة الملكية) عاصمة لامنشا، فقد أسس هذه المدينة ألفونسو العالم فى القرن الثالث عشر، ومنح سكانها شروطاً حرة مغرية شجعت كثيراً من اليهود والمسلمين على النزوح إليها. وفى سنة ١٤٩٢م، حل محلهم الموريسكيون من غرناطة، ولما أخرج منها هؤلاء مع المدجنين القدماء، خربت المدينة وعفا رخاؤها وانحطت زراعتها، وساءت صناعة النسيج التى أنشأها الموريسكيون فيها، وهبط عدد سكانها فى سنة ١٦٢١م إلى ٥٠٦٠ نفساً ونحو ألف أسرة فقط، فى حين أنها كانت تضم من السكان قبل (النفى) اثنتى عشرة ألف أسرة.

(١) (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتصرين د. محمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص ٤١٤).

وكان مما ترتب على نفي الموريسكيين أيضاً، ذبوع العملة الفضية الزائفة، وقد تركوا وراءهم منها مقادير عظيمة، وكانت لهم بصنعها براعة خاصة. وأحدث ذبوع النقد الزائف اضطراباً شديداً في المعاملات، وحاولت الحكومة جمعه، والمعاقبة على ترويجه بعقوبات رادعة بلغت حد الإعدام، ولكنها لم تفلح في استئصال الشر، واستمرت هذه الحركة أعموماً طويلة، وعمد الإسبان بدورهم إلى التزييف، وعوقب كثير منهم أمام محاكم التحقيق والمحاكم المدنية، وعانى التجار والمتعاملون كثيراً من الضرر والإرهاق.

ولم تمضِ أعوام قلائل على نفي الموريسكيين، حتى ظهرت هذه الآثار المخربة كلها في حياة المجتمع الإسباني بصورة مزعجة، وهال العرش والحكومة ما أصاب الأمة من ضروب البؤس والخراب، وطلب رئيس الحكومة الدوق دى لير ما فى سنة ١٦١٨م، إلى مجلس الدولة، أن ينظر فى هذا الأمر، ويعمل على تحقيقه ومعالجته؛ وقدم مجلس الدولة تقريره بعد عام، وأشير فيه إلى خراب المدن والقرى ولكنه لم يشر إلى نفي الموريسكيين، وإلى عدد رجال الدين وتزييف العملة، وبغض الشعب للعمل الشريف، بل حاول أن يرجع الشر إلى فداحة الضرائب، وإلى الترف الذى تعيش فيه الطبقات الممتازة، وإسراف الملك فى الإغداق على أصفياه؛ وكذلك اهتم مجلس النواب (الكورتيس) بالأمر وقدم عنه تقريراً إلى الملك. ومع أن التقارير الحكومية التى وضعت عن هذه المحنة، لم تشر إلى نفي الموريسكيين أيضاً كعامل أساسى فيما أصاب إسبانيا من الخراب والفقر، فقد كان فى القرارات الملكية ما ينطق بهذه الحقيقة. ففى سنة ١٦٢٢م أصدر الملك فيليب الرابع، قراراً يخفض الضرائب فى بلنسية يشير فيه إلى هجرة السكان، وإلى ما خسرت المدينة من ضروب الدخل، التى كانت تجبى على ما يستهلكه الموريسكيون، وما خسره التجار من انقطاع التعامل معهم.

على أن جهود العرش والحكومة، لم تجد شيئاً فى تخفيف هذه الضائقة، التى طافت بالمجتمع الإسباني، وشملت سائر الطبقات سواء فى الإنتاج أو الاستهلاك.

ومضى وقت طويل قبل أن تستقر الأحوال نوعاً ، وتفيق الزراعة والصناعة والتجارة من الضربة التي أصابتها.

يقول الدكتور لى : (إنه لا يمكن لفريق من السكان، كان يعتمد عليه مدى القرون، فى القيام بقسط عظيم من الإنتاج والتنظيمات المالية فى البلاد، أن يمزق فجأة وينبذ، دون أن يبث ذلك الخراب الواسع، ويشير معتركا من المشاكل يمتد أثرها إلى أجيال مرهقة).

ثم ينعى على السياسة الإسبانية تخطيطها وقصر نظرها فيقول : (وإنه لمن خواص السياسة الإسبانية فى ذلك العصر، أنه لم يفكر أحد فى هذه الشئون، ولم يحتط لها أحد فى المباحثات الطويلة، التى جرت فى قضية الموريسكيين. وقد حدثت ثمة مناقشات لا نهاية لها حول مختلف المشاريع ومزاياها، والوسائل التى ينفذ بها النفى، وماذا يسمح به للمنفيين، وماذا يكون مصير الأطفال. ولكن النتائج المحتملة تركت للمصادفة، واحتقرت التفاصيل العملية، واحتقر رخاء الفرد، وهو ما يوضح فشل السياسة الإسبانية)^(١).

تلك هى النتائج المادية الواضحة، والاقتصادية والاجتماعية، التى جنتها إسبانيا النصرانية من جراء سياستها المبيتة لإبادة الأمة الأندلسية. فقد لبثت إسبانيا زهاء قرن، تعمل بأقصى وسائل الإرهاق والمطاردة، على استصفاء ما بقى من فلول الأمة الأندلسية، فى الأرض التى بسطت عليها زهاء ثمانية قرون، ظلال الرخاء والأمن، وضوء العلم والعرفان، ولم تطق حتى بعد أن استحالت هذه الفلول، إلى شراذم معذبة مهیضة، وأكرهت على نبذ دينها ولغتها وتقاليدها، أن تبقى عليها، وعلى ما تبقى لها من مواهب وقوى متتجة، ورأت فى سبيل أسطورة من التعصب والجهالة، أن تقضى عليها بالتشريد والنفى النهائى، وأن تخرج من بين سكانها زهاء نصف مليون من أفضل العناصر العامة. وكان من سوء طالع إسبانيا أن جاء نفى الموريسكيين، فى وقت أخذت فيه عظمة إسبانيا ورخائها، ينحدران

(١) (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين د. محمد عبد الله عتات الطبعة الثالثة ص ٤١٦).

سراعًا إلى الحضيض، وجنح المجتمع الإسباني إلى حياة الدعة والخمول، وأخذ السكان في التدهور، فجاء نفى الموريسكيين ضربة جديدة لحياة إسبانيا، التي أخذت في التفكك والذبول، وتركت وراءها جرحًا عميقًا لم يقو الزمن على محو آثاره بصورة حاسمة. ومن ثم فإنه من الواضح أن يعلق النقد الحديث أهمية بالغة على نفى الموريسكيين، ويعتبره عاملاً بعيد المدى فيما أصاب إسبانيا الحديثة، من ضروب التفكك والانحلال.

على أن التفكير الإسباني يختلف في قبول هذا الرأي وتقدير مداه؛ ويهاجمه وينكره بالأخص رجال الدين، وقد كانوا منذ البداية روح هذه السياسة المخربة، وأكبر العاملين على تنفيذها. وقد استقبل رجال الدين نفى الموريسكيين بأعظم مظاهر الغبطة والرضى، واعتبروه ذروة النصر الديني؛ ويقول أحدهم وهو القس بليدا وهو من مؤرخي القرن الماضي، في كتابه الذي نشره دفاعًا عن هذا الإجراء: (بأن عصر إسبانيا الذهبى بدأ بذهاب الموريسكيين، وأن إسبانيا قد حققت به وحدتها الدينية، وأنقذت من مشاغلها الداخلية، وأن النفى كان أعظم حادث بعد بعث المسيح، واعتناق إسبانيا للنصرانية). ويقول حبر آخر: (لقد زعم الموريسكيون أن رخاء إسبانيا قد ذهب منذ أكرهوا على التنصير، ولكن الرخاء قد عم بنفيعهم، وازدهرت التجارة، وساد الأمن فى الداخل والخارج). ويقول الحبر بشتى دى لافونتى فى تاريخه الدينى (إنه من السخرية أن يقال عن نفى الموريسكيين كان سببًا فى انحطاط إسبانيا، فإنه أمة قد تفقد مائة وخمسين ألفًا فى وباء أو حرب أهلية. ثم يتساءل فى تهكم لماذا ينحى على فيليب الثالث هذا اللوم؟ على أنه يعترف مع ذلك بأن النفى كان سببًا فى تدهور دخل الأشراف والكنائس).

ويرى آخرون من الأحرار أن إسبانيا قد دفعت بالنفى ثمنًا باهظًا، ولكن تحملهم نزعة فلسفية فيقولون إن وفرة الرخاء تذهب بالفضائل، وإنه لا بأس من التقشف مع الإيمان، وإن الفقراء استطاعوا بعد إجلاء الموريسكيين أن يجدوا أعمالًا.

- ولكن حبراً ومؤرخاً إسبانياً كبيراً، هو دون لورنتى مؤرخ ديوان التحقيق، يحدثنا عن وسائل الديوان ونفى الموريسكيين فى قوله: (كانت هذه الوسائل بقسوتها الشائنة، تذكى روح الموريسكيين من تلك المحكمة الدموية، وكانوا بدلاً من التعلق بالنصرانية، وهو ما كانت تؤدى إليه معاملتهم بشيء من الإنسانية، يزدادون مقتاً للدين لم تحملهم على اعتناقه سوى القوة، وكان هذا سبب الاضطرابات التى أدت فى سنة ١٦٠٩ فى نفى هذا الشعب، وعدده يبلغ المليون يومئذ، وهى خسارة فادحة لإسبانيا تضاف إلى خسائرها الفادحة، وفى مائة وتسع وثلاثين سنة انتزع ديوان التحقيق من إسبانيا ثلاثة ملايين، ما بين يهود ومسلمين وموريسكيين).

- ويقول الكردينال ريشليو الفرنسى، وهو من أعظم أحرار الكنيسة فى مذكراته وكان معاصراً للمأساة: (إنها أشد ما سجلت صحف الإنسانية جرأة ووحشية).

هذا عن الأحرار. وأما عن آراء البحث الإشباني الحديث، فإنها تختلف فى تقدير آثار نفى الموريسكيين اختلافاً بيناً، بيد أنها تميل على الأغلب إلى الاعتراف بفداحة الآثار المخربة التى أصابت إسبانيا من جرائه، وإلى اعتباره عاملاً قوياً فى تدهور إسبانيا وانحلالها. بيد أنها مع ذلك تحاول الاعتذار عن النفى ويرى البعض أنه كان إجراءً طبيعياً، وضرورة لا محيص منها، وينكر البعض الآخر أنه كان كارثة أو أنه ترتبت عليه آثار مخربة. وقد رأينا أن نورد هنا طائفة من آراء عدة من أكابر المؤرخين والمفكرين الإشباني المحدثين، وأن نوردها بدقة وإفاضة تسمحان بفهم الروح الإشبانية، إزاء هذا الحدث التاريخى الخطير، وتقديرها على حقيقتها^(١).

- يقول دانفشيلا إى كولبادو: (وهكذا تحقق نفى الموريسكيين الإشباني، بغض النظر عن كونهم شباباً أو شيوخاً صالحين، أو عقماء، مذنبين أو أبرياء. وكانت مسألة الوحدة السياسية تحمل فى ثنيتها ضرورة الوحدة الدينية؛ وضع خطتها

(١) (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين د. محمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص ٤١٨).

الملك الكاثوليكيان، وحاول تحقيقها الإمبراطور كارلوس الخامس (شارلكان) وفيليب الثانى، ولكنهما ارتدا خشية من عواقبها. أما فيليب الثالث، فكان يزاوّل سلطانه على أيدي أصفياؤه، ولذا وجد سلطة العرش الدينية والسياسية أيسر وأهون. وكانت الحرب الدينية تضطرم ضد الجنس الأندلسى، وقد ألفت عواطف الروح الرقيقة نفسها، وجهاً لوجه أمام المسألة السياسية. ودخلت الإنسانية والدين فى صراع وخرج الدين ظافراً وفقدت إسبانيا، واغتبطت الأمة إذ أضحت واحدة فى جميع مشاعرها العظيمة. و كان الموريسكيون شديدي المراس وكان الوطن ينشد وحدة معنوية، تعد متممة للوحدة السياسية، التى تحققت باندماج سائر العروش فى شبه الجزيرة، وكان عنصر تناقض قوى، كالذى تمثله طائفة الموريسكيين، لا يكون فقط عقبة شديدة يصعب تذليلها، ولكنه كان استحالة مطلقة، تحول دون تحقيق الغاية، التى تتجه إليها الحركة العامة للفكر القومى. وكانت الصعوبة كلها تجثم فى الدين ولم تكن اللغة التى تبدو خاصة قومية أخرى، تكون يومئذٍ أو فى أى وقت عقبة بمثل هذه الخطورة، ففي شمال إسبانيا، وفى شرقها، توجد اللهجات المختلفة، من الجليقية والقطلونية والميورقية والبلنسية وغيرها. وكذلك يوجد مثل هذا التباين فى التنظيمات القضائية، والثبات والعادات الخاصة بكل منطقة، ولكن ذلك لم يكن عقبة كأداء فى سبيل وحدة الدين، والروح القومى، ولم يخلق مثل المعضلة الدائمة، التى خلقها الدين بالنسبة إلى الموريسكيين، والتى جعلتهم فى حالة دائمة من التربص والتوجس. إن ما بذله كارلوس الخامس وفيليب الثانى، لإخضاع الموريسكيين للنصرانية، أمر لا يمكن وصفه، ولكن جهودهم كلها ذهبت عبثاً ذلك أنه بعد ثلاثة قرون من الخضوع، لبث الموريسكيون فى عصر فيليب الثالث، يضطرمون بنفس الروح المتمردة، التى كانت لأسلافهم الذين أخضعوا بالسيف، وقد ارتضوا حالتهم كمحنة مؤقتة عابرة، ولم ينبذوا الأمل قط، ولم يتركوا الوسائل التى يعتقدون أنها تمكنهم ذات يوم من الأخذ بالثأر، واسترداد استقلالهم وسيادتهم.

ثم يقول: (وإنها لخرافة أن يقال إن الموريسكيين كانوا عنصراً مفيداً في إنتاج إسبانيا، ولو أنهم كذلك لحملوا الرخاء على بلاد المغرب حيث ذهبوا).

- ويقول المؤرخ الكبير مودستو لافونتي، والذي يذهب في الصراحة وتقدير الحقائق المنزهة إلى أبعد حد: (وعلى أى حال فإن مراسيم فيليب الثالث الشهيرة ضد الموريسكيين، قد جردت إسبانيا - وقد كانت يومئذٍ جذباً مقفرة - من السكان بسبب الإدارة السيئة والحروب المستمرة - من طائفة كبيرة من السكان، أو بعبارة أخرى من السكان الزراعيين والتجارين والصناعيين، من السكان المنتجين، أولئك الذين يساهمون بأكثر قسط في الضرائب. وكان أقل ما في الوقت التي كانت فيه المملكة تعاني من قلة النقد، فكان نقص الذهب الفجائي على هذا النحو أشد وطأة عليها. وكذلك وقع ضرر أفدح بذيوع النقد الزائف أو المنقوص، الذي روجه المنفيون بسوء قصد قبل رحيلهم. وأسوأ ما في ذلك كله، هو أنه فقد برحيلهم العنصر العامل الذكي المتمرس في الفنون النافعة. وهم قد بدءوا بالزراعة، وزراعة السكر والقطن والحبوب، التي كان لهم في إنتاجها التفوق الجم، وذلك لنظامهم المدهش في الري بواسطة السواقي والقنوات، وتوزيع المياه بواسطة هذه الشرايين توزيعاً مناسباً، كان له أثره في الإنتاج العظيم الذي امتازت به مروج بلنسية وغرناطة؛ ثم تابعوا بنسج الأصواف والحرائر وصنع الورق والجلود المدبوغة، وهي صناعات برع الموريسكيون فيها أيما براعة، وانتهوا بمزاولة الحرف الميكانيكية، وهي حرف كان الإسبان لكسلهم وتكبرهم يحتقرونها، ومن ثم فقد احتكرها الموريسكيون واختصوا بها. وقد عانى كل شيء من نقص في السواعد وفي البراعة، وهو نقص جعلت المفاجأة من المستحيل تداركه، ثم غدا بعد ذلك ملؤه مبهظاً بطيئاً صعباً^(١).

ويقول نفس المؤرخ البلنسي الذي شهد النفي، وكتب عقب إتمامه: (أنه ترتب على ذلك أن بلنسية، وهي حديقة إسبانيا الغناء، استحالت إلى قفر جاف

(١) (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين د. محمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص ٤٢٠).

موحش. وحدث هنالك كما حدث في قشتالة، وفي باقي البلاد، أن بدا شبح الجوع الداهم؛ وبالرغم من أنه قد جرى بسكان جدد إلى الأماكن التي هجرها الموريسكيون، لكي يتدربوا على العمل في الحقول والمصانع والمعامل، إلى جانب أولئك القلائل الذين ارتضوا البقاء (وهو اعتراف مخجل بلا ريب) على أن مثل هذا التمرن لم يؤتِ نتائج سريعة، والتدرب والدأب ليسا من الفضائل التي ترتجل، ولم يكن من السهل أن يعوض مثل هذا الجنس من البشر، وهو الذي استطاع بعبقريته، ومركزه الخاص في البلاد، ووفرة براعته، وجلده، أن يحقق ما يشبه قهر الطبيعة، واستغلالها لسائر مبتكراته. وهكذا حل مكان ضجيج القرى، والصمت الموحش في الأماكن المهجورة، وبدلاً من السيل المستمر من العمال والصناع في الطرق. وإذا كان ثمة بعض السادة الإقطاعيين قد غنموا من تراث المنفيين، فقد كان عدد الذين خسروا أعظم بكثير، وبلغ الأمر بالبعض أن طلبوا نفقات للطعام. أما الذين غنموا، فقد كانوا بلا شك هم الدوق دي ليرما وأسرته، وقد استولوا على نصيب مما تحصل من بيع منازل الموريسكيين.

(ومن ثم فقد اعتبروا نفى الموريسكيين من الناحية الاقتصادية، بالنسبة إلى إسبانيا أفدح إجراء مخرب يمكن تصوره. وإنه لا يمكن أن نغض الطرف عن المبالغة التي دفعت بأحد الساسة الأجانب، وهو الكردينال ريشليو، أن يسميه (أعرق إجراء في الجراة والبربرية مما عرفه التاريخ في أي عصر سابق).

والحق أن الصدع الذي أصاب ثروة إسبانيا العامة من جرائه، كان من الفداحة بحيث إنه ليس من المبالغة أن نقول عنه لم يبرأ حتى عصرنا.

(فأما من الناحية الدينية، فقد كان هذا الإجراء، ثمرة الأفكار التي سادت في إسبانيا قبل ذلك بقرون، وثمرة البغض التقليدي المتأصل، الذي يكنه الشعب لغالييه أعدائه الألداء القدماء. وليس مما يمكن إنكاره، أنه كان مؤيداً لفكرة الوحدة الدينية، التي دأب على العمل لتحقيقها وإكمالها الملوك الإسبان والشعب الإسباني... بيد أننا لا نعتقد أنه كان من البراعة (ما عدا اعتباره صراعاً مقررًا هو

من خصائص العصور الوسطى) أن نصل إلى الوحدة الدينية بطريق إفناء أولئك الذين يعتنقون عقائد أخرى. وقد كانت البراعة أن نعمل على اجتذاب المخالفين المعاندين، بالتعاليم والإقناع، والحزم، والرفق، وتفوق الحضارة. وأما كونه إجراء سياسياً قصد به إلى تحقيق سلامة الدولة وسلامها، فقد كان ممكناً أن نبرز اتخاذه لو كانت المؤامرات حقيقية وخطيرة، وكانت الخطط شنيعة، وكانت الوسائل قوية، والخطر داهماً، وذلك كما افترض الوزير المقرب، والأسقف ريبيرا والنصحاء الآخرون. أجل لم يك ثمة شك في أنه كانت هنالك مكاتبات وعلائق ومشاريع معادية لإسبانيا، بين بعض الموريسكيين البنسنيين وبين المغاربة والترك، بل بينهم وبين بعض الفرنسيين. بيد أننا لم نقتنع بأن هذه الخطط كانت من الجسامة والخطر بمثل ما كان يصورها أنصار النفي، ولم نقتنع بأن النصاري المحدثين في بنسنية كان لهم من القوة ما يمكن أن يثير مخاوف ذات شأن، كما أنه لم يكن ثمة ما يثير المخاوف من جانب الموريسكيين في أراجون وفي مرسية، مثلما زعمت الوفود التي أتت من هذين الإقليمين، وكذلك لم يكن الموريسكيون في قشتالة يعرفون التآمر أو يقدرّون عليه. وعلى أي حال فإنه متى ذكرنا، أننا بعد مضي أكثر من قرن على قهر الموريسكيين وإخضاعهم لقوانين المملكة، وتفريقهم ومزجهم بالإسبان والنصاري، لم نوفق إلى تأليفهم في العادات والعقائد، أو أن ندمج بقية الأمة المغلوبة في الكتلة الكبرى للأمة الغالبة، ولم نوفق إلى جعلهم نصاري وإسبانيين، ثم لجأنا بلا ضرورة إلى وسيلة إفناء جيل برمته، متى ذكرنا ذلك فإننا لا نستطيع أن ننظر بعطف إلى مهارة فيليب الثالث والملوك الذين سبقوه ولا إلى حزمهم أو سياستهم).

- ويقول فلورثيو خانير، وهو يحذو حذو لافونتي في تقديره وتعليقه، وينقل بعض أقواله: (ومع ذلك، فإنه لمصلحة الدين، والسلام الداخلي، وسلامة الدولة قد وقع الإغضاء عن المزايا التي كان يسبغها الموريسكيون على الصناعة والتجارة والزراعة، بل وعلى ثروة الأمة الإسبانية كلها، وذلك حينما أخرج بواسطة مراسيم فيليب الثالث آلاًفاً من الصناع الموريسكيين، يحملون معهم بذور الحضارة

والحرث. وقد قال كامبومانس الشهير: (إن بدء تدهور صناعاتنا يرجع إلى سنة ١٦٠٩م، حينما بدئ بنفى الموريسكيين. فمن ذلك الحين، تبدأ مع خراب المصانع صيحات الأمة المتوالية؛ وعبثًا يحاول ساستنا أن ينسبوا بؤس القرن السابع عشر، إلى أسباب أخرى، فهي وإن كانت جزئية، لا يمكن أن تضارع ضربة بهذه المفاجأة، وهي ضربة لم تستطيع الأمة حتى اليوم أن تنهض من عثارها). ولقد أحدثت مزاولة العرب للمهن الفنية في الإسبان أثرين سيئين، الأول أنهم اعتبروا هذه المهن من الأمور الشائنة، والثاني أنهم لم يتعلموا شيئًا منها حتى لا يتشبهوا بأولئك الذين يزاولونها. وهم قد بدءوا بالزراعة وزراعة السكر والقطن والحبوب، التي كان للموريسكيين في إنتاجها التفوق الجم، وذلك لنظامهم المدهش في الري بواسطة السواقي والقنوات، وتوزيع المياه بواسطة هذه الشرايين توزيعًا مناسبًا، كان له أثره في الإنتاج العظيم الذي امتازت به مروج بلنسية وغرناطة الخصبة؛ ثم تابعوا بنسج الأصواف والحرائر، وصنع الورق والجلود المدبوغة، وهي صناعات برع فيها الموريسكيون أيما براعة، وانتهوا بمزاولة الحرف الميكانيكية وهي حرف كان الإسبان لكسلهم وتكبرهم يحتقرون مزاولتها؛ ومن ثم فقد كان الموريسكيون يحتكرونها، وقد وقع من جراء ذلك نقص في الأيدي وفي المهارة كان من المستحيل ملؤه في الحال، ثم غدا بعد ذلك ملؤه مبهظًا صعبًا. وقد بلغ النقص في الأنفس، وفقًا للدراسات التي قمنا بها لنتائج الحادث على الأقل نحو مليون. ثم يأتي بعد ذلك نقص العملة الذهبية، بسبب الكميات الكبيرة التي حملوها معهم من الدوقيات، وأخيرًا يأتي ذبوع النقد الزائف أو ناقص الوزن وهو الذي ملئوا به المملكة قبل نزوحهم منها، على أن الضرر الفادح الذي لم يعوض لسنين بعيدة، هو بلا ريب ما أصاب الزراعة والصناعة والتجارة في كل مكان، وحل مكان المرح صاحب القرى العامرة، الصمت الموحش في الأمكنة المهجورة؛ وبدلاً من أن ترى أمامك العمال والصناع، فإنك تغامر بأن تقابل قطاع الطرق يملئونها ويبحثون في أطلال القرى المهجورة. ولئن كان ثمة فريق من السادة الملاك الذين أفادوا من تراث المنفيين، فقد كان ثمة عدد أكبر بكثير ممن خسروا، وانتهى بعضهم إلى

الموقف المؤلم، بأن يلتمسوا من الحكومة نفقة لإطعامهم، ولم يك بينهم أحد قط ممن غنم كما غنم الدودى ليرما وأسرته، وقد استولوا على جزء من أثمان بيع منازل الموريسكيين، بلغ نحو خمسة ملايين ونصف ريال.

(وإذن فقد كان نفى الموريسكيين من الناحية الاقتصادية، يعتبر بالنسبة إلى إسبانيا، أفدح إجراء مخرب يمكن تصوره. وإنه لا يمكن أن نتسامح فى المبالغة التى يصفه بها سياسى أجنبى هو الكردينال ريشليو، حيث يصفه بأنه (أعرق إجراء فى الجرأة والبربرية مما عرفه التاريخ فى أى عصر سابق) والحق أن الصدع الذى منيت به ثروة إسبانيا العامة من جرائه، كان من الفداحة بحيث إنه ليس من المبالغة أن تقول إنه لم يبرأ حتى يومنا). بيد أن خانير مع ذلك يقول إن النفى كان ضرورة دينية وسياسية، وإن الوحدة الدينية، تغدو اليوم أسطع جوهرة للأمة الإسبانية.

- ويعلق المؤرخ الاجتماعى بكاتوسى، فى الفصل الذى عقده عن (بؤس إسبانيا العالم) فى كتابه عن (عظمة إسبانيا وانحلالها) على نفى الموريسكيين بما يأتى: (كان نفى الموريسكيين من أفدح المصائب التى نزلت بإسبانيا. أجل لقد وجد أيام الملكين الكاثوليكين بعض المتعصبين الذين كانوا يقترحون هذا النفى ويعملون له. ولكنهم وجدوا عقبة كأداة فى معارضة الملكة إيزابيلا. وفى سنة ١٥٢٩م بذل أسقف إشبيلية جهوداً مضاعفة فى هذا السبيل، وكذا طوال حكم فيليب الثانى، كان هذا الموضوع يثار من وقت إلى آخر. ولكن أمكن فقط فى عصر فيليب الثالث المحزن، أن يرتكب هذا الخطأ القادح. (والمستولية الكبرى التى تقع على عاتق هذا الملك، وعلى نصائحه وأسلافه، تتلخص فى أنهم لم يحملوا مصالح الموريسكيين المادية، فيمهدوا لتلك الطائفة العاملة، سبل الحياة المستقرة الهادئة؛ ولم يكن لهم من القوة أو الكياسة أو الحزم ما يمكنهم من إخضاع هذه الطائفة المتمردة، التى عاشت فى إسبانيا فى أوقات كانت فيها الأحقاد فى أوج اضطرابهما بين الغالبيين والمغلوبين. ولقد أثار الإسراف فى فرض الضرائب ونحس العمال، والاضطهاد الدينى، ومساوئ ديوان التحقيق، هذه الأرواح التى قابلت

حكومة ضعيفة التدبير، حتى إنه أضحى من المحتوم أن يتخذ هذا الإجراء الشاذ المتطرف^(١).

ولقد قام بعض المؤرخين ببحوث مدهشة لتقدير عدد المنفيين، ونحن لا نجاريهم في ذلك، إذ يبدو لنا العدد أمراً لا أهمية له. وسواء أكان المنفيون كثرة أو قلة، فقد كانوا هم الوحيدين الذين يعملون، وقد أحدث خروجهم من المملكة اضطراباً خطيراً.

بمثل هذه العوامل، وصل البؤس الداخلى فى المملكة إلى حد لا يمكن تصوره، ولا تمكن مقارنته، هذا بينما كان البلاط يغرق فى الحفلات الشائقة، وينسب لفيليب الثالث ما كان يمكن صدوره من فيليب الثانى أو كارلوس الخامس.

- ويرى العلامة مننديث إى بلايو، وهو من أعظم المفكرين، والنقطة الإسبانية المحدثين، أن نفى المورييسكيين كان نتيجة محتومة لسير التاريخ، ويشرح رأيه فى كتابه عن (الخوارج الإسبان) على النحو الآتى: (ولنقل الآن رأينا فى مسألة النفى بكل وضوح وإخلاص، وذلك بالرغم من أنه يستطيع أن يتكهن به من تتبع القصة السابقة، بروية وبلا تحيز، ولن أتردد فى الجهر به، وإن كان من المؤسف أن يكون ثمة ما آخر إبداءه. فهل كان من الممكن أن يقوم الدين الإسلامى بيننا فى القرن السادس عشر؟ من الواضح أن لا بل ولا يمكن أن يكون ذلك الآن فى أى جزء من أوروبا. فكيف يستسيغ وجوده فى تركيا أولئك الإنسانىون الأجانب الذين يصفوننا بالبربرية لأننا قمنا بإجراء النفى؟ وإنهم لأسوأ مائة مرة من المسلمين الخالص، مهما كان دينهم عائقاً لكل تمدن، وأولئك النصارى المنافقون، والمرتدون والمارقون، الذين لم يحسن إخضاعهم وأولئك الإسبان الأوغاد، الأعداء الداخليون، خميرة كل غزو أجنبى، الجنس الذى لا يقبل الاندماج، كما أثبت ذلك التجارب المحزنة مدى قرن ونصف. فهل يعتبر ذلك تبريراً لأولئك الذين مزقوا عهود غرناطة، أولئك الشوار الذين أضرموا الهياج فى بلنسية ونصروا

(١) (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين د. محمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص ٤٢٣).

الموريسكيين بصورة منافية للدين؟ كلا على الإطلاق. بيد أنه وقد سارت الأمور منذ البداية على هذا النحو، فإنه لم يكن من الممكن أن تكون ثمة نتيجة أخرى، فقد كانت الاحقاد والشكوك المتبادلة، تضطرم باستمرار بين النصارى القدامى والمحدثين، وقد لطخت بقاع البشرات بالدماء غير مرة وفقد الأمل فى تحقيق التنصير بالوسائل السلمية، وذلك بالرغم من تسامح ديوان التحقيق، والغيرة الطيبة التى أبداهـا رجال مثل تلافيرا، وفيلانيفا، وربيرا، وإذا فلم يك ثمة محيص من النفى. وأكرر أن فيلب الثانى قد أخطأ فى كونه لم ينفذه فى الوقت المناسب. وإنه لمن الحق أن نعتقد أن الصراع من أجل البقاء والمعارك، والمذابح بين الأجناس، تنتهى بصورة أخرى غير النفى أو الفناء. ذلك أم الجنس الأدنى ينهار دائماً، ويفوز بالنصر مبدأ القومية الأقوى. وأما أن النفى كان حدثاً مقوضاً، فهذا ما لا ننكره، فإنه من المقرر أنه فى العالم يمتزج الخير والشر دائماً وخسارة مليون بأسره من الناس، لم تكن السبب الأساسى فى إقفار بلادنا من السكان، وإن كان لها أثر فى ذلك. وبعد فإن ذلك يجب ألا يعد إلا كإحدى قطرات الماء فى جانب نفى اليهود، واستعمار أمريكا، والحروب الخارجية فى مائة مكان معاً، وعدد الجند النظاميين الضخم، وهى أسباب نوه بها كلها بإيجاز اقتصاديونا القدامى، ومنهم من لم يتردد كالحبر فرناندث ناباريتى فى نقد نفى الموريسكيين بعد وقوعه بأعوام قليلة. وما كانت بل وليست الأجزاء المقفرة من السكان فى إسبانيا، هى التى تركها العرب، كما أنها ليست أسوأها زراعة، وهو ما يدل على أن الخسارة التى لحقت بالزراعة من جراء نفى كار الزراع المسلمين، لم تكن عميقة أو باقية الأثر، كما قد يتبادر إلى الذهن، لو أننا وقفنا فقط عند عويل أولئك الذين تأملوا الحقول المجدية غداة تنفيذ أوامر النفى. ونحن أبعد من أن نعتقد مع الشاعر الساذج الشيوخى جسيار دى أجيلار، أنه لم يخسر بالنفى سوى السادة الذين فقدوا اتباعهم المسلمين وأن الكثرة من الناس قد غنمت، وغدا:

الأغنياء فقراء والفقراء أغنياء

والصغار كبارا والكبار صغارا

ذلك أن مثل هذه النظريات، وإن أملاها الإخلاص والحماسة الشعبية، اللذان يضطرم بهما الشاعر، فليست إلا من أسخف وأضل ضروب الاقتصاد السياسى. ذلك أن مملكة بلنسية كلها كان لزاماً أن تخسر، وقد خسرت برحيل مثل هذا العدد الجم من عمال مهرة هادئين مثابرين، وقد كانوا حسبما يصفهم السكرتير فرنسيسكو إدياكيث (يكفون وحدهم لإحداث الخصب والرخاء فى سائر الأرض، لبراعتهم فى الزراعة، وقناعتهم فى الطعام). هذا بينما يصف هذا السكرتير النصرارى القدماء بقوله (إنهم قليلو الخبرة فى الزراعة). وعلى أنه من المحقق أنهم تعلموا، وأن بلنسية قد عمرت فيما بعد، وأن سائر الطرق الزراعية ونظم الرى البديعة، التى ربما كان من الخطأ أن تنسب إلى العرب وحدهم، قد أحييت فى هذه المناطق حتى أيامنا^(١).

وإذا كان تدهور الزراعة مما لا ينكر، ولعله مبالغ فيه، فإن تأثير الصناعة كان أقل. ذلك لأن الصناعة كانت قبل ذلك بنصف قرن أصيبت باضمحلال واضح، وكذلك لأن الصناعات الرئيسية، إذا استثنينا الورق والحرير، لم تكن فى أيدي الموريسكيين، وقد كانوا دائماً عمالاً أكثرهم منهم صناعاً. فإذا قيل مثلاً إن المناسج التى بلغ عددها من قبل فى إشبيلية ستة عشر ألفاً، لم يبقَ منها فى عهد فيليب الخامس سوى ثلاثمائة، ونسب ذلك كله إلى واقعة النفى، فإن أصحاب هذا القول ينسون أنه لم يكن فى إشبيلية أحد من الموريسكيين، وأن هذه المصانع كانت قد تركت قبل النفى بخمسين عاماً، كأنما أثر أجدادنا أن يحققوا الشراء بالحرب فى إيطاليا وبلاد الفلاندر، وبغزو أمريكا، وكأنهم كانوا ينظرون باحتقار سخييف مؤسف للفنون والأعمال الصناعية. إن اكتشاف العالم الجديد، والثروات التى كانت تتدفق من هنالك، فتثير الجشع، وتذكى أطماعاً يسهل تحقيقها: ذلك هو السبب الحقيقى الذى أسكت مناسجنا وأمحل زراعتنا، وجعل منا أول طائفة من المغامرين المحظوظين، ثم بعد ذلك شعباً من الأشراف المتسولين، وإنه لمن المضحك

(١) (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين د. محمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص ٤٢٦).

أن ننسب إلى سبب واحد، ربما كان أقل الأسباب، ما كان نتيجة لأخطاء اقتصادية يعسر علينا أن نتبين علاقتها بالتعصب الديني.

والخلاصة أنه متى تدبرنا المزايا والمضار، فإننا ننظر إلى إجراء النفي العظيم، بنفس الحماسة التي امتدحه بها لوبي دي فيجا وثرفانتس، وكل إسبانيا في القرن السابع عشر، باعتباره ظفراً لوحده الجنس ووحدة الدين واللغة، والتقاليد. أما الأضرار المادية فقد شفاها الزمن، وقد استحال ما كان صحراء بلقع قائمة، إلى مهاد خصبة وحدائق غناء. وأما الذي لا يشفى، وأما الذي يترك دائماً هي الأحقاد الدموية الأبدية، فهي جرائم تشبه جرائم الوندال. ولما هدأت آثار النفي، أضحى النفي ليس فقط إجراء محموداً، بل كذلك إجراء ضرورياً. لم يكن ميسوراً أن تحل العقدة، فكان لا بد من قطعها، ومثل هذه النتائج تقرر دائماً بالانقلابات المفروضة).

- ويعلق العلامة الدكتور لى، وهو من أحدث الباحثين فى هذا الموضوع على آراء المفكرين والمؤرخين الإسبان بقوله: (إذا كان نفي الموريسكيين كما يقول مننديث إى بلايو، نتيجة محتومة لقانون تاريخى، وإذا كان قد غدا ضرورة فى عهد فيليب الثالث، فقد كانت ضرورة مصطنعة، خلقها تعصب القرن السادس عشر، وإذا كان وجود المدجنين، منذ أيام ملوك ليون وقشتالة وأراجون فى الأراضى الإسبانية، من الأمور المأمونة، وذلك فى الوقت الذى كان فيه زعماء إسبانيا النصرانية يشغلون بحروب أهلية مضطربة، ويواجهون دول العرب والمرابطين والموحدين القوية، وإذا كان فى وسع الملوك النصارى فى هذه العصور المضطربة، أن يركنوا إلى ولاء رعاياهم المسلمين أثناء الحرب، وأن يفيدوا من نشاطهم أثناء السلم، فإن الضرورة السياسية للوحدة الدينية، بعد أن غدت إسبانيا دولة قوية موحدة، وغدا المسلمون طوائف ممزقة، لم تكن بلا ريب سوى ضرب من الخيال المغرق الذى يخلفه التعصب، حتى دفعه توقد المزاج الإشباني إلى نهايته المحتومة باكتمال لا نظير له. ولما قضت غطرسة الكردينال خميس العنيفة، على

ثقة المسلمين فى عدالة إسبانيا وشرفها، اتخذت الخطوة المحتومة فى طريق لم تكن له سوى نهاية واحدة... ولقد كان الموريسكيون بالضرورة أعداء فى الداخل، حملوا بكل وسيلة وبكل بغض على السياسة الإسبانية، أن يعامل الموريسكيون بالرفق والتسامح، وبهما فقط يمكن العمل على إرضائهم، وتحقيق رخائهم، وبث محبة النصرانية فى قلوبهم. وقد كانت كل محاولة لتلطيف الموقف، تزيد سوءاً حتى غدوا إغراء دائماً لاتصال كل عدو من الخارج، ومشاراً دائماً لجزع السياسة الإسبانية. فلما اضمحلت قوة إسبانيا، وفقد حكامها الثقة بالنفس، لم يكن ثمة بد من أن يتوج قرن من الغدر والظلم، بالنفى والإبعاد، وقلما يقدم لنا التاريخ مثلاً، كوفئت فيه السيئة بأمثالها، وطمت كوارثه، كذلك الذى ترتب على جهود الكردينال خمينيس بما يطبعها بطابع مضطرم).

ثم يقول: (على أنه مهما كان من فداحة الضربة، فقد كان الميسور تداركها بسرعة لو أن إسبانيا كانت تملك الحيوية القوية، التى مكنت أئماً أخرى من أن تنهض من كوارث أشد. إن انحلال إسبانيا لا يرجع فقط إلى خسارتها لجزء من السكان، بنفى اليهود والعرب المنتصرين، فقد كان من المستطاع أن تعوض هذه الخسارة؛ ولكن الخطب يرجع إلى أن اليهود والعرب المنتصرين كانوا من الناحية الاقتصادية أقيم عنصر بين سكانها، وكان نشاطهم معيناً لحياة الآخرين، وبينما كانت أمم أوروبا الأخرى تنهض وتسير إلى الأمام فى مضمار التقدم، كانت إسبانيا وشعارها أن تضحي كل شئ فى سبيل الوحدة الدينية، تنحدر سراعاً إلى غمر البؤس والشقاء، وتغدو جنة للأحبار والقساوسة، وعمال ديوان التحقيق، تخمد فيها كل نزعة إلى الرقى العقلى، وتقطع فيها كل صلة مع العالم الخارجى، ويشل فيها كل جهد يبذل فى سبيل التقدم المادى. وقد كان من العبث أن تهتم ثروات العالم الجديد، إلى أيدي شعب لا تقل مواهبه الطبيعية عن أى شعب آخر، وإلى أرض كانت مواردها عظيمة، مثلما كانت حينما جعلتها براعة العرب ونشاطهم فى طليعة الأمم الأوربية ازدهاراً. ومهما كانت قيمة الخدمات التى أدتها إيزابيلا الكاثوليكية والكردينال خمينيس، فإن السيئ فى عملهما يفوق الحسن، لأنهما علما

الأمة (أن الوحدة الدينية هي أول غاية يجب تحقيقها، وقد ضحت في سبيل هذه الغاية برخائها المادى ورقبها العقلى)^(١).

وأخيراً يجمل الدكتور لى خلاصة بحثه المستفيض فى مأساة الموريسكيين فى هذه العبارة الموجزة القوية؛ (عن تاريخ الموريسكيين لا يتضمن فقط مأساة تشير أبلغ عطف، ولكنه أيضاً خلاصة لجميع الأخطاء والأهواء، التى اتحدت لتتحد بإسبانيا فى زهاء قرن، من عظمتها أيام شارل الخامس إلى ذلتها فى عصر كارلوس الثانى).

- ويقول العلامة سكوت: (لقد كانت نتائج هذه الجريمة التى ارتكبت ضد الحضارة، سواء البعيدة منها والمباشرة، ضربة لإسبانيا؛ فقد عصفت بموارد عيشها، ودفع بها القحط إلى الخراب، وأضحى من الضرورة أن تمد الحكومة يد الغوث إلى كثير من الأسر النبيلة، التى أودى بشرواتها تصرف العرش الانتحارى، وخيم الصمت والوجوم على مناطق شائعة، كان يغمرها الخصب الأخضر، وظهر اللصوص والخوارج على القانون مكان الزراع والصناع، وحل الجزاء المروع عقب مأساة لم تقدم على مثلها لحسن الطالع أية أمة أخرى، مأساة أنزلت منذ وقوعها بالأمة التى ارتكبت فظائعها، كل صنوف الدمار والويل حتى الجيل الخير).

ويقول الأستاذ محمد عنان المؤرخ صاحب كتاب نهاية الأندلس: ويمكن أن نلخص رأى النقد الإشباني المعاصر فيما سمعته من العلامة الأستاذ منديث بيدال، أعظم المؤرخين والنقادة الإشباني فى عصرنا، فقد حدثته وأنا بمديرى عن قضية الموريسكيين ونفيهم، فأدلى إلى بالآراء الآتية:

(لا ريب أن إسبانيا قد منيت من جراء نفي الموريسكيين بخسارة مادية لأنها خسرت بإخراجهم شعباً مجداً عاملاً بارعاً فى الزراعة والصناعة، ولكن الواقع أن حركة الانقلاب البروتستانتى حملت إسبانيا على أن تتبع من جانبها سياسة كاثوليكية شديدة، وكان من جراء ذلك أن اشتدت فى معاملة الموريسكيين، ويمكن أن نصف هذه السياسة بأنها كانت عنيفة مغرقة.

(١) (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين د. محمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص ٤٢٩).

ولم يكن نفى الموريسكيين خطوة موفقة، وكان أيضاً من آثار الحركة الرجعية الكاثوليكية. وما كان ملك قوى مثل فيليب الثانى ليقدّم على اتخاذ مثل هذه الخطوة، ولكن ولده فيليب الثالث كان ملكاً ضعيفاً يعوزه الذكاء والحصافة وقد غلبت السياسة الدينية والكنيسة فى هذه المسألة. ويبدو خطأ هذه السياسة بالأخص من الناحية العنصرية، فإن العلامة ريرا يعتقد مثلاً أن الموريسكيين كان نصفهم على الأقل من الإسبان الخالص الذين اعتنقوا الإسلام فى عهود مختلفة ثم أرغموا على التنصير بعد سقوط غرناطة وصاروا موريسكيين.

ويسلم الأستاذ بيدال بأن نفى الموريسكيين كان من عوامل انحلال إسبانيا، ولكنه يرى من المبالغة أن يقال إنه السبب الرئيسى لهذا الانحلال. ثم يقول: (الواقع أن هذه مسألة معقدة، وأعتقد أن من أهم أسباب انحلال إسبانيا، عنف السياسة الكنسية المناهضة لحركة الإصلاح الدينى - البروتستانتية - وهو عنف لم يقع مثله فى أى بلد أوروبى آخر بل انفردت به إسبانيا والكنيسة الإسبانية)^(١).

- ويبدى دى مارليس الذى اتخذ مؤلف كوندى أساساً لكتابه عن (تاريخ دولة المسلمين فى إسبانيا والبرتغال) حماسة فى تقدير تراث الأمة الأندلسية وما أصاب إسبانيا من جراء القضاء عليها، ويعلق فى خاتمة تاريخه على مأساة الموريسكيين فى تلك العبارات الشعرية المؤثرة:

(وهكذا اختفى من الأرض الإسبانية إلى الأبد ذلك الشعب الباسل اليقظ الذكى المستنير، الذى أحيا بهمته وجده تلك الأراضى، التى أسلمتها كبرياء القوط الحاملة إلى الجذب، فدر عليها الرخاء والفيض، واحتفر لها عديد القنوات، ذلك الشعب الذى أحاطت شجاعته الفياضة فى السعود والشدائد معاً، عرش الخلفاء بسياج من البأس، والذى أقامت عبقريته بالمران والتقدم والدرس، فى مدنه صرحاً خالداً من الأنوار، التى كان ضوءها المنبعث ينير أوربا، ويبث فيها شغف العلم والعرفان، والذى كان روحه الشهم يطبع كل أعماله بطابع لا نظير له من العظمة والنيل،

(١) (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين د. محمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص ٤٣٠).

ويسبغ عليه فى نظر الخلف، لونًا غامضًا من العظمة الخارقة، ودهانًا سحريًا من البطولة، يذكرنا بعصور هرمبر السحرية، ويقدم لنا فيهم أنصاف آلهة اليونان.

ولكن شيئًا لا يدوم فى هذا العالم. فإن هذا الشعب قاهر القوط، الذى كان يبدو أنه صائر خلال القرون، إلى أقصى الأجيال، قد ذهب ذهاب الأشباح، وعبثًا يسأل اليوم السائح الفريد، قفار الأندلس المحزنة، التى كان يعمرها من قبل شعب غنى منعم. ظهر العرب فجأة فى إسبانيا، كالقبس الذى يشق عباب الهواء، بضوئه، وينشر لهبه فى جنبات الأفق، ثم يغض سريعًا فى عالم العدم، ظهورًا فى إسبانيا فملأوها فجأة بنشاطهم وثمار براعتهم، وأظلمها كوكب من المجد شملها من البرنيه إلى صخرة طارق، ومن المحيط إلى شواطئ برشلونة. ولكن هوى يضطرم إلى الحرية والاستقلال، وخلقًا متقلبًا يميل إلى الخفة والمرح، ونسيان الفضائل القديمة، وميل نكد إلى التمرد والثورة، يشبه دائمًا خيال ملتهب، وشهوات وأطماع عنيفة، ونزعة إلى التغلب وغيرها، من عوامل الاضمحلال التى قد عملت شيئًا فشيئًا، على هدم ذلك الصرح العتيد، الذى شاده رجال كطارق وعبد الرحمن الناصر ومحمد بن الأحمر، وأفضت بالعرب إلى خلافت داخلية، قللت من بأسهم وحملتهم إلى هاوية الفناء.

خرج ملايين العرب من إسبانيا، حاملين أموالهم وفنونهم، ثروات الدولة، فماذا أنشأ الإسبان مكانهم؟ لا نستطيع أن نحيب بشيء، إلا أن حزننا خالدًا يغمر هذه الأرض، التى كانت من قبل تتنفس فيها أبهج الطبائع. إن ثمة بعض الآثار المشوهة ما زالت تقوم فى هذه البقاع الموحشة، ولكن صرخة حقيقية تدوى من أعماق هذه الأطلال الدارسة: الشرف والمجد للعربى المغلوب، والانحلال والبؤس للإسباني الظافر).

- ويقول الأستاذ لاين بول فى مقدمة كتابه عن (العرب فى إسبانيا): (لبثت إسبانيا فى أيدي المسلمين ثمانية قرون، وضوء حضارتها الزاهرة يبهى أوروبا، وازدهرت بقاعها الخصبة بمجهود الفاتحين، وأنشئت المدائن العظيمة فى سهول

الوادي الكبير، فلم يبقَ ثمة ما يذكرنا بماضيها المجيد، سوى الأسماء والأسماء فقط - وتقدمت بها الآداب والعلوم والفنون، دون سائر الأمم الأوربية، ولم تثمر وتكتمل زهرة العلوم الرياضية والفلكية والنباتية، والتاريخ والفلسفة والتشريع، إلا في إسبانيا المسلمة فكل ما يدعو إلى عظمة أمة وسعادتها، وكل ما يؤدي إلى رقي باهر وحضارة سامية، فاز به مسلمو إسبانيا.

ثم ذوت عظمة إسبانيا بسقوط غرناطة. وقد سطعت لمدي قصير أشعة من ضوء الحضارة العربية، فوق الأرض التي كان ينعشها بحرارته. ثم تضاءلت عظمة عصور فرديناند وإيزابيلا، وشارل الخامس، وفيليب الثاني، وكلومبوس وكورتيس وبيثارو، لتموت بموتها دولة عظيمة. ثم خفقت أعلام الحراب بسيادة ديوان التحقيق وسادت إسبانيا بعد ذلك ظلمة حالكة؛ فأصبح لا يعرف الأطباء بأرض كانت علومها منيرة إلا بالجهل والقصور... وقضى على فنون إشبيلية وطليلة والمرية وعفت صناعاتها، وسمحت المعاهد العامة حتى تزول بزوالها آثار الإسلام، وخربت المدائن الكبيرة، وذوت نضرة الوديان الخصبة، فحل البؤساء والدهماء والصوص مكان الطلاب والتجار والفرسان، ذلك مبلغ انحطاط إسبانيا بعد إقصائها للعرب، وهكذا يبدو البون شاسعاً بين أدوار تاريخها^(١).

نقص العمالة برحيل الموريسكيين؛

يشكل الوجود الإسلامي في إسبانيا على الصعيد الاقتصادي ظاهرة لافتة للنظر في رأى المتخصصين في ظاهرة الهجرة، ذلك أنه يختلف في ماهيته وآفاقه عن أى وجود مماثل في أى بلد أوربي آخر. فالاستقرار المعاصر لـ «الموروس» أو «الموريسكيين» (المسلمون المغاربة في اللغة الإسبانية) في إسبانيا الجديدة، هو في نظر هؤلاء «عودة» أكثر منه «هجرة».

فالموريسكيون الذين يركبون اليوم «قوارب الموت» أملاً في حياة جديدة، كانوا قد غادروا قبل أربعة قرون ونيف البلاد ذاتها في قوارب موت أيضاً، هرباً من

(١) (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين د. محمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص ٤٣٢).

محاكم التفتيش الظالمة. ولئن كانت دوافع ركوب الموت مختلفة بين الأمس واليوم، إلى الجنوب خوفاً من التعصب، أو إلى الشمال هرباً من الفقر، فإن مصير الموريسكيين يبدو واحداً في قساوته وضبابيته.

لقد جُرد الموريسكيون بعد سقوط غرناطة آخر الإمارات الإسلامية في الأندلس سنة ١٤٩٢ ميلادية من ثرواتهم وأموالهم ليصبحوا الأفقر في البلاد، فيما كانوا الأثرياء والحكام قبلها.

أما الموريسكيون المعاصرون فقد جردتهم دولهم قبل بلوغهم الأندلس، من كل قدرة على امتلاك الحق والثروة، وأجبرتهم على التماس مجرد الكفاف في البلاد القديمة التي لم تنهياً بعد لاستقبال غرباء فقراء قادمين من الضفة الجنوبية.

ولا بد لهذه القضية من دراسة متأنية تكشف عن أبعادها المختلفة حتى نرفع الحرج والضيق عن تلك الجماعة التي ظلمت قديماً وحديثاً، فهل هجرة الخلف اليوم إلى إسبانيا موطن آبائهم كهجرة السلف يوم أن هربوا منها ومن الموت المحقق على أيدي المفتشين إلى دول الشمال الأوربي وإلى تركيا والشمال الإفريقي، فمن حيث العدد، لم يبلغ المهاجرون المسلمون إلى إسبانيا حداً يهددون معه طبيعة المجتمع الإسباني. فحسب الإحصائيات الرسمية يشكل الأجانب بصفة عامة أقل من ٢٪ من مجموع سكان البلاد، أي ما يقل عن المليون نسمة، ثلاثة أرباعهم تقريباً من أبناء الأقلية المسلمة، نصفهم ينحدر من أصل مغربي، والبقية يتوزعون على عشرات الجنسيات.

وعلى نحو ما ورد في تصريح لصحيفة «نيويورك تايمز» أدلى به عبد الحميد البيوقى رئيس جمعية العمال المغاربة في إسبانيا، «فإن ٩٥٪ من مسلمي إسبانيا هم من فئة العمال المهاجرين الفقراء، ٣٠٪ من بينهم تقريباً يقيمون بشكل غير شرعى، فيما تتوزع الـ ٥٪ الباقية على مجموعة من الطلبة الذين يقيمون بشكل مؤقت، ومجموعة محدودة من رجال الأعمال والأطباء وأصحاب المهن الخاصة الأخرى، أصول غالبيتهم ترجع إلى بلاد الشام وفلسطين».

وقد هاجر غالبية العمال المسلمين إلى إسبانيا، خلال النصف الثانى من ثمانينيات القرن الماضى، وتحديدًا بعد انضمام شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال) إلى الاتحاد الأوروبى سنة ١٩٨٦، وبداية نهوض الاقتصاد الإشباني على كافة الأصعدة بفضل المساعدات الأوربية السخية التى استهدفت مساعدة مدريد على تحقيق نسب نمو عالية بما يقرب مستوى الإنتاج الاقتصادى فيها إلى المستوى الأوروبى العام.

من هذا المنطلق ارتبطت هجرة الموريسكيين الجدد إلى إسبانيا، منذ البداية وبشكل بنوى، بحاجة الاقتصاد الإشباني المتأخرة قياسًا بالحالات الاقتصادية فى أوروبا الغربية، لليد العاملة الأجنبية، غير الكفوءة والرخيصة فى غالب الأمر، حيث بدت قطاعات البناء والإنشاء والتعمير والزراعة أكثر احتياجًا من غيرها لموارد بشرية غير متوفرة محليًا، وبالتالي أكثر استيعابًا لآلاف المهاجرين من الجنوب القريب الذى توقفت عجلة نموه الاقتصادى، فى التاريخ نفسه تقريبًا وتحركت فيه العجلة الاقتصادية الإسبانية أيضًا.

وكما هو معروف عن تاريخ النهضة الاقتصادية الإسبانية الحديثة؛ فقد ارتكزت عملية التنمية على القطاع السياحى بالدرجة الأولى، حيث لم يكن عدد السياح الذين يزورون إسبانيا فى بداية السبعينيات ٥ ملايين سنويًا، بينما بلغ العدد حاليًا ما يفوق ٥٠ مليون سائح كل سنة. وقد اقتضى تحقيق هذه الطفرة السياحية من المسؤولين عن الاقتصاد الإشباني، توفير بنية أساسية سياحية ضخمة، اقتضت بناء آلاف الفنادق والمرافق والطرق والسيارة والمطارات، وكذلك إنشاء قطاع زراعى حديث يسد احتياجات ما يقارب المائة مليون نسمة بين سكان مقيمين وسياح، وهو ما يفسر النهضة الخارقة لقطاعى البناء والزراعة الإشبانيين، حيث يشتغل ٩٠٪ من المهاجرين المسلمين، الشرعيين من بينهم وغير الشرعيين.

وعلى الرغم من الانقلاب الكبير الذى شهده مستوى الدخل لدى الإسبان خلال العقدين الأخيرين فإن العنصرية البغيضة ما زالت تطل بقرنيها، إذ أصبحت اليوم إسبانيا عضوًا فى نادى دول الرفاهية، فإن عقلية وأخلاق الشارع الإشباني

ظلت في الكثير من ملامحها مرتبطة بفترة العسرة «الفرانكوية» (نسبة للجنرال فرانكو ديكتاتور إسبانيا من بداية الثلاثينيات حتى ١٩٧٥)، وقد ظهرت العنصرية البغيضة خصوصاً فيما يتعلق بالنظرة للعرب والمسلمين، فقد ورث الإسبان الديمقراطية جل مساوئ عقلية احتقار وازدراء وكرهية «الموروس» التي هيمنت على عقول إسبان الديكتاتورية من قبلهم.

لقد شكلت الأحداث العنصرية التي شهدتها بلدة «إيل إيخيدو» الأندلسية في بداية سنة ٢٠٠٠، مثلاً صارخاً على عدم تأثير النقلة الاقتصادية البينة التي عرفت إسبانيا، وعملية التحول الكبير نحو الديمقراطية، على رؤية عامة الإسبان للمسلمين خاصة، ولهاجري الجنوب عمومًا. فقد عاش ما يناهز ٤٥ ألفاً من العمال الموريسكيين الفقراء، من بينهم ١٠ آلاف مقيم بشكل غير قانوني، خلال أحداث «إيل إيخيدو»، في مطلع الألفية الثالثة، أياما عصيبة لا يمكن أن تحسب على هذا الزمن، كما وصف المتابعون، فقد كانت الأجواء خلالها أشبه ما يكون بتلك التي سادت إسبانيا زمن محاكم التفتيش، حيث حوصر المهاجرون المسلمون في شعاب البلدة الإسبانية، بعد أن نهبت ممتلكاتهم القليلة وضرب وقتل الكثير منهم، وبقيت قوات الأمن ووسائل الإعلام الإسبانية دون حراك، وكأنها تفسح المجال للعنصريين لتحقيق أهدافهم.

لقد كشفت أحداث «إيل إيخيدو» للرأي العام الأوربي والدولي، إلى جانب تسليطها الضوء عن عنصرية جزء كبير من المجتمع الإسباني، الأوضاع المعيشية المزرية التي يحيى فيها آلاف العمال المغاربة المسلمين، خاصة أولئك الذين يقيمون في ولاية الأندلس الجنوبية التي تعتبر الأفقر قياساً بباقي الولايات الإسبانية. فبالاعتماد على التقرير الاقتصادي والاجتماعي الرسمي الصادر عن الحكومة المحلية للأندلس، يعيش ٦٠٪ من مجموع ٤٥ ألف عامل مغربي يقيمون في «إيل إيخيدو»، في ظروف معيشية غاية في السوء، حيث يفتقدون للماء الصالح للشرب وللسكن اللائق، كما يفتقدون كذلك للتأمين الصحي والرعاية الطبية.

كما يشير التقرير الرسمي نفسه، إلى أن أكثر من ١٠٠ ألف عامل موريسكى يعملون في منطقة «كوستا ديل سول» الساحلية، ضمن شروط عمل قاسية، حيث يشتغل غالبيتهم في المزارع وورش البناء دون عقود عمل قانونية، وبدخل يومية لا يتجاوز ٢٥ دولاراً في اليوم، يبدو قياساً بالدخل اليومي للعامل العادي في المغرب دخلاً جيداً، لكنه بالقياس إلى المستوى الأوربي دون مستوى الحد الأدنى المحدد قانونياً.

وتبرز هذه الحقائق الحالة القانونية المتخلفة لإسبانيا قياساً بدول الاتحاد الأوربي الأخرى، «فالعمال الفقراء الذين يشكلون الغالبية داخل الأقلية المسلمة في إسبانيا، كما يشير إلى ذلك عبد الحميد البيوقى رئيس جمعية العمال المغاربة، يفتقدون إلى المساواة مع نظرائهم الإسبان، خلافاً لما عليه الوضع في بقية الدول الأوربية، كما أنهم لا يتحصلون في غالبيتهم على مسكن جيد، ومحرومون من حق الملكية والتجمع العائلى وحقوق اجتماعية واقتصادية كثيرة».

وتشير الكثير من المصادر المهمة بحقوق المهاجرين في أوربا إلى أن العمال الموريسكيين، خصوصاً أولئك الذين تحملهم قوارب الموت ويقررون الإقامة في إسبانيا بشكل غير قانونى، يعيشون في أكواخ صفيحية مزدحمة، عادة ما تكون مملوكة لأصحاب المزارع التى تقوم بتشغيل اليد العاملة الأجنبية الرخيصة.

وكانت حادثة قد جرى الكشف عنها سنة ٢٠٠١ في أرياف مدينة إشبيلية قد أزاحت الحجاب عن حالة «العبودية المقنعة» التى يحيا فيها عدد كبير من العمال الموريسكيين، حيث أظهرت تحريات لأجهزة الشرطة الإسبانية أن مالكة إحدى المزارع قد استعبدت ما يقارب من أربعين عاملاً موريسكياً، من خلال تشغيلهم بنظام السخرة في مزرعتها، وإسكانهم في أكواخ كانت تستعمل كزرائب للحيوانات، وتهديدهم بشكل مستمر بكشف أمرهم للشرطة بحكم إقامتهم غير القانونية.

لا يزال الحكم مبكراً على ظاهرة الوجود الإسلامى فى إسبانيا بحسب المهتمين بالأقليات المسلمة فى الغرب، فبالإضافة إلى ما أشير إليه من صفات الفقر والضعف والعسف القانونى التى تميز حياة غالبية الموريسكيين الجدد، فإن حداثة هذا الوجود واتسامه بالمرحلة وارتباطه بالحالة التى يمر بها الاقتصاد الإشباني تجعله مفتوحاً على كافة الخيارات، وفى الاتجاهين المعاكسين، إلى الأمام وإلى الوراء.

وفيما يعتقد البعض أن الفقر المدقع الذى يعيش فيه غالبية أبناء الأقلية المسلمة من عمال موريسكيين، يعتبر أول وأكبر المعوقات التى تقف حائلاً أمام تطور الوجود الإسلامى فى شبه الجزيرة الأيبيرية، باعتبار المال قوام الأعمال، فإن آخرين يعتقدون، خلافاً لذلك، أن إقامة الموريسكيين الجدد لن تكون على الشاكلة التى مر بها الموريسكيون القدامى الذين أجبروا على ترك بلادهم خوفاً من فرق التفتيش، فقد جاء الموريسكيون المعاصرون ليقبوا ولن تضطرهم الظروف المعيشية مهما كانت قاسية، على تركها مرة أخرى.

ويلاحظ المتابعون لظواهر اللجوء والهجرة، أن تأثير الموريسكيين الجدد على نمط الحياة فى ولاية الأندلس أصبح بالرغم من فقرهم غير قابل للإلغاء؛ ففى المدن الأندلسية الإسلامية سابقاً، كإشبيلية وقرطبة ومالقة وغرناطة عادت الكثير من مظاهر الحياة الإسلامية إلى الظهور بعد خمسة قرون، وعاد بمقدور الموريسكيين على الأقل الإعلان عن عقيدتهم والتوجه إلى مساجدهم دون خوف من ملاحقة رهبان الكنيسة.



الخاتمة (ونتايج البحث)

إن تاريخ العثمانيين ينبغي أن يعاد قراءته بمفهوم جديد حتى ندرك أهمية ذلك التاريخ ونعطى العثمانيين حقهم الضائع تحت وطأة أقلام الحانقين عليهم، والمطلوب أن يقرأ هذا التاريخ مع تاريخ الأمة الإسلامية باعتبار العثمانيين جزءاً منها بل جزءاً فعالاً ومؤثراً، ومن الخطأ البين أن يسلخ تاريخ تلك الدولة ويدرس بعيداً عن المحيط الإسلامى للأمة الواحدة؛ إذ إن ذلك المحيط هو مسرح عمليات تلك الدولة، والذي شكل تاريخ أمتنا المسلمة قرونًا طويلة وتم فيه تفاعل المسلمون فى المشرق الإسلامى وخاصة دولة الخلافة العثمانية مع إخوانهم المسلمين فى الجبهة الغربية لأمتنا المسلمة، وقامت تلك الدولة بصراعات طويلة وممتدة لتقاوم موجات الحروب الصليبية التى باتت ترى على المشرق تارة وعلى المغرب والأندلس تارة أخرى، ولم يقو على مواجهتها ومجابهتها سوى الأتراك العثمانيين، ومن هذا المنطلق فإن موضوع هذا البحث (محاولة العثمانيين إنقاذ مسلمى الأندلس) لم يفهم ولم تدرك أبعاده إلا فى إطار تلك النظرة الشمولية لتاريخ الأمة الإسلامية الواحدة.

- إن الدولة العثمانية آنذاك كانت دولة إسلامية كبرى وقد احتلت مكانها الدولى عن جدارة واستحقاق، وقد بلغت أوج القوة بجيوشها الجرارة وأساطيلها الكبرى، وهيمنت على أكثر بقاع الأرض، إذ امتلكت من قوة الردع ما أدى إلى أن تهابها أعداؤها، فكانوا يخطبون ودها حيناً أو يتآمرون ضدها حيناً آخر. وفى الحالتين كانت تخرج ظافرة بفضل سلاطينها الأقوياء، وعلى الرغم من تلك القوة الحربية التى تميزت بها، فإنها لم تتعسف، ولم تظلم الشعوب، ولم تعثُ فى الأرض فساداً، بل كانت متسامحة مع جميع الشعوب، ولا غرو فى ذلك، فهى حاملة لواء الإسلام، الذى يخفق بالرحمة والعدل، فما أبادوا الشعوب وقتلوا الأطفال والنساء كما فعل الإسبان مع مسلمى الأندلس، وكما يفعل اليهود فى فلسطين الآن، وكما عرفناه عن النصارى بتعصبهم الأعمى فى البوسنة والهرسك

وفى الصرب والجبل الأسود، حيث ارتكبوا جريمة إبادة شعب بأكمله، وقد تعلم العثمانيون ذلك التسامح من دينهم الإسلامى الحنيف، ومن حركة جهادهم فى سبيل الله، إذ نص ذلك الدين على وجوب التزام العدل والرحمة والتسامح مع الإنسان، وأدركوا أن جهاد الظلم وأهله واجب فى كل مكان، لتحرير البشرية، ولتكون كلمة الله هى العليا.

- وقد ثبت أن بعض سلاطين العثمانيين كانوا مجاهدين فى سبيل الله، وكان ولاؤهم الشديد لله ولرسوله ولأمة الإسلام، ومثالنا فى ذلك السلطان محمد الفاتح، فاتح القسطنطينية والذي بلغت قوته العسكرية أوجها، ومع ذلك كان شديد الخوف من الله، كثير التقوى، فكان يأمر جنوده بالصيام قبل الهجوم على العدو لتذكو نفوسهم، ويأمرهم بالذكر والاستغفار ويخوفهم من ذنوبهم، لأن الذنوب تحقق النصر. وقد كان -رحمه الله- مثالا يقتدى للحاكم المسلم والقائد المثالى الذى يرفع مسئولية الإسلام والمسلمين، فبعدما فتح القسطنطينية كان متسامحاً مع النصارى، فسمح لهم بإقامة شعائرهم وأمنهم على كنائسهم وطلب منهم أن يختاروا فيما بينهم (بطريقاً) يرفع شئونهم وبذلك شعروا بالأمن والاطمئنان. فهل فعل ذلك الرجل ما فعله الإسبان بمسلمى الأندلس؟ وبما لاقوه على أيدي محاكم التفتيش والتي اقشعرت لها الأجسام وتقطعت لها نياط القلوب.

- ومن الفضل الذى لا ينكر هو محاولة سلاطين آل عثمان التخفيف من وطأة الحركة الصليبية التى ضغطت على المسلمين فى الأندلس بقدر ما استطاعوا ولكن على ما يبدو أن ضغط الإسبان كان شديداً، ومقاومة أهل الأندلس كانت مقاومة ضعيفة، إذ ضعف سلطان العقيدة فى نفوسهم، وانتشر الترف الفساحش بين أغنيائهم، وبلغت المظالم أقصاها مع ضعفائهم كما تفشت المنكرات فى أنحاء كثيرة من الأندلس، فحق عليها القول، وثمت مشيئة الله كما اقتضتها سننه فى خلقه.

وكان من مجموعة السلاطين المجاهدين السلطان سليم الأول الذى تولى السلطنة عام ٩١٨هـ، وكانت الظروف الدولية آنذاك خطيرة ومعقدة، وقد شعر بحرج شديد عند سقوط دولة الإسلام فى الأندلس، على أيدي الإسبان عام

١٤٩٢م والتي صمموا بعدها على تصفية الوجود الإسلامى تماماً، ومما زاد الأمر حرجاً وتعقيداً دعوة البابا لتطويق العالم الإسلامى. وقد أثارت تلك الدعوة همم الإسبان والبرتغال لذلك الهدف، ومن ثم بات البرتغاليون والإسبان يهددون العالم الإسلامى لاستعمارهم ونهب خيراته، كما صاروا يهددون باحتلال المدينة المنورة ونهب قبر الرسول محمد ﷺ. وقد عجز حكام المماليك فى مصر والشام عن مقاومة هؤلاء الصليبيين المتعصبين، وأصبح الموقف حرجاً، ومما أدى الى إثارة العثمانيين حقاً فى هذا الصدد، هو ذلك الاتحاد والتفاهم الذى تم بين البرتغاليين والصفويين الشيعة أعداء العثمانيين، فقد اتفقوا على إقامة حلف ضدهم، ومن هذا المنطلق سارع السلطان سليم ليعمل على جمع شمل الأمة المسلمة فى وحدة إسلامية وفى كتلة واحدة ضم إليها بلاد الشام ومصر تدعيمًا لقوة المماليك، وذلك للوقوف معاً فى وجه البرتغاليين، وليتمكن ذلك السلطان أيضاً من مراقبة نشاطهم فى البحر الأحمر، وحماية المقدسات الإسلامية فى مكة والمدينة.

ومما يذكرنا بفضل هذا السلطان العظيم (سليم الأول) أنه كان يقظاً لما يخططه الأعداء وكان بعيد النظر فى حماية المسلمين من مؤامرات اليهود الخبيثة. فيروى أنه بعد فتح مصر عام ٩٢٤هـ - ١٥١٧م أصدر فرماناً يمنع اليهود من الهجرة إلى سيناء، ووضح من صدور هذا الفرمان، أن اليهود كانوا يبغون الهجرة إلى سيناء واستيطانها، على أساس أنه يضم الوادى المقدس طوى الذى كلم الله سبحانه وتعالى فيه موسى عليه السلام تكليماً. ومن ثم أصدر السلطان سليم الأول الفرمان الذى سد الطريق فى وجوه اليهود. ولما تولى ابنه سليمان المشرع عرش الدولة عام ١٥٢٠م أصدر فرماناً لاحقاً أكد فيه ما جاء فى الفرمان السابق.

وظل اليهود محرومين من تنفيذ ذلك الهدف حتى تولى الحكم سليم الثانى سنة ١٥٦٦م وكان منحرفاً وقد بدأت الدولة فى الاضمحلال فى عهده، وقد خلفه سلاطين ضعاف وكان أولهم مراد الثالث سنة ١٥٧٤-١٥٩٦م، وقد استطاع اليهود فى عهده أن يحققوا حلمهم للإقامة فى سيناء فترحوا إليها فى هجرات

متقطعة، وعلى فترات متقاربة، وكانت خططهم تقوم في المراحل الأولى على تركيز إقامتهم في مدينة (الطور). وكان اختيارهم لهذه المدينة اختياراً هادفاً. فهذه المدينة تقع على الساحل الشرقى لخليج السويس^(١) ولها ميناء يصلح لرسو السفن التجارية، وكانت تقصده سفن قادمة من ميناء ينبع وجدة وسواكن والعقبة والقلمزم والسويس. كما كانت المدينة ترتبط برياً بخطوط قوافل مع القاهرة والفرما^(٢)؛ وبذلك كان يسهل على اليهود إيجاد اتصالات خارجية فلا يصبحون في عزلة عن العالم، بل تستطيع السفن أن ترسو في ميناء الطور، تحمل أفواجاً من اليهود الجدد قد يقدمون من بلاد مجاورة^(٣).

ولعلنا ندرك من هذه القراءة مدى الخطر اليهودي المهدق بسيناء، ولعلنا مرة أخرى ندرك لماذا أصر اليهود في معاهدة (كامب ديفيد) على إخلاء سيناء من أى قوات عسكرية وفرض خطوط مراقبة من الطرفين. والمطلوب اليوم من الزعامة السياسية والعسكرية في مصر أن يعمروا سيناء بإصلاح الأراضي للزراعة وإقامة المصانع المتعددة وتشجيع الاستثمار فيها، وتسكين الشباب المسلم على جنباتها الطاهرة، ليشكل خط الدفاع الأول لمصر. وإن كان اليهود قد تركوا سيناء بموجب انتصارنا عليهم في العاشر من رمضان ووفقاً لمعاهدة السلام الخادعة، ولكن ما زالت سيناء ماثلة أمام أعينهم وما زالت هى هدفهم الرئيس اليوم، ويذكر انه قبل أن يرحلوا من سيناء أقاموا نصباً تذكاريّاً كتب عليه كما يقول الدكتور جمال عبدالهادى: (لن ننساك يا سيناء!)

وقد شهد عصر السلطان سليمان خان (سليمان الأول المشهور بالقانونى) صحوة فكرية لأمتنا الإسلامية، كان عمودها الأساسى الجهاد فى سبيل الله، إذ تمكن ذلك السلطان من فتح بلجراد والمجر وجزيرة تونس وجعل من تلك الجزيرة قاعدة عسكرية تنطلق منها الأساطيل العثمانية لصراع الأوربيين فى حوض البحر

(١) الدكتور عبدالعزيز الشناوى، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ص ٩٦٦.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٦٦٧.

(٣) (المرجع السابق).

المتوسط، وقد وصلت البحرية العثمانية أوج قوتها فى عهد ذلك السلطان العظيم، وقد التفت حوله كوكبة من أمراء البحر المسلمين والمجاهدين فى سبيل الله، أمثال عروج وأخيه خير الدين باربروسا، وحسن خير الدين باربروسا، وصالح رايى، وقلج على، وغيرهم كثيرون.

وقد تولى خير الدين باربروسا قيادة الأساطيل العثمانية، وأزعج بها قوى الصليبيين فى إسبانيا والبرتغال والخوض الغربى للبحر المتوسط، وقد تمكن ذلك الرجل من إدخال دول الشمال الإفريقى تونس والجزائر والمغرب فى وحدة مع النظام العثمانى المسلم، ولم تكن تلك الوحدة مع شعوب تلك البلاد قد فرضت عليهم قهراً، وإنما كانت وفود تلك البلاد تذهب إلى السلطان سليمان يطلبون منه الغوث، وضم جهودهم إلى جهود الدولة العثمانية للوقوف ضد الصراع الصليبي الذى تقوده إسبانيا والبرتغال.

- وقد نجح خير الدين فى وضع قواعد عسكرية وبحرية فى الجزائر لتكون خطوطاً أمامية متقدمة تساعدهم للانقضاض على سواحل إسبانيا وإعادة فتح الأندلس، من أجل ذلك اهتم خير الدين بالخوض الغربى للبحر المتوسط اهتماماً بالغاً لصد البحرية الإسبانية والبرتغالية، وإبعاد خطرهما عن المسلمين فى الشمال الإفريقى، وحتى لا يتمكن الإسبان من تنصيرهم بالقوة.

ومما يؤسف له ذلك التشهير المهين الذى ألحقه الغرب المسيحى بعروج وأخيه خير الدين حيث اعتبروهما قرصانين من قراصنة البحار، والحقيقة غير ذلك تماماً فقد كانا ومعهما كوكبة أخرى من أمراء البحر مجاهدين فى سبيل الله يعملون على إنقاذ المسلمين من الضرر اللاحق بهم من أى اتجاه، ويعملون على نصرة الجيوش والاساطيل العثمانية ضد الصليبية الغربية المتعسفة.

وقد حاولت الدولة العثمانية أن تكون علاقات قوية مع بعض دول الشمال الإفريقى إلا أنها فشلت وخاصة مع الدولة السعدية، ولكن بعد انتصار تلك الدولة على نصارى البرتغال فى معركة وادى المخازن التى شارك فيها العثمانيون بمدافعهم

الثقيلة وبعد هذا النصر تحسنت العلاقات بينهم، أما المغرب الأقصى فقد استعصى ضمه إلى العثمانيين.

وقد لعب خير الدين باربروسا دوراً عظيماً في مد يد العون والإنقاذ لمسلمي الأندلس المشردين؛ حيث استطاع أن ينقذ منهم عدداً كبيراً يعد بالآلاف ونقلهم من أرض الأندلس إلى سواحل المغرب العربي وإلى تركيا وإلى أماكن أخرى متعددة.

وقد واصل الأسطول الحربى نشاطه على سواحل البحر الإيوني ثم البحر الأدرياتي فاستولى على أفلونة، ثم حاصر جزيرة كورفو وتصدى للأسطول الإسباني بقيادة أندريا دوريا القائد الإسباني البحرى المشهور والذي تفوق على العثمانيين فى أول الأمر، ولكن سرعان ما تفوق عليه خير الدين باربروسا، كما امتد نشاط الأسطول على سواحل ديلماشيا فى البحر الأدرياتي، ومضى خير الدين يستكمل الاستيلاء على جزر بحر الأرخبيل.

وفى عام ١٤٥٣م حقق الأسطول العثماني انتصاراً بحرياً ساحقاً على الأسطول الإسباني فى معركة بريفيزا التى كان يقودها أندريا دوريا سالف الذكر وقد اتحدت فيه أساطيل الإمبراطورية الرومانية وجمهورية البندقية والباباوية، وبهذا الانتصار العظيم اكتسب الأسطول العثماني قوة ردع ورهبة فى نفوس أعدائه؛ إذ ترنح التحالف الصليبي بعد هذه الهزيمة البحرية مباشرة.

وبهذا النصر الساحق على الأساطيل الصليبية سالفه الذكر، خلا البحر المتوسط للأساطيل العثمانية، إذ بادر نشاطه للهيمنة على الحوض الغربى للبحر المتوسط، وقد حقق فى هذا الجزء نتائج عظيمة وانتصارات رائعة أزعجت جنوبى إيطاليا وصقلية وجنوب فرنسا وسواحل إسبانيا، وكان نتيجة ذلك أن اتحدت ثلاثة أقاليم إسلامية عربية مع القوة العثمانية وهى الجزائر وتونس وطرابلس، وأخذ الأسطول العثماني يستعد للانقضاض على سواحل إسبانيا لإنقاذ مسلمي الأندلس، واستردادها للحظيرة الإسلامية. وكان من نتيجة ذلك أن اشتد الصراع الدينى بين الإسلام والمسيحية فى الشمال الإفريقى، وكان يقود الصراع المسيحى البرتغال

والإسبان، ويسقود الصراع الدينى الإسلامى العثمانيون فى شمال إفريقيا، وقد أضفى البابا على هذا الصراع طابعاً صليبيّاً عنيفاً مما دفع العثمانيين إلى سياسة التوسع الإقليمى البحرى للاستيلاء على ممتلكات جمهورية البندقية وذلك ليخفف من وطأة الهجوم الصليبي على الشمال الإفريقى .

وكان من نتائج هذا الصراع أيضاً، أنه أظهر التعاون بين الأسطول الفرنسى والأسطول العثمانى ضد شارل الخامس فى عهد السلطان سليمان القانونى . وبذلك انفتحت جبهة حربية قوية للدولة العثمانية فى الحوض الغربى الذى يطل على سواحل فرنسا، وهذا يمكن الأسطول العثمانى أن يتخذ من الموانئ الفرنسية قواعد يحتوى بها، ومن ثم يتمكن من التسلل إلى إسبانيا لتحرير مسلمى الأندلس وإنقاذهم .

وإن كانت انتصارات البحرية العثمانية قد توالى فى عهد السلطان سليمان القانونى . إلا أنه مما يؤسف له أن تلك الأساطيل العظيمة قد ضعف شأنها بموت أمراء البحر المجاهدين من الكوكبة السابقة أمثال خير الدين باربروسا، وحل محلهم قواد ضعاف الهمم والحيلة من ناحية كما انشغلت الدولة بصراعات متعددة، اتسعت مساحاتها البحرية أمام الأساطيل العثمانية وانشغلت بصراعات حربية مع جيوش أوروبا التى ما فتئت تصارع الجيوش العثمانية حتى أنهكت قوى الدولة من ناحية أخرى . ومن ثم بدأ ذلك الأسطول تتوالى عليه الهزائم، وقد ظهر هذا الضعف فى المعركة التى هزم فيها الأسطول العثمانى هزيمة ساحقة وهى معركة لابانتو عام ٩٧٩هـ - ١٥٧١م، وكانت هزيمة منخبة لآمال العثمانيين، حيث اهتزت السيادة العثمانية بالبحر المتوسط، وكانت تلك الهزيمة نقطة تحول تم فيها انكسار الأساطيل العثمانية، وقد نتج عن ذلك طمع فرنسا فى دول المغرب الإسلامى، وبخاصة الجزائر، ويلاحظ أيضاً أن هذه الهزائم المتكررة التى لاحقت الأسطول العثمانى كانت بسبب توحيد البحرية الصليبية لعدة دول غربية، تحالفت فيما بينها على مقاومة الأسطول الإسلامى العثمانى، وكانت تلك الدول تسمى (بالعصبة المقدسة) التى دعا إليها البابا بيوس، وقد تكونت تلك العصبة عام ١٥٧١ من البابوية، وإسبانيا، والبندقية، وتوسيكانيا، وجنوه، وفلورانس،

وسافوي، ومانتو، وبارما، وفرسان القديس يوحنا بجزيرة مالطة^(١). وقد خرجت أساطيل تلك المدن معبأة بجنود كثيفة فكل سفينة تحمل ٥٠٠ بحار، وعددًا كبيرًا من المدفعية الثقيلة، ويقودهم نخبة قوية من قواد الأساطيل المدربين والمحنكين، وكان من جراء ذلك أن هزم الأسطول العثماني هزائم متكررة كما قلنا. وفي معركة نفارين البحرية واجه الأسطول العثماني أساطيل ثلاث دول أوربية كبرى، هي بريطانيا وفرنسا وروسيا، حيث أوقفوا نشاطه وحصلوه في عدة أماكن عاقت تقدمه أحيانًا.

وهكذا لم يتمكن الأسطول العثماني من تحقيق هدفه الذي جاء من أجله في مياه حوض البحر المتوسط وهو إعادة فتح الأندلس، فقد كانت القوى الصاعدة له تفوق إمكاناته بكثير وهي إمكانيات تتعلق بالقيادة، والمهارة الحربية، والخطط الإستراتيجية، والتموين، وغير ذلك من صفات افتقر إليها الأسطول العثماني هذا بالإضافة إلى ما كان يغزى تلك الأساطيل من تعصب صليبي كان ينخر في قلوب قوادها فلم يعرفوا سوى الهلاك والدمار والافتقار إلى النزعة الإنسانية.

إن العثمانيين الذين هزمهم ما سمعوه عن إخوانهم المعزين في الأندلس، والذين استغاثوا بهم، قد كانوا صادقين في الاستجابة لهم وفي حملة الإنقاذ التي استعدوا لها استعدادًا طيبًا، استغرق أمدًا طويلًا وبذلت في سبيله جهودًا مضيئة، حيث التقت أساطيل العثمانيين بأساطيل الإسبان والعصبة الغربية في أكثر من لقاء، وقد تمكنت دول الغرب الأوربية مجتمعة من أن تحول بين قوات العثمانيين وتحقيق هدفها في إنقاذ أهل الأندلس وإعادة فتحها، وقد سدت تلك الدول عليهم كل الطرق التي يمكن أن ينفذوا منها إلى إسبانيا، حيث دارت معارك صليبية في حوض البحر المتوسط وسطه ومغربه، وتمت هيمنتهم الكاملة على مضيق جبل طارق، كما حاولت أسبانيا والبرتغال كبح جماح ولاية المغرب الإسلامي، حيث شغلوهم بمعارك متوالية جعلتهم لا يتمكنوا من ضم جهودهم مع جهود العثمانيين، كما كان بعد المسافات والديار هي الأخرى سببًا من الأسباب التي

(١) الدولة العثمانية عبد العزيز الشناوي ص ٨٦٧.

أعاقت العثمانيين فى الوصول إلى إسبانيا، فقد كانت القيادة العثمانية فى أقصى الشرق وساحة العمليات العسكرية والهدف المنشود فى أقصى الغرب كما كان اتساع المسافة بينهم قد كلفتهم نفقات باهظة، من حيث التموين والنقل والمدفعية اللازمة وزيادة عدد قطع الأساطيل، كل ذلك كانت تكاليفه باهظة بسبب اتساع ساحة العمليات الحربية من أقصى الحوض الشرقى للبحر المتوسط الى أقصى غربه.

وإذا كان العثمانيون لم تصل أساطيلهم وجيوشهم إلى أرض إسبانيا لإعادة فتحها وإنقاذ المسلمين بها، وإعادتها إلى حظيرة الإسلام، فإن لها انتصارات فى عديد من الجوانب الأخرى مثل بعض المعارك البحرية الكبرى، كما أن لهم يدًا طويلة لا تنكر، بعد هذا العناء الذى بذلوه فقد تمكن خير الدين باربروسا من إنقاذ الكثيرين من مسلمى الأندلس، فقد وجه إلى الأندلس ٣٦ بارجة وقد كررها سبع مرات، وتحمل فى كل مرة ١٠ آلاف حتى تمكن من نقل ٧٠ ألف موريسكى عام ١٥٢٩ م.

إن سلاطين العثمانيين وجهادهم المبارك من أجل ذلك الهدف العزيز، قد بذلوا له ما فى وسعهم من طاقات على المستوى السياسى والمستوى العسكرى، ولكن لم يقدر الله لهم فتح الأندلس كهدف فى ذاته، ولكن أنجز على أيديهم أهدافًا أخرى جليلة أفادت أمتنا المسلمة فى عديد من النواحي، منها :

- إنقاذ ما يقرب من ٧٠ ألف موريسكى نقلهم خير الدين باربروسا من أراضى إسبانيا إلى الشمال الإفريقى أو إلى مصر أو إلى تركيا كما قلنا سابقًا.

- صانت عروبة دول الشمال الإفريقى تونس والجزائر والمغرب، وحافظت على عقيدتهم الإسلامية من محاولات التنصير التى قام بها الإسبان والبرتغال بمعاونة البابوية وهذا فضل عظيم يحسب للعثمانيين.

- أن العثمانيين قد استمعوا بعقول واعية وببصيرة متفتحة لشكوى إخوانهم المسلمين المعذبين فى أرض الأندلس من جراء محاكم التفتيش، وقد وعدوهم بمد يد العون إليهم، كما قام بعض الخلفاء العثمانيين بالاتصال ببعض حكام الغرب كدوق البندقية وحاكم فرنسا وغيرهما ليتوسطوا لدى نصارى إسبانيا وقشتالة ليخففوا الوطأة عن هؤلاء المسلمين.

- أظهر العثمانيون روح التسامح مع الشعوب الأوربية التي افتتحوها وعاملوا أهلها بكل رأفة ورحمة وقد خيروهم بين الإسلام ودفع الجزية، فمن رفض الإسلام فرضت عليه الجزية، وترك على ديانتهم، ولم يثبت في تاريخهم أنهم أكرهوا أحداً على ترك دينه أو عقيدته بل قاموا بحماية كنائسهم وبيعهم وأراضيهم نظير تلك الجزية، التي فرضوها عليهم وهذا عكس ما فعله الإسبان في مسلمي الأندلس؛ إذ صمموا على تنصيرهم قسراً متبعين العنف من قتل وتعذيب وتشريد، وقد بلغ تسامح العثمانيين مبلغاً كبيراً مع أهل الذمة، فلك أن تتصور أن الأتراك قد فتحو أبواب دولتهم لليهود الذين طردوا من الأندلس، وقد استقر منهم الكثيرون في تركيا، وقد بلغ بهم الحقد غايته، إذ تأمروا مع حركة الاتحاد والترقي وسعوا إلى إسقاط الخلافة الإسلامية في تركيا، وهؤلاء اليهود هم المعروفون في التاريخ بيهود الدونمة.

- كما نعتزف بفضل السلاطين العثمانيين في تأمين حدود ديار الإسلام مصر والشام والعراق، وتأمين الأماكن المقدسة الإسلامية، وتأمين الحرمين الشريفين من أن تمتد إليها يد العبث والغدر ومحاولاتهم الآثمة بنش قبر الرسول ﷺ.

إن الدولة العثمانية المسلمة التي أدت واجبها أمام الله وأمام شعوبها على خير ما يكون قد واجهت العديد من حملات التشويه والتشهير للنيل من مقدار تلك الدولة ومن سلاطينها المسلمين وحكومتهم الإسلامية. وقد شارك في هذه الحملات، الحانقون على الإسلام من رجالات الحكم والسياسة والدين في أوروبا، كما أسهم فيها أيضاً المؤرخون، والباحثون من اليهود والنصارى في بحوثهم وكتاباتهم المتعددة، وترجع أسباب تلك الحملات ضد الدولة العثمانية، أنها كانت أول دولة إسلامية في التاريخ استطاعت أن تفتح الجزء الجنوبي الشرقي في أوروبا. وكانت تحارب في أول الأمر في جبهتين في وقت واحد: جبهة الأناضول للقضاء على الدول المسيحية والكيانات المسيحية المتناثرة وقتذاك في شبه جزيرة الأناضول، وجبهة أخرى أوربية بعد أن عبرت جيوشها البحر إلى أوروبا، وانتقلت من نصر إلى

نصر تكتسح الأقاليم الأوربية، وتنساب غرباً في سهول المجر وتدخل عاصمتها بودابست، وتقترب من مشارف فيينا عاصمة النمسا.

وإذا كانت قد طويت صفحة الحكم الإسلامى فى الأندلس بعقد معاهدة غرناطة عام ١٤٩١م فإن الدولة العثمانية قد استبدلت بهذه الهزيمة انتصارات إسلامية مؤزرة على أرض القارة الأوربية، وحوض البحر المتوسط، وشمالى إفريقيا، حيث نشب صراع صليبي عنيف حمل لواءه البرتغاليون والإسبانيون، وابتغوا من ورائه الاستيلاء على أقاليم شمالى افريقية وتحويل سكانها إلى المسيحية، ولكن وقفت تركيا لهم بالمرصاد وحالت دون تحقيقهم لهذا الهدف.

هذه النتائج التى ذكرناها هى النتائج المباشرة المتعلقة بموضوع البحث من حيث تقييم دور العثمانيين فى إنقاذ مسلمى الأندلس.

ولكن الأهم من ذلك هى تلك النتائج المترتبة على النظرة الشمولية لحركة الأمة المسلمة بأكملها وحركة العثمانيين وجهادهم المستمر فى تاريخ الإسلام غير منفصل عن تاريخ حركة الأمة ونشاطها فى نظرة شمولية متكاملة، ومن خلال هذا المنطلق سيبرز ويتضح وفق تلك النظرة الشمولية أن للعثمانيين مزايا عديدة لا يصح أن نجحدها أو ننكر فضلها وبجانب هذه الإيجابيات والمزايا يوجد بعض السلبيات والثغرات. وإليك عرض تلك النتائج على صعيد النظرة الشمولية لتاريخ أمتنا المسلمة آنذاك:

أولاً: المزايا والإيجابيات:

١- توسعة رقعة الأرض الإسلامية، ويكفى أن نذكر فتح القسطنطينية والتقدم فى أوربا. لقد فتح العثمانيون القسطنطينية، إذ عجز المسلمون من قبلهم عن ذلك منذ أيام معاوية بن أبى سفيان -رضى الله عنهما- عام ٥٠هـ حتى تم الفتح على أيدي العثمانيين عام ٨٥٧هـ، أى أنه مضى أكثر من ثمانية قرون والمسلمون يعجزون عن

هذا الفتح، ويكفى أن نذكر حديث رسول الله ﷺ: «لنفتحن القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»^(١) وتقدموا في أوربا، وساروا فيها شوطاً بعيداً، حتى وقفوا على أبواب فيينا وحاصروها أكثر من مرة، وهذه البلاد لم تطأها أقدام المسلمين من قبل، والمسلمون الموجودون في تلك البقاع اليوم يرجع أكثرهم إلى آثار ذلك التقدم.

٢- الوقوف في وجه الصليبيين على مختلف الجبهات، فقد تقدموا في شرقي أوربا ليخففوا ضغط النصارى الإسبان والبرتغاليين ومن ورائهم أوربا عن المسلمين في الأندلس، وإن لم يكن هذا التقدم واضح الأثر لبعد الشقة، ولضعف المسلمين في الأندلس آنذاك الذين لم يستفيدوا من الدروس التاريخية التي حلت بهم وبمن سبقهم في الأندلس، وكذلك لضعف العثمانيين الذين لم تقو شوكتهم بعد، ولم ينتهوا من هجمات تيمور لنك، والإمارات الأخرى المجاورة لهم، كما أن أساطيل العثمانيين كانت لا تزال في أول عهد لها ولا يمكنها أن تخوض معارك بعيدة، وإن كانت الدولة العثمانية قد قدمت في هذا المجال شيئاً في البحر المتوسط إلا أنه كان محدوداً لا نستطيع أن نبرزه أو أن نعطيه أكثر مما يجب. وعندما زادت قوة الدولة العثمانية في أيام محمد الفاتح، ودخل القسطنطينية عام ٨٥٧ كانت دولة بنى نصر في غرناطة تلفظ أنفاسها الأخيرة، وقد مزقتها الخلاف بين الأمراء، واستنصار كل أمير بطاغية النصارى حتى تفرقت كلمتهم. وأخيراً سقطت غرناطة عام ٨٩٨ أي بعد أربعين عاماً من فتح القسطنطينية.

وقد وقفت دولة العثمانيين في وجه أكبر موجة للاستعمار الأوربي، وعندما سقطت غرناطة بأيدي النصارى، وتقرر طرد المسلمين من الأندلس، وسار الإسبان نحو الغرب في سبيل الوصول إلى المشرق لحصار المسلمين، انطلق البرتغاليون أيضاً نحو الجنوب للغرض نفسه، والتفوا حول إفريقية ووصلوا إلى جنوبى الجزيرة العربية يحملون معهم الروح الصليبية، عندها وفي ذلك الوقت تماماً ترك العثمانيون

(١) رواه أحمد في مسنده (٣٣٥/٤) والحاكم في مستدركه عن أبي عبيدة بشر الغنوى الخعمرى.

مواقعهم في أوروبا واتجهوا نحو الشرق فقاتلوا الصفويين الذين يدعمون البرتغاليين، وطلبوا منهم تشكيل حلف للوقوف في وجه العثمانيين، وامتدت ساحة القتال بين العثمانيين والبرتغاليين في البحر الأحمر، وعدن، وحضرموت، وعمان، والخليج العربي وكانت كل جبهة يفتحها البرتغاليون كان العثمانيون يسارعون للوقوف في وجههم ويحولون دون بقائهم بها، ويجب ألا ننسى في هذا الصدد، أن السكان هم الذين كانوا يطلبون من العثمانيين حمايتهم أو يدعونهم لتسليمهم بلادهم من أجل الدفاع عنهم. وقد وصل العثمانيون في دفاعهم عن ديار الإسلام إلى الهند حيث طلب المسلمون هناك دعمهم ومساعدتهم ضد الصليبيين من البرتغاليين. وهكذا كان للعثمانيين آنذاك دور كبير في إنهاء النفوذ البرتغالي من بلاد المسلمين.

كما أن الإسبان قد امتد نفوذهم في البحر المتوسط بعد سقوط غرناطة، وبدأت هجماتهم على المرافئ الإسلامية والنزول فيها مثل طرابلس، تونس، والجزائر ووهران غير أن العثمانيين كانوا أيضاً قد امتد نفوذهم إلى بلاد الشمال الإفريقي برأ بعد دخول مصر وبعراً بعد انضمام عروج وأخيه خير الدين باربروس إليهم وإعلان الأخير أن الجزائر ولاية عثمانية، ومنذ ذلك الحين وقف العثمانيون وجهاً لوجه أمام الصليبيين الإسبان.

ومن جهة الشمال انطلق العثمانيون إلى شمال البحر الأسود ودعموا التتار المسلمين ضد الصليبيين من الروس، واستمروا على تلك الجبهة عدة قرون، وقد شملت مساحات واسعة امتدت من شرقي أوروبا حتى بلاد الداغستان على شواطئ بحر الخزر الغربية وتجاوزتها أحياناً إلى أواسط آسيا، حيث اشتد الصراع بين المسلمين والروس أيضاً. وبهذا يكون وقوفهم في وجه الصليبيين المستعمرين من جهات كثيرة متعددة، أو أن جبهات فتحت عليهم وتصدوا لها من مختلف الجهات حتى أنهكت قواهم.

وقد يتبادر لنا سؤال من أرض الواقع آنذاك: لماذا لم يوفق العثمانيون في أغلب المواقف بل حلت بهم الهزائم من كل ناحية وبخاصة في الفترة الأخيرة من تاريخها؟

بلا شك أن العثمانيين قد بذلوا جهدهم كله، وعملوا بإمكاناتهم كلها، وعليهم السعى وليس بأيديهم إدراك النجاح والظفر، وإنما هو خارج أراذلتهم، والمهم أن النية كانت صادقة والبذل كان قائماً. والهزيمة ليسوا مسئولين عنها وحدهم، وإنما هي مسئولية المسلمين كلهم، أى مسئولية الأمة المسلمة جميعاً من حيث التعاون، والتكافل، والنفير العام، والإعداد الكامل، فنحن نتحمل جزءاً من هذه المسئولية ويجب ألا نلقى العبء على غيرنا، ونجرد أعلامنا وألستنا للنقد والتجريح وجلد الذات الإسلامية الواحدة لأننا أمة واحدة.

وقد بدأ العثمانيون جهادهم بقوتهم الذاتية فى أول الأمر حيث جمعوا قوات إماراتهم المنتشرة فى الأناضول والتي كان يزيد عددها على العشرين إمارة، فأصبحت قوة فى وجه البيزنطيين بعد أن كانت موزعة وفتحوا القسطنطينية، وتقدموا فى أوروبا، وانتصروا على الروس، وأجلوا الإسبان عن أكثر المرافئ الإسلامية التى نزلوا فيها على سواحل البحر المتوسط، ومنعوا من تسرب النفوذ البرتغالى إلى الداخل، وكان لهم الباع الطويل فى إنهائه، وهذا كله عندما كانوا أصحاب قوة، ولكن تبدلت هذه المواقف عندما ضعفت قوتهم. فبدأت الانتصارات تنقلب إلى هزائم وتراجع، وربما نكون نحن العرب أحد أسباب الضعف الذى حل بالعثمانيين سواء أكان ذلك بالحركات الداخلية السرية والعلنية، أم بالافتتان بأوروبا، أم بعدم دعم الدولة بشكل قوى، ولا أبرئ ساحة العثمانيين فى هذا الميدان، فقد فتن بعضهم بأوروبا كما أصابنا نحن هذا الافتتان، وهبت على بلادهم روح القومية كما هبت علينا فأذلتهم مثلنا أو أذلت المسلمين جميعاً.

٣- ومن أهم أعمال العثمانيين أنهم عملوا: على نشر الإسلام، وشجعوا على الدخول فيه، وقدموا الكثير فى سبيل ذلك، وقد نجحوا إلى حد كبير فى كسب أكثر قبائل الشركس إلى الإسلام. إذ كانوا يشجعون جنودهم على الزواج من الفتيات الشركسيات لكسبهن إلى الإسلام ثم جذب آبائهن إلى ذلك، ورغم ما فى ذلك من بعض المخالفات المصلحية على الأقل إلا أن نجاحهم كان كبيراً فى تلك الجهات، وقد أظهر الشراكسة تفهماً كبيراً، وأقبلوا على الإسلام، وتعلم القرآن

الكريم. كما نجحوا في كسب قبائل الشاشان، غير أن نجاحهم كان أقل قليلاً مع قبائل القوشحة (الأوستين) وكذلك كسبوا مجموعات من تلك الشعوب المنتشرة بين البحر الأسود وبحر الخزر.

كما عملوا على نشر الإسلام في أوروبا في البلدان التي وصلوا إليها، وإن كان نجاحهم قليلاً إلا أنهم عملوا على إسكان أعداد من المسلمين في تلك البلدان كي يؤثروا في المجتمعات التي يعيشون بينها، وقاموا بالأمر نفسه في المناطق الإفريقية التي دخلوها، والتي كانت بعض شعوبها لا تزال على الوثنية مثل بعض شعوب تشاد، والسودان، والصومال.

٤- إن دخول العثمانيين إلى بعض الأمصار الإسلامية قد حماها من بلاء الاستعمار الذي ابتليت به غيرها، على حين أن المناطق التي لم يدخلها العثمانيون قد وقعت فريسة للاستعمار باستثناء دولة المغرب التي لم تخضع للعثمانيين، ومع ذلك لم يدخلها المستعمرون إلا قبيل الحرب العالمية الأولى فالهند، وأندونيسيا، وماليزيا دخلها المستعمرون من إنجلترا، وفرنسا، وهولندا كما دخل الروس إلى أواسط آسيا.

وكلما كانت الأمصار بعيدة عن قلب الدولة العثمانية أو قاعدتها في الأناضول كلما كان الاستعمار أسرع إلى تناولها، وكلما كانت أكثر قرباً بقيت في حماية العثمانيين نسبياً، ومثال ذلك الجزائر التي خضعت للاستعمار قبل تونس، وتونس قبل ليبيا التي تأخر استعمارها عن استعمار مصر آنذاك، وذلك بسبب موقع مصر الخاص بها، فقد جر عليها كثيراً من المتاعب، وسبب الكثير من المشكلات مع المستعمرين وتأخر استعمار بلاد الشام والعراق بسبب قربها من الأناضول، فما دخلها المستعمرون، إلا في نهاية الحرب العالمية الأولى، وهزيمة الدولة العثمانية، وخروجها من الساحة، أو بالأحرى حتى انتهت وزالت عن الخريطة مع زوال الخلافة الإسلامية، على أيدي رجال الاتحاد والترقي، الذين سعوا إلى إسقاطها بالتآمر مع الإنجليز عام ١٩٢٤م.

٥- ولعل من أهم الأعمال الجليلة أيضاً والتي صانت مكانة الأمة المسلمة

آنذاك، أن الدولة العثمانية كانت تمثل الأمصار الإسلامية وتنوب عنها، فهي مركز الخلافة، ولا يوجد سوى خليفة واحد في ديار المسلمين، إذ لا يصح وجود خليفتين أو أكثر في آن واحد، لذا كان المسلمون في كل مكان ينظرون إلى الخليفة نظرة احترام وتقدير، ويعدون أنفسهم من أتباعه ورعاياه، وبالتالي كانت نظرتهم إلى مركز الخلافة نجد صداها في الأمصار الإسلامية كلها، بل نجدها أيضاً بين الجماعات غير الإسلامية التي تعيش كأقليات في دول غير إسلامية فعندما ألغيت الخلافة ثارت ثائرة المسلمين في كل بقعة في العالم حتى أطلق اسم الخلافة على كثير من الحركات والمؤسسات، وخاصة في جنوب شرقي آسيا، ولا تزال الجامعة العثمانية في حيدر آباد بالهند تحمل هذا الاسم حتى يومنا هذا.

فهذا الإحساس بثقل الخلافة لم يأت من فراغ، وإنما عاشه المسلمون تجربة واقعة، فكلما وجد المسلمون أنفسهم في ضائقة، طلبوا الدعم من مركز الخلافة، بل إذا رغب أحد الحكام من غير المسلمين نشر الإسلام في بلاده، أو فتوى عن أمر يتعلق بأحد رعاياه، طلب ذلك من الخليفة باعتباره المرجع الرئيسي والشرعي، وقد يتداعى إلى الذهن هنا طلب إمبراطور اليابان من السلطان عبدالحميد إرسال عدد من علماء المسلمين إلى اليابان لنشر تعاليم الإسلام كما يروى الأستاذ محمود شاكر في موسوعته التاريخية.

وكانت الخلافة العثمانية تضم أكثر أجزاء البلاد الإسلامية فهي تشمل المنطقة العربية كلها باستثناء المغرب إضافة إلى شرقي إفريقية وأجزاء من تشاد، كما تضم تركيا أكثر بلاد القوقاز مع ما شملته من بلاد التتار في شمال البحر الأسود، وقبرص، وما أخذته من أوروبا، وقد تكون مساحة تلك المناطق قد زادت على ٢٠ مليون كليومتر مربع، وما خرج عن دائرتها من الأمصار الإسلامية التي كانت يومذاك سوى جنوب شرقي آسيا والمغرب. (ومراكش) وأواسط آسيا، وإيران، وبلاد الافغان^(١).

٦- أما عن أسباب عداة الأوروبيين للعثمانيين فهو سبب رئيس عقدي لم يغفل

(١) محمود شاكر. مرجع سابق.

الأوروبيون عنه أبداً، إذ كانوا يقاتلون العثمانيين على أنهم مسلمون لا بصفتهم أتراكاً، ويقفون في وجههم بحقد صليبي، إذ إنهم أحيوا الروح الإسلامية القتالية من جديد، وإنهم أثاروا الجهاد بعد أن خمد في النفوس مدة من الزمن، كما رأى الغرب فيهم أيضاً مدافعاً إسلامياً جديداً، بعد أن ضعف المسلمون ضعفاً شديداً، وقد عز على أوروبا أن العثمانيين قوة اخترقت عليهم بلدانهم من الشرق بعد أن عجز المسلمون سابقاً عن هذا، وقد قضوا على الدولة البيزنطية إحدى قواعد الدول النصرانية والتبشير المسيحي، وتقدموا في بقية أوروبا النصرانية التي كادت تركع أمامهم، ويرى الغرب فيهم أيضاً أنهم هم الذين وقفوا دون انتشار النصرانية لأنهم وقفوا في وجه أتباعها في كل مكان، وحاولوا دون امتداد التبشير ومد النفوذ الاستعماري الصليبي وطلائعه من البرتغاليين، ومنعوا وصولهم إلى القدس وسيطرتهم عليها وعلى الأماكن المقدسة الإسلامية في مكة والمدينة، وحالوا دون تقدم الأحباش واتفاقهم مع أوروبا صليبية.

أما روسيا العدو الأكبر للعثمانيين فإنهم اعتبروا أن العثمانيين هم إخوان التتار، في العقيدة، وإخوانهم في العصبية، وهم مسئولون عما فعله التتار سابقاً سواء أكان ذلك قبل أن يدخلوا الإسلام أم بعد إسلامهم، وترى فيهم الآن دعماً لأولئك التتار ومساعدة لهم، بل يحولون دون تقدم الروس في بلاد التتار. كما يعتقد الروس أن العثمانيين أعداء ألداء لهم، فقد قضوا على الدولة البيزنطية مركز المذهب النصراني الأرثوذكسي وقاعدته وحمائته، وهو المذهب الذي تدين به روسيا. وترى فيهم فاتحين للقسطنطينية وأنهم حولوها من مدينة نصرانية إلى مدينة إسلامية بل صار اسمها إستانبول (بلد الإسلام)، ومن أسباب العداء الأخرى أن العثمانيين يحولون دون تقدم الروس نحو الجنوب نحو المياه الدافئة حيث تتجه أنظار الطامعين كلها إلى تلك الجهات، وترى فيها الجنان التي ستدر عليهم المال والنصر والسياسة.

ومن أسباب العداء أيضاً أنهم يملكون في أيديهم مفاتيح الطرق البحرية، وهي مضائق البوسفور والدردنيل، وترى فيهم سداً منيعاً يحول دون تقدم الروس نحو

الشرق في بلاد التتار وفي أواسط آسيا حيث بلاد الأتراك وكلاهما من المسلمين، ويتلقون دعمًا من العثمانيين على أنهم مسلمون ذو قومية تركية واحدة، فالعثمانيون إذن أعداء عقيدتين، وأعداء سياسيتين في نظر الروس، وإن كانت السياسة تنبع من العقيدة، ولولا العقيدة لو هن الجانب السياسى، وعلى هذا فالعداء بين أوروبا عامة والروس خاصة عداء دينى قبل كل شىء، ولا يزال الأمر حتى الآن رغم تغير النظام الروسى جذرياً، وزوال الدولة العثمانية. غير أن الإسلام ما زال باقياً وممتداً إلى يوم الدين رغم الحقد الصليبي.

٧- كانت للعثمانيين بعض الأعمال الطيبة والتي إن دلت على شىء فإنما تدل على صدق عاطفتهم وإخلاصهم للإسلام والمسلمين، مثل عدم قبول النصارى فى عداد جيشهم، وإعفاء طلبة العلم الشرعى من الجندية الإلزامية، وتعيين إمام لكل كتية منفصلة، ولا يزال أكثر هذه الأعمال قائماً إلى الآن فى تركيا رغم العلمانية التى سلكتها الدولة التركية الحديثة منذ أيام مصطفى كمال وإلى الآن، ومن ذلك أيضاً إصدار المجلة الشرعية التى تضم فتاوى العلماء فى القضايا المهمة التى تحدث فى نواحي الدولة المختلفة كلها.

- كما كان للعثمانيين دورهم فى بعض بلاد أوروبا، إذ قضوا على نظام الإقطاع، وفتحوا السجون التى كانت تضم المسجونين إلى الأبد لغضب سادتهم عليهم أو لسبب تافه ليس بأفضل من ذاك. وأنهموا مرحلة العبودية التى كانت تعيشها أوروبا حيث يولد الفلاح عبداً وينشأ كذلك ويقضى حياته فى عبوديته لسيده مالك الأرض التى يعمل بها.

ثانياً: العيوب والسلبيات:

ما ذكرناه سابقاً كان أهم مزايا الدولة العثمانية المسلمة وإيجابيتها المتعددة وكما كان لهذه الدولة مزاياها فإن لها سلبياتها فى نواحي متعددة ولكن للإنصاف والعدل ينبغى ألا نحمل العثمانيين وحدهم تبعة هذه الثغرات والسلبيات، فالعالم العربى والإسلامى كله يتحمل مسئولية هذا التقصير باعتبار العرب والعثمانيين

وسائر المسلمين أمة واحدة، ولعل من أهم سلبات الخلافة العثمانية، والتي كان لها أثر في إضعاف الحكم ما يأتي:

١- إهمال اللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وهما المصدر الرئيسى للتشريع، وعدم معرفتها المعرفة الجيدة يسبب عدم الفهم الصحيح لأحكام الإسلام، وكان يجب الاهتمام بها اهتماماً بالغاً، ولكن كان الاتجاه نحو اللغة التركية أكثر منه إلى اللغة العربية بصفة أن الخلفاء والحكام يجيدون التركية وهم من أبنائها، وفي هذا جهل لأن العربية لغة الإسلام، وصحيح أن بعض السلاطين أو الخلفاء سعوا وعملوا على إقامة المدارس باللغة العربية، واهتموا بالعلم الشرعى إلا أن ذلك كان دون المستوى المطلوب وأقل مما يجب أن يكون بكثير، وكان على الخلفاء أن يتعلموا هم اللغة العربية ويشجعوا عليها ومع عدم تعلم اللغة العربية قل الفهم الصحيح، وساد الجهل وخاصة في الأمصار التي لا تتكلم العربية، فأدى هذا إلى الضعف والتأخر العلمى.

٢- فقدهم الوعي الإسلامى الصحيح؛ إذ كان كثير من المسئولين لا يعرفون من الإسلام سوى العبادات، لذا كانوا يحرصون عليها وعلى تأديتها، ويقىمون الاحتفالات ببعض المناسبات، وهذه الاحتفالات ليست واردة وقد لا يكون لها أصل فى الإسلام، كما أنهم كانوا يحرصون على الأذكار، ثم على الذكر التقليدى للمتصوفة والانصراف أحياناً الى ذلك انصرافاً تاماً، وهذا ما أدى إلى انتشار الطرق الصوفية غير الصحيحة شرعاً، ومع هذا الانتشار حدث التواكل وعدم السعى فى الأرض وإضعاف فكرة الجهاد فى سبيل الله، وعدم الإنتاج، والتكاسل عن مناهضة الأعداء وبسبب هذه الأمور بدأ الضعف ينخر فى الدولة.

٣- ومن السلبات حرص العثمانيين على تغيير الولاية باستمرار وخاصة فى أواخر عهدهم، ويعود ذلك على حسب تقديرهم إلى أن الوالى إذا استمر فى ولايته مدة طويلة، فإنه يصبح على صلات وثيقة بالناس، وربما استغل منصبه هذا فى الحصول على بعض المنافع، كما أن نفسه قد تحدت بالاستقلال بالولاية عن الدولة العثمانية، وقد اكتسبوا هذه التجربة، مما حدث لهم فى السابق، على أيدي

حكام الولايات الخاضعة للدولة والمترامية الأطراف وقد نتج عن عدم الثقة بالوالي، انتشار الفقر ورغبة المسؤولين في الحصول على المال. كما أدى إلى انتشار الفوضى وتراكم المشكلات؛ حيث إن الوالي الجديد لا يعرف شيئاً عن الولاية التي أتى إليها وربما لأول مرة فلا يستطيع أن يتعرف على السكان ومشكلاتهم، وأوضاعهم، وما يعانون، منه أو ما فيه صلاحهم، فإذا تم له ذلك واران العمل والاصلاح فسرعان ما يتم نقله إلى ولاية ثانية، ويأتى آخر ليقوم بالدور نفسه، وهذا بطبيعة الحال يؤدي إلى عدم الإصلاح وإلى التأخر وسوء الأوضاع في الإدارة عامة.

٤- ومن السليات أيضاً التي وقع فيها سلاطين العثمانيين وقد يشاركهم بعض الحكام المسلمين في ذلك هو زواجهم من الأجنبيةات الكتائيات وهذا الزواج جائز ولكن ليس فيه مصلحة وخاصة إن بقيت تلك الزوجة على دينها، فإن هذا الزواج فيه منافسة للمسلمات اللاتي ييقين بلا أزواج فكثر بذلك عنوسة البنات، وفيه أثر كبير على تربية الأولاد، التربية الإسلامية الصحيحة، وربما كانت هذه النساء ضرراً على الدولة لاتصال أبناء عقيدتها بها وأخذ ما عندها من أسرار الدولة وخاصة إذا كانت الحرب قائمة بين الطرفين، وأصعب الأمور إذا كان هذا الزواج من عليّة القوم، وربما كانت هذه النساء لا تستطعن التأثير على أبنائهن في التربية لأنه يتربى في مدارس إسلامية وعسكرية كما ذكرنا ويخرج بصورة لا يلتفت معها إلى أمه، وهو يعلم ماضيها، إلا أن هذا لا يمنع من إمكانية التأثير عليه في بعض الجوانب، والحصول على بعض الأسرار، أو التأثير على بعض رجالات الدولة بصفقتها والدة السلطان أو الخليفة. ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد بعث كتاباً إلى حذيفة بن اليمان رضى الله عنه، بعدما ولاة المدائن. (بلغنى أنك تزوجت امرأة من أهل المدائن من أهل الكتاب، فطلقها)، فكتب إليه: (لا أفعل حتى تخبرنى أحلال أم حرام؟ وما أردت بذلك؟) فكتب إليه: (لا بل حلال، ولكن في نساء الأعاجم خلافة، فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نساءكم) فقال: الآن فطلقها^(١).

٥- وأن الحكم الوراثي الذي سلكه العثمانيون في الحكم غير مقبول من وجهة النظر الإسلامية، ولكن سبقهم إلى ذلك الأمويون، والعباسيون، وكلهم مخالف. وإن احتج بعضهم بصعوبة اجتماع أهل الحل والعقد. والمستوى الذي آلوا إليه، وصعوبة اختيار الخليفة، والظروف التي تعيشها الأمة والتي قد تعرضها لهزات عنيفة قد تبدو في أثناء التطبيق، فالخوارج الذين بقوا يقاتلون الأمويين والعباسيين، وينتقدون الحكم الوراثي ساروا عليه في كل دولهم التي أنشئوها سواء أكان ذلك في المغرب أم في المشرق، وسواء الأباضية منهم أم الصفوية، إذ وجدوا في أثناء التطبيق خلافاً لما ينادون به نظرياً. ومع هذا فتبقى الحجة واهية، ولا يمكن الاستناد عليها.

٦- إعطاء العسكريين أكثر من حقهم سواء أكانوا من الإنكشارية أم من السباهية فقد تسلطوا واستبدوا وبدءوا يتدخلون في الحكم ففسد، وأصبحوا أداة في وجه الإصلاح الحقيقي لما لهم من نفوذ وما يملكون من قوة، كما أصبحوا سبب الفوضى والمفاسد بسبب سوء تصرفاتهم.

٧- إن الضعف الذي آلت إليه الخلافة العثمانية وخاصة في أواخر عهدها قد أطمع فيها أعداءها الأوربيين، فقامت أوربا كلها تحاربهم بروح صليبية فالروس من الشمال، والنمسا من الغرب، والإمارات الإيطالية، وفرنسا وإنجلترا في البحار والمحيطات، وتنزلان جنودهما في الموانئ الإسلامية والبلدان التي تخف عنها قبضة العثمانيين أو البعيدة عن مركز الدولة، وقد تختلف الدول النصرانية فيما بينها على اقتطاع أجزاء من الدولة العثمانية وفي توزيع تلك التركة فيما بينهم، ولكنها تتفق جميعاً ضد الدولة العثمانية وتقيم مؤتمرات عامة لاقتسام المصالح ومناطق النفوذ، وسلخ رقع من الأرض من أملاك العثمانيين وإرسال حملاتهم العسكرية على تلك البلاد مما أدى إلى ضعف الدولة، كما أدى في الوقت نفسه إلى هزيمة المسلمين وكسر شوكتهم في تلك الجهات التي جاءت إليها الحملات، وإلى انتشار المفاسد مع ما تدعيه هذه الحملات من أنها جاءت لنشر العلم، ومعاداة الجهل والفقر، والأخذ بيد السكان نحو الحضارة والمدنية وأبعادها عن التأخر والرجعية الذي كان بسبب الخلافة العثمانية، وقد ظهر ذلك واضحاً في ادعاءات نابليون قائد الحملة

الفرنسية على مصر، على حين كانت دعوى الفرنسيين خاصة والأوربيين عامة على أن هذه الحملة كانت بداية التطور الحضارى فى مصر، وهذا ما سجلته أعلامهم، ودون ذلك وأكثر منه فى كتبهم المغرضة، ومن هذه المصادر المضللة استقت كتابات المؤرخين الحديثة والتي نشأت عليها الأجيال وتربت عليها معلوماتها للأسف الشديد.

واستغلت أوروبا النصرانية هذا الضعف واختلاف الكلمة واختراق الصف الذى آلت إليه الخلافة العثمانية، فأوقدوا بينهم نار الحرب بدعم هذا أو تأييد ذلك، فإذا وجدت حركة إسلامية سليمة وجهت الجهود ضدها، ووقفت أوروبا مع الأطراف المتنافرة فيما بينها والمخاصمة لها. ففى مطلع القرن الثالث عشر، وجدت ثلاث قوى فى العالم الإسلامى آنذاك تمثل ثلاث وجهات نظر:

كانت الخلافة العثمانية، وتمثل الاتجاه الإسلامى الاتكالى. والذى ظهر عليه الضعف، وكانت مصر محمد على الذى يمثل الانفتاح نحو أوروبا، والسير نحو التحرر من قيود العقيدة تمثل الاتجاه الثانى. وكانت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى جزيرة العرب هى الاتجاه الثالث وهو الاتجاه الإسلامى السلفى.

فعملت الدول الأوربية على أن يشن مركز الخلافة ومحمد على مجتمعين الحرب على الحركة الإسلامية فى الجزيرة العربية، حتى قوضته عام ١٢٣٣، ثم عادت فعملت على تقوية محمد على فضم السودان إليه ثم بلاد الشام، ثم أوقعت بينه وبين مركز الخلافة الذى بدا ضعيفاً، ثم خشيت أن تعود الحيوية إلى المسلمين فعملت مرة ثالثة على إضعاف شأن محمد على وإعادةه إلى رقعته الأولى التى انطلق منها وهى مصر فقط.

هذا الضعف الذى حل بالخلافة فى أواخر عهدها جعل القبائل البدوية تطمع فيما جاورها، وتشن الغارات على المناطق الحضارية التى تقع على حدود باديتها، وقوى أمر الخونة وقطاع الطرق، واستأسد من لم يعرف الرجولة ما دام عدد من الأعوان يلتف حوله، ولا يفرقون بين الحلال والحرام. كما أوجد هذا الضعف الفوضى فى الإدارة حيث دخلت الرشوة إلى الدوائر، وأصبح للمحسوبيات دور،

وللمتفعين سلطان، واختلطت المفاهيم حتى ضاع الحق في ثنايا الباطل، وأصبح من الصعوبة بمكان أن تفرق بين النية الحسنة والقصد الخبيث، وهذا ما جعل بعض الرجال الذين يريدون الإصلاح يرغبون في التخلص من الحكم لما آل إليه من مظاهر الضعف ورغبوا في التغيير.

وقد نتج عن ذلك أيضاً قضية شائكة خطيرة ألا وهي قضية القومية وقد وجد دعاة التجديد موقعهم بين دعاة القومية بل اختلطت عندهم المفاهيم الإسلامية مع العاطفة العربية فتارة يفسرون العربية بالإسلام، أو لا يفرقون بينهما، وتارة أخرى يبدو عندهم الأثر الإسلامى واضحاً، وهم قد عرفوا بذلك، وشهد لهم بالصالح، وقد استغل دعاة القومية العلمانيون هذا الجانب العاطفي في أولئك فقدموهم إلى الناس وأبرزوا منهم ما يريدون، وأخفوا ما يرغبون فظهروا بالمظهر القومى، وقلدهم الناس، وانطلق ركب القومية يحرك طوية النفوس، ويستغلهم حتى حدث هذا الشقاق، وبرز في ذلك الوقت رجال خلطوا بين العمل الإسلامى والقومى أمثال عبد الرحمن الكواكبي، وعبد الحميد الزهراوى، وشكيب أرسلان وغيرهم.

وكان السلطان عبد الحميد الثانى يحرص على جمع الأمة وتوحيد الكلمة، ويريد الدعوة إلى الإسلام، وطرح فكرة الجامعة الإسلامية، ولكنه لم يشعر إلا والمركب قد تحركت من تحت أقدامه. وكان الهجوم ينصب عليه من كل جهة، هجوم صليبي حاق، وهجوم يهودى شرس يدعم الأول، ويستند عليه، وقد واجه السلطان العثماني عبد الحميد ذلك الهجوم بسبب وقوفه في وجه اليهود الذين يريدون أن يؤسسوا لهم مستعمرات في فلسطين، وقد رفض كل المغريات التي عرضت له، ووقف صامداً في وجه المحاولات والجهود التي بذلت له بل والتهديدات التي وجهت إليه، فأنبرت له أجهزة الإعلام اليهودية، وسخرت معها الأجهزة الصليبية والتقت معها، فأزيح ذلك الرجل بانقلاب خسيس، فكان الخليفة المظلوم الذي سقط نتيجة الإعلام اليهودى وحقدهم الدفين، ووقعت الواقعة، وانتصر المستغربون، وتجرأت الأمة، ودخل الاستعمار إلى البلاد، وفشت بين الزعماء روح الإلحاد.

هذه هي السلبيات والإيجابيات في تاريخ الدولة العثمانية ولكن إيجابياتها كانت أكثر من السلبيات، ولا يمكن ادراك ذلك إلا بقراءة تاريخ الدولة العثمانية قراءة جديرة لا على أنه تاريخ عثماني فقط ولكنه تاريخ أمة مسلمة واحدة، تفاعل المسلمون في مشارقتها مع المسلمون في مغاربها تفاعلاً إيجابياً أو سلبياً انعكس أثره على الأمة الإسلامية بأكمله.

ولعلنى لا أكون مبالغاً إذا قلت:

نظر الأوروبيون إلى الدولة العثمانية على أنها دولة إسلامية حربية من الطراز الأول تروم تحويل دار الحرب إلى دار الإسلام^(١). ومن هنا نبتت حملات التشهير بالدولة سواء وهى فى أوج مجدها أو عصر اضمحلالها أو بعد زوالها. وقد امتدت هذه الحملات إلى ممتلكات الدولة فى أوربا وإلى ولاياتها العربية، وكل هذا بسبب نصرة العثمانيين للإسلام ورفع لوائه عالياً خفاً على أيديهم ليبدد ظلام الجهل والتخلف الذى عاشت فيه أوربا خلال القرون الوسطى. فهل يستحق هؤلاء العثمانيون المديح أم التوبيخ والتشهير؟

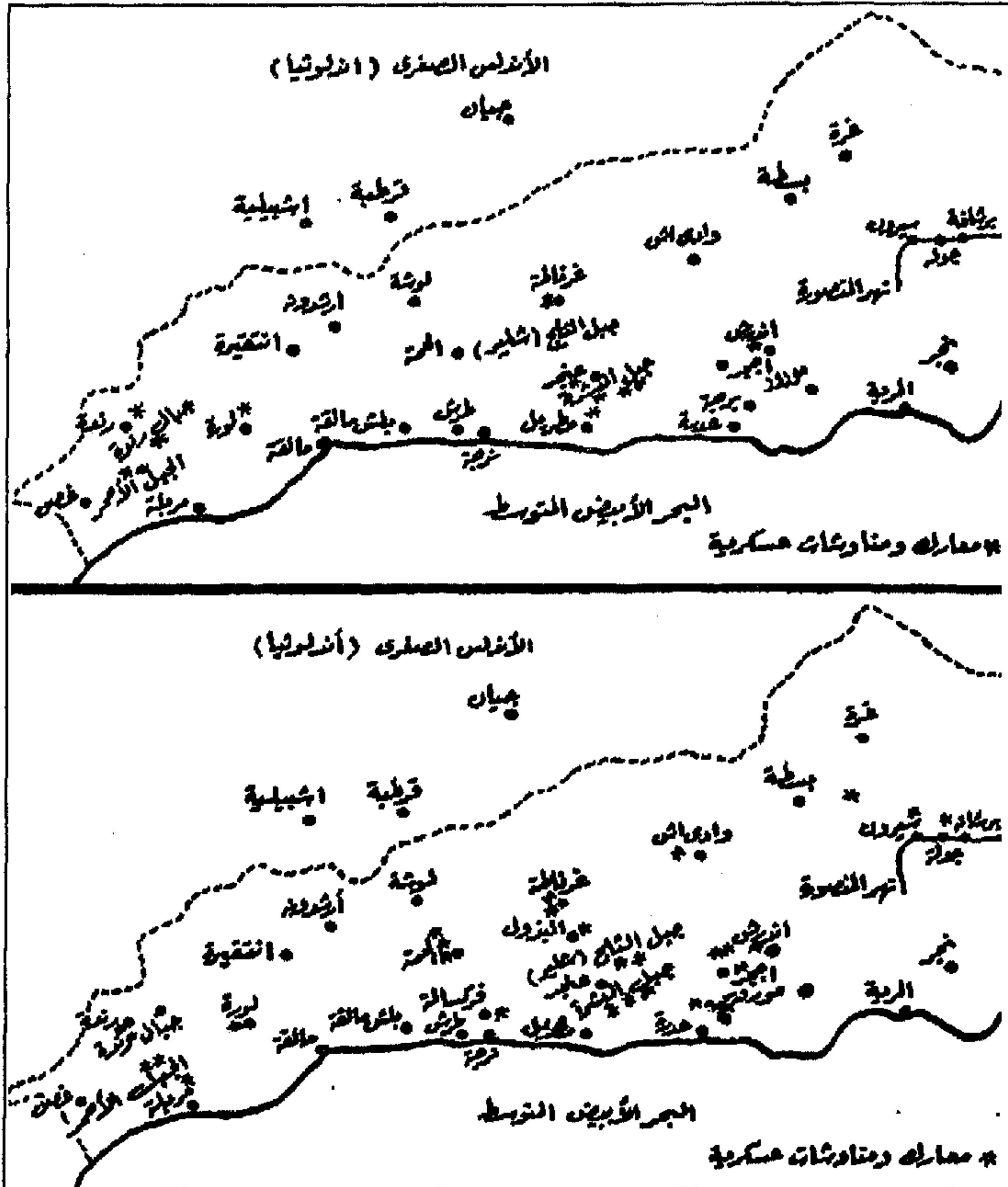
إن تركيا التى وقفت وقفة الحق لنصرة الشعوب المظلومة فى الأرض ومقاومة طغيان الملوك واستبدادهم فيما مضى فهى اليوم لم تحد عن نصرة الحق، ويسير أبنائها اليوم على درب الآباء والأجداد، فكانوا خير خلف لخير سلف. ولا نقول ذلك من فراغ لكن نقوله من خلال مواقفها المشرفة وسياساتها الرشيدة ووقوفها اليوم بجانب الفلسطينيين وتبنى قضيتها فى المحافل الدولية، وتدعو فى صلابة إلى إنهاء عزلة الفلسطينيين فى غزة، وحسبنا فى ذلك ما تكبدته من استشهاد أبنائها وسفح دمائهم الذكية على سطح أسطول الحرية الذى جاء لكسر حصار غزة. فما أعظم وقفاتهم البطولية، وأنعم بهم من مجاهدين فى سبيل الله.



(١) الدولة العثمانية دكتور عبد العزيز الشناوى مرجع سابق ج ٢ ص ٦٩٠

الخرائط والصور والوثائق

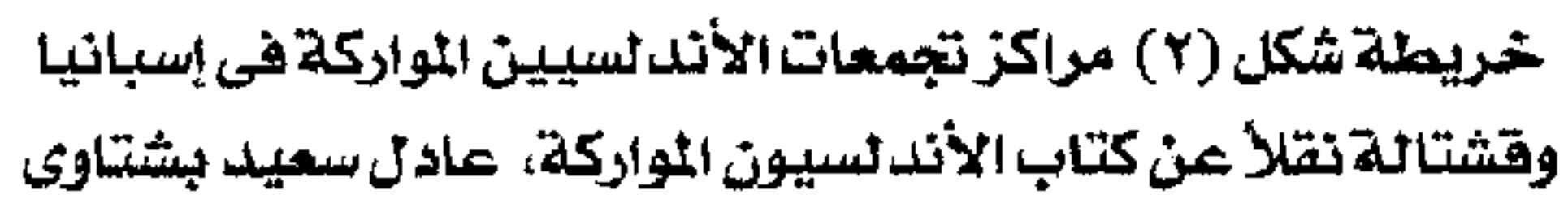
الثورة الأندلسية الأولى



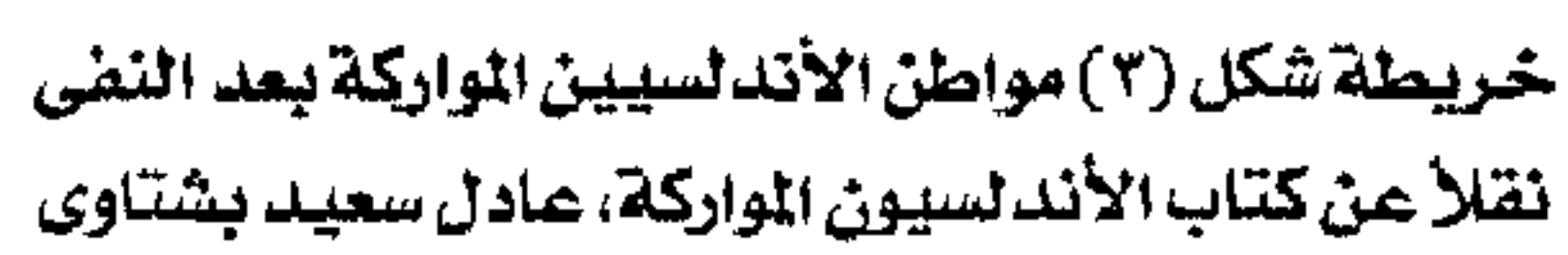
الثورة الأندلسية الكبرى

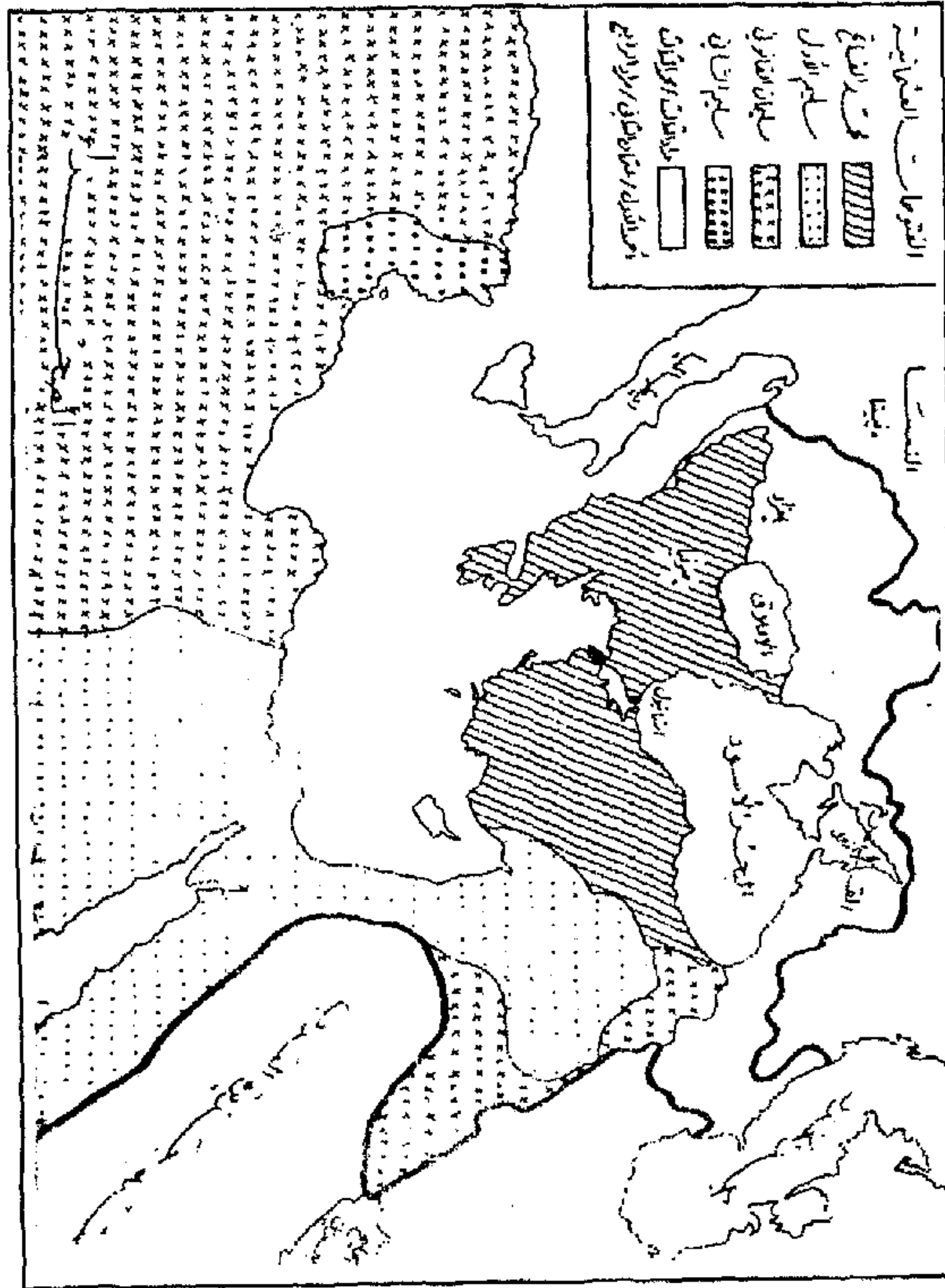
خريطة شكل (١) ثورة الأندلسيين المواركة الأولى والثانية،

نقلا عن كتاب الأندلسيون المواركة. عادل سعيد بشتاوي.

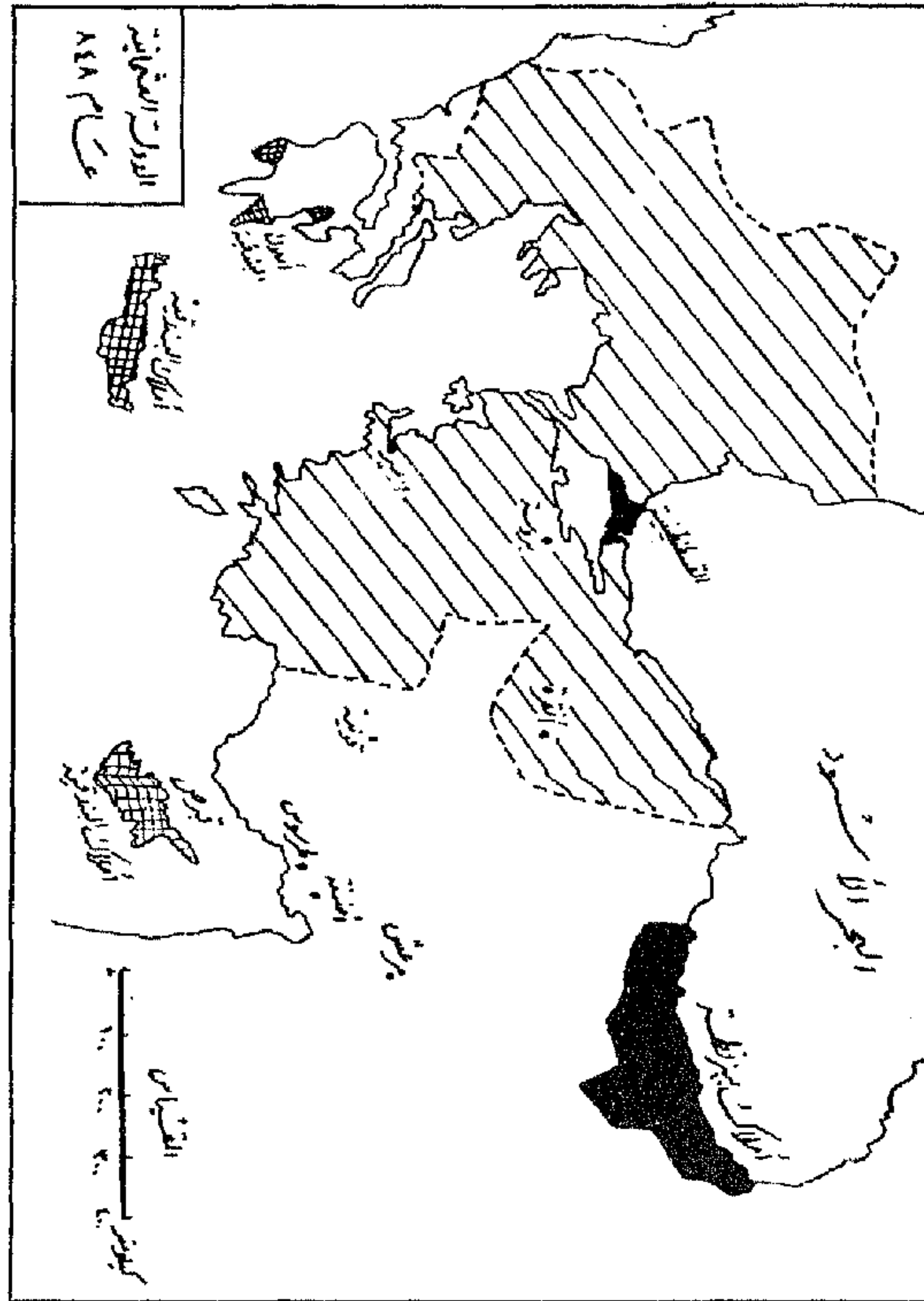


خريطة شكل (٢) مراكز تجمعات الأنديسيين المواركة في إسبانيا
وقشتالة نقلاً عن كتاب الأنديسيون المواركة، عادل سعيد بشتاوي

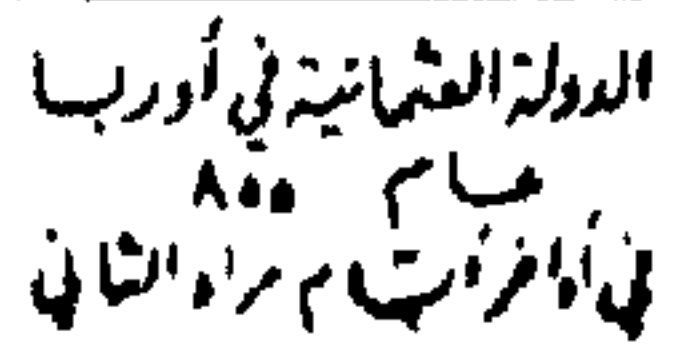




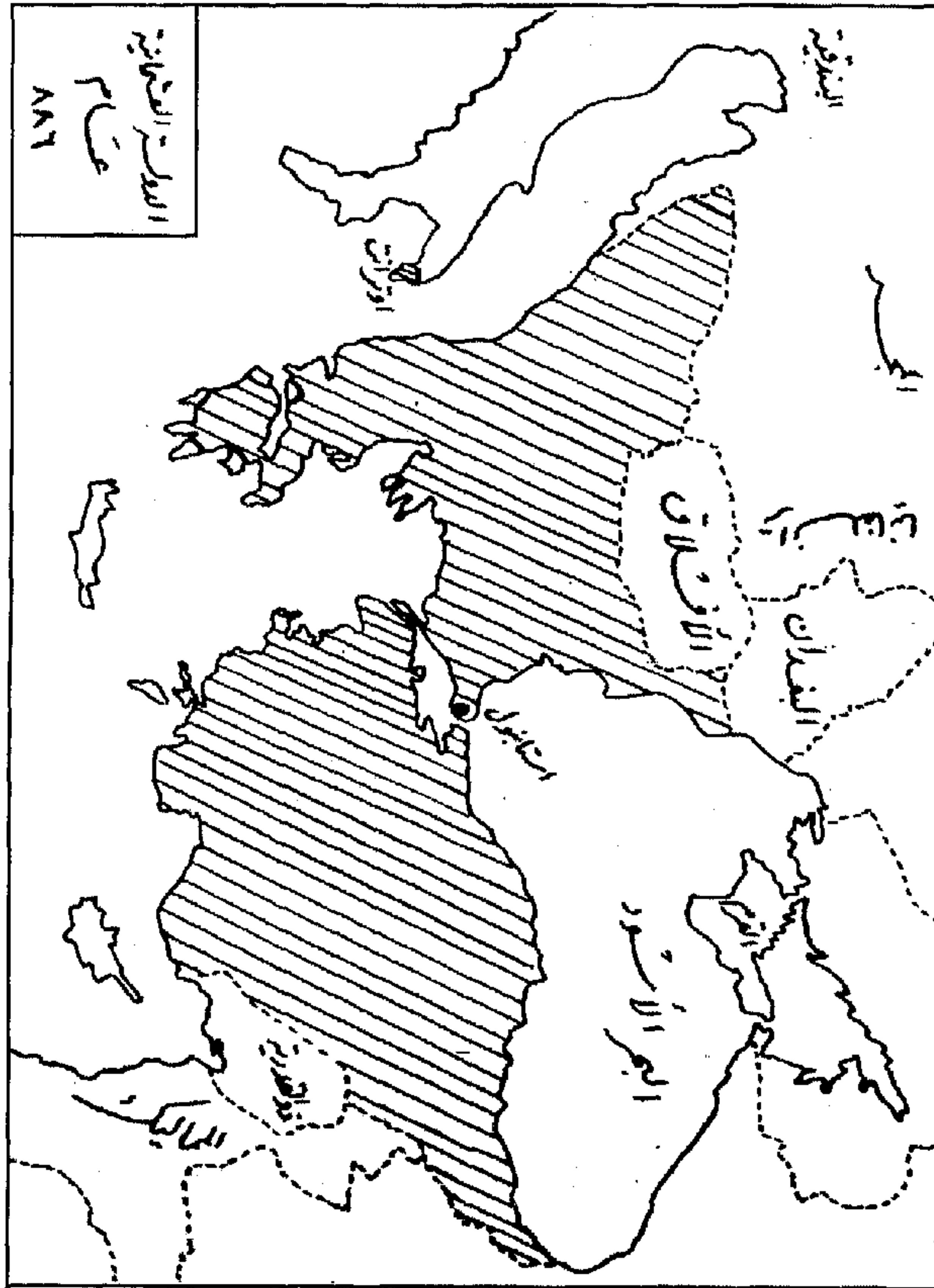
خريطة شكل (٤) الفتوحات العثمانية في عصور القوة
 نقلاً عن كتاب التاريخ الإسلامي، محمود شاكر/ جزء ٨



خريطة شكل (٥) اتساع الدولة العثمانية عام ١٨٤٨
نقلًا عن كتاب التاريخ الإسلامي، محمود شاكر/ جزء ٨



خريطة شكل (٦) اتساع الدولة العثمانية ٨٥٥
نقلًا عن كتاب التاريخ الإسلامي، محمود شاكر / جزء ٨



خريطة شكل (٧) اتساع الدولة العثمانية عام ٨٨٦
 نقلا عن كتاب التاريخ الإسلامي، محمود شاكر / جزء ٨



أمير البحر خير الدين باربروسا

صورة محفوظة بمتحف البرادو بمدريد، نقلاً عن كتاب نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين

محمد عبد الله عنان

ويرتدى في الصورة ثوباً طويلاً أحمر، وعباءة بيضاء، وقلنسوة صغيرة حمراء، وله شارب طويل أشهب



الملك فرناندو الخامس



الملكة إيزابيلا الكاثوليكية



صورة أخرى لخير الدين باربروسا



الملك أبو عبيد الله آخر ملوك غرناطة

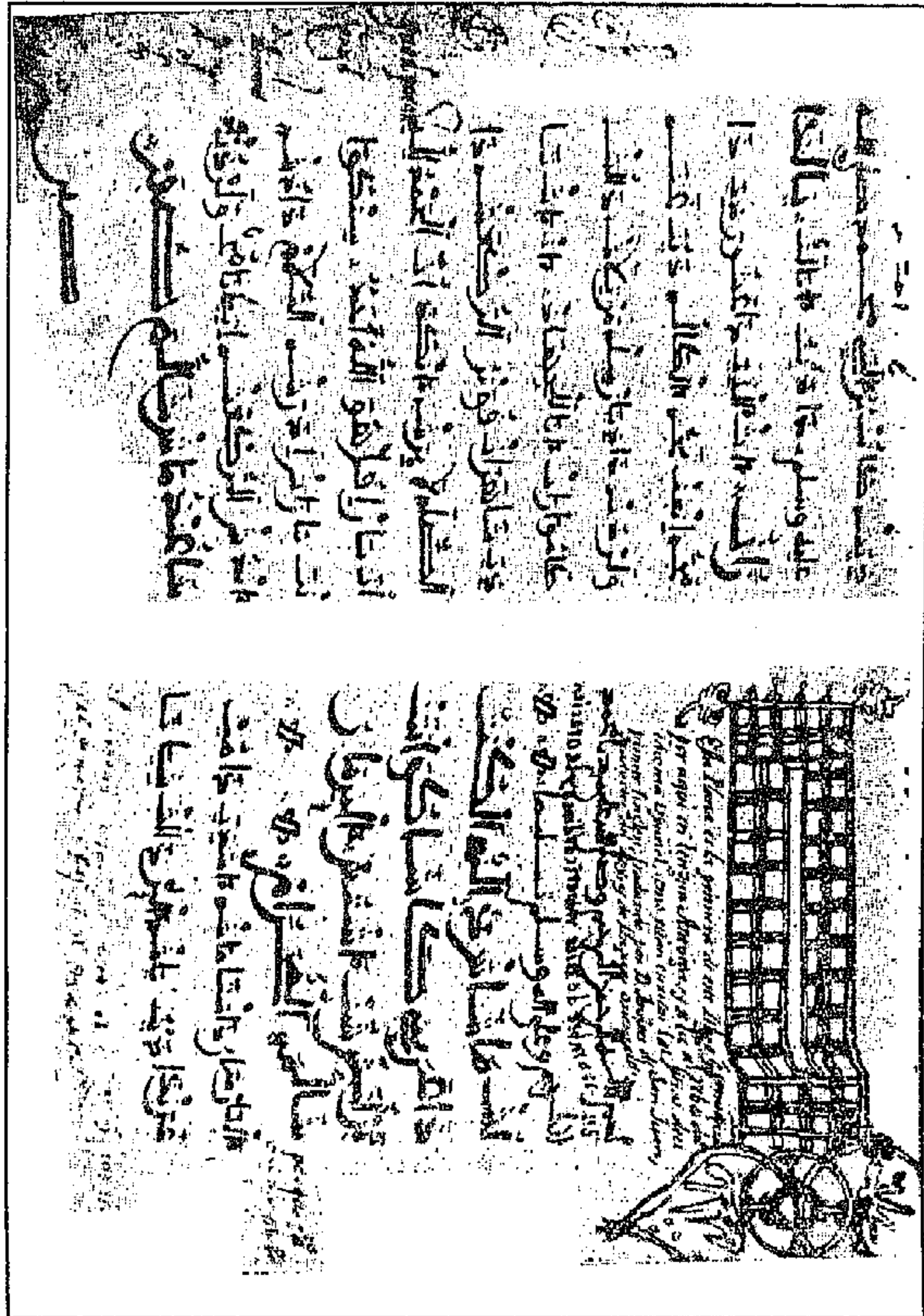


شارل الخامس



فيليب الثاني

صفحتان من كتاب التفسير مكتوب بالأخمداد ومحفوطة بمكتبة مدرسد الوطنفة رقم ٢٥٢٥، نقلًا عن كتاب نهاية الأندلس وقارف العرب المتنصرفن، محمد عبد الله عنان



الصفحتان الأوليان من كتاب في الأدعية مكتوب بالألخميادو وفي نهايته بالعربية الركيكة أنه كتب سنة ٩٧٧هـ (١٥٧٩م) ومحفوظة بمكتبة مدريد الوطنية رقم ٥٢٠٦ نقلاً عن عنان. مرجع سابق

سبح من زجر الخرس
صلى الله عليه وسلم محمد بن عبد الله بن يحيى

صفحتان أوليان من رسالة «إستى المتاجرفيمن غلب التنصارى على وطنه ولم يهاجر»
وهى توجد ضمن مجموعة محفوظة بالأسكوريال رقم ١٧٥٨ الغزيرى
نقلًا عن عنان. مرجع سابق

رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٤١م

نقلاً عن كتاب الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين للدكتور عبد الجليل التميمي

نص الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم وعلى آله وصحبه، يقبل مواطئ الأقدام الشريفة التي ثراها، إذا مر بالعيون المردة أبراهها، ورحاب الأكف الكريمة التي (كذا)^(١) عطاها (كذا)، إذا مر بالأرض المملحة أثرها، أقدام شأنها السعى فى الخيرات والقربات، وأكف شأنها فعل الخيرات والمكرمات، أدام الله أيامها ونصر أعلامها، وأوطاء (كذا) ركبها أعناق الملحددين والمتمردين، وأنعشهم فى كل وقت بنصر وفتح مبین، نسأل (كذا) الله تعالى أن يجعله أركاباً لم يزل ممتطياً مطايا السعد، محفوقاً بالسعود، قطباً للسيادة السلطانية عليه تدور وبه تسود، وأن يجعله دائماً نسيم الخلافة العلية فى منصب الوراثة، وحائز الفضيلة السيئة من خدمة المساجد الثلاثة، وله ملك مصر وأنهارها، والشام وديارها، والحجاز وشرف مقدارها، وإلى حضرته مجتمع الرفاق من الآفاق، وإليها تحتج الأجسام بالرحلة والأفتدة بالأشواق، وعلى جميع تلك الحضرة العليا لمحاسن الدين والدنيا، انعقد الإجماع والأصفاق (كذا)، مولانا السلطان الملك الأشرف الأضخم الأرفع الأعرف الأعلم الأحلم الأرحم الأرف (كذا)، الأجود الأكرم الأسمح الأعطف، قامع الملحددين وقاطع دابر الطغاة (كذا) والبلغاة (كذا) والمردة والمفسدين، ممد طريق الحج والعمرة والزيارة، الفائز بشرف الدين والدنيا من الجهاد فى سبيل الله والسقاية فى المسجد الحرام والعمارة، مطهر البسيطة من دون فسادها، ومظهر آيات الرأفة والرحمة فى بلادها، سلطان الإسلام والمسلمين، عز الدنيا والدين وظل الله على الخليقة أجمعين السلطان بن السلطان بن السلطان، السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد بن محمد خان، مد الله ظلال النعمة بامتداد ظلاله، وضاعف لديه مواهب أكرامه وأفضاله، وأدام نجم سعده المنير باهر الإشراق، وجعل سهم ضده الحقير لازم الإخفاق، وحفظ بشهب

(١) كلمة كذا مكانها كلمة ساقطة فى الأصل وقد استعاض عنها الدكتور عبد الجليل التميمي بهذه الكلمة.

أولياء مجده من مرده النفاق، جميع الأقطار والآفاق، فهو الإمام الهمام، والأسد
 الباسل الضرغام، الذى مهد الله تعالى بدولته البلاد، وأمن ببركة إيلته فى
 مسالكها وممالكها العباد، ومزق به ثوب الفساد، وقطع بسيفه وأسنانه وبأدنتى قلمه
 الأعلى ولسانه دابر أهل العناد، فسعد الإسلام بدولته، واعتز دين الله العزيز فى
 مدته، وخمدت نيران البغى بسعادته، وامتدت الأمانى وشمل الأمان بحسن
 سياسته، نسأل (كذا) الله تعالى أن يصل لسيدنا ومولانا عادات (كذا) نصره
 وتمكينه، ويريه قرة العين فى دنياه ودينه ويعد: فإن عبيدك الفقرا (كذا) المساكين
 المنقطعين بجزيرة الأندلس وجملة عدتهم ثلاثمائة ألف وأربعة وستون ألفاً منهم
 من رسايهم بغرناطة وغيرها خمسون والباقي من عامة المسلمين، رافعين
 شكواهم، وما يلاقون من بلواهم باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان
 دام عزه ونصره لما أصابهم من أعداء الدين وطغاة المشركين، ولما هم فيه من مكابدة
 الكفار، ومقاساة (كذا) التضيق والأضرار، وجو على الشرك آناء الليل وأطراف
 النهار، وتحريقهم إيانا بالنار قد تكالب العدو علينا، مدد السوء والضرر إلينا
 وأحاطت بنا الأعداء من جانب، ورمونا عن قوس واحد بسهم صائب، وطالب من
 الأيام، وعاشت فينا يد النكاية والإيلام، وخذلنا جيراننا وإخواننا ببلاد المغرب من
 أهل الإيمان، وقد كان بجوارنا الوزير المكرم، المجاهد فى سبيل الله خير الدين
 وناصر الدين وسيف الله على الكافرين، علم بأحوالنا، وما نجده من عظيم أهوالنا
 لما كان بالجزائر، اجتمعت أهل الإسلام على إطاعة مولانا ومحبتة بالخواطر
 والضمائر (كذا)، وانتظم العدل والشرع والأمان فى البادى والحاضر، فاستغثنا به
 فأغاثنا وكان سبباً فى خلاص كثير من المسلمين، من أيدي الكفرة المتمردين،
 ونقلهم إلى أرض الإسلام، وتحت إيالة طاعة مولانا السلطان ولعمارة مدينة برشك
 وشرشال ويواحي تلمسان، فلما سمع الكافر اللعين بذلك ولم يقدر على منعنا
 بالسياسة والإهانة والحرق بالنيران، علم أننا اخترنا المصيبة فى الأموال والأبدان
 وأثرنا ديننا على سائر الأديان، فلما صدقت الضمائر، وبلغت القلوب الحناجر،
 خلف من عصبتنا واجتماع كلمتنا وتركنا أموالنا وأوطاننا وهجرتنا وفرارنا إلى بلاد

الإسلام لسلامة ديننا، تحاير فى أمره، وجمع إليه أهل تدبيره وحزبه، فدبروا ومكروا وهل يحقق المكر السيئ إلا بأهله؟ واتفق رأسهم المعكوس، وتدبيرهم المنكوس، على قتال الجزائر، لئلا يبقى ببلاد المغرب لأهل الإسلام ناصر، فعاقبهم الله بعقاب أصحاب الفيل، وجعل كيدهم فى تضليل، وأرسل عليهم ريح عاصف وموج قاصف (كذا)، فجعلهم بسواحل البحر ما بين أسير وقتيل، ولا نجا منهم من الغرق إلا قليل، والآن اشتد غضبهم على أهل الإسلام، وهم يتوسلون بالرهبان والأصنام، ونحن نتوسل بسيد الأنام إلى موجب الوجود ذو (كذا) الجلال والإكرام، وهم عازمين (كذا) على الجزائر، الله تعالى هلكهم وينصر دينه وهو نعم الناصر، يا مولانا سلطان البرين والبحرين نصركم الله، المدد المدد لنصرة الجزائر لأنها سياج لأهل الإسلام، وعذاب وشغل لأهل الكفر والطغيان، وهى موسومة باسمكم الشريف، وتحت إيالة مقامكم المنيف وقد أصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة، والرعية المختلفة بها مؤتلفة أليفة، وطراز رونقها المجاهد فى سبيل الله عبدكم الوزير الأجل خير الدين، الممثل لأوامر مولانا، ونتاج عز والدينا والدين، فإنه أحيا هذا الوطن، وجمع النواحي والسكن، وأرعب قلوب الكفار، وخرب ديار المردة والفجار، وأظهر نظام السلطنة العثمانية وأحكام مولانا نصره الله حتى تزينت بها الديار والأمصار، فترغب ونطلب من مولانا نصره الله فيما يراه من إرساله لهذا الوطن أن رءا (كذا) مولانا صلاح (كذا) فى ذلك فيكون ذلك غاية الإحسان لجميع أهل الإسلام وقهر ونكاية لحزب الشيطان، وقد اتفق جمعنا من المسلمين المذكورين على رفع الشكوى (كذا) إلى مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام لا زال بالعز موصوف (كذا) وبالبهاء والنصر محفوف (كذا) بأن يغشنا بإرسال المجاهد خير الدين باشاء (كذا) إلى الجزائر، فإنه لهذا الوطن نعم ناصر وجميع أهل الشرك منه خايف وحاير (كذا)، والسلام التام على المقام الشريف العالى ورحمة الله بتاريخ أوائل شهر شعبان أحد شهور سنة ثمان وأربعين وتسعمائة.

نقلًا عن كتاب الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين للدكتور عبد الجليل التميمي.

وثيقة رقم ٢

رسالة من السلطان العثماني أحمد الأول إلى
دوج البندقية حول الموريسكيين سنة ١٦١٤م

النص التركي للرسالة

افتخار الأمراء العظام العيسوية محمد كبراء الفخام في الملة المسيحية مصلح
المصالح جماهير النصرانية صاحب أذيال الحشمة والوقار صاحب دلائل المجد
والافتخار ونديك دوزي ختمت عواقبه بالخير وأصلح الله تعالى شأنه توقيع رفيع
همايون واصل أو ليجاج معلوم أولاهه مقدما ولايت أسبانية ده ساكن أولان
مدجل طائفه سندن سليمان وعلى نام مسلمان مدجل دركاه معلماه عرض حال
صونوب بوندن أقدم مسلمان مدجل طائفه سندن بعضيلري قالقوب ممالك
محروسه داخل أولوب لكن حالا مزبورلردن بعضيلري أيده أولوب دريادن كلمكه
خوف ايدوب واقتدار لري داخل أو لمغه قرة ايله ونديك طرفندن ممالك
محروسمة كلوب داخل أو لمق مراد لري أولوب ونديك طرف ندن ممالك
محروسمة كلمك أوزره أولان مسلمانره دخل وتعرض أولنميوب أمين وسالم مرور
وعبور ايتدرمكز رجا ايلديلر ايمدى سز قديم الاياملن سدة سنية، سعادت مدار
وعتبه عليه كردون اقتدار مزه خلوص قلب وحسن اعتقاد ايله وعرض اخلاص
واختصاص ايده كلمش دولت عليه مزك خير خواهي أولوب بومقوله استانه،
سعات اشيانه مزه متعلق خدمت لرده معاونت ومظاهرت ايده كلد كلز عز حضور
فائض النور مزده محقق وظاهر أولدوغى اجلدن طائفة مزبوردن حاليا سزك ولا
يتكز ذهب أولان مسلما نلره أجازات ويريلوب قره طرفندن أمين وسالم بروجانبه
أرسال وأيصال ايتمكنز بابنده نامة همايون سعادت مقر ونمز يازيلوب ارسال
أولنمشدر كركدركه:

وصول بولدقده قديم الأيامدن أستانه سعادن أشياء ودودمان مخلص الاركانمزه
أولان خلوص محبت وداد وصفای عقيدة اعتقاد كوز موجبجه ذكر أولنان مسلمان
مدجل طائفة سی اسبانية دن قالقوب ممالك محروسة مزه كلوركن ونديك ولايته
أوغراد قلرنده منازل ومراحله ومعبر لرده كندو لرينه وطوار لرينه وأسباب
وارزاقارينه عهد وأمانة مخالف برفردى دخل وتعرض اتدوميوب أمين سالم ممالك
محروسة مزه ايصال

أيليه سز شمديت دكين حسن اهتمام كز ظهوره كتورلدوك اجلدن بوفقرانك
دخى سهولت اينه دار الامان اولان ممالك محروسة مزه لرينه مساعدة كوز ظهورى
وتحصيل رضای اقتضاؤه بادی وأساس مصائحه ومعاهدة نك استحكام وامتدادى
أولا جغنده اشتباه يوقدر اكاكوره تقيد كوستروب عرضى الحال ومرفه البال روانه
قلمرينه سعى واهتمام أيليه سز تحريرا فى أواسط جمادى الأولى سنة ثلاث (كذا)
وعشرين وألف.

مقام قسطنطينية المحروسة

نقلا عن كتاب الدولة العثمانية

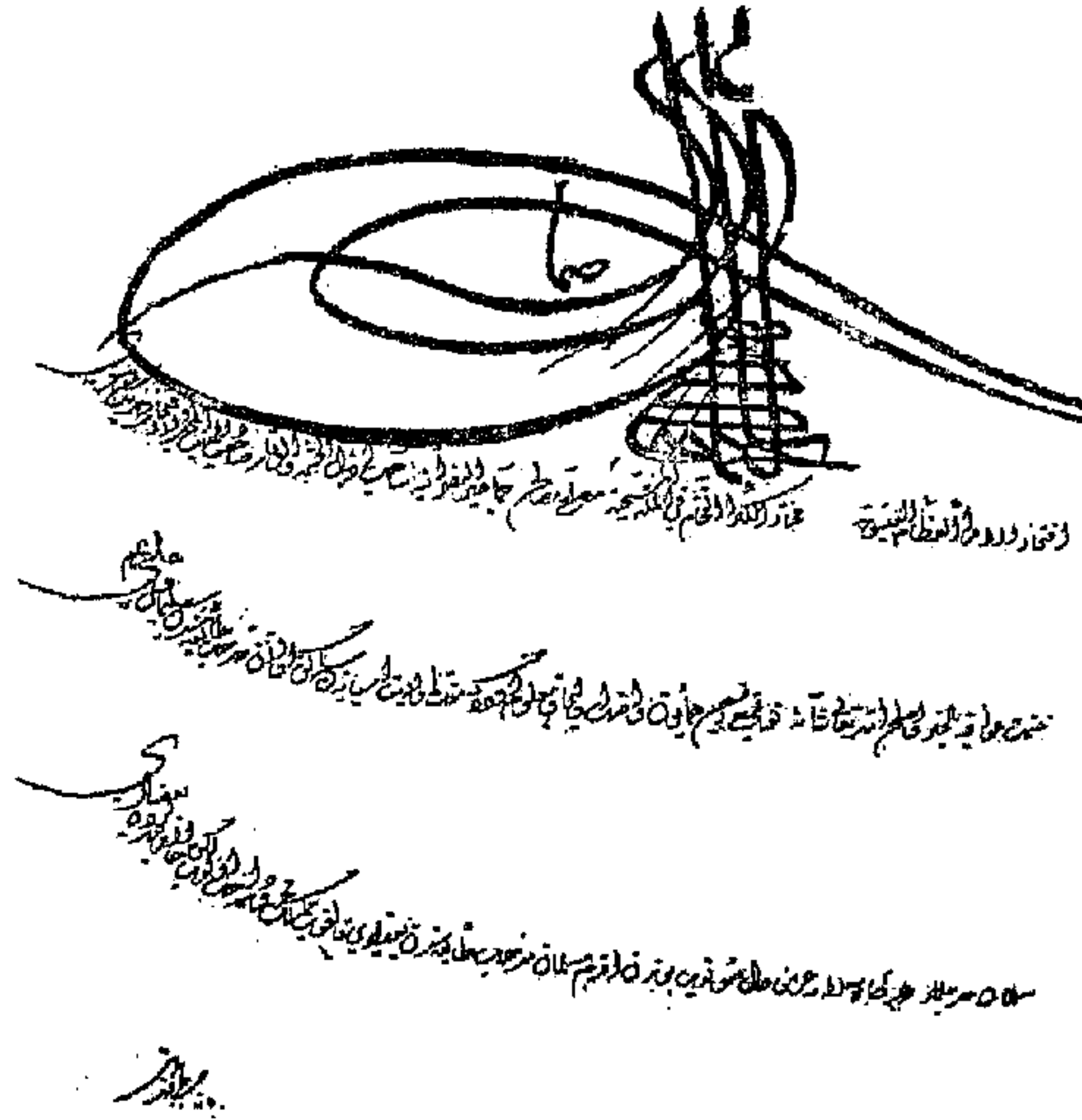
وقضية الموريسكيين الأندلسيين

للدكتور عبد الجليل التميمي



وثيقة رقم (٣)

رسالة من السلطان العثماني أحمد الأول
إلى دوج البندقية حول الموريسكيين سنة ١٦١٤م



الشكل رقم (٢) رسالة من السلطان أحمد الأول إلى دوج
البندقية حول الموريسكيين سنة ١٦١٤م.

تعريف الرسالة:

افتخار الأمراء العيساوية مختار الكبراء الفخام في الملة المسيحية، مصلح مصالح
جماهير النصرانية، صاحب أذيال الحشمة والوقار، صاحب دلائل المجد والافتخار
دوج doge البندقية ختمت عواقبه بالخير وأصلح الله تعالى شأنه.

تحيطكم علماً بهذا التوقيع الرفيع الهمايوني بأن سليمان وعلى وهما طائفة
المدجلين (المدجنين) القانطين بالأندلس، قد رفعوا إلى أبوابنا العالية عرضاً أعلما فيه

أنه قد ورد سابقا إلى الممالك المحروسة طائفة من المدجلين المسلمين كانوا قد غادروا بلادهم وأنه لا يزال منهم هناك أناس يريدون القدوم علينا عن طريق البر ليدخلوا الممالك وهم يرجون أن لا يتعرض لهم ولا يتدخل في شأنهم أحد، إذا ورد هؤلاء المسلمون عن طريق البندقية إلى الممالك المحروسة، فلتسمح بمرورهم وعبورهم بالأمن والسلامة.

نظراً إلى أنكم ممن يريد الخير لدولتنا العلية وما زلتم تظهرون الإخلاص والولاء من قديم الأيام آلة سدة سعادتنا وعتبتنا العلية، عدو الأفلاك، عن نية خالصة وطوية حسنة فإنه واضح وجلى لدى حضرتنا العزيزة الفائضة الأنوار، أنكم كنتم وما زلتم تقومون بأمثال هذه الخدمات وتقديم المعونة لسدة سعادتنا السنية، ونظراً لكل هذا فقد حررنا وأرسلنا إليكم هذا الكتاب الميمون الهمايوني لتجزوا من هو الآن ببلادكم من طائفة المسلمين أن يعبروا عن طريق البر إلى ممالكنا آمين سالمين.

وبناء على خلوص محبتكم وودادكم وصفاء عقيدتكم لهذه الأبواب السعيدة المشيدة الأركان من سابق الأيام والأزمان، إذا ما ورد هذا الكتاب إليكم، أن توصلوا إلى ممالكنا المحروسة كل ما يريد القدوم عليها من طائفة المدجلين المسلمين الذين خرجوا من إسبانيا وحلوا بولاية البندقية، فلا تسمحوا لأحد أن يتدخل في أمورهم أو يتعرض لهم ولا أرزاقهم وأموالهم ودوابهم خلافاً للعهد والأمان (بيننا)، وهذا أثناء مرورهم بالمنازل والمراحل والمعابر ليصلوها آمين سالمين، وقد سبق واتضح لنا حتى الآن حسن اهتمامكم، وتيقنوا أن مساعدتكم لهؤلاء المساكين بدخولهم بلادنا التي هي دار الأمان وسيلة لتحصيل رضانا الميمون وسبب لتحكيم بنيان المصالحة وتمديد المعاهدة، فاهتموا واسعوا، بناء على هذا أن يمروا ويعبروا راضين عن حالهم" مرفهى البال.

تحريراً في أوسط شهر جمادى الأولى سنة ١٠٢٣ هـ

مقام قسطنطينية المحروسة

نقلا عن كتاب الدولة العثمانية

وقضية الموريسكيين الأندلسيين

للدكتور عبد الجليل التميمي

وثيقة رقم (٤)

رسالة السلطان سليمان القانوني
إلى حاكم فاس محمد السعدي

(... هذا مثالنا الشريف العالي السلطاني وخطابنا المنيف السامي الخاقاني، لا زال نافذاً مطاعاً بالعون الرباني والصون الصمداني، أصدرناه إلى الجنب العالي الأمير، الكبير، الأكرمى، الأفخمى، الأكلمى، الأرشدى، الاعدلى، الهامى، الماجد النصيرى، الذخيرى، الحسبى، النسبى، نسل السلالة الهاشمية، فرع الشجرة الزكية النبوية، طراز العصاة العلوية، المخفوف بصنوف لطايف عواطف الملك الصم، حاكم ولاية فاس يومئذٍ الشرف محمد دام علوه وزاد سموه.....

أصدرنا هذا المثال الشريف العالي إلى جنابه العالي، نخصه منا سلاماً بتكميل صلاة (الصلاة) المحبة بالتحيات الطيبات، وتؤكد بعطره صلوات المودة بالتسليمات الزكيات وبعد: فإن الله جلت قدرته، وعظمت مشيئته، منذ أقامنا فى دولة هائلة نركب خيولها، ونعمة طائلة نسحب ذيولها، وسيادة سائدة كالشمس وضحيها، وسعادة ساعية كالقمر إذا تليها، وخصنا خلافة جليلة عضد الإيمان بها منصور، ومنحنا سلطة ساعد الإسلام بها مرفوع، لا جرم وجب علينا، وتحتم على ذمتنا أداء (شكر) هذا اللطف الجسيم، والإحسان العميم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وكان أبداً دأبنا ودائماً عادتنا الاهتمام بإجراء الشرع المبين، وإنقاذ كلام سيد الأولين - عليه الصلاة وعلى آله أجمعين، والقيام بإطفاء نايرة الكفر والطغيان، وطى الظلم والعدوان، ونشر العدل والإحسان، ولما بلغ سمعنا الشريف أن أمير الأمراء بولاية الجزائر سابقاً حسن باشا لم يحسن المجاورة مع جيرانه، ومال إلى جانبى العنف والاعتساف، ونبد وراء ظهره طرق الوفاق والاتلاف، وسد باب الاتحاد مع المجاهدين حماة الدين، لذلك بدلناهم غيره، فأنعمنا بولاية الجزائر على مملوك

حضرتنا العلية، وخلاصة خدم أعتابنا الجليلة، أمير الأمراء الكرام، كبير الكبراء الفخام، ذى الجلال والإكرام، والاحترام صاحب الفرد والاحتشام، المختص بمزيد عناية الملك الأعلى صالح باشا، دام إقباله لفرط شهامته وشجاعته، وكمال دينه وديانته، فوضنا إليه تلك الديار، وأمرنا بإقامة الشراع (الشرع) الشريف المتين، وإحياء تواقر سيد المرسلين، وصون الرعايا، وحفظ البرايا الذى هم ودائع الله تعالى، وأن يكون مع أهالى الإسلام على أكمل اتحاد، وأجمل اتفاق، مجداً فيما يتعلق بالدولة والدين، وقيام ناموس سلطاننا المتين، مثابراً على دفع أعداء الدين وقمع الكفرة الفجرة المتمردين، على أن أقصى مراد حضرتنا العلية إحياء مراسم الإسلام، ناثرة الكفرة والمتمردين اللئام، وذلك المرام يكون باتفاق أمراء الإسلام، واتحاد أمناء شرع سيد الأنام، ويتم به النظام، ولا يفنى لأثارهم فى الشهور والأعوام. وأمرناه أيضاً أن ينظر إلى أحوال المسلمين بنظر الإشفاق والمراحم، وينظر بينهم بكمال العدالة وحسن المكارم؛ ليكونوا فى أيام دولتهم العادلة آمنين مطمئنين لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون. ولا بد لكم أن تحسنوا المجاورة، وتذهبوا طريق حسن المعاشرة، مع كونكم أولاد سيد الأنبياء، وأحفاد سيد الأصفياء، سمعنا عدلكم وإنصافكم، وبكمال التقوى وصفات الكمال اتصافكم، ولذلك الشأن كتبنا إليكم منشوراً يوجب مضمونه المصافات ويشفى مكنونه أن تكون المودة فى أقصى الغابات، ولك أن تنبئوا بأخباركم صحتكم الغالية إلى أعتابنا العالية.

تحريراً فى أوائل شهر محرم سنة تسع وخمسين وتسعمائة، الموافق يناير (١٥٥٢م) بمقام أدرنة.

كما بعث السلطان سليمان القانوني بخطاب آخر إلى حاكم المغرب محمد الشيخ السعدى، يمنحه بخلع الخطاب عبارة عن مرسوم سلطاني، قال فيه: (هذا مثالنا الشريف... إلخ، أصدرنا إلى الجناب العالى، حاكم فاس يومئذ وتؤكد بعطره صلات المودة بالتسليمات الزكيات، وبعده.

فإن الله جلت قدرته، وتعالى عظمته، منذ أقامنا فى دولة هائلة نركب خيولها، ونعمة طائلة نسحب ذيولها، وسيادة سائدة كالشمس وضحيها، وإمضاء

سنن الأولين والآخرين، ومظاهرة حماسة الدين ومجاهدين الكفرة المتمردين وأنت من أولاد سيد المرسلين، وقائد الغر المحجلين - صلوات الله عليه وسلامه - وقد سمع سيادتنا العلية حسن إقدامك، وكمال دينك وديانتك وخلوص طويتك، وصفاء سيرتك، وقيامك في الذب عن المسلمين، وقمع أعداء الدين؛ ولذلك لشأن حباك إحساننا الشريف العالي السلطاني، ورعاك جزيل فضلها السامي الخاقاني، فأنعمنا عليك وعلى ولديك بثلاث خلع سنية، لتكون صلة للمحبة منا، وسببا لنسج المودة بيننا على أن أقصى مراد حضرتنا العلية أن تكون أهالي الإسلام، وحماة دين النبي ﷺ في أيام دولتنا العادلة في أكمل الراحة، وأجمل الاستراحة، آمين مطمئنين، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، إن شاء الله تعالى.



الوثيقة (٥)

مرسوم السلطان العثماني بتقليد
صالح راييس مقاليد الولاية

بعث السلطان العثماني مرسومه إلى العلماء، والفقهاء، وسائر رعايا الجزائر، يعلمهم فيه بتقليد صالح راييس مقاليد الولاية، وقد جاء في ذلك المرسوم ما يلي:

(... هذا مرسومنا... أرسلنا إلى العلماء، والفضلاء، والفقهاء، والأئمة، والخطباء، وجميع العلماء، والقواد، والنقباء، وسائر رعايانا بولاية الجزائر الغربية، زيد توفيقهم، يتضمن إعلامهم أن صدقاتنا العالية، ومعتمد دولتنا الثانية، أمير الأمراء الكرام... صالح باشا دام إقبالاً، بولاية الجزائر؛ فوضنا إليه تلك الأرض، وأمرناه بإحياء السنن والفروض، والرعايا أهل الإسلام ثمة في أيام دولتنا العادلة في أكمل الراحة، وأجمل الاستراحة، آمين مطمئنين، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فليكونوا مع أمير الأمراء المشار إليه على أحسن حال وأكمل اتفاق، مراد حضرتنا قيام قاموس الشرع القويم، والصراط المستقيم، وإحيائه مراسم الإسلام، وطريقة سيد الأنام، وحفظ العباد، وصون البلاد، وقمع الكفرة الفجرة بكل ناد، وتقبلوا ذلك واعتمدوه، والله تعالى هو الموفق بمنه ويمنه، والعلامة الشريف حجة بضمونه.

تحريراً في أوائل محرم سنة تسع وخمسين وتسعمائة، الموافق يناير ١٥٥٢ م.

أ- وثيقة من الدولة العثمانية إلى مسلمي إسبانيا والجزائر:

تعريب الوثيقة:

لقد أرسلتم إلى سدة سعادتنا عرض حالكم وكيف أن الكفار الضالين ذوى الشعارات المضللة يتآمرون على المسلمين ويمنعونهم من التخاطب باللغة العربية ويكلفون زوجاتهم بما يخالف الشرع الحنيف، مقترفين الظلم والاعتداء تجاههم،

ويوجد الآن عشرون ألفاً من الرجال غير أن عدد الأشخاص الذين لا سلاح لهم وصل إلى مائة ألف كما هو مقرر وثابت، وفي صورة وصول هذا المقدار من السلاح إلى الجزائر، فإن ذلك من شأنه أن يقوى من عزيمة الناس وقد أخبرتمونا أنكم أنزلتم بالكفار الملاعين هزائم عديدة والحمد لله الذي يجعل أهل الإسلام يتصرفون دوماً على الكفار الضالين. وكل ما حدث ذكرتموه وقررتوه في عرض حالكم مفصلاً، قد وصل إلى علم سيادتنا، وأن كل ما يتعلق بكم قد بلغ إلى شريف وشمول علم سلطاننا الذي يحرص دوماً على إظهار الاهتمام والعطف لجانبيكم.

إلا أنه في هذا الظرف بالذات وبالقرب من ممالككم تقع جزيرة قبرص والتي يرجع الفضل إلى أجدادى العظام منذ زمن بعيد لعقد معاهدة أمان معها، غير أن الكفار أصحاب الجزيرة نقضوا ذلك العهد. . باعتدائهم على كل أهالى الإسلام وسائر طوائف التجار عندما تخلص نيتهم للتحويل والطواف ببيت الحرام وزيارة قبر حضرة الرسول سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام، مقرين بذلك العصيان والطغيان.

قد اعتمدنا وتوكلنا على عناية الله، واستنجدنا وتوسلنا بمفخرة الموجودات، ذى البركة العظيمة صلوات الله وسلامه عليه، وكذلك استعنا بأصحابه البررة الشرفاء رضوان الله عليهم أجمعين، وفي الربيع السعيد نتيجة لتلك الآثار عزم سلطاني وقرر الاستيلاء وفتح الجزيرة المذكورة إذ حق جلالته السامية بين في ذلك. وإذا تيسر فتح الجزيرة المذكورة بسهولة وأصبحت في قبضتي وتحت تصرفي وصار أهالى الإسلام كما هو الحال في الماضى يقومون بتكاليف الشرع الحنيف وعموم الزاثرين والتجار أصبحوا آمنين وسالمين، عندها يقوم الأهالى بالدعاء لدوام الدولة وثبات مجدها وكذلك في الدعاء لرفعتي وأنه لتحقيق ذلك هيأنا عدداً من السفن الضخمة والعساكر المنصورة ووجهناها إلى الجزيرة المذكورة بدون أى تأخير، وإن شاء الله يكون في عزمنا ونيتنا توجيه أسطولى المظفر إلى تلك الجهة، إذ ذلك من الأمور

المهمة الأساسية، وأنا الآن فى حالة استعداد وتحضير. وقد وجهت أمراً همايونياً مؤكداً إلى بيلرباى الجزائر فسيقوم هذا الأخير على تقديم جميع المساعدات والإعانات إليكم وذلك لما أظهرتموه من همة إسلامية وغيره فى الدفاع على الدين المبين وعدم ترككم له، وهذا على الرغم من الحروب والقتال مع الكفار أذلهم الله إذ إنكم أبدىتم كل أنواع الإقدام والشجاعة، وحتى يكون النصر ميسراً لنا فى ذلك الجانبى فإن العلماء والصلحاء وسائر أهل الإسلام لن يتخلوا عن الدعاء لنا بذلك وأن لا تبخلوا عن إعلامنا دائماً بأحوالكم وأوضاعكم فى تلك الجهة^(١).

سلم هذا الأمر إلى الشاويش خليل فى ١٠ ذى القعدة ٩٧٧هـ.



(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلس. للدكتور عبد الجليل التميمي. مرجع سابق. ص ٢٥

وثيقة رقم (٦)

رسالة إلى السلطان بايزيد

أما السلطان بايزيد الثاني فقد وصلت إليه رسالة وبها قصيدة من أحد الموريسكيين تصور له مأساة المسلمين ويستنجد به لنصرتهم وإنقاذهم. فوصلته هذه الرسالة: (١).

(الحضرة العلية، وصل الله سعادتها، وأعلى كلمتها، ومهد أقطارها، وأعز أنصارها وأذل عداتها، حضرة مولانا وعمدة ديننا ودنيانا، السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، قامع أعداء الله الكافرين، كهف الإسلام، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام، محيي العدل، ومنصف المظلوم ممن ظلم، ملك العرب، والعجم، والترك والديلم، ظل الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، ملك البرين وسلطان البحرين، حامى الذمار، وقامع الكفار، مولانا وعمدتنا، كهفنا وغيثنا، لا زال ملكه موفور الانتصار، مقروناً بالانتصار، مخلد المآثر والآثار، مشهور المعالي والفخار، مستأثراً من الحسنات بما يضاعف به الأجر الجزيل، فى الدار الآخرة والثناء الجميل، والنصر فى هذه الدار، ولا برحت عزماته العلية، مختصه بفضائل الجهاد ومجرد على أعداء الدين من بأسها، ما يروى صدور السحر والصفائح والسنة السلاح، بأذلة نفائس الذخائر فى المواطن التى تألف فيها الأخائر مفرقة الأرواح للأجساد، سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يقوم الأشهاد، وكانت ضمن الرسالة أبيات القصيدة يمدح فيها الدولة العثمانية والسلطان بايزيد، ويدعو للدولة بدوام البقاء قائلاً:

سلام كريم دائم متجدد أخص به مولاي خير خليفة
سلام على مولاي ذى المجد والعلا ومن ألبس الكفار ثوب المذلة

سلام على من وسع الله ملكه وكأيدته بالنصر فى كل وجهة
سلام على مولاي من دار ملكه قسطنطينية اكرم بها من مدينة
ثم تبين الأبيات بعد ذلك وتوضح شعور المسلمين المتنصرين نحو الدولة
العثمانية وتقدم شكواها للسلطان العثماني فيقول شاعرهم ويستفيض في شرح
مأساتهم وتغيير دينهم:

شكونا لكم مولانا ما قد أصابنا من الضر والبلوى وعظم الرزية
غدرنا ونصـرنا وبدل ديننا ظلمنا وعمولنا بكل قبيحة
وكنا على دين النبي محمد نقاتل عمال الصليب بنيه
ثم يطلب الموريسكيون تدخل السلطان بايزيد لإمدادهم وإنقاذهم مما هم فيه وأن
يتوسط لدى السلطان فى روما^(١):

سألك يا مولاي بالله ربنا وبالمصطفى المختار خير البرية
عسى تنظروا فينا وفيما أصابنا لعل إله العرش يأتي برحمة
فسل بابهم أعنى المقيم برومة بماذا أجازوا الغدر بعد الأمانة
وما لهم مالوا علينا بغدرهم بغير أذى منا وغير جريمة
ويشير المسلمون المتنصرون إلى أن سلطان مصر قد توسط لدى المسيحيين
ليخففوا عنا ولكنهم لم يغيروا شيئاً وظلوا فى تشددهم وتعنتهم:

وقد بلغت إرسال مصر إليهم وما نالهم غدر ولا هتك حرمة
وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا رضينا بدين الكفر من غير قهرة
ومع هذا العذاب وتلك المحنة الشديدة فقد صمموا على البقاء على دينهم
الإسلامي الحنيف:

(١) الدولة العثمانية، د. على الصلابي ص ٢١٣.

والله ما نرضى بتبديل ديننا
 إن زعموا أنا رضينا بدينهم
 فلا نرضى بغير أذى منهم لنا ومساءة
 أسارى وقتلى تحت مذلة ومهنة
 وينهى الشاعر قصيدته بأن يجدد الاستغاثة بالدولة العثمانية ويرجو منهم
 إنقاذهم وإجلاءهم من تلك البلاد^(١):

فها نحن يا مولاي نشكو إليكم
 عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا
 وإلا فيجلونا جميعاً عن أرضهم
 فإجلاؤنا خير لنا من مقامنا
 فهذا الذى نرجوه من عز جاهكم
 وثم سلام الله قلته ورحمته
 فهذا الذى نلناه من شر فرقة
 كما عاهدونا قبل نقض العزيمة
 بأموال للعرب دار الأحبة
 على الكفر فى عز على غير ملة
 ومن عندكم نقضى لنا كل حاجة
 عليكم مدى الأيام فى كل ساعة^(٢)



(١) المصدر السابق ص ٢١٥.

(٢) (انظر رسالة أهل الأندلس بعد استيلاء النصارى عليها وتعذيبهم للمسلمين إلى السلطان بايزيد. المكتبة الوطنية بالجزائر رقم ١٦٢٠ نقلا عن الدولة العثمانية للدكتور. على الصلابي مكتبة العلوم والحكم ص ٢٠٩ - ٢١٥، وانظر أيضاً كتاب النوازل الكبرى فى التاريخ الإسلامى. للدكتور. فتحى زغروت (محنة المرويسكيين واستنقاذهم بالعثمانيين) من ص ٥٠٨ - ٥١٥.

مراسيم السلطان العثماني إلى ولاية وأهالي وعلماء الشمال الإفريقي

الوثيقة رقم ١

مرسوم السلطان العثماني إلى أهالي طرابلس

الترجمة العربية للمرسوم

هذا مرسومنا الشريف العالي السلطاني وأمرنا المنيف السامي الخاقاني أرسلناه إلى العلماء الفضلاء والفقهاء والخطباء والأئمة وجميع الرعايا والبرايا بطرابلس العرب (كذا) زيد توفيقهم يتضمن أعلامهم أنه قد سمع بسيدنا السنية تعرض الكفار خذلهم الله تعالى دائماً لتلك الأماكن المباركة والمواطن المبجلة وسكانها وكذلك أهالي الإسلام ثمة، على أن عزمنا الشريف كان مصروحاً دائماً لتلك الديار المباركة واستخلاصها لأجل استراحة الرعايا والبرايا أهالي الإسلام، وقد يسر الله تعالى ذلك وصارت الأماكن المباركة من عداد ممالكنا المحروسة . . . من الرعايا والبرايا مثل رعايانا مصونين محفوظين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وأنتم كذلك داخلون في سلك خدام أعتابنا الجليلة وممالك دولتنا القاهرة الفاتكة ولأجل حفظ تلك الديار المكرمة وصونها والدفاع عنها أرسلنا من أعتابنا الجليلة إلى تلك الديار أمير أمرا وقاضياً لإجراء أوامر الشرع الشريف المطهر والقانون المقرر، ولتكون الرعايا والبرايا في أيام دولتنا الراقية على أجمل حال وفراغ بال مشغولين بمكاسبهم ومعاشهم، ألسنتهم رطبة بالأدعية الصالحة في صحائفنا الشريفة، هذا وفي السنة الماضية كان قد اتصل بمسامعنا الشريفة تهيو سفن الكفار خذلهم الله تعالى وقصدهم إلى تلك الديار العظيمة الآثار، وعند ذلك جهزنا من أعتابنا الجليلة لحفظ تلك الديار ودفع الأذى والضرر: أهالينا سفناً مملوه (كذا) بعساكرنا المنصورة مشحونة بالآلات والعدد، فلما سمعوا بذلك الكفار تفرقوا وانهزموا وعلم بذلك مملوك حضرتنا الجليلة القبودان دام إقباله، وانقضى موسم البحر لا جرم رجوع المشار إليه إلى أعتابنا الجليلة والآن قد تسمع لسدتنا السنية قصد الكفار المذكورين

خذلهم الله تعالى وتوجه عزيزتهم إلى تلك الديار وعند ذلك أمرنا بتجهيز سفن مشحونة بالآلات والعدد والمقاتلين وإرسالهم . فمرسومنا الشريف المطاع وأمرنا المنيف الواجب الاتباع أنه إذا جاء الكفار إلى تلك الديار قبل قدوم مراكبنا المذكورة وعساكرنا المؤيدة المنصورة إليكم، حينئذ على ما هو مقتضى شجاعتكم ومركز في جبلتكم الحسنة وحسن إسلامكم وغيروكم وحميتكم لدين الإسلام مع أمير الأمراء وسائر عساكر الإسلام وحماة دين النبي عليه السلام، لسانكم واحد ووجهتكم واحدة بحيث لا يتمكن أحد من أولئك الكفار المخدولين لمضرة أحد المسلمين تلك الممالك المصونة لترفع ظلمه . . . أولئك الكفرة الفجرة عن المسلمين بتلك الديار العظيمة الآثار غيرة وحمية للدين القويم ومعاونة لأمة سيد الأولين والآخرين، وأما إرسال أمير الأمراء إلى تلك الديار فمراد حضرتنا العلية أن تكون الرعايا وسائر المشايخ والأعيان في أحوالهم وقلاعهم ومساكنهم ساكنين بحضور القلب لا يتعدى على أحد في ملكه ولا قلعتيه على أنه إن كان أحد من أمير الأمراء وسائر العساكر ثمة عارض أحد من قبله وقلعتيه بعد إتمام هذه الأحوال تعرضوا ذلك لدى أعتابنا العلية لتقابل منه (١) بفعل ذلك تعلمون ذلك وتعتمدون والله تعالى هو الموفق بمنه صورة منها إلى مشايخ عربان طرابلس وإلى العلماء والصلحاء وإلى المشايخ: شيخ المحاميد، شيخ المكارجة، شيخ الجوارى، شيخ الزبانية، شيخ ورقله، شيخ العرفان، شيخ مسلاته، شيخ تاجورة، شيخ مصراتة، شيخ خيلتين، شيخ طعنون، شيخ تاورغة، شيخ جربه (١).

(١) هذه الوثيقة مأخوذة من (مهمة دفتري بأرشييف رئاسة الوزراء بإستانبول، وتعتبر من أهم مصادر تاريخ الدولة العثمانية ابتداء من منتصف القرن السادس عشر، وقد أخذناها من كتاب الدكتور عبد الجليل التميمي: الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين).

100-443887-1

[illegible][illegible]

١. ٢. ٣. ٤. ٥. ٦. ٧. ٨. ٩. ١٠. ١١. ١٢. ١٣. ١٤. ١٥. ١٦. ١٧. ١٨. ١٩. ٢٠. ٢١. ٢٢. ٢٣. ٢٤. ٢٥. ٢٦. ٢٧. ٢٨. ٢٩. ٣٠. ٣١. ٣٢. ٣٣. ٣٤. ٣٥. ٣٦. ٣٧. ٣٨. ٣٩. ٤٠. ٤١. ٤٢. ٤٣. ٤٤. ٤٥. ٤٦. ٤٧. ٤٨. ٤٩. ٥٠. ٥١. ٥٢. ٥٣. ٥٤. ٥٥. ٥٦. ٥٧. ٥٨. ٥٩. ٦٠. ٦١. ٦٢. ٦٣. ٦٤. ٦٥. ٦٦. ٦٧. ٦٨. ٦٩. ٧٠. ٧١. ٧٢. ٧٣. ٧٤. ٧٥. ٧٦. ٧٧. ٧٨. ٧٩. ٨٠. ٨١. ٨٢. ٨٣. ٨٤. ٨٥. ٨٦. ٨٧. ٨٨. ٨٩. ٩٠. ٩١. ٩٢. ٩٣. ٩٤. ٩٥. ٩٦. ٩٧. ٩٨. ٩٩. ١٠٠.

نقلاً عن كتاب الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين

الوثيقة رقم ٢

خطاب السلطان العثماني الى أهالي تونس

هذا مثالنا العالي الشريف السلطاني وخطابنا المنيف السامي الخاقاني حصن
 بالعون الرباني والمن الصمداني أصدرناه إلى الجنب العالي الأمير الكبير الأكرامي
 الأفخمى الأمجدى الأرشدى الأكملى الأعلى العونى الغوثى الأوحدي القصدي
 الهمامي الماجدى الأصلى العريقى، نسل السلالة الهاشمية فرع الشجرة الزكية
 طراز العصاة العصرية المحفوف بعناية الملك الصمداني الحاكم يومئذ بولاية تونس
 أدام الله سعده وأنجح قصده فوضح لعلمه أنه قد سمع بسيدتنا السنية تعرض الكفار
 خذلهم الله دائماً واستيلاء يدهم البتراء على ولاية طرابلس وما ضاهاها من تلك
 الولاية وهتكهم حرمت المسلمين واستخدامهم لهم، وقد كان عزمنا الشريف
 مصروفاً لفتح تلك الديار واستخلاصها من أيديهم نصرة لأهالى الإسلام وعزة
 لدين سيد الأنام صلوات الله وسلامه عليه واسترقاق للرعايا والبرايا مثل رعايانا
 مصونين مرعيين محفوظين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ولأجل ذلك أرسلنا
 الى الولاية من أعتابنا العلية أمير أمرا وقاضياً وأمرناهما بإجراء الشرع الشريف
 المطهر ودفع الأذى والضرر عن أهالى تلك الأماكن المبجلة والمواطن المباركة لتكون
 الرعايا والبرايا خصوصاً العلماء والفضلاء والفقهاء وأعلام الدين المبين فى دولتنا
 الفائقة ومعدلتنا الراقية على أجمل حال وفراغ بال مشغولين بمعاشهم، ألتستهم
 رطبة بأنواع الأدعية الصالحة فى صحائفنا الراقية.

هذا وفى السنة الماضية كان قد اتصل بمسامعنا الشريفة تهيو سفن الكفار أحلهم
 الله دار البوار وقصدهم تلك الديار، وعند ذلك جهزنا من أعتابنا الجليلة لدفعهم
 وقمعهم سفنا مملوءة بعساكرنا مشحونة بآلات القتال والعدد. فلما سمع بذلك
 الكفار ولوا الفرار ولم يلبثوا ساعة من نهار وانقلبوا صاغرين وتفرقوا وانهزموا
 خاسرين. ولما علم بذلك مملوك حضرتنا العلية أمير الأمراء الكرام القبودان بأعتابنا

الجليلة بيالة دام إقباله وزاد إجلاله وانقضى موسم البحر لا جرم المشار إليه إلى
أعتابنا العلية، ثم الآن قد سمع بسدتنا السنية قصد الكفار المذكورين خذلتهم الله
تعالى وتوجه عزيبتهم الغير موجهة إلى غير تلك الديار لا جرم أمرنا لردهم
وقمعهم ومقابلتهم ومقاتلتهم وقلعهم بتجهيز سفن مملوءة بالعساكر المنصورة
والآلات والعدد ولا غرو أنكم أنتم وآباؤكم من قبل المجاهدين والمدافعين
وحماة دين سيد المراسلين بتلك الأراضي .

فمثالنا الشريف إليكم أنه إذا جاء الكفار إلى تلك الديار قبل قدوم مراكبنا
المذكورة ووصوله لتلك الديار حينئذ تتدبروا على ما هو مركز جيلتكم الحسنة
وطريقكم المستحسنة ودينكم وديانتكم وشجاعتكم وشهامتكم معاونة ومعاوضة
لأهالي الإسلام وأمر خير الأنام مجدين ومجتهدين في دفع حضرة أولئك الكفرة
والفجرة ووهي كيدهم، لتلا يقع والعياذ بالله من أولئك الكفرة بحسن تدبيركم
ولطف رأيكم خسارة لأهالي تلك الولاية المباركة وما هناك من البقاع
والقلاع، وعلى أن قيامكم في هذا الأمر المهم وانتدابكم لدفع ذلك الضرر الملم إنما
هو لله ولإعلاء كلمة الله ولدفع مكيدة أعداء الله، وهذا هو مقصدنا (كذا) الأعظم
وسبيلنا الأقوم دائماً (.) لقيام شوكة الإسلام ومقاصده أمير سيد الأنام
لتكون الرعايا والبرايا في أيام سدتنا الفايقة على أحسن الانتظام وأكمل القيام آمنين
على أنفسهم وآمالهم إن شاء الله تعالى، ورضاؤنا منه نصره المتين والغلبة على
الكفرة أعداء الدين، والله تعالى هو الموفق والمعين بمنه ويمنه إن شاء الله تعالى .
تحريراً في أواسط شهر ربيع الأول من ٩٦٧^(١)، وقد أرسلناه من فائض أنعامنا إلى
الجناب العالي خلعة سنية، فليلبسها داعياً لدولتنا الفايقة والله تعالى هو المسئول
ومنه القبول بمنه ويمنه .



الوثيقة رقم ٣

مرسوم السلطان العثماني إلى أهالي فاس ومراكش

هذا مرسومنا الشريف العالي السلطاني وأمرنا المنيف السامي الخاقاني لا زال نافذاً مطاعاً في المشارق والمغارب، أرسلناه إلى العلماء والفضلاء والصلحا (كذا) وجميع الأمراء والكبراء أهالي الإسلام بإقليم فاس وديار مراكش وبلاد سوس وسائر توابع تلك الأرض المباركة وفقهم الله تعالى نعلمهم أنه لا يخفى أن وإلى تلك الولاية وحاكمها سابقاً الشريف محمد انتقل بالوفاة، وصارت تلك الولاية في يد ولده عبدالله. لكن أهالي تلك الديار الجليلة لم يكونوا لفعله من الشاكرين ولسره من الذاكرين، على أن من أولاد الشريف محمد المزبور افتخار الأمراء الكرام مختار الكبراء الفخام الأميري الكبير الأكرامي الأفخمى الهمامي الماجدى الأصيلي الحسنى السننى المحضوف بصنوف عواطف الملك المهيب (?) وأهالي تلك البلدة ويطلبونه ولواء عليهم يريدونه وتنصيبه في تلك الولاية يحصل لأهاليها الأمن والأمان ومزيد الرفاهية. (?) الاطمئنان فلا جرم قبل تاريخ هذا المنشور العالي والدى المرحوم المغفور له سلطان الغزاة والمجاهدين سلطان سليمان خان أسكنه الله في عرف الجنان المشار إليه أميراً لتلك الولاية وأنعم مرسومًا شريفًا فأرسل المشار إليه ذلك المرسوم إلى سدتنا العلية يطلب تجديده فأعطيناه من سدتنا السنية منشورنا السننى الخاقانى. فمرسومنا الشريف المطاع وأمرنا المنيف واجب الاتباع أن تكونوا مع فخر الأمراء المشار إليه على أحسن حال وأكمل اتحاد لرأيه السديد مطيعين ولفكره الصائب منقادين، لسانه لسانكم ووجهته وجهتكم تقلبكم وقالتم (كذا) لدخوله تلك الديار له صلوات الله عليه وسلامه. على أن أقصى مراد حضرتنا العلية أن تكون أهالي أحسن الإسلام. من الأيام شرقاً وغرباً بعداً وقرباً في أيام دولتنا الفائقة على أحسن حال وأجمل مآل، آمين

مطمئنين فرحين ومستريحين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والله تعالى هو
الموفق المعين بيمينه ويمينه والعلامة الشريف بضمونه . تحريراً فى أوائل صفر
سنة خمس وسبعين وتسعمائة^(١) .



(١) المرجع السابق.

الوثيقة رقم ٤

كتاب السلطان العثماني الى أهل مراکش

الحمد لله الذي بسط أمنه لعباده ونظر إليهم بعين رأفته ووداده وجعل منهم الفائزين الذين جاهدوا في الله حق جهاده والذين قلوبهم يشد بعضهم بعضاً بجوده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وأولاده، وبعد فهذا كتابنا الشريف السلطاني وخطابنا المثيف السامي الخاقاني أصدرناه إلى الجنب العالي الأميري الكبير الأكرامي الأفخمى الأمجدى الأرشدى الهمامى الماجدى الأكملى الأعلى النصرى (كذا) العونى الغوثى الواحدى العضدى الأصيلى العريضى الحسبى النسبى نسل السلالة الهاشمية فرع الشجرة الزكية النبوية طراز العصاة العلوية المحفوف بصنوف لطايف الملك الحاكم يومئذ بولايت (كذا) مراكقوش (كذا) السيد عبد الله أدام الله سعده وأنجح قصده يعرف مضمونه الميمون أنه ورد إلى أبوابنا العالية خلق الأمراء الكرام ذخر الكبراء الفخام ذو القدر والمجد والاحترام المختص بمزيد عناية الملك المالك أخوكم عبدالله أدام الله تعالى علوه مظهر الإخلاص والعبودية والانتماء (كذا) وملجاء (كذا) بكف حمايتنا ومختصا لأبوابنا العلية السنية، ويكون هذا الإخلاص مؤدياً لإصلاح ما بينكم يزيل الشقاق من بينكم ومستلزمًا لانتظام أحوال جمهور الأنام ومتضمنًا رفاهية الخواص والعوام، فيعين له لانتعاشه بعض ما فى يدكم من الممالك التى تحت حوزة حكومتكم وانتقل إليكم من آبائكم الكرام حتى الآن لا يكون بعد اليوم فى ما بينكم من القتال والجidal والليام ويكون الرعايا والبرايا الذين هم ودائع الله فى تلك الأماكن فى غاية الأمن والأمان والرفاهية والاطمئنان بحيث يظهر فى هذا الشأن مرضات (كذا) الله تعالى لاتباع أوامر الله تعالى، حيث قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]. خصوصاً إنكم مع المشار إليه أخوان وبحمد الله تعالى أنكم من أهل الإسلام وغير

ذلك من السادات العظام ، ولا ينبغي بينكم من البغى والعدوان فلا جرم لا يخفى كذلك على علمكم أنكم من قديم الأيام وسوابق الأعوام ممن أظهر الإخلاص والمودة نحو عتبتنا العلية الخاقانية وفرط محبتك أهل جنابنا العالى السلطاني فلأجل إخلاصك ينبغي (أن) تعين لأخواتك (كذا) المشار إليه شيئاً من الممالك الذى انتقل إليكم من آبائكم الكرام وتحت تصرفكم فى هذا الآن (كذا) ليقوت (كذا) المشار إليه وترعى حق الأخوة فيه ويزيل ما بينكم من الشقاق والعناد وتكونوا مجدين فى حفظ البلاد وصون العباد، ويكون الرعايا والبرايا آمنين فى أوطانهم منشرحين بحيث لا خوف عليهم ولا هم يحزنون والله تعالى هو الموفق والمعين بمنه ويمنه إن شاء الله . جرى ذلك فى أواسط جمادى الأولى ٩٧٦ (١).



الوثيقة رقم ٥

مرسوم السلطان العثماني إلى العلماء في الجزائر

هذا مرسومنا الشريف العالي السلطاني وخطابنا المنيف السامي الخاقاني أرسلناه إلى العلماء الصلحاء والشرفاء وسائر أهالي الجزائر دام توفيقهم يعرف مضمونه الميمون أنه ورد من جانبكم لحضرتي قيد مما صدر من الأمراء الكرام أمير بولايت (كذا) جزائر سابقاً محمد باشا ابن صالح باشا ومن كتخذايه من الحروف (كذا) والظلم وأخذوا في يد رعايانا هناك من المال وغير ذلك جميع ما حصل منهم لأهالي الجزائر ثمة عرض لدى حضرتنا السنية مفصلاً، وجعل هنا محمد باشا المشار إليه جزاؤه وأما كتخدنا وما وجد عنده من المال وغيره أرسلناه إلى الجزائر جملة ليؤخذ بحسب الشرع الشريف منهم حقوق العباد في أيام عدالتنا الفاتكة وكذلك أرسلناه في ذلك الشأن حكماً آخر موجه (كذا) إلى أمير الأمراء الكرام كبير الكبراء الفخام ذي القدر والمجد والاحترام المختص بمزيد عناية الملك الأعلى أمير الأمراء بولايت (كذا) الجزائر على باشا دام الله إقباله لأن يرد لأهالي الجزائر المزبورون منهم بالظلم والعدوان حتى يأخذ منهم كل ذي حق حقه، وأقصى مراد حضرتنا الجليل أن يكون الرعايا والبرايا الذين هم ودائع الله تعالى في أيام دولتنا الفاتكة في غاية الأمن والأمان والرفاهية والاطمئنان فرحين مستريحين في أوطانهم مواظبين على الأدعية المقبولة والأثنية المباركة في آناء الليل وأطراف النهار، والله تعالى هو الموفق والمعين بمنه ويمنه إن شاء الله تعالى. جرى ذلك وحرر في أواخر جمادى الأولى ٩٧٦ (١).

الوثيقة رقم ٦

مرسوم السلطان العثماني إلى أهالي تونس

هذا مرسومنا الشريف العالي السلطاني وأمرنا المنيف السامي الخاقاني قد أرسلناه إلى مفاخر الأماجد والأعيان أولاد سعدية وتوابعكم دام مجدكم ينهي إليكم نه لما وردت على أعتابنا العلية المكاتب من أعيان ولاية تونس المشتملة على عرض خلوصكم لعتبتنا العلية وشكرانهم على فخر الأمثال والأقران رمضان زيد مجده الذي أقيم مقام أمير الأمراء الكرام قبودان على باشا دام إقباله الجزائر الغرب سابقاً والتماسهم تقليد الولاية إليه وتفويض جميع الأمور إليه وتحميلها عليه، قبلنا التماسهم لكن ما قلدنا هبل الحقنا الولاية المذكورة بلواء على باشا المشار إليه وقررنا رمضان المومئ إليه في وكالته قائماً مقام إيالته، وفوضنا محافظة تلك البلاد وضبط العساكر وترفيه قلوب العباد وغيرها مما يتعلق بصيانة عرض الدولة والدين وإجراء أحكام الشرع المبين، فالمأمول منكم أن تكونوا مع الوكيل المشار إليه على أمجد اتفاق وأكمل اتحاد، لسانكم واحد، وجهتكم واحدة مجدداً وسعيًا فيما يتعلق بالدين والدولة وقيام ناموس سلطتنا المتين مع مزيد الاعتبار وتمام الجهد والاهتمام، بحيث يظهر من جدكم المشهور وسعيكم المشكور اطمئنان البلاد وحراستها وحفظ الولاية والعباد. على أن نظرنا الشريف العالي دائماً أبداً إلى تلك الأرض المباركة وإلى أهاليها وسد أمور أسافلها وأعاليتها وأقصى مراد حضرتنا العلية أن يكون الرعايا والبرايا خصوصاً سكان تلك الأرض بالطول والعرض ألسنتهم رطبة وأكفهم مبسوطة مبتهلين بأنواع الأدعية الصالحة والأثنية المقبولة وإن تعالى هو الموفق والمعين بمنه ويمنه، ٢٣ شوال ٩٧٩ (١).

(١) المرجع السابق.

وقد أرسلت نسخة من هذا الأمر الشريف إلى كل من:

- سيد أبو الطيب بتونس - علماء وصلاحاء والمرابطين والقياد والشيوخ
بالقيروان وسوسة ومنستير والحمامات وبلد الجريد ونفطه وتوزر وسوسة والجزائر -
كذلك إلى ولد سفيدليه؟ ولد بليار؟ وإلى كوكو والكتخدا عرب أحمد، بتاريخ ٢٥
شوال ٩٧٩ (١).



الوثيقة رقم ٧

مرسوم السلطان العثماني إلى قائد الجيوش بالجزائر

هذا مرسومنا الشريف العالي السلطاني وأمرنا المنيف الخاقاني لا زال نافذاً بالعون الرباني ومطاعاً له بالمن السبحاني قد أرسلناه إلى فخر الأعيان ذخر الأقران قائد جيش الجيوش سليمان زيد مجده ينهى إليه أن أمير الأمراء الكرام بولاية جزائر الغرب سابقاً قبودان على باشا دام إقباله قد عرض منك خلوص الطوية لسدتنا السنية وحسن معاشرتك مع جيوش الإسلام ومثابرتك على إتمام الأمور المهام وبذل السعي والاجتهاد بخلوص الفؤاد في أمر الجهاد، وورد أيضاً إلى عتبتنا العلية من أعيان ولاية تونس المحمية فلا يخفى عليك أن تلك الديار كسائر ممالكنا الجليلة الاعتبار والعساكر المنصورة فيها كجندنا الملازمين لسدتنا السنية بل هم أعز عندنا من هؤلاء قدرًا وشرقًا، من حيث إنهم يواظبون الجهاد ويحرسون البلاد عن فساد المفسدين وأضرار أعداء الدين لأن أقصى مراد حضرتنا منها ومن كان فيها من رعاياها وعلمائها وصلحائها وفقرائها وضعفائها أن يكونوا مصونين مأمونين بأنفسهم وأموالهم وأهلهم وعيالهم ومساكنهم ومواطنهم من مضرة العدى وفساد المفسدين في أيام عدالتنا، مرفهين مطمئنين مواظبين على الدعاء بالخير لدولتنا الباهرة ودوام سلطتنا الزاهرة ولأجل هذا ألحقنا تلك الولاية بلواء المومئ إليه وقررنا الوكيل المزبور على وكالته قائمًا مقام إيالته فعليك أن تتخذ وتتفق معه أكمل الاتفاق، وتكون معه دائماً على أجمل الوفاق فيما يتعلق بصيانة عرض الدولة والدين وإجراء أحكام الشرع المبين وترفيه قلوب المؤمنين ودفع فساد المفسدين ورفع مضرة أعداء الدين المتين، ويعاشر مع العشائر حسن المعاشرة ويعامل مع العساكر ويظهر أقوى المظاهرة ويعين بالعساكر وبالزواد (كذا) والذخائر أن استعان هو منك، بحيث يتحقق عند الداني والقاصي ولدى كل مطيع وعاصٍ، وكأنكم نفس واحدة عارية من سوء الشقاق والاختلاف والولاية محروسة الجوانب والأطراف

بكمال الوفاق والائتلاف، إذ ذلك ذريعة لإصلاح أحوال الخواص والعوام ووسيلة
لإعلاء كلمة الإسلام والسلام، والحمد لله وحدة والصلاة والسلام على من لا نبي
بعده.

حرر في ٤ شوال ٩٧٩^(١) وسلم ٢٥ شوال ٩٧٩.

نسخة من هذا الأمر إلى سليمان قائد الجيش.



(١) المرجع السابق.

الوثيقة رقم ٨

مرسوم السلطان العثماني إلى العلماء في الجزائر

هذا مرسومنا الشريف العالي السلطاني وأمرنا السامي الخاقاني لا زال نافذاً في المشارق والمغارب أرسلناه إلى العلماء والشرفاء والصلحاء (كذا) والمشايخ وأعيان الناس عبرت به الجزائر وجميع الرعايا وكافة البرايا ثمة، بتضمن أعلامهم أن مدينة الجزائر وما تبعها من جملة ممالكنا المحروسة وخلص انتظامها وصون أهاليها وأقصى مراد حضرتنا الجليلة وغاية إرادتنا السنية أن يكون رعايانا هنالك في أيام دولتنا العادلة آمنين مطمئنين منشرحين فرحين آمنين على أنفسهم مضبوطين في جميع أحوالهم ثغورهم مسدودة بسد سديد وقلاعهم مصونة بالأمن والأمان وأفئدتهم وألسنتهم رطبة بالدعاء الصالح لدوام دولتنا الفاتكة مداً (كذا) الدهور والأزمان وعن ذلك الشأن قلدنا أمور تلك الممالك المحمية أولئك الأقاليم المحروسة، قلدنا أمور تلك الممالك المحروسة وصلابته وكمال عزمه وشجاعته وحسن تدبيره وكياسته فوضنا إليه ضبط تلك الأقاليم وصونها والاهتمام بها وحفظ البلاد وصون العباد، ودفع المحن والرزايا عن جميع الرعايا وإحياء شرائع الدين المتين وإجراء قوانين سيد المرسلين ليكون أهالي الإسلام وأمت (كذا) خير الأنام في تلك الأراضي المباركة في ظل ظليل وعدل جميل تحت كنف حماية سلطتنا السنية وفي زمن خلافتنا الفاتكة عن إيمانهم وعن شمائلهم محفوفين بأكمل الراحة مرفهين وأجمل الاستراحة منعمين آمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

٢٩ شوال ٩٧٩ (١).



الوثيقة رقم ٩

مرسوم السلطان العثماني إلى قائم الأعمال في تونس

رمضان زيد

هذا مرسومنا الشريف العالي السلطاني ومثالنا المنيف السامي الخاقاني لا زال نافذاً مطاعاً بالعون الرباني قد أرسلناه إلى افتخار الأمثال والأعيان رمضان زيد مجده القائد تونس القائم أمير الأمراء الكرام قيودان على باشا دام إقباله وإلى كل من يكن قائداً بهذه ثمه ينتهي إليه قد أصدرت مراحمننا الجليلة السلطانية وظهرت عواطفنا الجميلة الخاقانية في مفاخر الصلحاء الساكنين مراجع الفضلاء الصالحين الشيخ أمور بن عبد القدير الصوصوري والشيخ محمد الغرياني والشيخ محمد الفاسي المتوطنين ثمة، فأمرنا بأن لا يدخل أحد من الولاة والحكام والقوائد والأكرام وغيرهم ممن في يده حكومة على الأنام، في الزوايا المكانية بأيديهم وتحت تصرفهم المنتقلة إليهم أحد في ذلك الباب ويكون كل منهم في أيام سلطتنا السنية المحمية مصوناً مرفهاً مطمئناً تحت حكومتنا وظل عدالتنا البهية فيدعوننا بالخير في أبرك الأمكنة والأقطار وأشرف الأزمنة والأعصار بالعشى والأبكار والليالي والأسحار، والسلام والحمد لله وحده والسلام على من لا نبي بعده.

نسخة من هذا الأمر وجهت إلى:

- الشيخ سيدي أحمد البروري، قائد القيروان.
- القائد رمضان.
- بيلر باي الجزائر.
- الشيخ سعيد محمد الغرياني المستوطن مدينة القيروان.

- الشيخ محمد الفاسي المستوطنين بلدة ريغة المحمية من أعمال ولاية جزائر الغرب صانها الله عن آفات..... فأمنها أن يكون كل منهم معافى سلم هذا الفرمان إلى جعفر جاويش من الديوان ليرسل إلى الباشا في غرة ذي القعدة ٩٧٩ (١).



الوثيقة رقم ١٠

مرسوم السلطان العثماني إلى الأمير أحمد الحاكم
أحد الولاة

هذا مرسومنا الشريف العالي السلطاني وأمرنا المنيف السامي الخاقاني لا زال نافذاً بالعون الرباني قد أرسلنا إلى الميرى الكبير الأكرامى العالي، إلى النضيرى (كذا) المختص بمزيد عناية الملك الصمد الأمير أحمد الحاكم يومئذ بولاية (.....) دام سعه ينهى إليه أنه قد أصدرنا عواطف الجليلة السلطانية وأظهرنا..... الجميلة الخاقانية فى حق مملوك حضرتنا العلية وخلاصة خدام سدتنا السنية أمير الأمراء الكرام أحمد دام إقباله وقلدناه ولاية الجزائر الغربية وما تبعها إياه وفوضنا إليه جميع ما يتعلق بولاية الولاية المحمية لكمال الاعتناء لدينه وديانته، وفرط شجاعته وشهامته وحسن تدبيره بالرأى الصائب وتداركها (كذا) الشاقب أمرناه بإجراء ما اقتضاه الشرع المبين وإحياء مراسم الدين المتين وضبط الرعايا والممالك وحفظ البلاد والمسالك وأن يكون معكم على أكمل الاتفاق والاتحاد وأجمل المعاشرة وأخلص الوداد حيث يكون لسانكم واحداً وجنانكم متحداً فيما يتعلق بصيانة العرض والدين وإقامة (.....) الشرع المبين، ويظهر من حسن اتحادكم المبرز، ويحصل من سعيكم المشكور الأمن والأمان فى البلاد والرفاهية والاطمئنان فى قلوب العباد. على أن نظرنا الشريف العالي السلطاني لا يخلو من أن يتعلق بمحاسن الإشفاق (?) وأن يتألق بمكارم الأخلاق إلى تلك الأرض بالطول وبالعرض وإلى أهاليها وصلحائها ومواليها وأسفالها وأياليها إذا أقصى مراد حضرتنا العلية أن تكون تلك الولاية المحامية وأهاليها نطمئنين مرفهين مصونين من تعدى الأعداء اللثام فى ظل عدالتنا ما دام الليالى والأيام والشهور، ألسنتكم رطبة بالأدعية الصالحة لدوام دولتنا وقيام حشمتنا السامية إلى قيام الساعة وساعة الصيام (كذا)، والحمد لله وحده والصلاة على من لا نبي بعده. ٢٩ شوال ٩٧٩^(١).

(١) المرجع السابق.

الوثيقة رقم ١١

مرسوم السلطان العثماني إلى أبي الطيب

هذا مرسومنا الشريف العالي وخطابنا المنيف السامي الخاقاني الى الشيخى الأكرامى الأفخمى الأمجدى الأرشدى الشيخى أبو الطيب يعرف مضمونة الميمون أنة لا يخفى على علمكم أن الله جلت قدرته وعظمت مشيئته منذ إقامتنا فى دولت هائلة (.....) وسيادة سايرت كالشمس وضحاها وسعادة ساعية كالقمر اذا تلاها جليلة عضد الأيمان مرفوع، ومنحنا سلطنت (كذا) سنى (.....) فلا جرم وجب علينا وتحتم على ذمتنا أداء شكر هذا اللطيف الجسيم والإحسان العميم ذلك، فعند الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وكان أبداً رأينا ودائماً عادتنا إجراء الشرع المبين واتفاق سنن سيد المرسلين عليه الصلاة وعلى آله وصحبه أجمعين، والقيام فى إطفاء نائرة الكفر والطغيان ونشر العدل والإحسان، ثم لما أن ولاية (كذا) تونس قد فتحت بعناية الله تعالى وانضمت إلى ممالكنا المحروسة ونظرنا الشريف العالي دائماً إليها وإلى انتظام أمور أهاليها لا جرم عينا أمرية أمرائها خلاصت (كذا) ممالكك حضرينا الجليلة أمير الأمراء الكرام كبير الكبراء الفخام حيدر باشا دامت تهماليه اعتمادنا على حسن سيرته وسريته وصفاء عقيدته وديانته نصبنا بولاية تونس المحمية وفوضنا إليه أمورها جليلة وخطرها، على أن من يخدم أعتابنا الجليلة بحسن الطوية وصفا عنايتنا الفائقة وأنت كذلك اعتمادنا على وفور عقلك كمال دينك وديانتك وحسن إسلامك وفريد إطاعتك وإخلاصك فمرسومنا الشريف المطاع وأمرنا المنيف الواجب الاتباع أنه إذا قدم مملوك حضرتنا العلية أمير الأمراء المشار إليه إلى الديار وباشر فى حفظها وحراستها والنظر فى أمورها تكون أنت أيضاً على مقتضى إخلاصك لأعتابنا العلية معه على ما يراه وجيهاً ومناسباً باذلاً مقدورك فى ما يتعلق بالدين والدولة وإصلاح أحوال الرعية ليظهر من سعيك المشكور وجدك المشهور تجارة لن تبور، هذا هو المأمول منك.

فإن عرض لأعتابنا الشريفة أمير الأمراء المشار إليه حسن اهتمامك وفريد إقدامك في أمور الدين والدولة وصلاح الأمة، حينئذ يشاهد من جانب سدتنا السنية أنواع الاعتزاز والإكرام وتكون مرعيًا من عتبتنا العلية بالرعاية الكاملة لأن أقصى مراد حضرتنا الوريقة الخاقانية أن يكون جميع أهالي الإسلام تمر في أيام دولتنا العادلة في غاية الأمن والأمان ونهاية الرفاهية والاطمئنان ويكونون مستريحين منشرحين في أوطانهم وفي ثغورهم آمنين، بحيث لا خوف عليهم ولا هو يحزنون والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد لا نبي بعده.

١٥ محرم ٩٨١^(١).



الوثيقة رقم ١٢

مرسوم السلطان العثماني إلى أعيان تونس

هذا مرسومنا الشريف العالي السلطاني ومثالنا المنيف السامي الخاقاني لا زال نافذاً بالعون الرباني ومطاعاً بالصون السبحاني قد أرسلناه إلى مفاخر الأماثل من أعيان ولاية تونس المحمية عن العاهات والبلىة ينهى إليهم أنه لما شرفنا الله تعالى بخطاب وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده وفضلنا على كثير من عبادة وفوض إلينا تعمير البلاد وتدمير الكفر وأصحاب البغى والعناد فوجب علينا أن ندبر في تلك الأمور أحسن التدبير ونقطع بعناية الله القدير دابر القوم الظالمين بالاستئصال والتدبير أحضرنا في هذه السنة المباركة سفناً كثيرة الأعداد مشحونة بصنوف الأجناد وضروب أدوات الحروب وآلات الجهاد الغزاء (كذا) مع أشرار الكفار المتوطنين في سواحل البحار وفوضنا رئاسة هؤلاء العساكر إلى مفخر ممالكنا الأكابر أمير الأمراء الكرام إلى قبودان فلج على باشا، وفق الله تعالى لما يحبه وما يشاء وألزمنا عليه إتمام تلك الأمور لحسن اعتمادنا عليه في سعيه المشكور، وجعلنا يده بفضل الله قوية البطش بقوة عضد سلطتنا القاهرة ليرهب المخالفون خشية سطوه صولتنا الباهرة وأقمناه، مقامنا، فيعمل برأيه الثاقب ودبر (كذا) بتدبيره الصائب حسبما تقتضيه الحال في المشاجرة والقتال وصممنا إرساله في فصل الربيع من جنابنا الرفيع إلى ولاية تونس المحمية صانها الله عن كل البلىة، فإذا وصل إليكم بجنودنا المنصورة ودخلوا في تلك الولاية المعمورة فعليكم أن تدبروا أحسن التدابير في أمور الذخائر لهؤلاء العساكر والنصرة لهم بجنود الإسلام في دفع مضرة الأعداء اللئام في البر(.....) وعن صميم القلب بالدعاء الخير وأن يطيعوا له أخلص الإطاعة وتمثلوا بما أمره وتجيّبوا لما دعاه بأصغر الإجابة، فمن أطاعه فقد أطاع لحضرتنا ومن خالفه فقد عادى لدولتنا، فإن استعان منكم أعينوا وتعاونوا بما أمرتم من ادخار الذخائر وأدوات القتال وتجهيز العساكر وغيرها، فنسأل الله السلام

والنصر لعساكر الإسلام فإذا تم أمر الكفار بعون الله الملك القهار نصبنا فيها أميراً من جنابنا الكريم على ما صدر منكم في الرضا فيه والتسليم، حتى يكون الرعايا والبرايا الذين هم ودائع الله تعالى آمنين على أنفسهم وأولادهم وعيالهم ومضبوطين ومنتظمين في جميع أحوالهم، ولا يخلو من أن ننظر العناية دائماً وأبداً إن شاء الله تعالى والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

٨ ذى الحجة ٩٨٠ (١).

وجهت نسخة من هذا فرمان إلى كل من:

سیدی ابي الطیب الحصارى وقائد الجيش سليمان وقاضی تونس.



الوثيقة رقم ١٣

مرسوم السلطان العثماني من الباب العالي إلى الحاكم بولاية فاس

الترجمة العربية للرسالة

هذا أمرنا (٢٦). الشريف العالي السلطاني لا زال مطاعاً له وناقذاً بالعون الرباني قد أرسلناه إلى جناب الأميري الكبير الأعدلى الألفاف مبارك أرسلناه إلى الجناب العالي الأميري الكبيرى الأكرامى الأمجدى الأرشدى الأكملى الأعدلى النصرى الذخرى (كذا) العونى الغوثى الوتدى (كذا) العضدى الهامى الماجدى الأصلى العربى الحسبى النسبى، نسل السلالة الهاشمية وفرع الشجرة الزكية النبوية طراز العصاة العلوية لأمرء الأشراف المطاع له الحاكم العادل بولاية فاس المحمية بحماية ملك الناس، ينهى لعمله الكريم أنه قد ورد كتابه الذى حلى بالدر النظيم إلى سدتنا السنية السلطانية وعتبتنا العلية رياض منظومة ومنتورة وألفيناه متضمناً ومحتوياً على ما من الله العليم ويسره للمعز الكريم من نصر المؤمنين وقهر الأعداء المشركين، وإعلاء كلمة الدين المتين وإجراء أحكام الشرع المبين، وبذل المقدور فى معاضدة أهالى ولاية أندلس المحمية حماها الله عن العاهات والبلية، حيث هبت نسمات النصر على جيوش الإسلام فليل يا خيل الله اركبى، وبأيد (كذا) النصر اكتسبى وقام الحرب على ساق وأضحى كل الأعداء إلى حتفه يساق وهجرت السيوف الإسلامية لاعتماد (كذا)، وأقسمت أنها لا تقر إلا فى الرؤوس (كذا) والأسنة أشرعت وألت أنها الا تروى ظمائها (كذا) إلا من دماء النفوس وغير ذلك من غرض الإخلاص لسدتنا السنية وإنهاء الاختصاص لتبعتنا العلية فقد فهمنا جميع ما فيه وأطلعنا على كل الإسلام، حيث سلكت ملكت وأين جنحت من بلاد الكفر أسرت وفتحت وظفرهم على حرب المشركين الذين ذعير (كذا) من هيئتنا دانيهم وقاصيهم، أنزل الذين ظاهرهم من أهل الكتاب من صياصبيهم فالمأمول منكم أن تكون المودت (كذا) بيننا مرصوص البينان وبينان المحبة متيناً (؟) الأركان يرفع مباني العدل والإنصاف، ويقلع أساس الجور

دائمًا أبدًا سرمدًا بصفاء الطوية وخلوص البال ما دارت الأيام والليالي والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

جمادى الأول ٦٨١^(١).

[illegible]

الشكل رقم 4 . رسالة من البابي السال الى الحاكم بولاية قاس .
1 . ر . و . 4 . هجعة قفترى رقم 22 . ص 1

رسالة من الباب العالي إلى الحاكم بولاية فاس نقلا عن كتاب الدولة العثمانية السابق ذكره

(١) المرجع السابق.

الوثيقة رقم ١٤

مرسوم السلطان العثماني إلى علي بن عابد في القيروان

هذا مرسومنا الشريف العالي السلطاني وأمرنا المنيف السامي الخاقاني أرسلناه إلى الشيخ الكبير الأكرامي الأمجدى الأرشدى الأوحدي أمين الملة معتمد الدولة الشيخ علي بن عامر دام مجده يعرف مضمونه الميمون أنه لا يخفى عليكم بأن الجد والاجتهاد في أمر الجهاد والشفقة على العباد من الحاضر والباد (كذا)، وتخليص الممالك والولايات وإنقاذ الأنفس من المهالك والورطات مسلكنا الشريف الجميل وسمتنا اللطيف الجليل وليس بفعل الله تعالى افتقاره ولا بغية وما في ضميرنا إرادة ولا منية سوى رفاهية العالم ولحما (كذا) يدينه (كذا) قلوب بني آدم فلا يخفى عليكم أنه قد استمع واتضح بعلمنا الشريف العالي ما صدر منكم، ونشأ من جنابكم قبل هذا من مزيد الجد والاجتهاد، وحسن الطاعة والانقياد وتمام المتابعة لأعتابنا العلية بالمعمورة والمعونة لحدودنا القوية المنصورة بقلبيكم وبقالبكم، هذا هو المأمول منكم بيض الله وجهكم يوم تبيض وجوه الصادقين، لا جرم قد أرسلنا إلى تلك الجوانب كذلك عمارتنا المنصورة مع عساكرنا الغزاة، فلتكونوا كذلك مع ما أنتم عليه من قبل ومن بعد كما هو مركز في جليلكم الحسنة وطريقتكم المرغوبة المستحسنة من المعاونة والمظاهرة لعساكرنا المترودة (كذا) (ولعلها المترودة) باذلاً مجهودكم صادقاً مقدوركم مع كمال الجد والاجتهاد لمعاونة حماة الدين المتين وقطع دابر القوم الكفرة العنيدة المتمردين، كما قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] ومضمونة الشرد (كذا)، وغاية المطلوب والجدوى لأن عزمنا الشريف العالي السلطاني دائماً إلى الغزو في سبيل الله والجهاد بأعداء (كذا) الله وإطفاء نائرة الكفرة خذلهم الله ومرادا رادتنا العلية الشهنشاهية أن يكون الرعايا والبرايا في أيام دولتنا الفائقة العادلة آمين ومطمئنين تحت ظل كنف حمايتنا، ثغورهم مسدودة بسد سديد وقلاعهم مصنونة ومدنهم محفوظة بالأمن

والأمان وألستهم رطبة بالدعاء الصالح لدوام دولتنا العادلة (على) مر الدهور
والأزمان ومنشرحين فرحين بحيث لاخوف عليهم ولا هم يحزنون والله تعالى هو
المعين بمنه ويمنه، ٢١ شوال ١٢٨١^(١).

وجهت هذه النسخة من هذا فرمان إلى:

شيوخ القيروان..... وإلى سيدى محمد باى.



الوثيقة رقم ١٥

مرسوم السلطان العثماني إلى الأمير أحمد حاكم زوارة

هذا مرسومنا الشريف العالي السلطاني ومثالنا المنيف السامي الخاقاني مبارك أرسلناه إلى الجانب الأميري الكبيرى الأرشدى الأفخمى الأمير أحمد حاكم زوارة دام مجده ينهى إليه أنا قد صممنا الجهاد مع الكفرة ودفع مضرات أرباب البغى والعناد، وتوكلنا على عون الله تعالى وحسن توفيقه وعناياته وتوسلنا بكرامات سيد الأنبياء ومعجزات عليه السلام وعلى آله وصحبه أفضل الصلوات وأكمل التحيات، وجهزنا السفائن المملوءة بأنواع آلات الحرب والقتال وأصناف أدوات الضرب والنزال، وأملينا (كذا) كلها بأبطال الرجال المبارزين لإعلاء كلمة الدين المبين ثم أرسلناه إليكم مع مملوك عتبتنا العالية الشأن القائد سليمان زيد قدره الخلعة الفاخرة، فإذا وصل إليكم كتابنا الشريف وحكمنا المنيف فعليكم أن تلقاها بالتعظيم والإجلال وتلبها شاكراً على نعماء الله المتعال، وأن تظهر ما أضمر فيكم من الشجاعات (كذا) والجلالة فى المحاربة لدفع المضرة و(.....)، وأن تحضر الذخائر الوافرة (ة) والزوائد المتكاثرة لعساكرنا المنصورة باطاف الله المبرورة الواردين على تلك الديار لدفع شرور أشرار الكفار، فإذا ورد عليكم أمرنا الشريف وحكمنا المنيف بعد هذا وطلب منكم الذخائر للعساكر الجليلة المآثر ادفعوها إلى من طلب منكم بأمرنا الشريف وتعاونوا بالعساكر وأدوات القتال.

وجهت هذه النسخة من فرمان إلى:

جناب حاكم ولاية (كذا) عباس

١٥ ذى القعدة ٩٨١ (١).



الوثيقة رقم ١٦

مرسوم الباب العالي إلى الشيخ علي

هذا مرسومنا إلى قد أرسلناه إلى الجناب الشيخ علي دام مجده ينهى إليه أنه قد ورد على سدتنا السنية كتاب أمير الأمراء الكرام بولاية تونس المحمية في أواسط ذي القعدة المباركة لسنة إحدى وثمانين وتسعمائة من الهجرة النبوية تضمن على أن كفرة إسبانيا خذلهم تعالى القاهر إلى يوم الدين قد جمع جنوده عبدة الشياطين وبالع في الاحتشاد واستكثروا أولياءه الطاغين أولى البغي والفساد وأتى بهم بغتة مع السفن على الولاية المزبورة، فحاصروا قلعتي تونس وبكررد (بنزرت) وحاربوا عساكرنا المنصورة فتعلقت إرادة الله الملك المتعال بما تضمنه الحرب سجال وأنكم تناصرتهم جنود الإسلام وقابلتم الكفار اللثام وعاونتم وسعيتم في التناصر حسب المقدور، وبذلتهم جهدكم في تلك الأمور وغير ذلك من تكميل مهمات الجهاد وبذل الاجتهاد في دفع الفساد ورفع النشاد جزاكم الله خير الجزاء في يوم الميعاد، فلما أحاط علمنا الشريف جميع ما فيه، واستوضح كل ما يعويه على أقدام الأقدام وركضنا بأرجل الاهتمام فجهزنا سفائن مملوءة بأبطال الرجال وآلات الحرب والقتال وصممنا إرساله في فصل الربيع لتلك السنة، لتخليص ما أخذه الكفار من القلاع والبقاع في تلك الديار وتسخير قلعة حلق الواد وغيرها من المداين الحربية ومواطن أرباب الفساد متوكلاً على فضل الله مرسل الرياح ومتوسلاً بمعجزات من هو مرسل الفتاح حامداً الله على ما أتانا من لدنه سلطاناً نصيراً وكرم بذلك اسمنا في كل قطر منبراً وسريراً، وحمد بنا الثغور الإسلامية وحرمتها وكثر الحماة الخالصين والكماء المخلصين فإذا وصل إليكم كتابنا هذا فالمأمول منكم أن تمثلوا به أحسن الامتثال وتكونوا مع المشار إليه على أوفق حال فيما يتعلق بحماية بيضة الإسلام وإعلاء كلمة الله العلام والإعانة له بالعساكر وأدوات الحرب وأوفر والذخائر الوافية لعبادنا المرسلين مع السفن للجهاد، لأن أقصى مطالبنا

السنية وقصوى مأربنا أن تكون الرعايا والبرايا الذين هم ودائع الله تعالى مطمئنين مرفهين في فيء حمايتنا ومستظلين بظل حكومتنا وعدالتنا أن الله تعالى لا يضيع أجر خدمتكم لدولتنا بجنود المسلمين . . إن الله لا يضيع أجر المحسنين والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

٣-٥ ذى الحجة ٩٨١^(١).



الوثيقة رقم ١٧

مرسوم السلطان العثماني الى والى فاس

هذا كتابنا الشريف العالى السلطاني وخطابنا المنيف السامي الخاقاني لا زال نافذاً في المشارق والمغارب إلى الجناب الأمير الكبير الأمجدى الأرشدى الأكملى الأعلى النضرى (كذا) الذخرى (كذا) العونى الغوثى الوتدى (كذا) العضدى الأمامى المهامى الأصلى العريقى الحبسى نسل السلالة الهاشمية فرع الشجرة الزكية النبوية سند الملة المحمدية طراز العصاة العلوية سيد الأمراء الأشرف فى العالين نصير الغزاة والمجاهدين ظهير الملوك والسلاطين المحصن بمزيد عناية الملك المبين الأمير عبد الملك الوالى يومئذ بولاية فاس، أدام الله تعالى سعده وانجح قصده ينهى إلى جناحهم (كذا) الكريم أنهم قد امتازوا بين الأقران والأشراف وسائر أمراء الأطراف والأكناف بالانتساب إلى جنابنا الشريف العالى السلطاني والاستناد إلى بابنا المنيف السامى الخاقانى، وقد تيسر لكم الارتقاء إلى أعلى الدرجات والمرتبات والاتصال إلى جميع المقاصد والأرب وتحصل مرادكم من ما بينكم وانقيادكم فالواجب عليكم وعلى من لديكم بمقابلة هذا لمن وأعلى (كذا) عليكم أن تكونوا فى جادة الصداقة . . . وطريق الاستقامة ثابتين ودائمين وتعينوا الغزاة المؤمنين وكماه الموحدين وتستحضروا السفائن العديدة المسلحة وتعينوا للسفائن التى من جانب أعتابنا العلية . . . وتتفقوا أحسن الاتفاق والاتحاد مع أمير الكرام حسن باشا دام إقباله الوالى يومئذ بولاية جزائر وتدفعوا مضرة الأعداء وكيد الكفرة وسائر الأشقياء وتبذلوا غاية جدكم وتصرفوا نصر جهدكم فى طريق الغزاة والجهاد وإصلاح أحوال الرعايا وسائر أهالى البلاد حتى تكونوا مستأهلين لأنواع الألفاف العلية ومستوجبين لأصناف الأعطاف الجزيلة فإن الله تعالى لا يضيع أجر المجاهدين.

٢٢ ربيع الأول ١٢٨٥هـ (١).

الوثيقة رقم ١٨

كتاب السلطان العثماني إلى والي فاس

هذا كتابنا الشريف العالي السلطاني وخطابنا المنيف الخاقاني لا زال نافذاً بالعون الرباني ومطاعاً له في القاصي والداني أصدرناه وأرسلنا (كذا) معرباً في الحرب الوجيز إلى الجناب الأميري (كذا) الكبيرى الهمامى النصرى الأمجدى الأكملى الأرشدى الأعلى الأصلى الحسبى العريقى النسبى، نسل السلالة الهاشمية فرع الشجرة الزكية النبوية نصير الغزاة ظهير المجاهدين المحفوف بصنوف عواطف الملك المعين مولاي عبد الملك الحكم (كذا) يومئذ بولاية فاس ومرا نقوش (كذا) دام تجنى من أغصان (كذا) وما (كذا) ثمرات نصرة الجيوش، ينهى ما فيه ويفصح أن الله تعالى تواتر... على البرايا (كذا) ونوالى لما أنعم وتفضل علينا بتقليد خلافته فى الأرضين فخضعت لركابنا، وانقادت رقاب أساطين السلاطين ووقفنا بسلوك مناهج الملك والكفاية والنهوض لصالح الخلق والولاية بسطنا سياط الأمن والأمان شكراً لنعمه والإحسان بعناية المتظاهرة، وصرفنا عنان العناية إلى تمهيد قواعد السلطنة بعدما تخلخل وبتشديد مباني الدولة أثر ما تزلزل حتى صار كل من البدعة والضلال والكفر والجدال منهزمة البنا ومتقرة ألفنا (كذا) وفتحنا أبواب اللطف والأنعام وكشفنا قناع القهر والانتقام على وجوه الأحباب الكرام وعن جبين الأعداء، فمن التجأ إليها بخلوص الولا (كذا) فقد فاز بكل ما ارتجى (كذا) وصعد وارتقى على أعلى الدرجات، ومن تجنب عنها وهرب هبط فى أسفل الدركات، فإن كنتم على قدم الصداقة قائماً وساق الاستقامة ثابتاً دائماً فى الانتماء والانتساب إلى أبوابنا العالية الأعتاب لحصل لكم الارتقاء على المراتب وقصوى المقاصد والمأرب والامتياز الأمثال والأقران بعلو القدر وسمو الشأن، ويكون أركان المودة بيننا مرصوص البنيان وبنيان المحبة سديد الأركان، فلما آل الحال إلى هذا المآل وجب عليكم وعلى كل من لديكم أن يجتهد فى تشييد مباني الإخلاص

ومعاقدة الاختصاص ويعامل مع أمير الأ(مراء) الكرام حسن باشا، أدام الله إقباله وحسنت خصاله، الذي قلدناه ولاية جزائر الغرب صانها الله وأهلها عن استيلاء الحرب، ومع سائر نواب سلطتنا القاهرة وخدام عتبتنا العلية حسن المعاملة والاتفاق العارى عن سوء الشقاق فيما يتعلق بصيانة عرض الدولة والدين وإحكام الشرع المبين، وإذا أحضرنا من سددتنا السنية لدفع ضرر الأعداء عن تلك الديار أو للجهاد مع الكفار سفناً مملوءة بأبطال الرجال وفلكاً مشحوناً (كذا) بأدوات الضرب والتزال فعليكم أن تعاونوا إياهم بالعساكر وآلات الحرب والذخائر وغيرها مما يتفرع (؟) عليه التصرف والتأييد والاعتقاد حتى يكون (كذا) المملكتان كبير (كذا) وصغيرة (كذا) فى جسد وساعد فى عضد (كذا) لفرط الاتحاد فينقلب كل منهم إلى أهلة مسروراً وكان سعيكم مشكوراً والمسافرون يصدرون عنهما واليهما يترددون فى حوز الأمن والسلامة ويدعون بالخير لصحائفنا الكريمة إلى يوم القيمة (كذا)، وتجري إحضار الرسائل والمكاتبات فى استقراض الخدمات والمهمات دائماً أبداً سرمداً، والحمد لله وحده والسلام على من (لا) نبى بعده تم.

٢٢ ربيع الأول ٩٨٥^(١).



المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية:

- ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم:
- ١- (الكامل في التاريخ) ١٣ جزءاً. دار صادر ودار بيروت ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م.
- الإدريسي: أبو عبد الله محمد بن محمد ت (٥٦٠هـ):
- ٢- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المجلد الأول، مكتبة الثقافة الدينية.
- ابن إياس: محمد بن أحمد بن إياس ت (٩٣٠هـ - ١٥٢٣م):
- ٣- بدائع الزهور في وقائع الدهور (أربعة أجزاء) دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة. الطبعة الثالثة (١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م)
- ابن بسام: أبو حسن علي الشتريني ت (٥٤٢هـ - ١١٤٧م):
- ٤- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. القسم الأول في مجلدين حققه ونشره: عبد الحميد العبادي وعبد الوهاب عزام. القاهرة ١٩٣٩م.
- ابن بشكوال: خلف بن عبد الملك بن مسعود أبو القاسم ت (٥٧٨هـ - ١١٨٣م):
- ٥- الصلة مجلدان. نشره عزت العطار القاهرة ١٩٥٥م.
- البكري: أبو عبد الله بن عبد العزيز ت (٤٨٧هـ - ١٠٩٤م):
- ٦- المغرب في وصف إفريقيا والمغرب. نشره وسيلان الجزائر ١٩١١م.
- التجاني: أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد القرن الثامن الهجري:
- ٧- رحلة التجاني. تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، تونس سنة ١٩٥٨م.

- ابن جبير: أبو الحسن محمد ت (٦١٤هـ - ١٢١٧م):
- ٨- رحلة ابن جبير. تحقيق: الدكتور حسن نصار القاهرة ١٩٥٥م.
- ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ت (٥٩٧هـ - ١٢٠١م):
- ٩- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٢م.
- الحميري: أبو عبدالله بن عبدالله بن عبد المنعم «توفي في أواخر القرن التاسع»:
- ١٠- صفة جزيرة الأندلس. ١٩٣٧م، وطبعة ١٩٨٠م تحقيق: إحسان عباس.
- ابن حوقل النصيري: أبو القاسم محمد، ت في القرن الرابع الهجري:
- ١١- صورة الأرض. منشورات مكتبة الحياة بيروت ١٣٧٩هـ وطبعة ليدن ١٩٣٨م.
- الحسن الوزان: ليون الإفريقي
- ١٢- وصف إفريقيا. منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود.
- الحسن: الحسن بن عبدالله بن محمد:
- ١٣- آثار الأول في تدبير الدول. مطبوع على هامش تاريخ الخلفاء للسيوط ١٢٩٥هـ.
- ابن حيان: أبو مروان حيان بن خليف القرطبي ت (٤٩٦هـ - ١٠٧٦م):
- ١٤- المقتبس في أخبار بلد الأندلس. تحقيق: عبد الرحمن الحجى. نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت. لبنان.
- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد ت (٨٠٨هـ - ١٤٠٥م):
- ١٥- المقدمة. دار ابن خلدون: الإسكندرية. وطبعة بيروت ١٩٠٠م.
- ١٦- العبر ديوان المبتدأ والخبر القاهرة ١٩٠٩م. طبعة بولاق ١٢٤٨هـ

- ابن خلكان: شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم ت (٦٨١ هـ - ١٢٨٣ م):
- ١٧- وفيات الأعيان وأنباء الزمان. عدة أجزاء. تحقيق: الدكتور إحسان عباس. دار صادر بيروت ١٩٨٦ م.
- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ت (٩١١ هـ - ١٥٠٥ م):
- ١٨- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. طبعة أولى ١٩٦٧ م.
- ابن شداد القاضي بهاء الدين:
- ١٩- كتاب سيرة صلاح الدين الأيوبي المسماه بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، القاهرة ١٣١٧ هـ.
- ابن عبد الحكم: عبد الرحمن بن عبد الحكم:
- ٢٠- فتوح مصر والمغرب والأندلس. ط شارل توري، ومطبعة جامعة ييل.
- ابن عذاري: أبو عبد الله محمد المراكشي ت في نهاية القرن السابع:
- ٢١- البيان المغرب في أخبار المغرب. نشر مكتبة صادر حققه دوزي ١٩٥٨ م.
- القلقشندي: أبو القاسم أحمد بن علي بن أحمد بن الجمال ت (٨٢١ هـ):
- ٢٢- صبح الأعشى في صناعة الإنشا. القاهرة، ١٩١٤ م - ١٩٢٢ م.
- أبو المحاسن: جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي:
- ٢٣- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. طبعة مصورة دار الكتب منشورات وزارة الثقافة.
- المقرئ: تقى الدين أحمد بن علي المقرئ:
- ٢٤- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار. جزآن طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ.
- محمد بن أبي سرور البكري:
- ٢٥- المنح الرحمانية في الدولة العثمانية. تحقيق: ليلى الصباغ.

- الناصري: أبو العباس أحمد بن خالد ت (١٣١٥هـ - ١٨٩٠م):

٢٦- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري الدار البيضاء ١٩٥٤م، القاهرة ١٣٠٦هـ.

ثانياً، المراجع العربية الحديثة:

- أمين: أحمد الدكتور:

٢٧- فجر الإسلام. القاهرة ١٩٤٥م.

٢٨- ضحا الإسلام.

٢٩- ظهر الإسلام. لجنة التأليف والنشر القاهرة ١٩٥٣م.

- أضاف: يوسف أضاف:

٣٠- تاريخ سلاطين آل عثمان من أول نشأتهم إلى الآن.

- بروكلمال: كارل:

٣١- الأتراك العثمانيون وحضارتهم، بيروت، ١٩٤٩م.

٣٢- تاريخ الشعوب الإسلامية، بيروت ١٩٥٤م.

- بروفنسال: المستشرق ليفي:

٣٣- الإسلام في المغرب والأندلس. ترجمة الدكتور/ السيد عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمي. القاهرة ١٩٥٨م.

٣٤- الحضارة العربية في إسبانيا. ترجمة/ طاهر مكي طبعة أولى ١٩٧٩م.

٣٥- مجموعة رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية. رباط الفتح. المطبعة الاقتصادية ١٩٤١م.

- بارتولد «مستشرق روسي»:

٣٦- تاريخ الترك في آسيا الصغرى. ترجمة/ أحمد السعيد سليمان. مطبعة الأنجلو المصرية. القاهرة «١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م».

- الباشا: حسن الدكتور:

٣٧- الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية. ط ١٩٦٦ م.

- التميمي: عبد الجليل. الدكتور:

٣٨- الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين بالأندلس. منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية الموريسكية والتوثيق والمعلومات. زغوان، ١٩٨٩ م.

- الحنة: محمد عبد المنعم السيد أحمد:

٣٩- الغزو العثماني لمصر. مؤسسة شباب الجامعة.

- ختامه: محمد عبدالله:

٤٠- التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكين. عمان الأردن عام ١٩٨٠ م

- حسن إبراهيم حسن (الدكتور):

٤١- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. القاهرة ١٩٥٧ م.

٤٢- النظم الإسلامية. القاهرة ١٩٦٢ م.

٤٣- تاريخ الدولة الفاطمية. الطبعة الثالثة ١٩٦٤ م.

- الخولي: حسن صبرى. الدكتور:

٤٤- وثائق ونصوص تاريخية. سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين. دار المعارف ١٩٧٠ م.

- الخربوطلى: على حسنى الخربوطلى:

٤٥- غروب الخلافة الإسلامية.

- دقاق: باسيل دقاق:

٤٦- تركيا بين جبارين، سلسلة كتب ثقافية، بيروت.

- رفعت: محمد رفعت:

٤٧- تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية. القاهرة دار المعارف، ١٩٥٩.

- رانسيما: ستيفن:

٤٨- تاريخ الحروب الصليبية.

- رينهارت: دوزي:

٤٩- تاريخ مسلمي إسبانيا. دار الكتب المصرية.

٥٠- معجم مفصل في أسماء الألبسة عند العرب. دار الكتب المصرية.

٥١- ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام. ط أولى ١٩٣٣م-١٣٥١هـ.

- رضوان: نبيل عبد الحى:

٥٢- جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده. مكتبة الطالب الجامعى مكة المكرمة طبعة أولى.

- ربابعة: غازى إسماعيل الدكتور:

٥٣- القدس فى الصراع العربى الإسرائيلى. دار الفرقان.

- زغروت: الدكتور فتحى زغروت:

٥٤- الجيوش الإسلامية وحركة التغيير فى دولتى المرابطين والموحدين (المغرب والأندلس). دار التوزيع والنشر بالقاهرة.

٥٥- العلاقات بين الخليفة الناصر الأموى والخلفاء الفاطميين فى الشمال الإفريقى. دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة.

٥٦- أثر الفكر اليهودى فى كتابة التاريخ الإسلامى. دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة.

٥٧- دور اليهود الدوغة فى إسقاط الخلافة العثمانية. دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة.

٥٨- عقيدة تغدق نصراً أو «العقيدة الإسلامية عند المسلمين». مكتبة العلوم والحكمة. مكتبة عباد الرحمن.

- زامباور:

٥٩- معجم الأنساب ج ٢. القاهرة، ١٩٥١ م.

- زين الدين:

٦٠- تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتكاليين نشر داود لويس، لشبونة ١٨٩٨ م. دار المكشوف.

- سالم: السيد عبد العزيز سالم (الدكتور):

٦١- المغرب الكبير. العصر الإسلامى. القاهرة ١٩٦٨ م.

- دكتور السويدان: طارق:

٦٢- الأندلس التاريخ المصور.

- الشناوى: عبدا لعزیز محمد. الدكتور:

٦٣- الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها.

- شلبى: أحمد جاب الله. الدكتور.

٦٤- موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية.

٦٥- الفكر الإسلامى منابعه وآثاره. طبعة سادسة.

٦٦- مقارنة الأديان «اليهودية» مكتبة النهضة المصرية.

- الصلابى: على:

٦٧- الدولة العثمانية عوامل النهضة وسبب السقوط.

- صبرى: مصطفى. الشيخ:

٦٨- النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والنعمة، دار الدعوة، الإسكندرية، طبعة أولى ١٩٨٥ م ص ٨٩.

- الدكتور حسن ظاظا والسيد عاشور:

٦٩- كتابهما شريعة الحرب عند اليهود.

- عباس: إحسان الدكتور:

٧٠- تاريخ الأدب الأندلسي . المكتبة الأندلسية . بيروت . ١٩٦٠ م.

- العسلى: بسام:

٧١- «الأيام الحاسمة فى الحروب الصليبية» . طبعة أولى سنة ١٩٧٨ م دار
النفايس ببيروت .

- العدوى: إبراهيم أحمد العدوى (الدكتور):

٧٢- القوات البحرية العربية فى مياه البحر المتوسط، نشر مكتبة مصر.

٧٣- الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية القاهرة ١٩٥١ م.

- العبادى: أحمد مختار:

٧٤- دراسات فى تاريخ المغرب الأندلس . ط أولى ١٩٨٦ م . مطبعة المصرى .

٧٥- قيام دول الممالك الأولى فى مصر والشام . مؤسسة شباب الجامعة
بالإسكندرية .

- عنان: محمد عبدالله:

٧٦- عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ، القسم الأول والثانى .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . ط ١٣٧٣ هـ - ١٩٦٤ م .

٧٧- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين . الطبعة الثانية طبعة مصر

- عبد القادر: محمد الخير:

٧٨- نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية . مكتبة وهبة . القاهرة ١٩٨٥ م .



- عبد الحميد محمد حرب:

٧٩- مذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة وتحقيق الدكتور، دار الأنصار القاهرة ١٩٧٨ م.

- عبادة: عبد الفتاح:

٨٠- سفن الأسطول الإسلامى ١٩١٣ م.

- عاشور: سعيد عبد الفتاح عاشور:

٨١- المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك. القاهرة، دار النهضة المصرية ١٩٦٢ م.

- الغزالى: محمد. الشيخ:

٨٢- التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام.

- الغاننى: مراجع عقلية. الدكتور بكلية الآداب جامعة بنغازى.

٨٣- سقوط دولة الموحدين. منشورات جامعة بنغازى ط أولى - ١٩٧٥ م.

- فريد: محمد بك:

٨٤- تاريخ الدولة العلية العثمانية.

- قاسم: قاسم عبده. الدكتور.

٨٥- ماهية الحروب الصليبية. سلسلة عالم المعرفة عدد ١٤٩.

- قلعجى: قدرى:

٨٦- (صلاح الدين الأيوبي - قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى) بيروت دار الكتاب العربى ١٩٧٩ م.

- الكتانى: على منتصر. الدكتور:

٨٧- الصحوة الإسلامية فى الأندلس جذورها ومسارتها. كتاب الأمة.

- مؤنس: حسين:

٨٨- فجر الأندلس. دار الرشاد.

- المسيرى: عبد الوهاب:

٨٩- نهاية التاريخ «دراسة في بنية الفكر الصهيوني». المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

- مبارك: على مبارك:

٩٠- الخطط التوفيقية. القاهرة. المطبعة الأميرية ببولاق ١٨٨٨م.

- نوار: صلاح الدين محمد. الدكتور:

٩١- العدوان الصليبي على العالم الإسلامي. دار الدعوة.

- هيكل: أحمد. الدكتور:

٩٢- الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة. الطبعة الثالثة. مطابع سجل العرب.

- هارفي: ليونارد باترك:

٩٣- تاريخ الموريسكيين السياسى والاجتماعى والثقافى.

- ويل ديورانت.

٩٤- قصة الحضارة. منشورات مكتبة الأسرة.

- يحيى: جلال يحيى:

٩٥- المغرب العربى والاستعمار. القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة

١٩٦٦م.

ثالثاً: الدوريات والمجلات

- ١- قراءة فى كتاب: «القدس بين رؤيتين» عن مجلة الإسلام وفلسطين.
- ٢- مقال الدكتور سعيد عاشور فى هذا الصدد شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية. المجلة التاريخية المصرية ١٩٦٩م المجلد ١٦.
- ٣- محاكم التفتيش وإبادة المسلمين فى الأندلس. موقع موسوعة الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة.
- ٤- تركيا بين الأمس والحاضر. حلقات مقدمة من قناة الجزيرة بتاريخ ١٥/٤/١٩٩٩م.
- ٥- الحركة الإسلامية السياسية التركية فى الميزان. دكتور/ محمد خيرى قيرباش أوغلو أستاذ فى كلية الإلهيات جامعة أنقرة. (بحث مقدم فى ندوة (الحركات الإسلامية المشاركة فى المؤسسات السياسية فى البلاد العربية وتركيا) الدولية، المنعقدة فى مراکش / المغرب برعاية جامعة القاضي عياض فى ١٦، ١٧ يونيو ٢٠٠٦م.
- ٦- تركيا مسار تاريخى. إعداد / محمد سليمان القضاة. المصدر. الجزيرة.
- ٧- إسلاميو تركيا.. الخطر يزيدهم قوة. محمد عبد القادر، باحث فى العلوم السياسية، إسلام أون لاين ٢٦/٩/٢٠٠٢م.
- ٨- هل تصبح تركيا الإسلامية أوربية؟ مقال لظه عود بمجلة المسلم ١٨/١١/١٤٢٥هـ.
- ٩- طريق أوربية صعبة لابتلاع تركيا الإسلامية فى اتحادها. جريدة العرب الدولية. الشرق الأوسط ١٦/١٠/٢٠٠٤م.



الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الباب الأول : غروب دولة المسلمين فى الأندلس	
أولاً: تصفية الوجود الإسلامى فى الأندلس بعد سقوط غرناطة	١٩
ثانياً: التنصير القسرى ومحاكم التفتيش	٢٧
محاكم التفتيش وإبادة المسلمين	٣٣
ثورات مسلمى الأندلس ضد التنصير القسرى	٣٨
ثالثاً: مسلمو الأندلس يطلبون العون من المشرق الإسلامى	٤١
الباب الثانى: مجابهة قوات العثمانيين لقوات إسبانيا وأوروبا	
(البداية والتمكين)	
أولاً: سيطرة البحرية العثمانية على حوض البحر المتوسط	٥١
ثانياً: مسلمو الأندلس وشمال إفريقيا يستغيثون بالدولة العثمانية	٥٥
أ- أهل غرناطة يستنجدون بالسلطان محمد أبى الفتوح	٥٥
ب- أهل الأندلس يستنجدون بالسلطان بايزيد الثانى	٥٦
ج- سكان مدينة الجزائر يرسلون رسالة استغاثة للسلطان سليم الثانى	٥٧
صعوبة موقف خير الدين	٦١
ثالثاً: العثمانيون يعيدون تونس إلى رحاب الجبهة الإسلامية	٦٣
السلطان سليمان يعهد إلى خير الدين بفتح تونس	٦٣
سقوط تونس أمام شارل الخامس	٦٤
رساله من ٣٦٤ ألفاً من مسلمى الأندلس الفارين إلى الجزائر إلى السلطان	
سليم المشرع	٦٧

- ٦٨ تحرك الإسبانيين نحو تونس
- ٧٠ العليج على يواصل غاراته على سواحل إسبانيا لإنقاذ مسلمي الأندلس
- ٧٣ تونس تعود إلى رحاب الكتلة الإسلامية العثمانية
- ٧٤ رابعاً: أهالي طرابلس يستغيثون بالدولة العثمانية من فرسان القديس يوحنا
- ٨٢ الدولة تمنع انتشار المذهب الشيعي إلى ولاياتها العربية
- ٨٣ خامساً: الصراع للسيطرة على مضيق جبل طارق
- ٩٢ أ - بداية الوجود العثماني في الجزائر
- ٩٣ ب - عروج وباربروسا يدعمان الوجود العثماني في الجزائر
- ٩٥ ج - التدخل الإسباني في تلمسان ونهاية عروج
- ٩٩ د - خير الدين على طريق الجهاد
- ١٠٦ خير الدين أميراً عاماً للأسطول العثماني
- ١١٤ أعداء خير الدين يتحالفون مع الخونة داخل البلاد
- ١٣٣ نهاية خير الدين وتقسيم أعماله الحربية
- ١٤٢ الحكم العثماني يصون إسلامية وعروبة الجزائر

الباب الثالث: جهاد العثمانيين البحري في حوض البحر المتوسط

(بهدف الإنقاذ واسترداد الأندلس)

- ١٥٠ اهتمام العثمانيين بالمهارة الحربية وبناء الأساطيل
- ١٥٤ أولاً: إعداد البحرية الجزائرية الضاربة في البحر المتوسط
- ١٥٤ إعداد المرافئ والسواحل الجزائرية للجهاد البحري
- ١٦٢ ثانياً: تنظيمات البحرية العثمانية ومصطلحات الأسطول العثماني
- ١٦٧ مصطلحات الأسطول العثماني
- ١٧٠ الإخوة باربروسا وزملاؤهم مجاهدون وليسوا قراصنة بحار
- ١٧٥ ثالثاً: النشاط الحربي للأسطول العثماني
- ١٧٦ أ - الأسطول على عهد السلطان سليمان المشرع

نشاط الأسطول على سواحل دلماشيا في البحر الأدرياتي سنة ١٥٣٨ م... ١٧٧

سيطرة القوى البحرية العثمانية على الحوض الغربى للبحر المتوسط... ١٧٨

معركة برفيزا

أعمال القرصنة البحرية فى الشواطئ المغربية... ١٨١

أهم قادة المعركة... ١٨٢

الاستعداد للمعركة... ١٨٣

أولاً: حشد القوة وتعبئة الأساطيل... ١٨٣

الأسطول الإسلامى... ١٨٣

الأسطول الإشباني... ١٨٥

خطة باربروسا... ١٨٦

خطة أندريا دوريا... ١٨٧

سير القتال الفن التكتيكى

المرحلة الأولى: الاستطلاع والاقتراب... ١٨٨

المرحلة الثانية: ... ١٨٩

المرحلة الثالثة: ... ١٩٠

المرحلة الرابعة: ... ١٩١

الدروس المستفادة

المستوى السياسى... ١٩٢

المستوى العسكرى... ١٩٣

معركة لابانتو وهزيمة العثمانيين... ١٩٧

رابعاً: نبذة مختصرة عن أمراء البحرية العثمانية فى حوض البحر المتوسط... ٢٠٤

الباب الرابع: أحوال موارد الأندلس بين العثمانيين والإسبان

أولاً: العثمانيون ومأزق الإنقاذ... ٢٤٥

هل طلب مسلمو الأندلس النجدة من مسلمى المشرق؟... ٢٤٥

٢٥٠	رسالة أهل غرناطة إلى ملك مصر
٢٦٧	ثانيًا: أثر الموريسكيين في المغرب العربي
٢٧٢	ثالثًا: يهود الدونمة وتأمرهم على الخلافة العثمانية
٢٧٤	مؤسس الدونمة
٢٧٦	تاريخ حركة الدونمة السرى
٢٨٨	رابعًا: الموريسكيون بين الطرد وأمل العودة
٢٩٧	خامسًا: ماذا خسرت إسبانيا برحيل الموريسكيين؟
٣٢٥	الخاتمة (نتائج البحث)

فهرست الخرائط والصور والوثائق

٣٤٩	١- خريطة ثورة الأندلسيين المواركة الأولى والثانية
٣٥٠	٢- خريطة مراكز تجمعات الأندلسيين المواركة في إسبانيا وقشتالة
٣٥١	٣- خريطة مواطن الأندلسيين المواركة بعد النفي
٣٥٢	٤- خريطة الفتوحات العثمانية في عصور القوة
٣٥٣	٥- خريطة اتساع الدولة العثمانية عام ٨٤٨
٣٥٤	٦- خريطة اتساع الدولة العثمانية عام ٨٥٥
٣٥٥	٧- خريطة اتساع الدولة العثمانية عام ٨٨٦

الصور

٣٥٦	١- صورة خير الدين باربروسا
٣٥٧	٢- صورة الملك فرناندو الخامس
٣٥٨	٣- صورة الملكة إيزابيلا الكاثوليكية
٣٥٩	٤- صورة خير الدين باربروسا
٣٦٠	٥- صورة الملك أبو عبد الله محمد
٣٦١	٦- صورة شارل الخامس
٣٦٢	٧- صورة فيليب الثاني

- ٨- صفحتان من كتاب التفسير باللغة الأخمياو ٣٦٣
- ٩- صفحتان من كتاب الأدعية النبوية باللغة الأخمياو ٣٦٤
- ١٠- صفحتان من رسالة إسنى المتاجر فيمن غلب النصارى على وطنه ولم
يهاجر ٣٦٥

الوثائق

- أولاً: وثائق خاصة بالسلطين العثمانين وبعض ملوك العالم ٣٦٦
- رساله من مسلمى غرناطة إلى السلطان سليمان القانونى سنه ١٥٤١م .. ٣٦٦
- نص الرسالة ٣٦٧
- وثيقة ٢ رسالة من السلطان العثمانى أحمد الأول إلى دوج البندقية
حول الموريسكيين سنه ١٦١٤م النص التركى للرسالة ٣٧٠
- وثيقة ٣ رسالة السلطان العثمانى أحمد الأول إلى دوج البندقية حول
الموريسكيين ٣٧٢
- تعريف الرسالة ٣٧٢
- وثيقة ٤ رسالة السلطان سليمان القانونى إلى حاكم فاس محمد السعدى ٣٧٤
- وثيقة ٥ مرسوم السلطان العثمانى بتقليد صالح رايس مقاليد الولاية .. ٣٧٧
- وثيقة ٦ رسالة إلى السلطان بايزيد ٣٨٠

ثانياً: مراسيم السلطان العثمانى إلى ولاية أهالى وعلماء الشمال الإفريقى

- وثيقة ١ مرسوم السلطان العثمانى إلى أهالى فاس وطرابلس الترجمة
العربية للمرسوم ٣٨٣
- وثيقة ٢ خطاب السلطان العثمانى إلى أهالى تونس ٣٨٦
- وثيقة ٣ مرسوم السلطان العثمانى إلى أهالى فاس ومراكش ٣٨٨
- وثيقة ٤ كتاب السلطان العثمانى إلى أهل مراكش ٣٩٠
- وثيقة ٥ مرسوم السلطان العثمانى إلى العلماء فى الجزائر ٣٩٢
- وثيقة ٦ مرسوم السلطان العثمانى إلى أهالى تونس ٣٩٣

- وثيقة ٧ مرسوم السلطان العثماني إلى قائد الجيوش في الجزائر ٣٩٥
- وثيقة ٨ مرسوم السلطان العثماني إلى العلماء في الجزائر ٣٩٧
- وثيقة ٩ مرسوم السلطان العثماني إلى قائم الأعمال في تونس رمضان زيد ٣٩٨
- وثيقة ١٠ مرسوم السلطان العثماني إلى الأمير أحمد الحاكمي أحد الولاة ٤٠٠
- وثيقة ١١ مرسوم السلطان العثماني إلى أبي الطيب ٤٠١
- وثيقة ١٢ مرسوم السلطان العثماني إلى أعيان تونس ٤٠٣
- وثيقة ١٣ مرسوم السلطان العثماني من الباب العالي إلى الحاكم بولاية فاس . الترجمة العربية للرسالة ٤٠٥
- رسالة من الباب العالي إلى الحاكم بولاية فاس ٤٠٦
- وثيقة ١٤ مرسوم السلطان العثماني إلى علي بن عابد في القيروان ٤٠٧
- وثيقة ١٥ مرسوم السلطان العثماني إلى الأمير أحمد حاكم زوارة ٤٠٩
- وثيقة ١٦ مرسوم الباب العالي إلى الشيخ علي ٤١٠
- وثيقة ١٧ مرسوم السلطان العثماني إلى والي فاس ٤١٢
- وثيقة ١٨ كتاب السلطان العثماني إلى والي فاس ٤١٣
- المصادر والمراجع ٤١٥
- أولاً: المصادر العربية ٤١٥
- ثانياً: المراجع العربية الحديثة ٤١٨
- ثالثاً: الدوريات والمجلات ٤٢٥
- الفهرس ٤٢٧

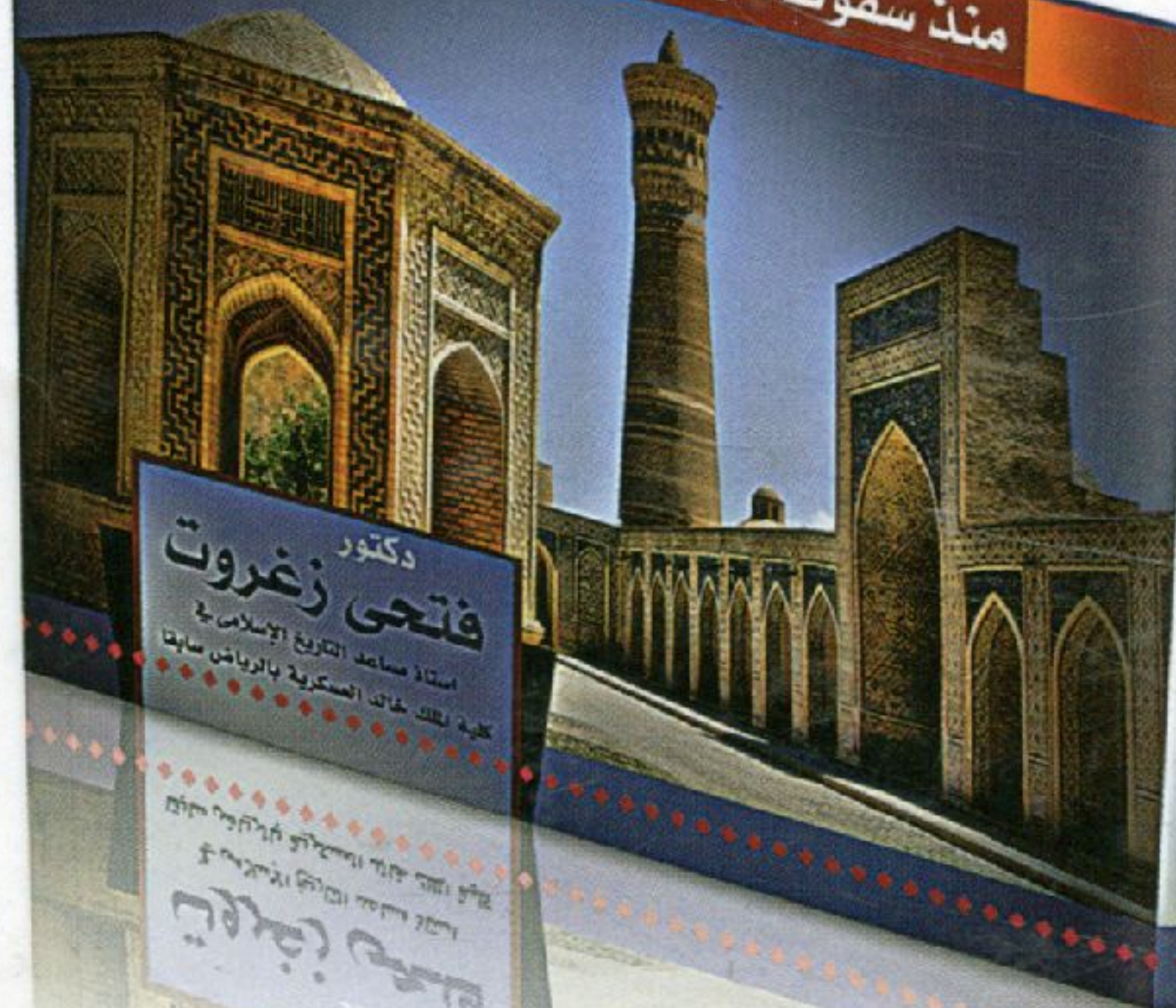


صفحات من
جهاد الأمة المسلمة ضد الصليبيين

العثمانيون

ومحاولات إنقاذ مسلمي الأندلس
١٦٠٩ م - ١٤٩٢ م = ١١١٥ هـ - ٨٩٨ هـ

منذ سقوط غرناطة حتى الخروج النهائي



دكتور
فتحي زغروت
استاذ مساعد التاريخ الإسلامي في
كلية تلك غاند العسكرية بالرباط سابقا

فتحي زغروت
١٩٦٢

فتحي زغروت
دكتور

العثمانيون

مسلم الأندلس
ومحاولات إنقاذ

الأندلس الجديدة
دار

قيد النشر

Karam Ahmed

Bibliotheca Alexandrina



1090079

دار
أمناء
حنين
للنشر
والتوزيع

المملكة العربية السعودية

جده - حي الجامعة ت. فاكس ٩٦٦٢٦٨٧١٩٧٣
جوال ٩٦٦٥٠٠٦٧٤٥٨٩
a_honen@hotmail.com



الأندلس الجديدة

للنشر والتوزيع

18 شارع مطر - أحمد حلمي - شبرا مصر - تليفون: 0114872498
newandalus@hotmail.com